

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01061 4224

DT
10
A2
19



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

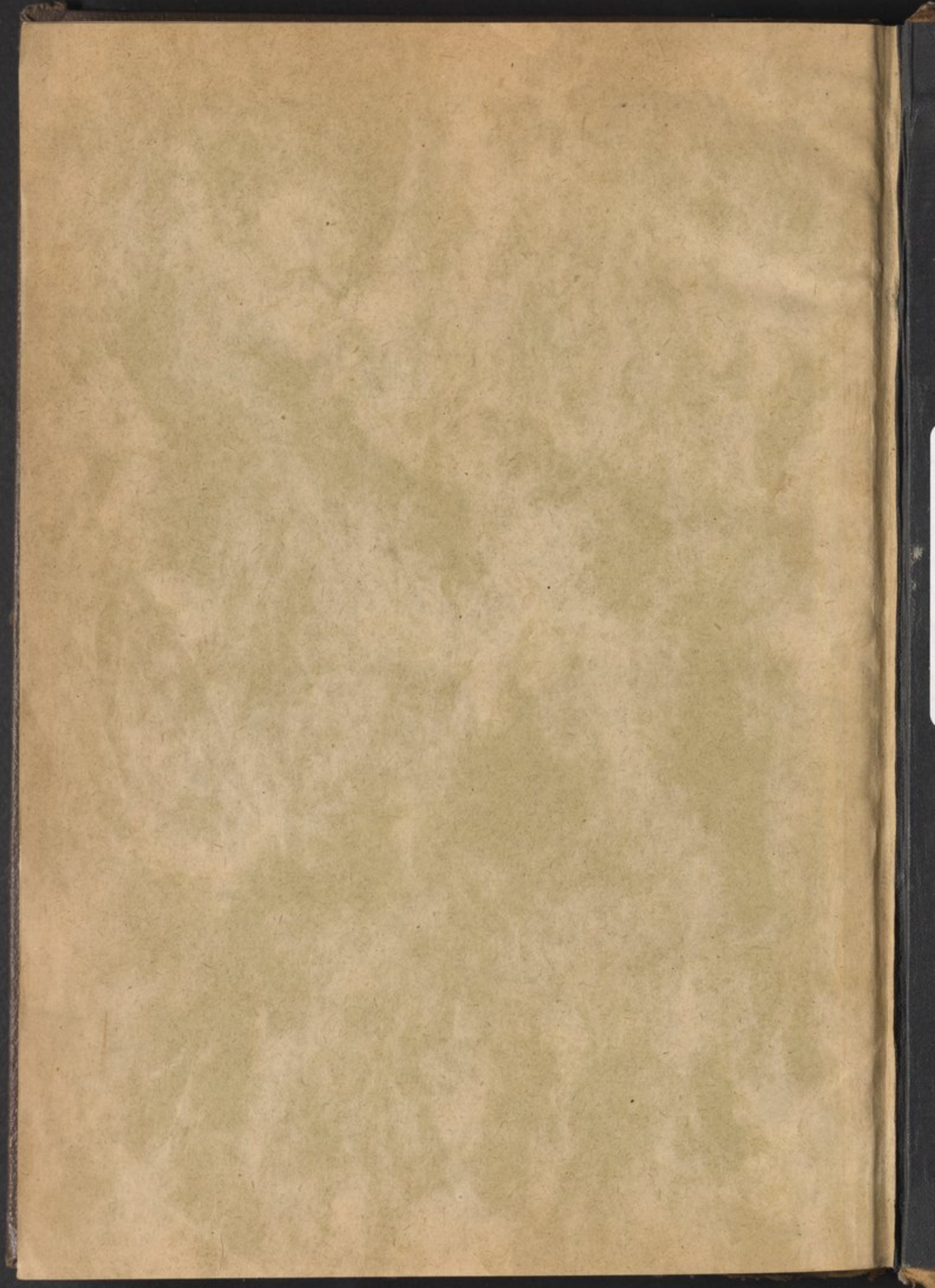
من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

The Amer
at Cairo

Happy is the man that
findeth wisdom and
the man that getteth
understanding .+ .++

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
James Polk McKinney
Pittsburgh, Pennsylvania



02 - B5895

26-11-02

DT
108
A2
1955

دراسات تاريخية سودانية

معالم تاريخ السودان وادي النيل

(من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي)

بمقتضى
الشاطر بصير عبد الجليل

أمين مكتبة معهد الدراسات السودانية
كلية الآداب - جامعة القاهرة
(سابقاً بمخرصة إدارة السودان)

الطبعة الأولى

مقرون الطبع محفوظ للمؤلف

القاهرة

١٩٥٥

طبعة أبو فاضل

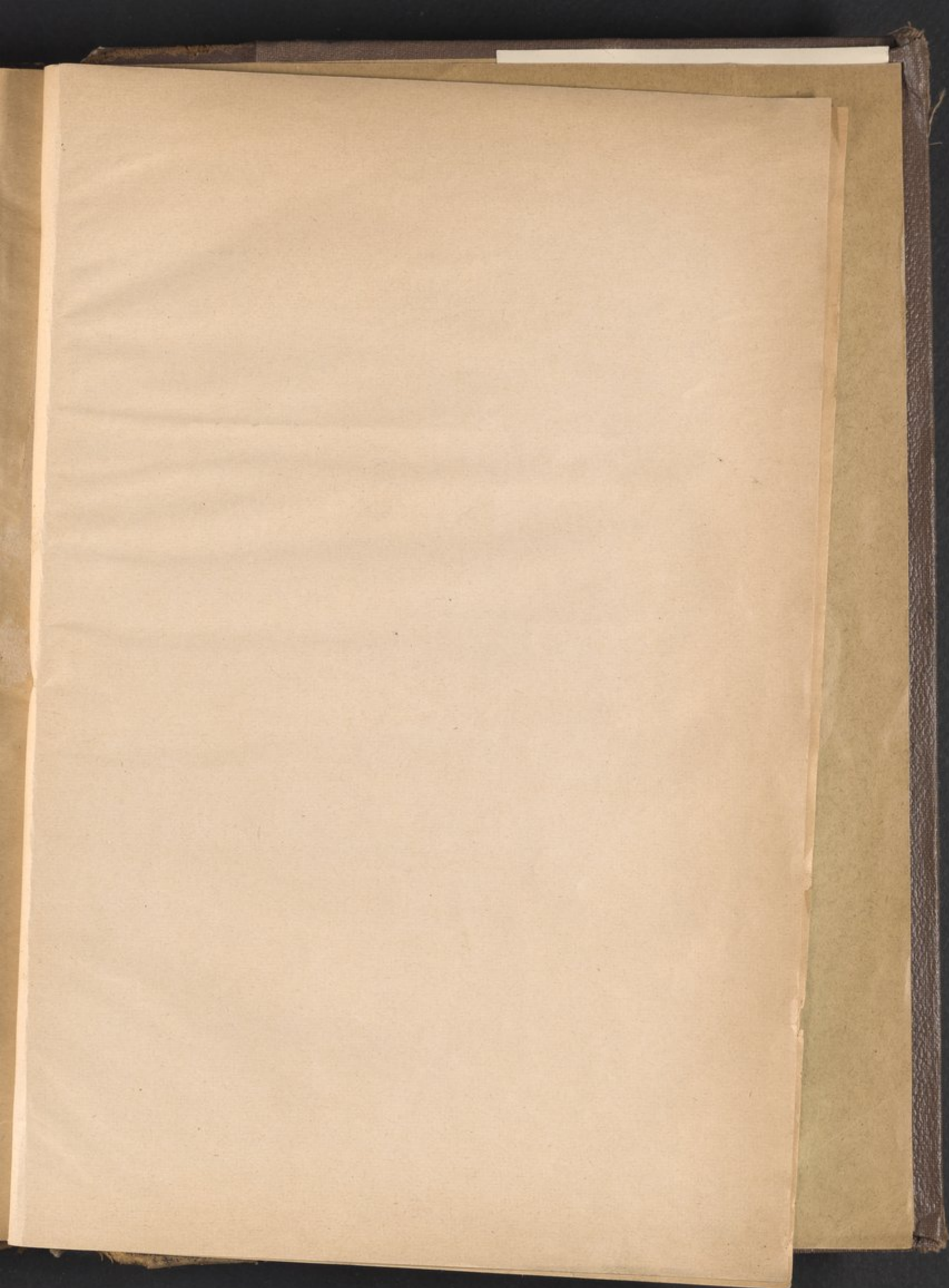
962/4
B963
Mck

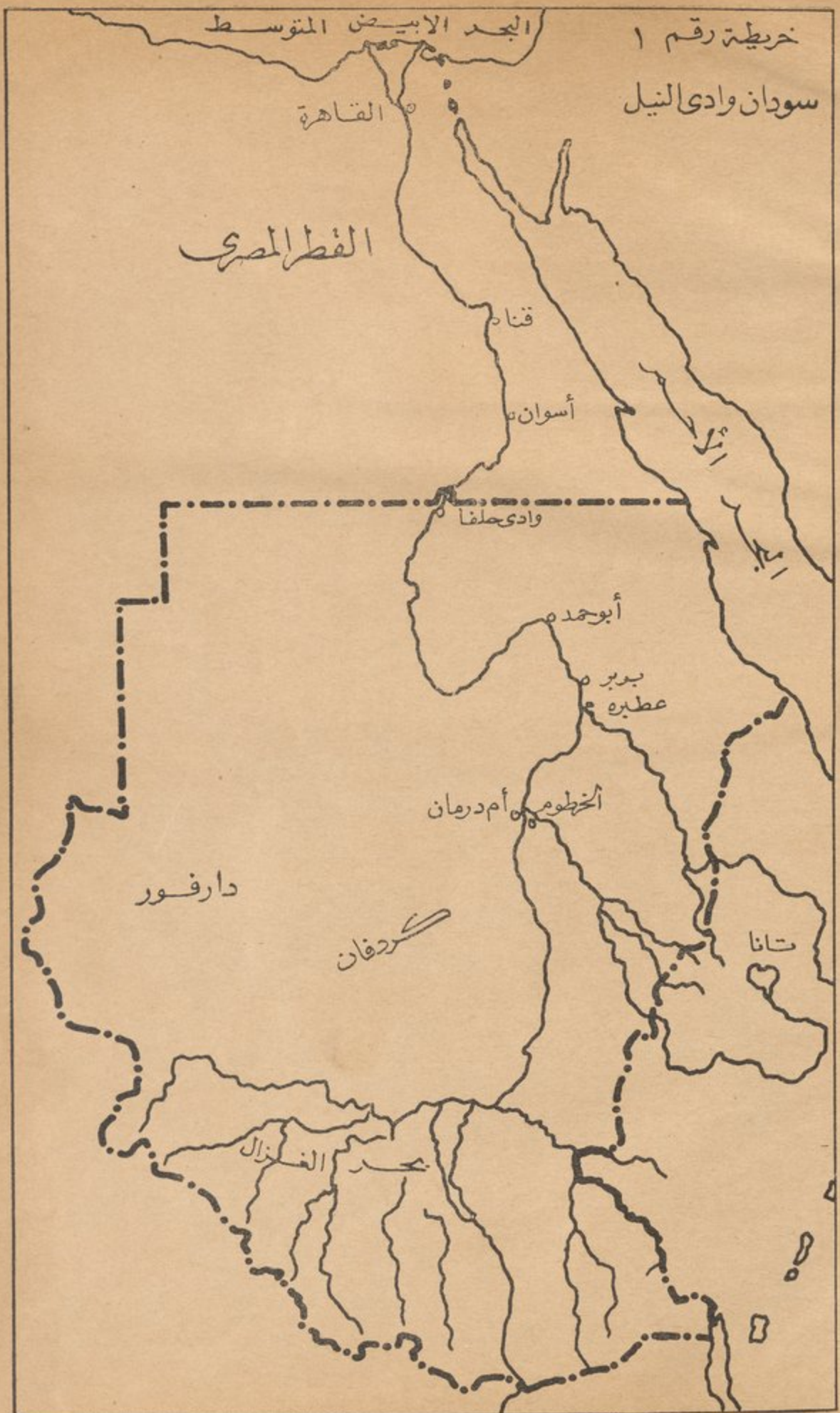


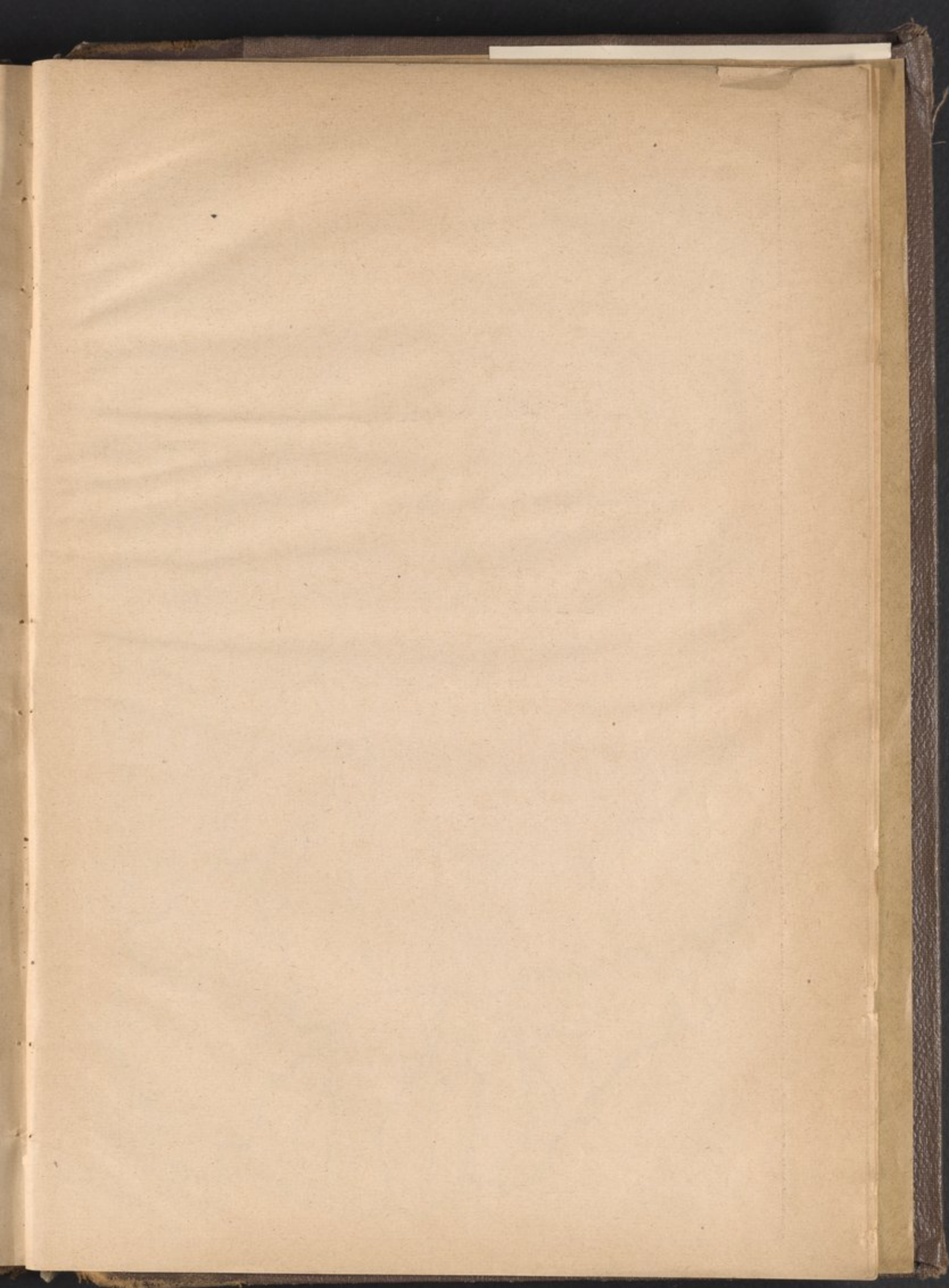
971, 41
C. 4. E

33666

Dec 55 All-Weather #70







بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

للمسير الاستاذ الكبير محمد شفيق غربال

هذه الكلمة ليست على سبيل التقديم . فلصاحب الكتاب - الأستاذ الشاطر بصيلي - من المكانة في عالم البحوث التاريخية السودانية ما يغنيه عن أى تقديم . ولكننى أحببت أن أظهر ما تركته قراءة هذا الكتاب قبل طبعه فى نفسى من أثر . فحرصت على أن أضع فى أوله هذه الكلمة .

وقد اتجه الأستاذ بصيلي قبل قدومه لمصر بسنين الى العمل المخلص الصادق فى تحقيق الكثير من مسائل التاريخ السودانى فى مختلف العصور . ونعم ما فعل . فالبحوث السودانية فى موقفها الراهن أكثر حاجة للتحقيق العلمى ونشر الوثائق التاريخية منها لآى نوع آخر من العمل العلمى . وأكثر عصور التاريخ السودانى حاجة للجهد - هو بالضبط العصر ما بين القرون الخامس عشر والتاسع عشر أو ما يصح أن يسمى عصر الامارات والرياسات العربية الافريقية .

ولقد ظفرت العصور السابقة لتلك الفترة والعصور اللاحقة بها بعناية العلماء من أثريين وجغرافيين واثنوغرافيين فكشفت تلك العناية عن حياة الجماعات ككشفاً كان من شأنه أن يلقى عليها ضوءاً وأن يقدم من متفرق احداثها رواية تاريخية متصلة الحقائق . ولكن الحال تختلف إذا انتقلنا للعصر الذى أشرنا اليه . ومن ثم فقد أسدى الأستاذ الشاطر بصيلي بكتابه هذا للدارسين يدا تذكروا فتشكروا .

وطريقة الأستاذ الشاطر بصيلي تقوم على أن يورد فى المسألة شتى الآراء . ثم يعطى لكل رأى ماله وما عليه ويخلص من هذا الى الرأى الذى يرى . فهو اذن لا يورد شيئاً بلا دليل . وهو اذن لا يفرض على القارئ شيئاً بعينه . بل هو يتيح له الا يقبل شيئاً إلا بعد اقتناع . على أن المؤلف

كان حريصاً في نفس الوقت على أن يكمل التحقيق بالرواية المتصلة فجاء الكتاب كتاباً بالمعنى الحقيقي .

وان كان لي أن أرجو لنفسي ولغيري من الدارسين تكملة يتولاها الأستاذ الشاطر بصيلي فهي أن يعالج على النحو الذي نحا دراسة الإمارات العربية الأفريقية في غير سودان وادي النيل . وهذا لأنني أعتقد أن الدراسة المقارنة لتلك الإمارات تعين كثيراً على فهم تكوينها وأنظمتها وثقافتها . على أن تكمل الدراسة المقارنة ببيان اتصال تلك الإمارات بالعالم حولها وخصوصاً بمنابعها الغربية والأفريقية . وأدعو الله في الختام أن يمكن الأستاذ الشاطر بصيلي من المضي فيما هو فيه من خدمة العلم وأن يلقى من قومه في شطرى الوادى ما هو خليق به من التشجيع والعون .

محمد شفيق غربال

معهد الدراسات السودانية

يوليه سنة ١٩٥٥

تعريف

لقد أتاحت لي السنوات الثلاث والثلاثون التي أمضيتها في سلك الإدارة المدنية في السودان فرصة الانتقال بين ربوعه المختلفة ، والتعرف على مظاهر الحياة في صورتها الواقعية ، وكان من نصيبي أيضاً أن عاصرت مراحل تطور المجتمع في الفترة من نهاية الحرب الكبرى الأولى الى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، وقد وجهت اهتمامي منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها البلاد الى دراسة تاريخه كما جاء في مختلف المراجع المطبوعة وتابعت قراءة ما جاء في الدوريات والنشرات وفي الصحف ، وقارنت بين ما ورد في هذه المطبوعات وبين ما تجمع لدى من روايات ووثائق خطية يحتفظ بها أهل البلد فوجدت ان الحاجة قوية ، وبخاصة بعد اضطراب التقدم في مظاهر الحياة اليومية الى تحقيق ما كتب عن تاريخ البلد ، وتفسير ما جاء في الكتب على ضوء حياة المجتمع ، ولهذا أتجه تفكيري منذ سنوات خلت الى محاولة سد هذه الثغرة ، وقد بدأت هذه المحاولة بكتابة جذاذات بما جاء في المطبوعات المختلفة ، ويوميات ومذكرات بما في المخطوطات المحلية ، وتصوير البعض ، وتفصيلات الأحاديث التي دارت مع الأهليين بصدد تاريخهم ، وقد وجدت من جميع من تحدثت إليهم أصدق المعونة والوفاء وبين هؤلاء الكثير من العلماء والفقهاء وأهل المعرفة ، وقد تجمعت لدى من العناصر ما ساعد على كتابة دراسة عن السلطة السنارية وأصول أسرتها ، التي شكلت موضوع جدل أكاديمي بين الباحثين من الأجانب ، وقد تم اعداد هذه الدراسة فعلاً قبيل الحرب الأخيرة الا ان ظروفها القاسية قد حالت دون نشرها بعد أن وصلت الى المطبعة فعلاً .

وحاولت بعد عودتي من السودان في عام ١٩٥١ م اعداد البحث لنشره في صورته التي تم عليها من قبل ، وعندما بدأت في اتخاذ الخطوات اللازمة لذلك ، وجدت أن تطور الاحداث في السودان تتطلب باديء ذي بدء دراسة تاريخية تحليلية لمختلف مراحل تطور المجتمع في جنوب الوادي ، وما تركته تلك التطورات من انطباعات وانعكاسات ، لتعاون على تفسير مظاهر الحياة وتقريرها الى الأذهان في صورة أقرب الى الواقع ، وأن يتبع ذلك القيام بدراسات تفصيلية في مختلف نواحي النشاط ، لذا استقر الرأي على المطلب الاول لشدة الحاجة اليه في بناء السودان الجديد ، وقد توفرت على كتابته في العامين الماضيين ، خلال فترات الفراغ المحدودة

واننى لا أدعى أن الموضوع قد استكمل بحثه بل حاولت مخلصاً أن أبرز الصورة التى تجمعت لدى عناصرها عن الفترة من تاريخ السودان فى القرن التاسع الى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد تكون هذه الحقبة من الزمن طويلة وليس من اليسير معالجة معالمهما فى كتاب محدود الحجم ، لكننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الفارق النسبى بين حياة الفرد العادى التى لا تتجاوز عملياً الاربعين عاماً وبين حياة الأمم التى قد تتجاوز فى مرحلتها الحضارية ما يقرب من الثمانية قرون نجد ان الفترة التى ضمها الكتاب - عشرة قرون تقريباً - ليست بالكبيرة نسبياً ، وان ضرورة استكمال البحث تقتضى الرجوع الى مصادر مظاهر الحياة فى الماضى البعيد والقريب ! فالحياة بالنسبة للمجتمع فى حيويته - تتفاعل ظواهرها المتتابعة الحلقات ، وليس من السهل الوصول الى نتائج إيجابية دون ربطها بعضها ببعض وتحليلها والتعرف على سلوكها وما تركته من أثر فى تكوين حالة حضارية تمثل السكم من هذه الظواهر ، وقد تستنفذ كل ظاهرة منها عدداً من السنين يتفاوت فى عدده بين العشرة والعشرين عاماً متمشية فى ذلك مع تطور العلاقات مع الدول المعاصرة . فالأحداث الكبرى فى جنوب الوادى (السودان) كمنشأة السلطنة السنارية وانهيارها ، وامتداد الادارة المصرية ، والثورة المهدية لم تكن كل منها الانتاج تفاعل فى ظواهر اجتماعية ترجع فى مصادرهما الى أقدم العصور .

وكما أوضحنا من قبل فاننا قد بذلنا جهد المجتهد المتواضع لاخراج هذه الدراسة على الصورة التى تمكن من مواصلة البحث والتحقيق لسد ما قد يكون فاتنا ونرجو أن يتقبلها القارىء بالروح التى أملتها ، وبالمساهمة فى متابعة الدراسات ولايسعنى إذ أتحمّل مسؤولية ما فى الكتاب إلا أن أتقدم بوافر الشكر والثناء عرفانا بالجهد الذى أسداه السادة الاساتذة واخوانى الكثيرين من تشجيع وعون كان له أثره فى إتمام البحث ونشره ، وبما لا شك فيه ان هذا التشجيع وهذا العون موجه فى الحقيقة وواقع الأمر الى السودان ، كما يصور مدى الاهتمام بدراساته وتقديم المعرفة الخاصة به لى يتسنى تشييد أسسه ومقوماته على قواعد سليمة ، وأخص بالذكر السادة الاستاذ الكبير محمد شفيق غربال الذى تفضل بتقديم البحث ، ودكتور محمد عوض محمد ، دكتور سليم حسن ، دكتور سليمان حزين ، دكتور محمد متولى ، محمد احمد حسونه ، و ا . ج . آر كل ، ودكتور محمد محمود الصياد ، والاستاذ صالح خليل وريتشارد هل ، ودكتور جورجى صبحى ، والاستاذ عبد الفتاح حسن والاستاذ عبد الفتاح ابراهيم والاستاذ احمد عبد السلام كفافى ، ودكتور محمد أحمد أنيس

دكتور عبد المجيد عابدين والسيد ابراهيم رياض المحامى والسادة عبد العزيز اسماعيل
واحمد عيسى وبدر الديب ، لاهتمامهم بالبحث وتشجيعهم على اتمامه ودكتور محمد
فؤاد شكرى لتوجيهاته ونصائحه التى كان لها أطيـب الأثر فى اعداد البحث ودكتور
حسن عثمان للتشجيع والعون وكذا فضيلة الشيخ يوسف بقوى ، والسادة محمد كامل
ودكتور فردريك سايزاك ، محمد المعتصم سيد ، ومحمد عبد الرحيم ، وسيد مدنى
يحيى ، وحاج الشيخ عمر دفع الله ، وأحمد محمد صالح الزاهد ، عبد الغنى سعودى ،
صلاح الدين الشامى وعمر محمد علي ومحمد احمد الجابرى ، والآنسة ماريون لا بورده ،
واحمد محمد سلامه ، وعبد الرحمن الفيصل الشاطر ، ويوسف الآمين أحيمر ،
والمهندس المرحوم طه صالح والمرحوم الاستاذ محمد صلاح الدين الباقر ،
والى جميع من تفضلوا باسداء المعونة .

كما أقدم جزيل الشكر على المعونة الصادقة التى قدمها السيد أنيس أبو فاضل
صاحب مطبعة أبو فاضل ، وللسادة أعضاء أسرة مطبعته .

وأعتذر للقارئ الكريم عما قد يكون فى الكتاب من أخطاء مطبعية لم أنتبه اليها
عند مراجعتى الأصول .

الشاطر بصبلى عبد الجليل

مقدمة

يجتاز السودان اليوم مرحلة دقيقة فاصلة من مراحل حياته ويضطرب حاضره بورااث عميقة غائرة في تاريخه قرونا طويلة ، وهى نتاج دورات متتابعة من الاستقرار حيناً والقلق والمكائد والفتن حيناً آخر . ومن الأصول العريضة التى تبني عليها النهضة السودانية الحديثة ، معرفة تاريخ السودان ، ودراسته دراسة موضوعية تطويرية فى شتى نواحي النشاط الانسانى ، وهذه الدراسة تساعدنا كثيراً على تفسير الحاضر ، فاذا ما اجتمعت بين أيدينا ، معرفة ماضينا وحاضرنا ، سهل علينا أن نضع الخطوط الرئيسية لإرساء قواعد سليمة لمستقبل السودان ، دون أن نتعجل الأحداث أو ننحرف عن القصد أو نياس من العلاج ، الذى قد يقتضى جهود أجيال متتابعة يعمل كل منها على إتمام عمل سابقه . ولا بد إذن من جهود علمية مضنية ، يقوم بأعبائها نفر من أبناء الوادى ، يهبون أنفسهم للحق ، فيقتبعون مظاهر المرض ثم ينفذون إلى أسبابه .

وللسودان مركز خطير فى أرض العروبة والاسلام ، فهو موطن لعدد كبير من القبائل ، التى ترجع بأصولها إلى مهد الدعوة الاسلامية ، وهو معبر للهجرات الدينية والتجارية ، بين أقصى أركان القارة الافريقية ، وبلاد الشرق بعامة وأرض الحجاز بخاصة . وقد اختلطت القبائل التى هبطت أرض السودان واندجت بدرجات متفاوتة ولا تتم دراسة تاريخه إلا إذا رجعنا إلى تطورات الأحداث فى الأقطار المجاورة التى كان لها أثر فعال فى السودان .

وللسودان أيضاً منزلته فى الاقتصاد الافريقى ، بحكم مركزه كمعبر قلب القارة الافريقية ، التى يحاول الاستعمار الأوروبى أن يقيم فيها امبراطوريته الثالثة ، ويود الاستعمار أن يجعل من السودان دويلات تتربص لبعضها الدوائر . ولا شك فى أن مستقبل أفريقيا وثيق الاتصال بمستقبل السودان ، وقدرته على الافادة من امكانيته الضخمة ، وتحريره لاقتصاده القومى ، من التيارات التى انحرفت به إلى أهداف جانبية ، ولا يتم لنا ذلك إلا إذا استطعنا توجيه المشاعر القومية ، فى عمل دائم نحو هدف يعمل الجميع للوصول إلى تحقيقه . فى طريق تحقيق هذا الهدف تذوب الفوارق ،

وتحل محلها روابط تزداد تماسكا وقوة من يوم إلى يوم ، ومن جيل إلى جيل في ظل حياة ، متكاملة الأركان واضحة المعاني سليمة الوسائل .

والكتاب الذى نقدم له ، يعطينا صورة للعالم الرئيسية لتاريخ السودان الشمالى من بدء ظهور الدعوة الاسلامية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وما كان للمجتمع من أثر في الهجرات ونشأة الدويلات العربية الاسلامية ، وتطور نظمها من إقطاعية مطلقة إلى إقطاعيات قبلية ، ثم قيام الحلف السنارى ، في بداية القرن السادس عشر الميلادى ، الذى قام على أساس « الجمهورية التجارية » ثم أخذت تقسرب إلى ذلك النظام تقاليد وعقائد موروثة ، لم يكن من السهل على المجتمع التخلي عنها ، لأكثر من سبب . كما اهتم الكتاب ببيان أثر الدعوة الاسلامية ، في السودان وصراع المجتمع الخفى ، وهو الصراع الذى نشب بين الحضارتين المحلية والتي جاءت بها الدعوة الاسلامية .

وبينما نجد أن الذى كتب عن السودان ، في مختلف نواحي نشاطه ، كثير وكثير جداً لا يحصره العد ، فإن المصادر الأولية لتاريخ السودان الاسلامى بالذات قليلة جداً ، وما وجد منها تتضارب رواياته ، ولهذا اختلط الأمر على بعض الكتاب ، فوقع منهم من وقع في خطأ مقصود أو غير مقصود ، بسبب غموض العبارات الواردة في تلك الروايات ، الأمر الذى جعل أولئك الكتاب ، يحاولون تفسيرها في الصور التى بنيت عليها دارساتهم ، وبرزت في كتابتهم . وبالإضافة الى ذلك حاول هؤلاء الكتاب اعتبار التطورات المحلية كوحدة قائمة بذاتها والحقيقة كما أوضحناها في البحث أن الأحداث المحلية كانت نتاج تفاعل مشتركة عناصره منها ما هو محلي وما هو من الأقطار المجاورة بخاصة مصر وأثيوبيا . ولذلك فقد جعلنا المنهج الذى التزمناه في معالجة موضوع هذا الكتاب ، يقوم أساساً على تصوير المجتمع وتحليله من الناحيتين الموضوعية والتصورية ، لأن هذين العنصرين مرتبطان ارتباطاً يساعد على تفسير صحيح للأحداث الواقعية . واعتمدنا في هذه الدراسة كثيراً على روايات ووثائق محلية ، نشرها لأول مرة وقد أمدتنا بمعلومات تلقى ضوءاً على الكثير من التطورات والتنظيمات الخاصة بجهاز الحكم . كما أن هذه الوثائق قد ساعدت على تحقيق أصل البيت السنارى وهو الأمر الذى اختلفت فيه الآراء ، وبقي مشكلة معقدة كما ذكر كروفورد في كتابه « مملكة الفونج السنارية (١) » . بل اقترح كروفورد في كتابه ،

اجراء بحوث اركبو لوجية فى منطقة الفونج ، للوصول الى حل لهذه المشكلة ، ولكننا استطعنا بفضل ما وصل اليه من روايات من شرق السودان ووثائق خطية ماهرة بنتم أحد السلاطين ، أن تقيم الحجة على أن هذه الاسرة قد انتقلت من جنوب غرب ارتيريا ، وهى المنطقة التى يبدو أنها قد مارست الحكم فيها الفترة من الزمن وقد ساعدنا على التحقق من الفترة السابقة لانقلهم الى حوض النيل الأزرق ، ما كتبه الرحالة داود روينى ، وما كشف عنه روسينى من آثار « مقابر الفونج » العديدة المنتشرة فى منطقة حوض بركة والمناطق المجاورة .

وكشفت الروايات والوثائق ، التى اعتمدنا عليها عن وجود بعض سلاطين ، تولوا الحكم فى سنار ، ولم ترد اسماءهم فى المخطوطات المتداولة .

وكثيراً ما اعتمدنا على التقاليد والعادات المتبعة فى اختيار السلاطين وتنصيبهم ولاية الملك . وما يتبع فى ولاية المشايخ للشيخ والمناجلية ، وبمقارنة ذلك بتقاليد الاقطار المجاورة يتبين فى وضوح التيارات ، التى اثرت فى تقاليد السلطنة ، والتى هى نتاج الطابع الدينى ، المتغلغل فى بناء المجتمع السودانى الذى احتفظ بذلك الطابع ، فى صور تكيفت بالظروف القائمة من وثنية ومسيحية واسلامية ، وما زالت بعض اثارها ملبوسة حتى اليوم .

وينتهى موضوع البحث بالسكتاب الثالث الخاص بامتداد الادارة المصرية الى السودان ، وظروف ذلك الامتداد ، وما أدخله من تعديلات على نظم الحكم ، وما كان لذلك من أثر فى حياة المجتمع المحلى ، ولم يكن من السهل على المجتمع أن يتخلى عن تقاليد وعاداته الموروثة ، الامر الذى جعل الادارة المصرية تصطدم بتلك التقاليد ، وتدخل معها فى صراع خفى ، وكانت هذه أولى تجاربها القاسية ، وقد حاولت مصر ارساء قواعد الحكم ، بما يتمشى مع حالة البلاد الواقعية ، وذلك بالمراسيم التى أصدرها سعيد باشا خلال زيارته للسودان فى ١٨٥٧م ، وكانت هذه المراسيم نتاج ما اكتسبته مصر خلال ما يقرب من الأربعين عاماً الاولى ، من امتداد الادارة المصرية ، غير أن الوقت الذى صدرت فيه تلك المراسيم قد جاء متأخراً ، حيث اشتد الضغط الأوروبى على مصر فى مسألة ابطال الرقيق ، وكان من نتيجة الاستعانة بالأوروبيين الذين اسندت اليهم مناصب ذات مسئولية من الدرجة الاولى فى إدارة البلاد ، وقد عمل هؤلاء على تقويض الجهاز الادارى وافساده بادخال عناصر ضعيفة . واخذت بعد ذلك الاحداث فى مصر تتطور فى

سرعة فائقة ، واشتد التنكيل في السودان على يد الأوروبيين لتنفيذ أبطال الرقيق ،
بوسائل عنيفة وصارمة ، أحدثت فجوة عميقة الغور في المجتمع السوداني ، تعطلت
معهما أسس الاقتصاد القومي ، التي أسهم فيها الرقيق بنصيب وافر .

وقامت في مصر ثورة عرابي التي استغلها دهاقنة تمرسوا بتمزيق الشعوب
وتحطيم قيمها واتلاف نفوسها وعقائدها ، فجاءت الجيوش البريطانية الى مصر ،
لفشل الحركة الوطنية ومساندة الخديو ، وهي في الحقيقة وواقع الأمر تستخدم الطرفين
المتخاصمين لمصلحتها للسيطرة على وادي النيل .

وفي السودان أخذت الدعوة المهدية ، مظهرها السافر وحاول عبد القادر باشا
حلي معالجة الموقف ، بالطريقة التي تناسب مع الوضع المحلي ، ولم تمهله السيطرة
البريطانية من اتمام خطته ، فكان استدعاؤه وتعيين هكس تنفيذاً للنصيحة البريطانية ،
كما كشفت عن ذلك الوثائق ، وسيطر هكس بدوره على الموقف في السودان ووجهه
لخدمة مصلحة بلاده ، لتهيئة الفرص المناسبة للانفراد بالسودان ، وابعاد الادارة
المصرية ، وبدأ الصراع بين الدول الاستعمارية ، وقد تعرضنا في هذا البحث لمختلف
المراحل والوسائل التي تذرعت بها تلك الدول للتدخل في حوض النيل ، والتي برزت
في صورة معاهدات واتفاقات ، وهدفنا من هذا العرض المتتابع ، ربط الحلقات
بعضها ببعض للوصول الى نتائج ، واضحة المعالم تبين لنا الاهداف ، التي رسمتها
الدول الاستعمارية .

وبما لاشك فيه أن صاحب الرسالة المهدية ، كان يهدف ، أولاً وقبل كل شيء ،
الى الدعوة الى اصلاح ماقد كان في نظره مغايراً للطريق النويم ، إلا أن سرعة تطور
الاحداث ، في الداخل وملايساتها في الخارج ، قد انتقلت بالدعوة التي بدأت كظاهرة
اجتماعية تجاوبت مع الشعب ، فتشككت بالمظهر الديني العنيف ، مخالفة في ذلك
ماعهدها ، في مثيلاتها في الفترة التي سبقت امتداد الادارة المصرية الى جنوب الوادي ،
وهذه الظاهرة بعيدة العمق متأثرة بحالة المجتمع ، وتتطلب هذه الظاهرة دراسة
أكثر توسعاً وعمقاً وذلك بمقارنتها مع الحركات الدينية المماثلة التي قامت في شمال
أفريقيا وفي الجزيرة العربية وغيرها ، وذلك في القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد
تميزت الدعوة المهدية السودانية بطابعها المحلي الخاص . وسوف يكون لهذه الدراسة
خطرها في توضيح مواضع الضعف ، التي أفاد منها المستعمرون ، في صورة او اخرى
للوصل الى اهدافهم .

وتفنى دراسة هذا الكتاب ، بعرض تطور الصراع الاستعماري بين الدول الكبرى ، وانتقال ميدانه الى حوض النيل الاعلى وأثيوبيا ، وذلك في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي .

ولا يفوتنا أن نذكر أننا لم نتعرض في صورة تفصيلية ، لهجرات القبائل وترحالها من دار الى أخرى ، بل اكتفينا بدراسة عامة تتناسب مع موضوع الكتاب ، وأملنا كبير في أن يتوفر نفر من أبناء الوادي ، للاهتمام بهذه المسألة اهتماما اقليميا لغويا وتتصل بهم-ودهم ، حتى يتضح الماضي الذي به نستطيع فهم الحاضر وبناء المستقبل . ونرجو-و أن يعنى الباحثون بدراسة المرأة السودانية ، وان تحظى بالعناية اللائقة بالدور الذي لعبته في حياة المجتمع ، فقد اسهمت بنصيب وافر في النشاط اليومي الخاص والعام ، وكانت مصدر قوة محركة خطيرة لها نفوذها وسيطرتها ، الأمر الذي تميزت به عن اخواتها في الكثير من دار الاسلام .

ولاشك في أن أبناء الوادي اقدر على فهم مشاكله على وجهها الصحيح ، والله الموفق الى طريق السداد .

منشئة البكري

١٠ ب . ع

القاهرة في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٤

فصول البحث

١ — تقديم السيد الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال

٢ — تعريف

٣ — مقدمة البحث

الكتاب الأول : السلطنة السنارية في موطنها الأول

تمهيد : الوضع الاقليمي ، تعريف اقليمي ، السكان ، الاسلام ووادي النيل الأوسط ، تطور العلاقات بين البيت السليماني والمسلمين ، تطور الصراع وأثره في السردان ، الوطن الأول للأسرة السنارية ، هجرة السلطنة إلى موطنها الجديد . توزيع السكان في حوض النيل الأوسط السكان المشتغلون بالزراعة والتجارة في السودان ، مناطق الرعي والزراعة البدائية . تطور المجتمع السياسي ، المجتمع ، بنيته ، حياته ، مظاهر نشاطه الاجتماعي نظام الحكم والاقطاع ، التنظيمات الاقتصادية .

ص ١ — ٦٧

الكتاب الثاني : السلطنة في حوض النيل الأزرق

عرض — الحلف السناري ، زعامة سنار ، تنظيمات الحكم — الجمهورية التجارية . ازدهارها ، حروبها ، تدهورها ، انتقال السلطة لوزارة الهامق ، الترتيب الزمني لولاية الحكم ، التنظيمات الادارية والاجتماعية وتقاليد ولاية الحكم ، طقوس وتقاليد انتقال ولاية الحكم ، مراسيم تقليد المشيخة ، مراسيم الاستقبال عند السلاطين ، مراسيم تقليد الخلافة الدينية ، مراسيم الاستقبال عند الزعيم المحلي ، تقاليد الاستقبال عند الفقهاء .

ص ٧٠ — ١٢٣

الكتاب الثالث : من امتداد الادارة المصرية إلى السودان إلى نهاية القرن

التاسع عشر . السلطنة في سنواتها الاخيرة . الملك نمر والغدر باسماعيل بن محمد علي . تنظيمات الادارة الجديدة . التنظيمات الضريبية ، الاعفاءات الضريبية ، التنظيمات الادارية اداة الحكم ومشكلاتها ، مشكلة الرقيق ، أصول النخاسة في العصر الحديث ، تطور مسألة الرقيق ، الرقيق في دار الاسلام الرقيق وسيلة للغضط

السياسي ، الرقيق في الدعاية المغرضة ، دخول مسألة الرقيق في المعاهدات ، معاهدات الرقيق . لكسب حقوق النشاط البريطاني وحملته هكس . التمهيد لسياسة الاخلاء ، تنفيذ سياسة الاخلاء ، فشل سياسة الاخلاء اخفاق حملة انقاذ غوردون . فوضى تنفيذ معاهدة الرقيق . مقاليد الادارة في يد الاوروبيين .

المهدية : الدعوة المهدية وظروفها . الامام المهدي ترجمة حياته مركز السودان في الصراع الدولي في حوض وادي النيل . تمهيد ، تطور الصراع بين الدول ، القواعد التي بدأ منها زحف الاستعمار ، المنطقة الشمالية حوض النيل الأدنى والاطوسط ، المنطقة الشرقية ، اتيوبيا والقرن الافريقي — كينيا ، أوغندا ، شرق افريقيا . المنطقة الغربية غرب افريقيا الفرنسية ، الكونغو الحرة — البلجيكية فيما بعده تجمع الزوبعة في فاشودة ، خروج الفرنسيين — الاتفاق الودي بين الدولتين سنة ١٩٠٤ م . ص ١٢٥ — ٢٤٨

الملاحق :

٢٥١ — ٢٥٣	ص	الملحق الاول — مخطوطة الشيخ أبو دلق
٢٥٤ — ٢٥٥		الملحق الثاني — وثيقة عن حفريات روسيني
٢٥٦ — ٢٦٠		الملحق الثالث — تاريخ مدينة أريجي
٢٦١ — ٢٦٢		الملحق الرابع — خطاب السلطان عدلان بن محمد
٢٦٣ — ٢٦٦		الملحق الخامس — التقسيمات الزراعية والمعاملات
٢٦٧ — ٢٦٨	{	الملحق السادس — خطاب الوزير محمد ابن الوزير الشيخ عدلان إلى الشيخ الفرضي
٢٦٩ — ٢٧١		الملحق السابع — خطاب السلطان محمد بادي عجيب
٢٧٢ — ٢٨٢		الملحق الثامن — وثائق احمد ممتاز باشا
٢٨٣ — ٢٨٥		الملحق التاسع — خطاب هنري ستانلي

فهرست الخرائط :

رقم	صفحة	
١	ح	خريطة لسودان وادى النيل
٢	٢٨٦	المناطق الاقليمية كما يعرفها أهل البلاد
٣	٢٨٧	السلطنات الاسلامية فى أثيوبيا فى القرن الثالث عشر الميلادى
٤	٢٨٨	الدويلات الاسلامية فى أثيوبيا فى القرن السابع عشر الميلادى
٥	٢٨٩	خريطة الديار القبلىة التى تكون منها الحلف السنارى
٦	٢٩٠	خريطة موقعة الزكيات (التـكينة)
٧	٢٩١	الصراع الدولى فى حوض النيل الأعلى فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى .

فهرست الصور :

١٢٣	الطاقية أم قرين
١٢٨	المك نصر الدين ابو حجل
١٢٨	الامير أبو مدين
١٣١	المك نمر

فهرست الوثائق المصورة :

٢٦١	كتاب السلطان عدلان بن محمد
٢٦١	كتاب سلطان الفور محمد الفضل
٢٦٧	كتاب الوزير محمد ابن الوزير الشيخ عدلان
٢٦٩	كتاب السلطان محمد بادی عجيب
٢٨٣	كتاب هنرى استانلى
٣٠٨ — ٢٩٥	مصادر البحث
IV-X	مقدمة بالانجليزية

« تصويب »

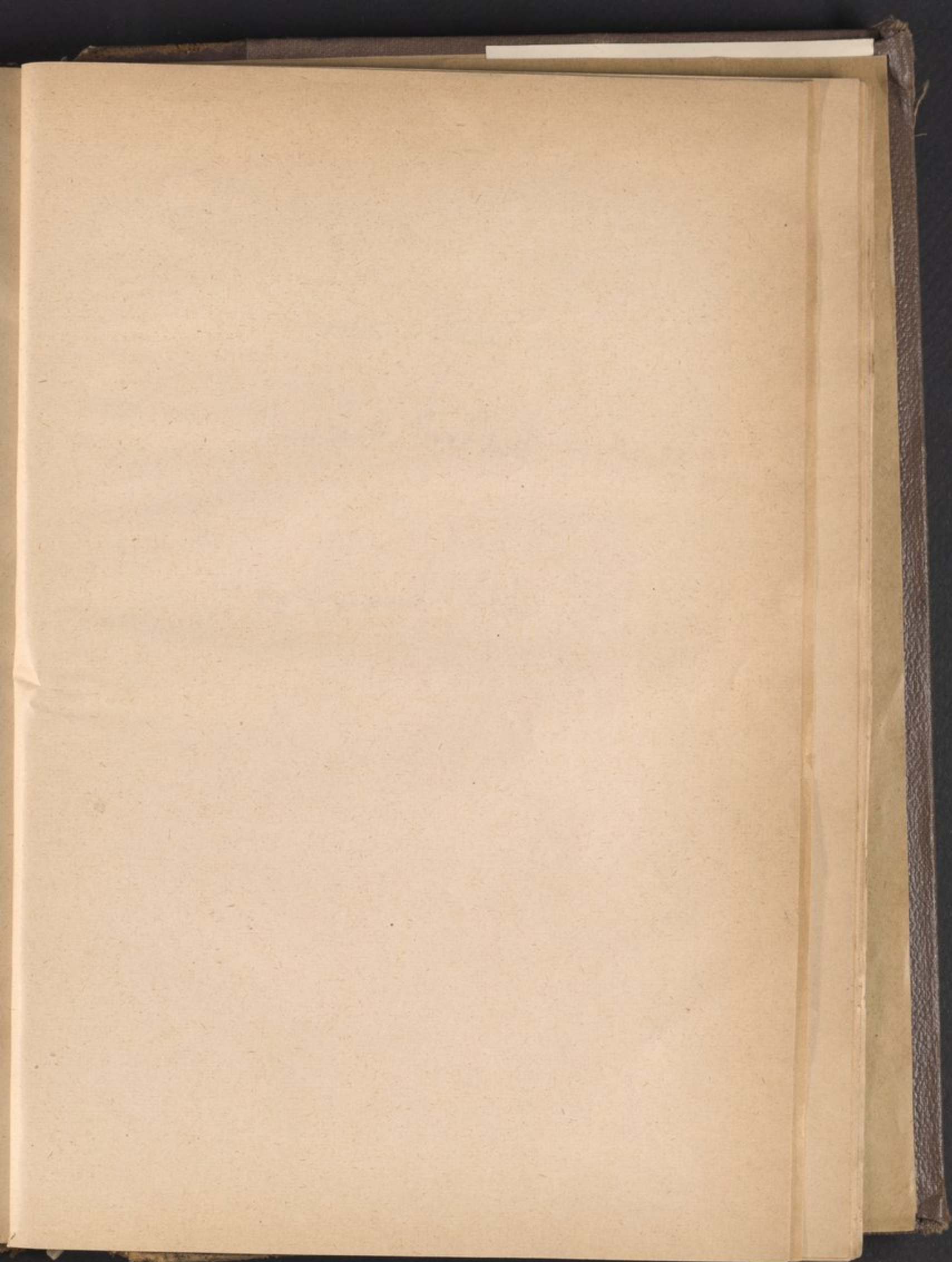
الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٥	٤	تطو	تطور
١٦	٢٥	قوات	قوات
١٨	٢٧	نيقارلس	نيكولس
٢٤	١٠	درافور	دارفور
٢٥	٢	هذف	هذا
	١١	اريجي	اريجي
	١٤	الوادي	الرأى
	٢٦		يضاف الى هامش ٦٢ (انظر الملحق الثالث)
٢٩	١٩		تضاف « ٧٩ » في آخر السطر
٤٠	٢٦	خريطه نمرة ٥	خريطة نمرة ١
٤٦	٨	شمعون	شمعون
	١١	تاريخ العرب	تاريخ العرب
٤٧	٢٥	كرئيس	كرئيس
٥٦	١٠	حنكه	حرکه
٨٥		هامش « ٣٣ » ملحقة نمرة ٨ و ٧	ملحقين ٤ و ٧
٨٧	٢١	الذهبية	المذهبية
١١١	٢	الوعي	الرعي
١١٢	١٩	سجاته	سجاداته
١١٦	٥	الرب	الغرب
	١٧	تقلب	تلقب
١٧٢	١٤	جورج سنيتر	ادوارد شنيتر
٢٢٣	١٤	ارتباط	ارتباط

الكتاب الأول

السلطنة السنارية

في

موطنها الأول



تمهيد

١ - الوضع القليمي :

بلاد السودان (١) ، أو «سودان وادى النيل» على وجه التحقيق والتحديد ، يحتل فى حدوده الادارية ما يقرب من ألف ألف من الاميال المربعة ، وهو فى ذلك يعادل مجموع مساحة ثمان دول أوربية هى : السويد ، النرويج ، الدانمرك ، الجزر البريطانية ، إيطاليا ، اسبانيا ، فرنسا والبرتغال . وتبلغ المسافة بين أبعد نقطتين بين حدوده ما يقرب من الأربعمئة والالف من الاميال طولا ، وما يقرب من المائتين والالف من الاميال عرضاً . وتبدأ حدوده الجنوبية من شمال خط الاستواء ، وتنتهى فى الشمال عند منطقة وادى حلفا . وتقع على حدوده الجنوبية ، أوغندا والكنغو البلجيكي ، وشرقاً أتيوبيا والارتيريا ، والبحر الأحمر . وغرباً أفريقيا الاستوائية الفرنسية وليبيا . وشمالاً القطر المصرى ، الذى يكون الشطر الشمالى لوادى النيل . ويجرى النهر مخترقاً مناطق متباينة . وكان من نتيجة هذا التباين تكوين مجموعات من السكان ، خضعت كل منها وتكيفت حياتها بما تتطلبه البيئة الخاصة بكل منها . ويقسم السودان بين أهله إلى قطاعات ، لكل منها مميزاتها الخاصة وهذه القطاعات هى : —

(١) « دار صباح » (مشرق الشمس) وتشمل البحر الأحمر ومنطقة البطانة وتنتهى جنوباً عند حوض نهر الوهد والدندر .

(٢) « الصعيد » وتشمل المنطقة الواقعة جنوب شرق الخرطوم (حوض النيل الأزرق) والجزء الشرقى من النيل الأبيض شمالى كوستى .

(٣) « الجنوب » ويشمل البلاد الواقعة جنوبى بلدة كوستى على النيل الأبيض ويكون القسم الأول من هذه المنطقة ، وهو « كوستى حتى الملكال » على طول النيل الأبيض - الممر أو المدخل إلى الجنوب الرئيسى ، الذى يشمل حوض بحر الغزال والروافد التى تصب فى مجرى النيل فى تلك المنطقة .

(٤) « دار غرب » (مغرب الشمس) وتشمل ثلاث مناطق ، أولاها

(١) هذا الاسم يشمل أصلاً البلاد من ساحل البحر الأحمر وأتيوبيا شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً . وعرف به القسم المسكون لجنوب وادى النيل فى الفترة الحديثة كما عرف السودان الغربى بالسودان الفرنسى . وكلمة السودان التى يقصد بها بلاد السودان كلمة غير واضحة الحدود .

« كرفان » وثانيتها « دارفور » وثالثتها جبال تقلى والداير وغيرهما من مجموعة جبال النوبا ، وتعرف محلياً بالجبال .

(٥) « السافل » وتشمل جميع المناطق الممتدة على جانبي النيل شمال الخرطوم إلى وادى حلفا .

وتسكن هذه المناطق مجموعات من القبائل والبطون عرفت مواطنها باسم القبيلة الكبرى صاحبة النفوذ والتفوق مثل دار الشايقية ، دار المحس ، دار الميرقاب ، دار جعل (٢) ، البشا (البجة) الشكرية ، وغير ذلك مما سنتعرض له تفصيلاً في موضعه من هذه الدراسة .

وإذا رجعنا إلى خريطة عامة عليها أفريقيا ، شمال خط الاستواء ومعها ذلك الجزء من آسيا غربي صحراء غوبي والخليج الفارسي وحوض الدجلة والفرات كبدا حوض البحر الأبيض المتوسط ، فانه يتبين لنا حوض النيل في شطريه الشمالي والجنوبي (مصر والسودان) ويربض عن يمينه حوض البحر الأحمر . الأمر الذي ازدادت معه أهمية حوض وادى النيل من الناحية الاستراتيجية العامة . فوادى النيل حلقة متصلة بموارد المياه ومواطن الخصب في القارة الأفريقية . ويربط البحر الأحمر بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ، الذي يخرج إلى المحيط الأطلسي ، وبعبارة أخرى فإن حوض النيل يحتل مركزاً يلتقي عنده الشرق والغرب ، في تجارته كما انه مفتاح القارة الأفريقية . وكان طبيعياً أن تربط بين شطري الوادى مصلحة مشتركة لذات حوض النيل ، وهما الحارسان على هذا المدخل الطبيعي ، وإذا رجعنا إلى هجرات المجموعات البشرية ، في داخلية المنطقة بين صحراء غوبي والمحيط الأطلسي شمالى خط الاستواء ومنها من دخل أفريقيا ، أو خرج منها سواء كان ذلك عن طريق القرن الأفريقي (بوغاز باب المندب وما حواليه) ، أو عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق برزخ السويس ، فاننا نجد الكثير من المجموعات ، التي تكونت منها الهجرات ، قد حطت رحالها في حوض وادى النيل ، وفيه بقيت لفترات من الزمن تفاوتت أجلها بالقدر الذى كانت تمليه الظروف المحلية ، ولا نريد ونحن في هذا المقام أن نتعرض

(٢) الجمليون - الذين تقول نسبتهم انهم ينتمون إلى ابراهيم الجعل - فقد تكون هنالك جماعات تنسب إلى هذا العباسي وهذا لا يغير من الحقيقة الواقعة شيئاً ومعنى ان هذه المنطقة تسكنها جماعات تنتمى إلى أكثر من مجموعة ليس بينها رباط مع « ابراهيم الجعل » المقصود من نسبتهم شجرة الأنساب التي تحتفظ بها القبيلة .

إلى تفصيلات تلك الهجرات ، وما إلى ذلك من امتداد الحضارة والمدنية ، وفتح أسواق جديدة . وهذا المسألة الخاصة ، تتطلب بحثاً يقوم به اخصائى وحتى بعد تقدم المواصلات فى إفريقيا ، وفتح شواطئها المختلفة للتجارة الأوروبية ، فإن وادى النيل ما زالت له أهميته وخطورته الاستراتيجية فى أفريقيا ، فهو اليوم ملتقى المواصلات المختلفة والمستودع الذى تدخل عن طريقه المؤن والعتاد ، فى حالة الحرب التى تشمل منطقة البحر الأبيض المتوسط .

٢ - تعريف 'كاشي' :

١ - الأقليم :

عرفت بلاد السودان قديماً بأرض كوش ، وقد ورد هذا الاسم فى قراءات متعددة فى ألواح تل العمارنة ، (التى كتبت فى القرن السابع عشر قبل الميلاد) فقد ورد هذا الاسم فى تلك الألواح كاشو (Kasho) كاشا (Kasha) كاشا (Kashsha) كاسى (Kasi) كاشى (Kashshi) ، (٣) وقد وردت فى لوحة الملك عيزانه « نجاشى اتيويا ، كسو (Kasu) وفى اللغة المروية « فى س » أو « ق ص » ، وهذه أقرب فى نطقها إلى قصى وقد كتبت هذه الكلمة فى صور أخرى منها ، كرسا (Kersa) ، كرسى (Kersi) ، كرتينا الخ الخ (٤) . وقد حاول الكتاب القدامى ربط هذه الكلمة بـ « كوش » من أحفاد نوح عليه السلام . وليست هذه إلا محاولة خاطئة ، لأنها تقوم على توزيع سكان الأرض بالنسبة إلى أبناء وأحفاد سيدنا نوح ، ولا يستند هذا التوزيع إلى أساس علمى . وإذا رجعنا إلى التوراة (٥) ، نجد ان كوش التى وردت فيه ، قد اقترنت مع « صور » فى موضع ، ودلت فى مواضع أخرى على مناطق بعيدة كل البعد عن المنطقة جنوبى الشلال الأول ، فهناك منطقة كيش (٦) فى العراق وعرفت بهذا الاسم فى صورة أو أخرى ، متأثرة باللهجات المحلية جماعات سكنت بابل

(٣) بدج ٣ ، جزء أول ، ص - ٣ هـ . ص ٥٧٠

(٤) يورخارد ص ٥٠١ ، ابن حوقل ، ٥٧

(٥) كوش الابن الأول لوالده حام - التكوين ، الاصحاح العاشر آية ٦ ، أشعيا اصحاح

عشرون ، آية ٤ وما بعدها . مزامير ، الزمور السابع والثمانون آية ٤

(٦) جواد على ، أول ، ص ٢٠٦ وما بعدها - قام فيلد بدراسة هذه المنطقة وكتب عنها -

أيضاً كبرس .

كما عرفت بها جماعات في اليمن قيس ، ومن الصعوبة يمكن تحديد العلاقات والصلات ،
التي تربط بين هذه المجموعات ، التي قامت في أجزاء متباعدة في آسيا وأفريقيا ،
وتحقيق هذه المسألة يتطلب دراسة منظمة .

وقد كان الكتاب من العرب ، أكثر تدقيقاً من الأغريق في تحديد المنطقة
جنوبي الشلال الأول ، وتعريف مناطقها بأسمائها القريبة من الصحة ، ولا يفوتنا
أن نذكر في هذا المقام أن كوش أو « كاسو » ألخ التي عرفت بها البلاد جنوبي الشلال
الأول لم يكن إلا اسم القبيلة الأكثر قوة وعدداً والمعروف أن هذه القبيلة قد
سكنت حوض النيل الأزرق وقبيلة « ديجون » (٧) في حوض نهر العظيرة - وقبيلة
المقرة (الماكورة) قد سكنت منطقة دنقلة ، وقبيلة نوب (النوبة) ، في المنطقة بين
الشلالين الأول والثاني ، وقد شاركت هذه القبائل في مواطنها بعض الجماعات الصغيرة
التي بلغ بعضها مرتبة من القوة والكثرة العددية ، الأمر الذي جعل تفوقه وانتزاع
النسبة للدار التي يقطنونها ، كما أن بعض هذه المجموعات الصغيرة قد اختفى بامتصاصه
في البيئة المحلية الغالبة ، أو بالهجرة تحت ضغط الظروف المحلية .

٢ - السطوح :

وقد استطاعت هذه القبائل ، بعد هجرتها من شمال الوادي دفع السكان القدماء (٨)
تدريجياً نحو الجنوب ، حتى شملت منطقة نفوذهم رقعة من الأرض من الشلال
الأول ، حتى حوض النيل الأزرق ، ومن هنالك أخذت في الانتشار ، في شكل
مروحة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمال شرقاً نحو اتيوبيا والبحر الأحمر . وحملت معها
أسس الحضارة المصرية ، وتأثرت هذه القبائل ببعض الشيء بالبيئة المحلية ، وذلك
بدخول عادات وتقاليد محلية - انطبعت بالطابع الفرعوني .

وقامت في البلاد أكثر من زعامة ، في حدود المناطق الإقليمية التي يتكون منها
الجزء الأوسط من حوض وادي النيل (السودان) ، وسيطرت على هذه الزعامات
أسره اتخذت مدينة « نوب تا » عاصمة لها . وفي عهد هذه الأسرة هاجرت إلى

(٧) مكمل تاريخ للعرب في السودان ص ١٧١ جزء أول .

(٨) أركل نبذة عن تاريخ السودان .

الجنوب جنود إسماتيك^(٩) . البالغ عددهم حوالى الربع مليون ، وقد أقطعوا منطقة النيل الأزرق . وانتقل الحكم من نوب تا ، الى « مرو » فى القرن الرابع قبل الميلاد ، بسبب امتداد النفوذ الرومانى إلى مصر ومنها إلى شاطئ البحر الأحمر جنوبى سواكن للسيطرة على طرق القوافل والتجارة مع الشرق . واستمر الحكم فى « مرو » حتى هجوم عزيزانا ملك أثيوبيا ، على حوض نهر العطبرة وتخریب مملكة « مرو » فى منتصف القرن الرابع الميلادى ، وقامت بعد ذلك مملكة علوة^(١٠) ، وقوامها من المصريين أحفاد جنود إسماتيك .

وانتقلت البلاد من الوثنية المسيحية ، فى صورة ما ، واحتفظت زعامتها بالطابع التجارى ، الذى تميزت به طوال الأحقاب الماضية ، واستمرت هذه الزعامة تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى الحكم السنارى ، ولا يفوتنا أن نذكر أن هذه الزعامة التجارية ، قد قامت فى مختلف أطوارها فى زاوية معينة . وهى نقل التجارة عن طريق الحصول على عمولة الوسيط ، أو الحصول على رسوم حماية التجارة فى طرق القوافل الخ . ولم تكن هذه الزعامات ، فى وقت من الأوقات بقيام صناعات محلية ، أو غلات للتصدير على صورة كبيرة - وبقيت المسيحية يتجاذبها المذمبات الملكانى واليعقوبى حتى ظهور رسالة الاسلام فى وادى النيل ، وعند ذلك أخذت الأحوال فى التطور التدريجى كما سنبينه فيما بعد .

٣ - الاسلام ووادى النيل الأوسط :

جاء الاسلام إلى الجزء الأوسط ، من حوض وادى النيل (السودان) ، عن طريق مدخلين هامين أولهما وفق الترتيب التاريخى ، أثيوبيا ، وثانيهما شمال الوادى (مصر) . وجاءت عن طريق أثيوبيا جماعات قليلة العدد ، بينما عبرت مصر إلى السودان مجموعات متلاحقة فى أعداد وفيرة ، كما سنتعرض له فيما بعد . جاء الاسلام فى السنوات القليلة التى تلت وصول الهجرات الاسلامية إلى أثيوبيا فى عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من هجرات أخرى بسبب حروب الردة ، وغير ذلك من الدوافع . كما أن العرب قد دفعهم هجوم القراصنة فى البحر الأحمر على تجارتهم وعلى الموانئ العربية ، إلى احتلال بعض المناطق الاستراتيجية على الجانب

(٩) الشاطر بصلى « النفوذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق ... الخ

(١٠) المصدر آنف الذكر

الغربي للبحر الأحمر ، لحماية المصالح التجارية ، من عدوان سكان الجانب الأفريقي (١١) ومن هذه المحطات وغيرها ، التي امتدت على طول الشاطئ الأفريقي ، حتى بحر الزنج (١٢) ، أخذت الجماعات الإسلامية في التغلغل داخل البلاد ، في الهضبة الأثيوبية وحوض وادي النيل الأوسط ، كما تمكنوا (٣) من إنشاء ولايات إسلامية في نطاق الوطن الأثيوبي (١٤) .

وفي الوقت الذي أخذت فيه الجماعات الإسلامية ، في الانتشار على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر ، الذي عرفه العرب منذ أقدم العصور كان المسلمون قد دخلوا شمال الوادي (مصر) ، وأخذوا في العمل على امتداد نفوذهم نحو البلاد ، جنوبي الشلال الأول ، ومن الملاحظ أن تلك البلاد ، لم تكن في اعتبار المسلمين أرض جهاد ، بوصفها من بلاد الحبشة ، التي وجدت فيها أولى الهجرات الإسلامية ، خير رعاية من النجاشي (١٥) وبهذا السبب تأثر مسلك المسلمين في تلك المنطقة الشرقية من السودان ، وكان لذلك المسلك طابعه السلمي المتراعى الاتجاهات ، والذي انتهى إلى

(١١) قام القراصنة من أهل الجانب الأفريقي للبحر الأحمر بهجوم على ميناء جدة وخربوها . وكان ذلك في عام ٧٠٢ م وخشى المسلمون أن تمتد القراصنة إلى الداخل فتصل إلى الأماكن المقدسة . لذلك عمدوا إلى احتلال مجموعة جزائر دهلك (تسكون هذه المجموعة من جزائر كثيرة وأهم المسكون منها دهل ، حرات ، كباري ، دزكه ، ديقاربخ ، نوره ، فقره ، ويطلق اسم دهلك على جميع الجزر .

(١٢) أنشأ العرب محطاتهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر في سواكن ، باضع ، أوناسي ، دهلك ، زيلع ، بربره ، مقديشو ، مرخه ، براوه ، ممبا - عزانيا (زنبار) وقد تبادلت عذاب مع سواكن المركز التجاري .

(١٣) عثر بعض الانسكيز في عام ١٩٠٥ م على قبر لعربي في «رودسيا» وعليه مادل على على اسم صاحبه «سلام المتوفي في عام ٩٥ هجرية (٧٠٤ م) كما وجدت آثار عربية في مختلف البقاع الأفريقية (الرواد لفؤاد صروف ص ٨٧) .

(١٤) إنشاء المسلمون سبعة ولايات إسلامية في أثيوبيا وهي أوقات - دواو - اريبي - أو عريبي أصلها أربين - حديه - سرخه - أو سركي - بلي - دارا (أنظر الخريطة نمرة ٣) .

(١٥) أحمد النجاشي كما جاء في الرواية العربية بينما نجد أن الروايات الأثيوبية وغيرها قد التزمت الصمت عن هذه الواقعة . وقبر هذا النجاشي موجود بن قريتي حوزين واطبي . وقد زاره الامام احمد القرن في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي . وقد قام مؤخراً بتجديد بناء الضريح الحاج (ازماج محمد عبده من أهالي عدوه كما ورد في كتاب أثيوبيا - عمر محمد علي ص ١٤٢ - طبع القاهرة ١٩٥٤

قيام الولايات الإسلامية في أثيوبيا . وتمكن المسلمون من السيطرة على مرافق التجارة ، بين داخلية البلاد الأثيوبية وحوض وادى النيل الأوسط وما وراء ذلك من البلدان الأفريقية من جهة ، وبين الشرق الأقصى من جهة أخرى .

ويجمل بنا أن نتعرض بعض الشيء إلى مجريات الحوادث في البلاد الأثيوبية ، خلال الفترة التي سبقت قيام البيت السنارى في حوض النيل الأزرق ، وذلك لنتمكن من تتبع التطورات وأثرها ، في حوض النيل الأوسط . وبما لاشك فيه أن « أثيوبيا » عنصرا له خطره ، في دراسة المنطقة الشمالية الشرقية لأفريقيا بسبب موقعها على القرن الأفريقي ، وساحل البحر الأحمر ، ومنها يخرج النيل الأزرق وروافد النيل الأخرى ومن شاطئها المطل على البحر الأحمر والزنج ، أخذ النشاط العربى الإسلامى فى الزيادة ، حتى تم للمسلمين عزل أثيوبيا عزلا تاما عن العالم الخارجى بخاصة بعد استيلائهم على ميناء زولا (١٦) ثغر أكسوم ، ومخرج أثيوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر فاقطعت علاقات أثيوبيا مع البلدان الأجنبية ، حتى قال جبن « لقد رقدت أثيوبيا فى سبات عميق زهاء الألف عام ، نسوا فيها العالم الذى نساهم (١٧) . وقد سببت هذه العزلة تدهور حالة البلاد الداخلية ، وقامت ولايات متطاحنة فيما بينها ، لتولى الزعامة كما ضعفت العلاقات الدينية مع الكنيسة المصرية . وقد مكنت هذه الحالة المتدهورة من قيام جماعة من الفلاشة (١٨) بثورة فى أواخر القرن العاشر الميلادى ، انتقل معها زمام الحكم إلى أميرة يهودية ، اسمها استر أو اسات ، وقد حاربت هذه المملكة الديانة المسيحية ، وخربت الكنائس . وقد استنجد النجاشى بملك النوبة جرجس ، دون جدوى . ونقل مؤرخ عربى ماجاء فى كتاب النجاشى لملك النوبة ، حيث يقول « هو امراه مملكة على بنى الهموية تارت عليه ، وعلى ثورته ، وسببت منها خلق كثير ، وأحرقت مدن كثيرة ، وأخربت البيع ، وطردته من مكان إلى مكان ، بنى الهوية دين الهوية الهموية ، مملكة على دين اليهودية ، أزال أمر الأمراء ، التى قامت عليهم (هوان) . وكان اسم الملك فى ذلك الزمان ، لالماسه ابن شنو (١٩) ، وهو تفسيرها أسد واسم امرته مسقل كبرى الذى تفسيره عظيم هو الصليب (٢٠) ..

(١٦) تقع « زولا » أو « أدولس » فى منتصف الجانب الغربى من خليج « أرفى » وهو القسم الجنوبى من خليج « أنسلى » الذى تقع عليه مصوع وفيه مجموعة جزائر دهلك .

(١٧) جبون . الفصل السابع عشر .

(١٨) الفلاشة يطلق على اليهود . القاطنين فى أثيوبيا وهم من اليمن .

(١٩) شنو صحتها شنبو معناها أسد .

(٢٠) جويدى فى المجلة الأسيوية الإيطالية ص ١٦٤/١٨١ ، دج ٣ ، جزء أول ص ٢١٤

وحكمت أسرة هذه المملكة حتى عام ١١٢٧ م حيث انتقل الحكم إلى البيت الذي عرف بالزغوى . وقد ارتد الكثيرون عن مسيحيتهم إلى اليهودية والوثنية وذلك لأن المسيحية لم تكن قد رسخت كعقيدة يؤمنون بها . وبينما كان البيت الأول (أسرة المملكة أستر) . على دين الموسوية - يضطهد المسيحيين ويتعقبهم فان البيت الزغوى قد أحسن معاملة المسيحيين . وقد استطاع المسلمون في الفترة التي قضاها هذان البيتان في الحكم ، من التوسع في بسط نفوذهم الاقتصادي ، وامتداد رسالتهم إلى جزيرة « مرو » (٢١) ، ويعتقد أن البيت الزغوى قد دان بالمسيحية ، وهذا أمر مشكوك فيه ، لأن بطارقة الكنيسة الأرثوذكسية لم يتعاونوا مع هذا البيت ، عند اعتلائه الحكم وأظهروا معارضتهم (٢٢) ، الأمر الذي جعل بعض ملوك هذه الأسرة يحاولون بدعاياتهم صرف الأهلالي عن الكنيسة التي يرأسها المطران القبطي ، والاتجاه إلى الكنائس التي بنوها تحت رعايتهم . وذلك لتحطيم مقاومة المطران ، غير أن هذا الاتجاه في الواقع قد ساعد على توسيع شقة الخلاف ، التي أضعفت من نفوذ البيت الزغوى ، لأن السكان وهم من البدائيين المغرقين في البداوة ، يصعب جداً أن لم يكن من المستحيل صرفهم عن معتقدتهم على هذه الصورة . وتبع ذلك أن سلطة الملوك لم يكن معترفاً بها إلا في مناطق محدودة ، واشتد التوتر والتدمير ، لفصل الكنيسة عن الدولة مما مهد لانتقال الحكم إلى البيت السليمانى .

٤ - تطور العلاقات بين البيت السليمانى والمسلمين :

لقد كان من أثر استعادة هذا البيت للحكم ، في أعقاب الأسرة الزغوية ، تبدل في العلاقات ، الأمر الذى أخذ مظاهر وألوان متباينة ، من الاضطهاد والعدوان ، والنجاشى كان في خشية من قيام المسلمين بتدبير ، لإقصاء أسرته عن الحكم وإرجاع البيت الزغوى ، الذى حكم البلاد زهاء أربعة قرون . وقد وجد النجاشى أن المسلمين يسيطرون سيطرة كاملة على التجارة ، بين موانئ البحر الأحمر وداخلية البلاد الأفريقية بعامة ، وحوض النيل وأثيوبيا بخاصة . وكانت الموانئ واقعة في أيدي المسلمين . الأمر الذى جعل موارد أثيوبيا وعلاقاتها مع خارج البلاد ، في قبضة

وما بعدها - روسيني ، جزء أول ص ٢٨٥/٢٨٦ - بدج ٢ ، جزء أول ص ٢٣٣/٢٣٤

(٢١) بدج ٣ ، ماجزه أول ، ص ٢٨٤

(٢٢) يحتمل أن تكون معارضة الكنيسة الأرثوذكسية لخلافات مذهبية كما يحتمل أن يكون هذا البيت قد حاول أن يحيي تقاليد الموروثة في ظل الكنيسة المسيحية .

المسلمين وكانت من نتائج ذلك ، اختفاء المدن الاتيوبية التي كانت مزدهرة بالتجارة في الماضي ، ومنها مدينة « اكسوم » التي فقدت أهميتها بامتداد النشاط العربي على ساحل البحر الأحمر . وأصيدت البلاد بأزمات اقتصادية ، بسبب ما حدث من جذب وقحط تولدت عنه المجاعات . وخلق هذه المشاكل المتاعب للبيت السليماني الذي رأى العمل على الحد من نشاط المسلمين ، ومن سيطرتهم على مرافق التجارة ، وطرق القوافل ، وأول خطوة قام بها النجاشي ، كانت محاولته عقد اتفاقات مع الولايات الإسلامية ، في الوطن الاتيوبي ، يعترف فيها المسلمون بالسيادة المطلقة للنجاشي ، مقابل ضم بعض المناطق إلى هذه الولايات . وقد كان من نتائج هذا العرض أن أضعف من حدة الحركة ، التي أراد القيام بها رجل من رجال الدين يدعى « محمد أبو عبد الله » الذي تراءى له أنه مبعوث العناية الإلهية المسكف بفتح بلاد أتيوبيا . وقد جمع حوله الكثير من الرجال من قبائل الجاله والصومال ، وأعدهم للجهاد . وكانت هذه الجماعات من الجاله والصومال ، من المجموعات البدائية المغرقة في البداوة ، التي جعلت إفادتهم من تعاليم الدين وتنظيماته للمجتمع غير ذات أثر . فقد كان الأمر بالعكس ، فانهم استطاعوا أن يكييفوا التعاليم الدينية ، بما يتماشى مع عاداتهم وتقاليدهم القبلية ، وكان من الهين إثارة أمثال هؤلاء وحشدهم ، في عراق يجردون فيه إشباعاً لروحهم القبلية ، وكسباً مادياً مما سينالهم من الغنائم ، واستطاعت هذه المجموعات أن تخلق من الزعامة الدينية قوى منافسة للسلطين الذين كان هدفهم من الحكم ، هو المصلحة التجارية فقط ، ولم تكن هنالك روابط تجمع بين سلطين الولايات الإسلامية التي قامت في الوطن الاتيوبي . وتسبب عن ذلك تغلب النجاشي على الولايات الواحدة تلو الأخرى وإخضاعها لسلطانه .

استمرت الحروب الداخلية ، بين المسلمين والاتيوبين ، حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وقد بدأها أول ملك من البيت السليماني « يكون أملاك » (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) وخلفه يقبه صهيون (١٢٨٥ - ١٢٩٤) ، الذي شن حرباً عدوانية سافرة ضد المسلمين . وقد حاول النجاشي إخفاء أهدافه السياسية وذلك باستغلال الأزمات ، التي كانت تحدث بينه ومصر بسبب المطران المصري في كرسى أتيوبيا (٢٣) ، أو بسبب ما كان يبلغه من اضطهاد سلطان مصر الأقباط . وقد يتبادر

(٢٣) حاول النجاشي « يكون أملاك » أول ملك في البيت السليماني بعد الأسرة = X

إلى الذهن أن أسباباً دينية ، هي التي دفعت إلى هذا العدوان من جانب النجاشي على الولايات الإسلامية ، وهذا غير صحيح على الأقل في مراحل الصراع الأولى ، التي استمرت أكثر من قرنين ، والتي دفع إليها التنافس الاقتصادي ، الذي كان في قبضة العرب ، الأمر الذي جعل أتيوبيا تعاني الضيق .

انتهر النجاشي عامه صهيون (١٣١٤ - ١٣٤٤ م) (٢٤) اضطهاد السلطان الناصر محمد قلاوون للقبط ، بأن أرسل بعثة إلى مصر لوقف الاضطهاد ، مهدداً باتخاذ إجراءات مماثلة مع مسلمي أتيوبيا ، وتحويل مجرى مياه النيل ، لاهلاك سكان وادي النيل ، ودفعت هذه التطورات حق الدين سلطان أوفات إلى الاستعداد للاغارة على النجاشي ، وقد انتهت هذه الحركة بانتصار الأتيوبين وجعل ولايتي أوفات وفاتجار سلطنة واحدة ، تدين بالسيادة الأتيوبية وتولى أمرها السلطان خير الدين أخ « حق الدين » الذي وقع في الأسر - وطلب سلطان أوفات من سلطان مصر الناصر محمد ليتدخل لإصلاح ذات البين ولتسوية مشاكلهم مع النجاشي .

وبينما كانت الحرب تستعر تارة وتخمد تارة أخرى بين المسلمين والمسيحيين في أتيوبيا ، كان خان المغول أرغون بن أيغا ، الذي كان ينزع إلى النصرانية ، قد أرسل الوفود إلى البابا ، مستنصفاً اهتمامه للاشتراك في حملة صليبية ، لإخراج المسلمين واحتلال القطر المصري ، وكان ذلك بعد فشل الحملة الصليبية السادسة على مصر وإخراج الصليبيين من الشام . غير أن البابا لم يستجب لرغبة الخان ، لانهماكه في مشاكله الأوروبية ، وعند ذلك وجه أرغون رساله إلى الملك فيليب الجميل ملك فرنسا ، للقيام بالدعوة لتنفيذ هذه الخطة ، والتي كان ضمن مشروعاتها مهاجمة مصر عن طريق بحر القلزم ، وذلك بارسال أسطوله من الخليج الفارسي ، وأن تدبر حملة ثانية لغزو مصر أيضاً عن طريق البر ، وكان لزاماً أن تتحد أتيوبيا مع الفرنجة ، لتكون أرضها قاعدة لتلك التجهيزات ، وقد حدث فعلاً أن أرسل النجاشي « ودام أرعد »

— الزغوية (عام ١٢٧٥ م) اقناع السلطان ركن الدين بيبرس عن طريق وساطة سلطان اليمن لتعيين مطران للكنيسة الأتيوبية في الكرسى الذي بقي شاغراً منذ سنة ١٢٥٠ م (مفضل ص ٢١٩/٢١٣) وقد عمل هذا النجاشي على الأخذ بسياسة التذرع بخلق المبررات للعدوان على المسلمين ومن ذلك قيامه بتعزيز حدوده مع أوفات (أنظر مقال روسيني عن البيت الزغوى من مجلة R.R.A.L. عدده مجلد ٤ ص ٤١٤) وكان أن رفض السلطان بيبرس أن يستمع لطلب هذا النجاشي بشأن المطران .

(٢٤) أرسل مسلمو « أوفات » بعثته إلى سلطان مصر الناصر محمد وذلك في الفترة بين سنة ١٢٣٢ وسنة ١٢٣٨ وكان على رأس هذه البعثة عبد الله الزيلعي (أنظر العمري ص ٢-٢)

(١٢٩٩ - ١٣١٤ م) رسله إلى البابا كlement الخامس . وحاول المبشر جوردارت كائتالا مبشر بمباي ، أحياء الفكرة في عام ١٣٢٤م ، إلا أن الشقاق بين ملوك أوروبا والباباوات جعل التفكير في هذا الموضوع أمراً مستحيلاً . غير أن الفكرة لم تمت ، وبقيت معقدة تتأثر بمجريات الظروف^(٢٥) ، في الوطن الاتيوني كنتيجة للصراع بين المسلمين والنجاشي ، وقد وصل ذلك العراق نقطة التحول عندما انهزمت جيوش النجاشي ، التي أرسلها لغزو عدال في ١٤٧٣ / ١٤٧٤ م . وحاول السلطان محمد ابن أظهر الدين ، الذي حكم ولاية عدال في الفترة ١٤٨٨ / ١٥١٨ م ، أن ينجح إلى السلم مع الولايات المسيحية غير أن جهوده قد ذهبت أدراج الرياح بسبب الغزوات التي قام بها أمير هرر^(٢٦) . وكانت العادة أن لكل أمير السلطة التي تخوله شن الحرب والصلح وأن الجنود في الإمارات التي تضمها الولاية تابعون للأمير وليس للسلطان من الأمر شيئاً غير الحصول على حصته من الضرائب^(٢٧) ، وهذا هو نفس النظام اتبعته السلطنة السنارية .

وحاولت المملكة هيلانة ، التي تولت وصاية ابنها الملك « لينا دنقل » (١٥٠٨ - ١٥٤٠) ، أن توطد العلاقات مع « عدال » لفتح طرق التجارة ، وأرسلت لذلك البعث إلى البلدان التي يهمها الأمر ، ومنها مصر غير أن هذه المساعي من جانب المملكة هيلانة^(٢٨) قد فشلت ، ولهذا اتجهت نحو الدول المسيحية بارسال مبعوثها متى الأرميني إلى ملك البرتغال^(٢٩) ، للتعاون على طرد المسلمين والأتراك الذين بدأ خطرهم في الزيادة وبخاصة بعد فتح القسطنطينية ، والتوسع بضم غربي آسيا ومصر

(٢٥) ذكر ابن تغري لبردي في كتابه النجوم الزاهرة « عن الحملة المصرية » على جزيرة قبرص (في ١٤٢٥/١٤٢٦ م) وفي سياق حديثه أشار إلى « الحاج نور الدين علي » الذي كان رسول النجاشي إلى الفرنجة .

(٢٦) الفارز في كتابه ص ٣٠٥ - ٣١٠

(٢٧) فنوح الحبشة ص ١٢

(٢٨) أمباطورة أتوييا وإحدى الزوجات الأربع للنجاشي - مريم وهي ابنة الجراد أبون - سلطان مقاطعة دوارو الإسلامية وقد تنصرت وتزوجها النجاشي المذكور ، وقد فرض هذه العادة النجاشي زراً يعقوب (الذي حكم من ١٤٣٤ إلى ١٤٦٨ م) عندما تغلب على ولاية حدية الإسلامية

(٢٩) المقرئزي « الامام بأخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام » (مطبعة التأليف القاهرة ١٨٩٥ م) حيث يقول في ص ٥ . . . ثم كتب إلى ملوك الأفرنج بحثهم على ملافاته لازالة المسلمين . . .

والسيطرة على شرق البحر الابيض المتوسط وشمال البحر الاحمر ، وطلبت أتيوبيا
تقسيم مناطق النفوذ في البحر الاحمر للعمل المشترك ضد المسلمين والأتراك كإتيوبيين.

ملك فرنسا = يحتفظ بقوة عسكرية في سواكن .

ملك أسبانيا = يحتل زيلع .

ملك البرتغال = يتخذ مع مصوع قاعدة لقواته .

وأن تعمل هذه الجيوش ومعها قوات أتيوبيا . على غزو جزيرة العرب مهد
الاسلام ، وطرده الأتراك والمسلمين من مصر وغيرها .

وأخذت العلاقات بين المسلمين والنجاشي في الفترة التالية في التطور السريع نحو
مرحلة فاصلة ، وبخاصة بعد دخول عناصر أجنبية لنصرة أتيوبيا في صراعها مع
المسلمين ، الأمر الذي صبغ الحرب ، بالصبغة الدينية ، وما كان لها أن تتخذ هذه
الصبغة ، لولا تدخل الدول المسيحية الأوروبية ، وعجز سلاطين الولايات الإسلامية
عن تسوية مشاكلهم مع النجاشي ، ويرجع ذلك العجز إلى فقدانهم السيطرة الكاملة
على ولايتهم لضعف جهاز الحكم ، الذي استأثر بجانب كبير منه رجال الدين ، وصارت
مقاليده الأمور الفعلية تفتقر من هذا الجانب إلى ذاك وهكذا دواليك ، حتى يطغى
الاقوى ويجزف الجانب الثاني ، وكان طبعياً أن يكون الاقوى هو جانب رجل
الدين لما له من سلطان روحي ، في بيئة حديثة عهد بالاسلام ، ومغركة في البداوة كما
سبق أن أوضحنا ، وهذه هي الحالة وما وصلت اليه في المناطق الإسلامية ، وهذا
أيضاً هو ما دفع المملوكه هيلانة المسلمة أصلاً - أن تفقد الأمل في قيام حسن جوار
ومودة بين المسلمين والمسيحيين في أتيوبيا ولذلك لجأت إلى طلب المعاونة مع الفرنج .

وأخذت الأمور في التطور السريع ، في القرن السادس عشر ، وكان لتدخل البرتغال
نصيبه ، في تبدل الموقف ورجحان كفة المسيحية في أتيوبيا ، واستشهاد الامام احمد
القرين (٣٠) ، وانتقل الصراع من الوطن الاثيوبي ، إلى حوض البحر الاحمر بامتداد
السيطرة العثمانية ، وبخاصة بعد نزول قطع بحرية عثمانية في مياه ذلك البحر في عام
١٥٣٨ م . كما أثارت مطاعم البرتغال في الوطن الاثيوبي ، مشاعر أهله (٣١) فطردوهم

(٣٠) الامام احمد بن ابراهيم الغازي وكنيته « الفرين » أي الأشول بدأ حياته في عراك مع
السلطان أبو بكر واستولى على الملك وقاد حملة الجهاد في أتيوبيا حتى استشهد في عام ١٥٤٣ م
أنظر تفصيلات حروبه . في كتاب عرب فقيه « فتوح الحبشة » نشرة رينيه باسيه في جزئين .

(٣١) لودلفس - ص ٣٦٦/٣٥٠

من البلاد ، بعد أن تعقبوهم بالتعذيب والتقتيل، وطلب النجاشي من باشوات سواكن ومصوع المساعدة ، في منع هؤلاء الفرنجة من دخول الأراضي الأتيوبية .

٥ - تطور الصراع وأثره في السودان

أوضحنا مراحل العلاقات ، بين المسلمين والمسيحيين ، في الوطن الأتيوبي ، وتطور تلك العلاقات ، في الفترة التي سبقت المرحلة الفاصلة ، التي انتهت بهزيمة المسلمين بعد مقتل الامام احمد القرين ، في السنوات العشر الأخيرة في النصف الأول من القرن السادس عشر . ونجده لزاما عاينا أن نذكر في شيء من الأسهاب بعض التفاصيل التي يمكن القارئ ، من تكوين فكرة عن التيارات ، التي مهدت لما حدث في السودان ، من تطور في نظام الحكم .

فقد كان للصراع الذي وقع بين الفريقين المتحاربين في أتيوبيا، أثره في المجموعات العربية ، التي نزلت في حوض وادي النيل الأوسط (السودان) . فقد اتخذت كل مجموعة منهما رقعة من الأرض ، للتوطن بها وذلك بعد أن قام هؤلاء بكشف البلاد (٣٢) ، للتعرف على مدى صلاحيتها لقبول النازحين ، الذين حافظ بعضهم على حياتهم البدوية ، ونزل البعض الآخر على ضفاف النيل ، وهناك اختلط بالسكان المحليين ، وكونت كل قبيلة دارها الخاصة بها ، وخضعت للبيئة الإقليمية ، التي دفعت مظاهرها الطبيعية، إلى قيام وحدات إقليمية وحدت بينهما مصالح اقتصادية مشتركة، ولوانه لم يكن لتلك المصالح المشتركة من أثر في توجيه حياة المجتمع ، فانها لم تحد من الصراع الخفي بين النازحين والسكان الأصليين ، وهكذا بقيت الحياة غير مستقرة ، حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن الذي تلاه . ففي تلك الفترة أخذ الصراع في أتيوبيا ، بنصيبه في إدخال نظم جديدة على حياة المجتمع في مختلف المشيخات في السودان . وقد كان لمجريات الأحوال في شمال أتيوبيا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، أثرها المباشر في قيام سلطان في سنار ، والجمع بين المشيخات في وحدة ، تزعمها البيت السناري ، في سيادة رمزية حددتها المصلحة التجارية - ولم يربط بين تلك المشيخات وبين السكان ولاء ، على الطراز الذي كان في الاقطاع الغربي .

(٣٢) محاولة الشيخ أبو دلق - الملحق الأول .

أما الامام احمد بن ابراهيم الغازي ، (المسكنى بالقرين أي الأشول) ، فقد بدأ حياته الاولى ، في المنطقة الواقعة بين قلديسي وهرر ، وتزوج من ابنة الامام محفوظ أمير زيلع ، وكانت العداوة قائمة بين القرين والسلطان أبو بكر ، بسبب قبل الاخير للجراد أبون في زيلع . لذلك نجد ان القرين ، قد أمضى سنواته الاولى في محاربة السلطان أبو بكر ، حتى تغلب عليه وقتله ، وأقام عمر دين سلطانا بدلا من أخيه أبو بكر ، الذي قتل ، وبعد هذا النصر ، وجد ان في قدرته أن يمتنع عن دفع الجزية للنجاشي ، الذي أرسل حملة بقيادة حاكم بالي في ١٥٢٧ م ، لاختضاع القرين الذي انتصر على هذه الحملة ، بعدها أن كبدها هزيمة منكرة . وأسرع القرين إلى إعلان « الجهاد » ، وبخاصة وان الأحوال في حوض البحر الأحمر ، قد أخذت في التطور بسبب المنافسة بين الأتراك والبرتغاليين ، على السيادة على طرق التجارة البحرية بين البحر الأحمر والخليج الفارسي - والتف الاتباع من الصومال وغيرهم ، حول القرين الذي اكتسح الجيوش الاتيوية ، الواحدة تلو الآخر وصار النجاشي « لبنا دنقل » ، طريداً ، يتنقل من جبل إلى جبل . وأخذت الرقعة التي يحكمها المسلمون ، في الازدياد شمالا حتى عام ١٥٤١ م ، عندما وصلت المساعدة البرتغالية التي طلبتها الملكة هيلانة وكان وصول هذه الامدادات مفاجأة للمسلمين ، لم يستعدوا لها ، كما أن أخبار هذه الحملة ، قد أوقدت حماس الاتيويين ، الذين اشتدت عزيمتهم . وكانت الموقعة الاولى بين الامام وأعدائه ، في المنطقة الواقعة بين أميا آلاجي وبحيرة الشانجي ، وذلك في عام ١٥٤٢ م ، وقد جرح في هذه الموقعة القرين ونجا من الأسر . وأرسل القرين إلى الباشا التركي ، في زبيد طالبا منه نجدة من الجنود والأسلحة ، وقد أرسل اليه الباشا تسعمائة من حملة البنادق وعشر مدافع ، وقد مكنت هذه النجدة من أحرار انتصار على البرتغاليين ، ومقتل زعيمهم خريستوفو دي جاما ، وتشريد رجاله ، الأمر الذي حمل القرين على الاعتقاد ، بأن الحال قد استتب له ، فأعاد النجدة التركية بعد أن وصلت قواته حتى شمال بحيرة تانا ، حيث أقام معسكر قيادته . واشتبك بعد ذلك مع النجاشي قلاوديوس وحلفائه من البرتغال ، وانتصر عليهم في نهاية عام ١٥٤٢ م ، وتفرقت فوات القرين في أوائل عام ١٥٤٣ م ، ويبدو ان من أسباب تفرق الجنود ، وغالبيتهم من أهل صحارى الصومال والدناقل ، أزدیاد المقاومة السلبية من الأهالي ، في المنطقة شمالي بحيرة تانا .

وقد جاء في الجزء الأول ، من كتاب تحفة الزمان (٣٣) الذي دون فيه مؤلفه التفصيلات عن حروب المسلمين في أتيوبيا قبل استشهاد الامام ، ما يدل على اتساع رقعة الصراع ، ان الامام أحمد القرين قد خرج من بقى مدر (٣٤) إلى مزجه (٣٥) ، في رمضان سنة واحدة وأربعين وتسعمائة هجرية (١٥٣٥ ميلادية) ، ومنها إلى أرض سمين ، (٣٦) ومن ثم إلى وقره (٣٧) ، ثم إلى بلاد الدنيا (٣٨) ، التي يقول عنها انها ، بندر الذهب ، عليها بلدان كثيرة بلاد النوبة ، التي يخرج منها الذهب ، فرتب فيها ، واتخذها مسكناً ، وأصلحها جميعاً ... وأعطى ثغر تاكه ، (٣٩) وهو بلاد الهمج (٤٠)

(٣٣) تحفة الزمان لمؤلفه شهاب الدين ابن الشيخ احمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان من جيزات . المعروف بعرب فقيه وقد نشر الجزء الأول من هذا الكتاب وعلق عليه في ترجمة فرنسية رينيه باسيه . وما يؤسف له أن الجزء الثاني من هذا الكتاب مازال مفقوداً ويظن أن نسخة منه موجودة في مكتبة أمام اليمن .

أنظر أيضاً كتاب الاسلام في الحبشة لترمنجهم ومقال شيرولى ص ١٠١/٣٩

(٣٤) بقى مدر Begameder - Midra أنظر الخريطة ٤ .

(٣٥) مزجه Mazaga وتنطق الجيم كالجيم التي ينطق بها أهل القاهرة .

(٣٦) سمين Samen بلاد عسيرة ذات حصون مائنة وجبال شائخة لم يكن للخيال فيها من سبيل ولم يكن في بلاد أتيوبيا أعسر منها (فتوح الحبشة ص ٣٤١) راجع الخريطة نمرة ٤ .

(٣٧) وقره Wagora أنظر الخريطة نمرة ٤ .

(٣٨) بلاد الدنيا . المنطقة المجاورة لبحيرة تانا التي تعرف أيضاً باسم تانا أودمبعه .

(٣٩) ثغر تاكه هي كسلا ، المقصود من ثغرأنها البلد التي تقع مباشرة قبل ولاية أخرى أى عند

مدخلها .

(٤٠) ورد ذكر « الهمج » في أكثر من موضع في كتاب « فتوح الحبشة » ، عن اشتراكهم في الحروب في جانب المشركين ، ونجد هنا تحديداً واضحاً عن دار « الهمج » ، التي أعطى ثغرها للوزير عباس ، ونجد أن جماعة عرفت باسم « الهمج » قد لعبت دورها الهام في تاريخ السلطنة السنارية ، عندما تمكن الشيخ محمد أبو السكيك ، وهو من الهمج ، من انتزاع الحكم من سلاطين سنار « في حوالى عام ١٧٦٢ ميلادية » ، وانفرد هذا الشيخ وخلفاؤه من أقربائه ، من بعده بمنصب الوزارة ، وبصرف شئون السلطنة ، حتى السنوات القليلة التي سبقت امتداد الحكم المصرى وكانت كلمتهم هي العليا يعزلون السلاطين ويولونهم دون معقب ، وهناك أيضاً فلول تعرف « بالهمج » في « دار فنج » (المنطقة جنوبى سنار على النيل الأزرق) (أنظر سلجمان ص ٤١٥ و ٤١٦ و ٤٢٠) وهذه الفلول أخذت طريقها نحو الاختفاء كوحدة اجتماعية بسبب غلبة المؤثرات المحايه وتوجد في المنطقة شمالى وجنوبى مدينة « بربر » بيوت من « الهامق » فما هي إذن العلاقات التي تربط أولاً « همج » ثغر التاكه الذين شملت دارهم مواطن الحمران بالقرب من كسلا (التاكه القديمه) وثانياً همج الوزارة السنارية والفلول التي نزلت جنوباً نحو دار فنج حيث اختلطت بالأهلين المحليين وثالثاً « هامق » منطقة بربر . لقد كانت هذه المشكله موضع دراسه خاصه لسنوات عديدة خرجت منها بأن « همج » الوزارة السنارية هم « همج » كتاب فتوح الحبشه وهم بطن من قبيلة =

للووزير عباس (٤١) واستراحت المسلمين (٤٢). ومن هذا يتضح لنا أن مسرح القتال قد شمل الجزء الشمالى لبلاد اتيوبيا ، جنوبى الرقعة التى قامت فيها ولايات إسلامية ،

==الجران (بفتح الحاء والميم) وينطق البعض هذه السكلمة بضم الحاء وسكون الميم وقد تميز أفرادها بالشجاعة وركوب المخاطر وسعة الخيلة وهذه الصفات هى التى مكنت الشيخ محمد أبو السكيلك من الوزارة بعد انتصاره فى كردفان فى السنوات الأولى من منتصف القرن الثامن عشر الميلادى وهى التى مكنت « رابع فضل الله » وهو من الهامق من إنشاء مملكته فى السودان الغربى بعد تركه سليمان الزبير الذى لم يستمع لنصحه وقد حارب رابع الفرنسيين حتى خر صريعاً مستشهداً فى حرب الاستعمار الأوروبى . نزلت هذه الجماعة من الهامق فى أعقاب انتقال السلطان السنارى إلى حوض النيل الأزرق ويحتمل أن تكون الدوافع التى عملت على انتقال البيت السنارى هى التى أثرت بدورها فى هجرة « الهمج » حيث أن موطنهما الأول واحد ولا يعلم على وجه التحقيق الطريق الذى سلكته هذه الجماعة فى أفواجها المتلاحقة ، سكن بعضهم فى سنار واشترك فى معترك الحياة ومكنتهم صفاتهم الخاصة من الوصول إلى الوزارة ، ذهب البعض نحو « دارفنج » لسبب أو آخر واختلطوا بالسكان المحليين وكانوا بلاشك قلة تمثل طبقه حاكمه فقدت طابعها الخاص بمرور الزمن وكان للأمم المحلية أثرها القوي فى هذا التحول بعد زوال الحكم ، أما تلك البيوت التى نجدها اليوم فى منطقته بربر (وخاصة فى بلدة العبيدية) فقد انصرفوا عن حياتهم الأولى وانخرطوا فى حياة المجتمع الجديد إلى حد كبير . واحتفظوا بقدر من صفاتهم المميزة التى ورثوها عن أجدادهم الأوائل بسبب الأم التى نجدها فى هذه المنطقة من القبيلة نفسها .

ومسألة أخرى لا تقل أهمية عن موضوع العلاقات التى ربطت بين « الهمج » الذين نزلوا فى مختلف الأماكن . وهذه هى كلمة « همج » التى عرفت بها مجموعات التاكة وسنار ودارفنج ومنطقته بربر وينطق الاسم فى المنطقة الأخيرة « هامق » وقد تبين أن الاسم كما ينطق به فى منطقته بربر هو الصحيح ونجد أن الاختلاف بين السكلمتين قد حصل فى الحرف الأخير حيث كتب الجيم بدل القاف الصعيدية وإذا رجعنا إلى السكلمات التى جاءت فى (عرب فقيه) وحرف الجيم جزء منها نجد أن المؤلف قد استعمل هذا الحرف فعلاً لتصوير صوت القاف التى ينطق أهلها القاف الصعيدية فى صورة « جيم » أهل القاهرة وقد عمل هذا الرسم الخاطيء على خلق كثير من المحاولات لارجاعها إلى مصدر يتفق مع كلمة « همج » ومن ذلك أن القواف قد استعبدوا « الهمج » وهكذا لعب الخطأ فى التصوير الصوتى دوره الهام .

وذكر « نيقارلس » فى كتابه الشايقه ص ٧ أن مجموعة من البشارين تسكن فى الصحراء شرق أرقو وتعرف باسم (Hamok) ومما قدمنا نجد أن هذه الصلة بين الهامق وبين البشارين ترجع إلى أنهم من شرق الوادى .

(٤١) حاول الوزير عباس بعد استشهاد الامام احمد القرين أن يوحد بين الولايات الإسلامية دوارو وفاتجار ويلي لمحاربة النجاشى الذى انتصر عليه فى عام ١٥٤٥ ميلادية (أنظر كوتزلمان ص ٢٣ - ٢٥ من المقدمة) .

(٤٢) فتوح الحبشة ص ٢٤٤

سيطرت على طرق القوافل بين الساحل وداخلية البلاد الاثيوبية وسودان وادى النيل وكان لزاما أن يفكر جماعة من أصحاب المصالح الاقتصادية ، سواء كانوا أسرة حاكمة ، أو من كبار المشتغلين بالقوافل ، في الهجرة من مواطن القتال إلى ملجأ يحددون فيه أمناً ، ورعاية لمصالحهم ، لذلك لم يكن بد من الانتقال إلى حوض النيل ، بعد أن اشتد القتال بين الاثيوبيين من المسلمين والمسيحيين ، كما اشتد التطاحن بين القبائل في الشمال من أثيوبيا . ولم يتعرض الامام للولايات الاسلامية ، التي قامت في أقصى الشمال والشمال الغربي من أثيوبيا ، بل تركها وشأنها واهتم بتوسيع فتوحاته ، التي وصلت حتى منطقة بحيرة تانا . وكانت في أقصى الشمال مملكة البلي أو البلو ، وقد هبطت عليها مجموعة من الحباب ، واجتاحت المنطقة بين خور أنسبا والبحر الأحمر ، واشتبكوا مع البلي ، وحدوا من سيطرتهم ، وكان ذلك في أوائل القرن السادس عشر الميلادي . وحدث في نهاية العشرين عاما الأولى من ذلك القرن ، ان امتد نفوذ الأتراك إلى سواكن ، بعد احتلالهم لمصر في عام ١٥١٧ م . ودخول الكشاف من قبل العثمانيين إلى منطقة النوبة السفلى والمحس . أما ما كان من أمر المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا ، فتذكر الروايات المتواترة بين سكان شرق السودان أن قتالا قد حدث بين الفونج ، وبين قوة مشتركة من البلي والارتيقة ، وذلك في السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر الميلادي (٤٣) . وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة البلي ، والارتيقة ، ويشير التقرير الذي نشره روسيني ، عن حفريات في خور بركة ، ان حربا قد حصلت في تلك المنطقة ، بين الفونج والقبائل ، وأصيب الفونج فيها بهزيمة منكرة فروا بسببها ، إلى حوض النيل الأزرق . ويبدو أن هذه الحرب قد وقعت بعد زيارة داود روبيني ، الذي زار المنطقة في أوائل عام ١٥٢٢ ميلادية ، فقد وصل هذا الرحالة ميناء سواكن في ديسمبر سنة ١٥٢١ ميلادية ، وغادرها بعد شهرين من إقامته فيها ، وسافر مع قافلة تجارية كبيرة إلى أرض كوش . وقد سلكت هذه القافلة الطريق الساحلي ، حتى منطقة مصوع ، ومنها نحو الغرب إلى منطقة الملم ، ، مختربة حوض التكاوي ويذكر روبيني أنه قد قابل السلطان عميرة ، في عاصمته في تلك المنطقة والتي تقع بالقرب من منبع نهر النيل (رافد النسكازي) ، ويقول أن سيطرة عميرة قد شملت البلدان ، الواقعة على نيل مصر (٤٤) ، وهذا يعني أن سلطان عميره قد امتد

(٤٣) بول ص ٧٦ / ٧٧

(٤٤) رحلة روبيني في : - (١) أدلر (٢) جرايتز (٣) بيرفلت (٤) نيوباور (٥) هلمسن - مدونات المجلد السادس عشر .

على البلاد النوبية ، التي شملت حوض النيل الأوسط ، حتى حدود المحس شمالا ، وهذه المنطقة لم يتدخل في أمرها الإمام أحمد القرين ، وجاء في كتاب «فتوح الحبشة» . . . ودخل أشراف إلى عند الامام من عند الدنيبا ، أربعون فارساً ، كلهم أشراف مع شيخهم شرف الدين بن علي ، والشريف عبد الرحمن ، وتقبلهم الامام وأعطاهم أرض أطراف بلدان إلى طرف بلاد النوبة ، واصطلحت جميع الدنيبا إلى بلاد النوبة (٤٥) «وقد أعطى الامام ، كما سبق أن أشرنا ، ثغر تاكة - ثغر الهمج (الهمق) إلى الوزير عباس ، ولا يعلم على وجه التحقيق ، موقع هذا الثغر ، الذي أعطاه الامام للوزير عباس ، ويبدو أنه على الحدود الاثيوبية الشمالية الغربية ، على المدخل إلى منطقة التاكة (كسلا) ، كما لا تعلم العلاقة بين هؤلاء الأشراف ، الذين وفدوا على الامام في الدنيبا ، وبما لاشك فيه أن دار هؤلاء الأشراف كانت قائمة في الرقعة الواقعة بعد حدود الدنيبا مباشرة - من ناحية التاكة أو الارتريا ، التي لم تكن خاضعة للسلطان السناري . كما أننا لانعلم على وجه التحديد العلاقة بين هؤلاء الأشراف والسلطان السناري الذي كان في كرسى الحكم في سنار ، وهو السلطان عبد القادر ابن السلطان عميرة (٤٦) .

٦ - الوطن الاول للأسرة السنارية :

ونجده لزاماً علينا ، أن نحاول التعرف على التطورات ، التي حدثت في القسم الشمالي والشمالي الغربي لاثيوبيا ، وما كان لها من أثر في السودان ، ومدى ارتباط ذلك بالسلطنة ، التي قامت في سنار ، في القرن السادس عشر الميلادي . ونجد من الضروري أن نرجع إلى ما قبل ذلك التاريخ . فقد تعرضت هذه المناطق لموجات ، من الهجرات القبلية المتباينة ، وكان من نتيجة الاضطراع القبلي ، دخول تعديلات كثيرة ، على الأوضاع الاقليمية ، فدن اختفت وأخرى نشأت . وقامت مدن على أنقاض غيرها ، بأسماء جديدة أو مصحفة عن القديم ، لذلك نجده من العسير أن نصل في يسر ، إلى تحديد مواقع المدن ، التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية ، والروايات

(٤٥) فتوح الحبشة ص ٢٤٦ / ٢٤٧

(٤٦) اتفقت الروايات على انه قد حكم عشرة أعوام بعد وفاة والده السلطان عميرة ، عبد بروس الذي قال أنه حكم ثمان سنوات ، وهنالك رواية تقول ان أخيه نايل قد تولى الحكم بعد وفاة والده وهذه ضعيفة .

عن الفترات المتعاقبة . ومما يضاعف الصعوبات ، أن ما جاء في المصادر وغيرها ، قد نقل عن أفواه رجال القوافل ، من غير أهل البلاد ولهؤلاء لهجاتهم الخاصة ، وأثرها ظاهر بصفة خاصة ، في حرفي الجيم والقاف ، ومثال ذلك كلمة « الهمق » وقافها تنطق كالجيم القاهرية أو القاف الصعيدية ، فالكاتب نقلها في أقرب حرف ، وهو الجيم في لهجته المحلية (٤٧) .

وقد كانت الجزء الشمالى ، من أتيوبيا موضع اهتمام المسلمين ، نسبة لموقعه الاستراتيجى ، على طرق القوافل ، بين البحر الأحمر ، وداخلية البلاد الاثيوبية ، وحوض النيل . فقد ذكر اليعقوبى ، في كتابه عن هذه المنطقة ، التى عرفها باسم مملكة البجة (٤٨) ، وهم بين النيل والبحر ، ولهم عدة ممالك ، فى كل بلد ملك منفرد ، فأول مملكة البجة من حد أسوان ، وهى آخر عمل المسلمين ، من التيمن بين الشرق والغرب إلى حد بركات (٤٩) ، وهم الجذس الذى يقال لهم نفيس ، ومدينة المملكة يقال لها جهر (٥٠) ، ولهم قبائل وبطون ، كما تكون للعرب ، فمنهم الحدرات وحجاب (٥١) والعمائر (٥٢) ، وكرفر (٥٣) ، ومناسه (٥٤) ، ورسفه (٥٥) ، وغريريعه (٥٦) ، والزنافج . وفى بلادهم المعادن ، من التبر الجوهر ، والزمرد ، وهم مسالمون ، والمسلمون يعملون فى بلادهم فى المعادن .

والمملكة الثانية من البجة ، مملكة يقال لها « بتلين » ، كثيرة المدن واسعة ، يضارعون فى دينهم المجوس الثنوية : يسمون الله عز وجل الزبحر الأعلى ، ويسمون الشيطان « صحح حراقة (٥٧) » ، وهم الذين يفتفون لحاهم ، ويقلعون أنيائهم ، ويختفنون وبلادهم بلاد مطر .

ثم المملكة الثالثة ، يقال لها بازين ، وهم يتاخمون علوة من النوبة ، ويتاخمون

(٤٧) أنظر هامش ٤٠

(٤٨) تاريخ اليعقوبى (احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) (٨٧٢ م تقريباً) ص

٢١٧ - ٢١٨ .

(٤٩) خور بركة .

(٥٠) أنظر الخريطة نمرة ٣ .

(٥١) الحدارب والحباب .

(٥٢) لأم مرأر (٥٣) غير معروفة (٥٤) منسه . ما زالت موجودة (٥٥) و (٥٦) غير معروفة . (٥٧) يقول روسينى فى كتابه تاريخ أتيوبيا ص ٢٧٢ وما بعدها ما يفيد بأن هذه الكلمة تجريه .

بقلين من البجه ، ويحاربون هؤلاء ، وزرعهم الذى يأكلونه (دخن) ، وهو طعامهم واللبن .

والمملكة الرابعة يقال لها جارين ، ولهم ملك خطير ، ومملكة ما بين بلد يقال له باضع ، وهو على ساحل البحر الأعظم ، إلى حد بركات ، من مملكة بقلين إلى موضع يقال له الدجاج ، وهم قوم يقلعون ثنائياهم .

المملكة الخامسة — قطعة من باضع إلى فيكون :

المملكة السادسة — مملكة النجاشي .

وجاء فى موضع آخر من كتاب اليعقوبى ، ان « هجر » عاصمة البجه الحدارب ، وتقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما من بلدة العلاقى ، (على النيل جنوبى الشلال الأول) ، ويضيف اليعقوبى أنها كانت محطة ، يتخلف إليها التجار من المسلمين .

وقد ورد اسم مدينة « هجر » فى « عقد الأمان » ، الذى أعطاه عبد الله ابن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البجه فى عام ٥٢١٦ (٨٣١ م) ، والذى احتفظ فيه بشروط ، منها « وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها ، من منتهى حد أسوار من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك و باضع ، ملكا للنأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله (٥٨) . . . » ومن هذه الشروط — فيما عدا ما يختص بمعاملة المسلمين والذميين وحق الإقامة — ما جاء بخصوص المساجد ، حيث قال « وعلى أن لا تهدموا شيئا من المساجد ، التى ابتناها المسلمين بصنجه (٥٩) ، وهجر ، وبسائر بلادكم طولا وعرضا ، فان فعلتم شيئا من ذلك ، فلا عهد لكم ولا ذمة . »

(٥٨) المقرئى — ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٥٩) يقول مونريت دى فيلارد ص ١٠٢ ان صنجه هذه هى سنكات « التى تقع حاليا على خط السكة الحديد بين بورت سودان والعبارة وكانت فيما مضى محطة لها أهمية على مفترق طرق القوافل من مختلف المناطق وتقع فى قلب القطاع الذى شرط الأمير ملكيته للخليفة بمقتضى عقد الأمان . ويحتمل أن يكون لاختلاف اللهجات أثره فى التصحيف الذى أصاب الصاد والجيم الذين تحولوا إلى سين وكاف . ويحتمل كثيراً أن الاسم « صنجه » قد قصد به المكان الحرب « صنجه ديب » الموجود شمال شرقى كسلا . وهذه الكلمة تتكون من « صنجه » أو « صنجه » التى هى اسم لحدى بطون قبيلة الدجون التى كانت تسكن حوض العبارة و « ديب » محرفة عن الكلمة النوبية القديمة « دف » أى « المهجور » أو « الحرب » ولا نعلم بالضبط أى السكان قد سبق الآخر ويتوقف تحقيق ذلك على القيام بدراسة اركيولوجية ==

وبما جاء في كتاب اليعقوبي ، عن ممالك الخمس ، والذي كتبه بعد ٧٨٢ ميلادية ، أى بعد حوالى أكثر من أربعين عاما من الأمان آنف الذكر . يبدو أن مملكة نقيس في حدودها ، التى أوغحها اليعقوبي ، هى التى قامت فى القطاع ، الذى اشترط الأمير ملكيته . وتدخل فيه مناجم المعادن كما تشقه الطرق التجارية مع ساحل البحر الارترى عند باضع ، وفى هذا تمهيد لسيطرة العرب على التجارة ، إلى داخلية حوض وادى النيل ، وبالتالى امتداد نفوذهم غربا ، إلى حوض النيل الأعلى ، وجنوبا نحو بلاد أتيوبيا .

ذكر المقرئى أن « هجر » يسكنها رئيس ، يرجع إليه جميع رؤسائهم (البجة) إلى حكمه ، وهى أقصى جزيرة البجة (٦٠) ، وقد حاول روسيني (٦١) أن يربط هذا الاسم مع أبابى نجران ، ريقول متسنجر أنها على خط عرض ١٦٠٣٧ ، وتعرف باسم « هجر » وبها كنيسة قديمة مخربة ، تعرف باسم آخر نجران . (Agre Nejiran) ، وأنها واقعة على طريق الحجاج ، من أتيوبيا ، إلى بيت المقدس . وإذا رجعنا إلى ما ذكره اليعقوبي ، إن هذه البلدة تقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما من العلاقى ، وأن النجار من المسلمين يتخلفون إليها ، وإلى قول المقرئى أن « بلدة هجر تقع فى أقصى جزيرة البجة » ، فلا يسعنا والحالة هذه ، إلا أن نرفض التفسيرين ، اللذين تقدم بهما روسيني ومتسنجر وغيرهما .

أولا — لأن أقصى جزيرة البجة لا يكون إلا فى موضع نحر الغرب ، من جزيرة دهلك (مصوع) .

ثانياً — أن مسيرة الخمسة والعشرين يوما من العلاقى ، توصلنا إلى وادى النكازى - سقيت ، وفى هذا تأييد لما كتبه روبينى فى رحلته .

ثالثاً — لم تكن للتجار من المسلمين من مصلحة ، إلا أن يذهبوا إلى بلد له قيمته الاقتصادية . وكل هذه مجتمعة تحدد اقليم (ملم) ، وتشير إلى بلدة أم حجار (« أوم هجر » فى اللهجة المحلية) ، وقد عرفت هذه البلدة قبل وبعد زيارة روبينى ، وذلك لمركزها التجارى وسيطارته ، على طرق القوافل ، بين داخلية البلاد الاثيوبية وحوض النيل ، وبين موانى البحر الارترى . وهذا الموقع على الرافد تسكازى - سقيت ، قد أكسب البلدة موقعاً فى أقصى الجزيرة البجة ، ومركزاً تجارياً للقوافل .

(٦٠) المقرئى ص ٢٦٨

(٦١) روسيني — مقال ص ٦٢٥

وتتميز هذا الموقع الأقليمي بقيامه على المدخل بين حوض النيل وأثيوبيا ، الأمر الذى جعل القوافل تتخذ منه منفذاً لها ، بين تلك البلاد وساحل البحر الأرتيرى ، فى مختلف موانيه من مصوع وباضع وسواكن ... الخ . كما اتخذته الهجرات المختلفة ، معبراً لها نحو مهاجرها .

* * *

٧ — ويهمننا بعد أن أوضحنا ما كانت عليه المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا من أهمية إقليمية ، أن ننتقل إلى عرض الآراء المختلفة ، عن أصل السلطنة السنارية ، فان هذه الآراء تقول أن هذه الأسرة ترجع إلى :

(١) انهم من قبيلة الشلك ، التى كانت تسكن على شاطئ النيل الأبيض جنوبي اللبس (بالقرب من السكوه) .

(٢) لانهم من الغرب - من درافور فى رأى ومن برنو فى رأى آخر .

(٣) انهم قد جاؤا من الحبشة .

وقبل أن نناقش هذه الآراء ، يجمل بنا أن نوضح بقدر ما لدينا من معلومات عن الفونج ، وهل هم البيت ، أم الشعب الذى حكمته هذه الأسرة .

اختلفت الآراء حول مصدر كلمة (فنج) أو (فونج) التى أطلقت على سلطنة سنار ، فالبعض يقول أنها ترجع إلى كلمة بون (Bwon) ، فى لغة الشلك ، والبعض الآخر يقول أنها من كلمة فون (Fon) ، فى لغة النوير ورأى ثالث يرددها إلى كلمة بونج (Bunj) ، وهذه قريبة من كلمة فونجي (Fonji) ، وجميع هذه الكلمات معناها الغريب ، أما مسألة تناسخ الحروف الباء والفاء وغيرها ، ليحل أحدها محل الآخر ، فأمر له وجوده فى جميع اللغات وبالأخص الباء والفاء فى لغتى النوبة والشلك .

عرف البيت السنارى بالسلطنة الفنجية ، أو بمعنى آخر آله « فنج » ومترادفاتهما ، استعملت للتعريف بطبقة البيت الحاكم ؛ وتوسع البعض فى استعمال هذه الكلمة ، حتى شملت ضمنها الشعب ، الذى حكمه البيت السنارى حكماً مباشراً ، والواقع أن القول بأن هذا التعريف يشمل الشعب ، مسألة لا تتفق مع حقيقة الأمر . فابن سليم الاسوانى الذى زار مملكة علوة فى أواخر القرن العاشر الميلادى ، فى بعثة جوهر الصقلي لأمراء السودان ، يقول أن أرض الجزيرة السنارية سكنتها قبيلة عرفت باسم كرتينا ، أو كرسة أو كرما ، أو كاسو ، كما أن اسم القبيلة ، ورد ذكرها مع قبيلة العنج ، بوصف أن

هاتين القبيلتين في جزيرة سنار . وذلك في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، عندما زار البلاد رسول السلطان قلاون ، ومن ههنا يبدو أن اسم الفنج (Fung) وصل إلى الجزيرة بعد القرن الثالث عشر الميلادي ، وهناك احتمال بأن هذا الاسم قد جاء مع جماعات من البيت الزغوي ، بعد سقوط سلطانهم في الحبشة عام ١٢٨٦ ميلادية وقيام ملوك الحبشة بمطاردتهم واضطهادهم ، وقد تكون هؤلاء الفنج صلة بالداجو الموجودين في بلاد الفور ، والذين يقول عنهم بارت (Barth) ، بأنهم حكموا دارفور في القرن العاشر الهجري ، ويعتقد بأنهم يختلفون عن الزغاوي ، كما أنه يتول باحتمال أن موطنهم كان في جبال فازو غلي ، جنوب سنار ، ويقول الداجو عن أنفسهم أنهم فننجا (Fininga) ، فاذا صحت هذه الدعاوى ، فيكون هؤلاء هم الشلك الذين ذكرهم بروس خطأ ، بأنهم حاربوا العرب وانتصروا عليهم في موقعة بالقرب من أريجي (٦٢) غير أن هذه الرواية أصابها بعض التصحيف كما سنبينه فيما بعد . وبقي اسم الفونج مشتركا بعد ذهاب أهله ، ونجد اسم « فونج » في صورة أو أخرى منتشرا ، في أكثر من منطقة من بحيرة فكتوريا والكنغو .

الوادي الاول :

ان هذه الأسرة من قبيلة الشلك .

ترجع الشلك في أصلها ، إلى قبيلة لو (Luo) التي يعتقد انها كانت تسكن في منطقة بحيرة « فكتوريا نيانزا » ، وذلك قبل هجرتها إلى السودان ، ومن الدراسات التي قام القس هفمير النمسوي ، نجد ان قبيلة « لو » القليلة العدد في الوقت الحاضر ، والتي تسكن في منطقة بحر الغزال ، كانت في الماضي القبيلة الكبرى التي تفرعت منها الشلك وذلك حين قادها ملكها الاول نيا كنج (Nyakang) إلى مواطن جديدة ، امتدت في العصر الحديث إلى شمال الكوه (على النيل الأبيض) ، وبينما نجد ان القبائل الوثنية الأخرى ، تحتفظ ببعض العادات والتقاليد التي تتفق اتفاقا كليا مع مثيلاتها في العهد الفرعوني ، فان أثر ذلك في قبيلة الشلك ، يدل على ان هجرتها إلى جنوب السودان (٦٣) ، حدثت في عهد ليس بالبعيد .

يقول الرحالة جيمس بروس (٦٤) الذي زار سنار حوالي عام ١٧٧٢ ميلادية ،

(٦٢) بروس جزء رابع ص ٥٤٨ وما بعدها .

(٦٣) يقول وسترمان انهم قد وصلوا الى موطنهم الحالي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي

(٦٤) سلجمان ص ٤٢٤ .

ان مملكة سنار قامت فجأة ، باستيلاء مؤسس ذلك البيت ، على حوض النيل الأزرق بعد غزوة خاطفة ، وتفصيل ذلك على حد روايته ، ان قبيلة من السود غير معروفة ، كانت تسكن على الجانب الغربى للنيل الأبيض (خط عرض ١٣ شمالاً) وانها قامت فى جموع عديدة ، مستخدمة عدداً من القوارب فى هجومها على المدن العربية ، وان ذلك الجيش من الزنج يعرف فى وطنه باسم الشلك . وعند تأييس ذلك الحكم ، كان الشلك عبدة أو ثان ، وسرعان ما اعتنقوا الدين الإسلامى لغرض التجارة مع القاهرة واتخذوا « الفوننج » اسما لهم ، وكانت هنالك ثلاث حكومات رئيسية ، فى مملكة سنار ، أولاها « الليس » (٦٥) عاصمة الأقليم ، الذى جاءت منه الشلك ، وتغلبت على ود عجيب شيخ العرب ، فى معركة فاصلة ، بالقرب من أربجي ، مما جعل العرب يخضعون لأولئك الغزاة ، ويتصالحون على نصف الماشية ، يعطى للشلك ، ويقبلون تقديم جعل سنوى ، من نصف نتاج ماشيتهم خلال العام . وتعهد ود عجيب ، بالقياس بتأديب القبائل العربية الأخرى البعيدة ، التى تسول نفسها ، بالعصيان والتوقف عن دفع المال للشلك ، وقد دافع عن هذا رأى كثيرون ، منهم الأستاذ ا. ه. كين (A. H. Keane) الذى اعتبر أن الشلك هم اصل الفوننج ملوك سنار ، وانهم اختلطوا بالعرب اختلاطاً وثيقاً . ويعارض هذا رأى ، روميل جيسى باشا ، فى كتابه سبع سنوات فى السودان ، (٦٦) ناعياً على صاحبه وأشياءه بعبارات التهريج والسخرية متسائلاً ، كيف تدهور أولئك الشلك من ذلك الملك الشاخي العريض ، الذى استمر عدة قرون ناشراً لواءه على أكثر الرقعة التى نعرفها اليوم بالسودان . الشلك فى يومنا هذا ينكرون صلتهم بذلك البيت السنارى . ويقول الشلك انهم قاموا بمحاربة تلك المملكة الإسلامية كلما سنحت لهم الفرص بذلك . ويقول الأستاذ إيفانز برتشارد بأن كلمة فوننج أو فونجي لا تخرج عن كونها تعريف لطبقة حاكمة معينة ، حكمت فى دار الفوننج ومركزها سنار . كما أبدى شكوكه فى أن أحداً ، من علماء الأجناس ، قد كتب رأياً صريحاً يرجع البيت السنارى إلى الشلك (٦٧) ويقول بأن وسترمان له رأى أورده فى كتابه (٦٨) لكنه لم يقل صراحة بأن الفوننج من الشلك فى زمن مضى أو

(٦٥) الليس شمال الكوه على النيل الأبيض .

(٦٦) جيسى ص ١٥١/١٥٢

(٦٧) إيفانز برتشارد مقال ص ١٥٧

(٦٨) وسترمان

حاضر، ولكنه يعتقد بأنه هنالك أدلة على وجود الشلك في دار الفوننج ، في عدد يجعل من السهل إشتراكهم بنصيب في تكوين الطبقة الحاكمة (٦٩) .

ذكر وسترمان في كتابه عن الشلك ، بعض المفردات المتقاربة في لغة الشلك عن كلمة فوننج ويحاول رد اسم « عمارة » (٧٠) السلطان الأول للأسرة في سنار إلى « عمارو » أو « عماكرا » المستعملة في لغة الشلك ، كما ذكر أن قول السلاطين بأنهم من الفوننج يجعل المرء يظن أن اختصارهم ابنى أمية يرجع إلى تقارب هذا النسب مع جد الشلك « أمرى » Nyakang (Omoi) جد الشلك المباشر (٧١)

وقد أثار موضوع أصل الفوننج وصلتهم بالشلك جدلاً كبيراً على صفحات مجلة السودان في رسائل ومدونات ، وقف فيها شتاوى ونولدر (٧٢) في جانب الرأى القائل بأن الفوننج لا يمتون بصللة إلى الشلك ، كما دافع آركل (٧٣) عن رأى بروس .

يبدو مما أوضحناه أن جيمس بروس كان ضحية قبوله نظرية « الألوان » في تمييز الأجناس ومقدار رقيها وأخطاها حيث يقول « ان ملك سنار يدعى بأنه من القبيلة العربية الشريفة ، وهى بنى أمية ، لكن فصيلة شعره وتقاطيعه المنبسطة السوداء تدلان على أنه من الشن جالا (Shangale) التى اسمها (الشلك) (٧٤) ، وان هذه النظرية هى الآن فى طويق الزوال لاعتمادها على أسس غير مقنعة .

الرأى الثانى :

ان هذه الأسرة جاءت من الغرب .

١ — من دارفور .

٢ — من برنو .

حاول آركل (٧٥) تقديم رأى جديد وحشد لدعمه المعلومات ، التى جمعها خلال المدة التى قضها فى دارفور والتى جمعها بالمر والتى جاء فيها ما جعل آركل يستخلص أن

(٦٩) يظهر أن نصيبهم كان عن طريق الرقيق

(٧٠) صحته عميره كما جاء فى الوثائق

(٧١) شاتوى ونولدر - مقال ص ٢٤٧ - ٢٥٨ - ٦١ - ٦٦ - ١١١ - ١١٧ ،

(٧٢) فى مدونات الأجزاء الثالث عشر والرابع عشر والسابع عشر على التوالى

(٧٣) آركل مقال المدونات الجزء الخامس عشر ص ٢٥٠/٢٠١

(٧٤) مرى ص ٤١٧/٤١٨ - بروس الجزء السابع ص ٩١/٩٠

(٧٥) آركل . مقال ص ٢٥٠/٢٠١ فى الجزء الخامس عشر من المدونات كذا ص ٩٧/٨٧

من الجزء السابع والعشرين من المدونات

البيت السنارى ، أسسه الملك عثمان الذى طرد من برنوعام ١٤٨٦ م ويبدو مما كتبه
آركل في مقاله الذى نشر في كتاب الزراعة في السودان انه يتمسك بهذا الرأى باهماله
الاشارة إلى الرأى القائل بأن الأسرة السنارية ترجع إلى بيت من قبيلة الشلك كما
أهمل الرأى القديم الذى يرد البيت السنارى إلى الفور .

الرأى الثالث:

إنها جاءت من الحبشة وينقسم ثلاث آراء فرعية .

١ - السلطنة من أصل عربى .

٢ - السلطنة من بنى أمية .

٣ - السلطنة من هلاله .

ينفرد هذا الرأى بمصادر أساسية وأخرى ثانوية نجدها مبعثرة هنا وهناك ، وفيها
تتوفر الوثائق التى تلقى الضوء مؤيدة هجرة السلطان الاول من شمال غرب الحبشة
وقيام ملكه فى حوض النيل الأزرق ، كما أن هذه الوثائق توضح العلاقات التى كانت
قائمة بين الحبشة وحوض النيل الأزرق . فضلا عن توضيحها دعاوى الأحباش
بتملك السهول الواسعة الواقعة بين حوض الدندر والرهى والقماش وجزء من نهر
العبارة بما ذلك سهول القلابات . وتبدو هذه الدعاوى فى شكل مطالب محددة فى
حالات قيام حكومات ضعيفة فى الجانب السودانى - وأهم المراجع .

١ - رحلة داود روبينى الذى زار السلطان عميرة فى عاصمته « لملم » وذلك
قبيل انتقاله إلى سنار مباشرة .

٢ - ما جاء فى كتاب « تاريخ لايبويى » لمؤلفه لودلفس (طبع عام ١٦٨٤ م
طبعة ثانية) .

٣ - خطاب من السلطان عجيب .

٤ - الروايات المحلية السودانية المتداولة .

٥ - مذكرات الضابط الايطالى تلمنتى التى حققها ونشرها روسيني العالم الايطالى .

٦ - رحلة أوليا شلى .

(٧٦) .

رحلة داود روبينى

أوضحنا فيما سبق ان هذا الرحالة قد هبط ميناء سواكن فى ديسمبر سنة ١٥٢١

(٧٦) هاش ٤٤

ميلادية ، وغادرها في قافلة كبيرة تزعمها « أبو كامل » وقد اخترقت هذه القافلة الطريق الساحلى إلى منطقة مصوع ومنها إلى المنطقة التى أسماها « لم » والتى قابل فيها السلطان عميرة ، الذى امتد سلطانه على البلاد الواقعة على حوض النيل الأوسط . ويصف هذا الأقليم بأنه بلادا بها مروج وغابات وجبال وصحراوات ويقول انه بعد تركه عاصمة السلطان عميرة فى طريقه إلى سنار، انه قد عبر انهاراً كثيرة وان أرضها رخوة لدرجة أن الخيل التى كان يستخدمها قد غاصت فيها حتى البطن . وقد جاء ما يؤيده هذه الرواية فى كتاب فتوح الحبشة (٧٧)

وبعد مسيرة ثمانية أيام وصل إلى سنار، حيث قابل أمين بيت المال المدعو « العبيد » ولا شك فى ان هذه الرحلة قد حدثت فى أكتوبر - نوفمبر أو حواليه من عام ١٥٢٢ ميلادية أى بعد انتهاء فصل الأمطار فى الهضبة الحبشية مباشرة .

ب - لودلفس فى كتابه تاريخ حديث لاتيوبيا :

يقول هذا المؤلف « وفى الجنوب مملكة سنار أو الفند (يقصد الفنج) ويحكمها سلطان شديد اليأس وقد كان فيما مضى يدين بالولاء للحبشة . أما اليوم فهو مستقل يسيطر على ذلك الجزء من النوبة القديمة (٧٨) .

ج - كتاب السلطان محمد بادى عجيب :

جاء فى هذا الكتاب الذى أرسله السلطان إلى بنوامية (كذا فى نصه) الساكنين دار ضنقله (دنقله) استبدلت الدال بالضاد وتنطق القاف كالقاف الصعيدية أو كالجيم القاهرية) وقد بين فى هذه الرسالة نسب الأسرة السنارية وصلتها بالأمويين وقد كان هذا السلطان كما ورد فى رسالته السلطان العاشر من البيت السنارى .

د - الروايات المحلية المتداولة :

١ - تقول مخطوطة تاريخ سنار . . . ابتداء أمر الفنج كانوا بمحل يعرف بلول بتفخيم اللامين . . . فصل فى ذكر نسب الفنج قيل أنهم البنى أميه لما انتزع منهم الملك وهربتهم البنى العباسى جاء منهم رجلان إلى هذا المحل (يشير إلى لول) استولدوا النساء وأن الفنج من سلالتهم وقيل أنهم بلى هلاله . . . (٨٠) .

(٧٧) فتوح الحبشة ص ٣٠١ - وكروفرود صفحة « ٢٣٩ »

(٧٨) لودلفس ص ٨٧

(٧٩) راجع المالحق الرابع

(٨٠) مخطوطة تاريخ سنار ص ٤/٣ المخطوطة بالمكتبة الأهلية بفينا

٢ - تقول الروايات المتداولة في شرق السودان « ان الفوننج قد أرسلوا قواتهم لقتال البلي والارتيقه وقد حصلت الموقعة الفاصلة عند أبواب ميناء سواكن في السنة السادسة من القرن السادس عشر الميلادي وأسفر القتال عن هزيمة البلي والارتيقه . ويبدو أن التطاحن لم تخمد ناره ويشير روسيني أن قتالا قد نشب بين هذه المجموعات وانتهى بهزيمة الفوننج وهربهم من شرق السودان (٨١) .

هـ - مذكرات الضابط الايطالي لويجي تلمنتي :

قام كونتي روسيني بدراسة المذكرات التي كتبها الضابط لويجي تلمنتي والتي شملت ملاحظاته عن المقابر التي وجدها في طريقه في خور بركة في شهر يولييه سنة ١٩٠٢ ميلادية وقد نشر روسيني مقاله الذي جاء فيه :-

« مقابر الفنج (٨٢) - يجد المرء مقابر عديدة على طول وادي الرافد انقريب وخور بركة وبعض هذه المقابر في مجموعات متراصة أو متباعدة - وهذه هي مقابر الفنج الذين أسسوا مملكة في سنار في القرن الخامس عشر الميلادي . وينهى مقاله « بأن مقابر عديدة موجودة في دورة طه Daura Taha ويذكر أنه قد علم أن الفنج قد هزموا هزيمة منكرة على حد قول الرواة الذين يقولون أن القديين Al Gheden الموجودين الآن في أرتيريا يمتون بصلة القربى إلى الفنج وأنهم هربوا إلى موطنهم الحالي (سنار) بعد الهزيمة المنكرة (٨٣) .

و - رحلة أوليا شلي (٨٤) :

زار هذا الرحالة الغماني السودان في ١٦٧٢ ميلادية وقد سجل في رحلته أغنية شعبية (دوبيت) سمعها عند السلطان في سنار وهي في لغة سكان الجزء الغربي من الأرتيريا . وقد ذكر ترجمة تركية مع النص المحلي - وتحتوي هذه الأغنية على غزل وحب وهذه الأغنية جديرة بالتحقيق والدراسة المقارنة فالأدب الشعبي السوداني قد تأثر كثيراً في مناطقه الشرقية بالأدب الشعبي لقبائل أتيوبيسا وغيرها عن طريق الهجرات من جنوبي غرب الجزيرة العربية .

(٨١) بول ص ٧٦/٧٧

(٨٢) مقال روسيني في الملحق الثاني

(٨٣) ذكر روسيني في رسالة خاصة المؤلف انه قد استقى هذه المعلومات من الأهالي .

(٨٤) أنظر رحلة أوليا شلي (بالتركية) الجزء العاشر ص ٨٩٦ وقد أعدت ترجمة عربية للقسم الخاص برحلة السودان والحبشة .

ز - ذكر روسيني في مقاله له (٨٥) « ان هنالك قصة متواثرة تقول انه قد كانت للفينج محلة في ربالاف بالقرب من ريبا الواقعة على وادى أقره (Agra) .

وذكر متسنجر « انه قد ورد في سلسلة من انساب قبيلة « منسه » ان الاسم الثالث لأحد بطونها التي تسكن جنوبي الحباب هو فنجاي (Fungiai) وهنالك بلدة تعرف باسم عد فنجاي التي تقع على ثلاثين ميلا من خور أقوردا.

لقد استعرضنا فيما سبق مختلف الآراء عن أصل الأسرة السنارية وما يستند اليه كل رأى من تلك الآراء. ولا شك ان رأى القائل (٨٦) بأن الموطن الأول للسلطنة قبل انتقالها إلى السودان كان في منطقة لملم في جنوب غربى ارتيريا ونستطيع ان نحدد ان العاصمة قد كانت في « أوم هجر » المعروفة الآن بام حجار وسواء كانت تلك الأسرة من بنى أمية أو من البلى فهمى عريسة الأصل على أى حال . أما الآراء الأخرى فلم تستطع أن تقف مع الرأى الأول .

٨ - هجرة السلطنة الى موطنها الجديد

أوضحنا تطورات الأحوال في المناطق التي قامت فيها الولايات الإسلامية في شمال أتيوبيا ، والمدى الذى وصلت إليه العلاقات بين المسلمين والأتيوبيين من جهة وبين القبائل الإسلامية وبعضها ، فكل هذا قد دفع بالسلطان عميرة إلى الانتقال إلى حوض النيل الأزرق ، متخذاً فيه عاصمته الجديدة بعد « لملم » وإقامة علاقات اتحادية مع المشيخات التي كانت قائمه في حوض وادى النيل الأوسط ، محتفظاً لنفسه ببعض مظاهر السلطان الرمزية .

ويرجع اختيار مدينة « سنار » (٨٧) كمقر للحكم ، لاكثر من سبب في مقدمتها

(٨٥) مقال روسيني في مجلة الجمعية الاسيوية الإيطالية مجلد ٢٢ عام ١٩٠٢ ص ٧٢

(٨٦) محاضرة المؤلف بعنوان « على أطلال مدينة سنار » التي ألقيت بنادى الموظفين بواد مدنى - طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

(٨٧) مدينة « سنار » على النيل الأزرق (في شرق الجنوب الشرقى للخرطوم) - وهى مدينة عريقة في القدم ويقول البعض ان هذا الاسم يرجع إلى ساحرة اسمها سن النار كانت تسكن في هذه البقعة وان ثوراً من ماشية عميرة كان يتدلى يرعى في تلك الغابة ليلاً ويأتى في ليلته فتبعوه في بعض الأيام فرأوا دارها ونهرها فترلوا من مويه وقطع أشجارها الملك عميرة دونقس (أنظر مخطوطة تاريخ سنار دار الكتب المصرية رقم ١٨ م) وهذا نسج من الخيال الخصب لتعليل مصدر الاسم . عرفت هذه المدينة قديماً باسم (جزيرة الماء أو الأخت) (بصيلى . مقال) .

موقعها الأقليمي الاستراتيجي في قلب القطاع ، الذي يكون المجال الحيوي الطبيعي لامتداد سيطرة البيت الحاكم قبيل تركه لملم بسبب الظروف المتغيرة . ويسيطر موقع هذه المدينة على الطرق النيلية والقوافل الأمر الذي أضفى عليها أهمية كبرى كمرکز تلتقى فيه مختلف الطرق التجارية ، حيث يحدث تبادل السلع الواردة من البقاع الأفريقية المختلفة ومن مصر ومن الشرق الأقصى عبر سواكن ومصوع واثيوبيا .

ويجمل بنا قبل أن ننتقل مع السلطنة إلى مركزها الجديد في حوض النيل الأزرق ، أن نحدد التاريخ الذي هجرت فيه عاصمتها في منطقة «لملم» وأن نستعرض العوامل التي خلقت الاتحاد بين المشيخات القائمة حينذاك في بلاد السودان وبين السلطان .

فقيام السلطان في عاصمته «سنار» لم يكن حادثاً فجائياً كما جاء في الروايات المحلية (٨٨) بل سبقته عوامل داخلية تولدت من مظاهر حياة المجتمع ، الأمر الذي سوف نناقشه فيما بعد . وقد كانت هنالك عوامل خارجية في مقدمتها امتداد النفوذ العثماني إلى حوض البحر الأحمر وما تبع ذلك من وصول قطع من الأسطول العثماني إلى مياه ذلك البحر لتعزيز سلطتها والمحافظة على سلامة موانئ جانبي البحر الأحمر (الاسيوى والأفريقي) التي بسط عليها العثمانيون بسيطرتهم ومطاردة البرتغاليين الذين أخذ نشاطهم في الازدياد لبسط نفوذهم على اثيوبيا ، وقد مكن النفوذ العثماني في حوض البحر الأحمر من سيطرة المسلمين سكان الساحل الأفريقي للبحر الأحمر على مرافق التجارة بين الساحل والمناطق الأفريقية الداخلية بما في ذلك اثيوبيا (٨٩) .

تقول المصادر السودانية التي جمعت من الروايات الشفوية وغيرها وكتبت في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي وفي مقدمتها كتاب الطبقات لود ضيف الله وتاريخ مدينة سنار للكاتب الشونة (٩٠) ان السلطان السناري قد أنشأ

وهناك استعالة مادية في امكانيات منطقة جبل مريا على إيواء جوع من الجنود وغيرهم بسبب قلة الماء وهذا عامل مهم وثانياً أن المنطقة لا تخرج عن كونها جبلية وأرضها الصالحة للزراعة لا تزرع إلا فصل الخريف (بالأمطار) ومما يلفت النظر ان ما جاء بالخطوطة آفة الذكر يدل على ان الجنود تجمعت حول الملك عميرة في منطقة جرداء دون أن تفطن إلى وجود مجرى النهر حتى دلهما عليه الثور !! .

(٨٨) تاريخ مدينة سنار مخطوطة في دار السكتب المصرية ص ١٠

(٨٩) أنظر لود لفس ص ٧٣ / ٧٤

(٩٠) نشر كتاب الطبقات لأول مرة في عام ١٩٣٠ ميلادية في طبعين إحداها علق عليها عليها الشيخ ابراهيم صديق والثانية طبعها داود منديل اما كتاب تاريخ سنار فما زال مخطوطاً ومنه نسخة في دار السكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

عاصمته في السنة العاشرة من القرن العاشر الهجري (السنة الرابعة بعد الخمسمائة وآلاف ميلادية)، وهذا لا يتفق مع ما كتبه الرحالة داود رويني، الذي زار السلطان في عاصمته في منطقة ملم في عام ١٥٢٢ ميلادية، حيث أمضى هذا الرحالة نحو العشرة شهور، رافق فيها السلطان في رحلاته الدورية التي كان من عادته أن يقوم بها مرة في كل شهر لناحية من نواحي مملكته. وقد سقطت تفاصيل تلك الرحلات من مدونة داود رويني غير أن الرحالة قد أوضح بما لا يقبل الشك أن زيارات السلطان المشار إليها قد شملت القطاع الممتد من منطقة ملم حتى حوض النيل (٩١) ونجد سنداً لما ذكره داود رويني في الروايات التي جمعها روسيني (٩٢) وفيما كتبه لودلفس (٩٣) عن علاقته السلطنة مع النجاشي وكذلك ما كتبه فرنسيسكو الفارز (٩٤)، الذي زار الحبشة في حوالى ١٥٢٠ ميلادية ونقل في كتابه ما سمعه عن حنا السرياني عن أحوال بلاد علوة ولم يذكر شيئاً عن وجود سلطان في سنار في ذلك الوقت.

ويبدو أن تدهور العلاقات بين النوبة السفلى ومصر للعداوة النفليدية بين العرب زعماء المشيخات في النوبة وبين الممالك في مصر، وقيام الكشاف أو « الغز » الذين أرسلهم السلطان سليم بزعامه حسن قوسى (٩٥) لحكم البلاد بين الشلالين الأول والثالث قد جعلت البلاد جنوبي الشلال الثالث في عزلة اقتصادية، الأمر الذي دفع المشيخات إلى الاتجاه نحو ساحل البحر الأحمر، والاتصال بالسلطان عمبرة الذي كان مسيطراً على تجارة ذلك القطاع الذي شمل المنطقة المؤدية إلى حوض النيل الأرق ومراكز تجمع التجارة فيه. وهكذا دفعت الظروف إلى قيام الاتحاد.

(٩١) كتاب الرحالة اليهود لناشره السكان ناثان ادلر طبع لنسدن ١٩٣٠ ص ٢٥٧ حيث يقول ان مملكة الجعل (الجمليين) يحكمها الملك أبو عقارب وهو خاضع للسلطان عمبرة. ويرجح سبب إهمال بعض التفاصيل ان الرحالة لم يكتب يومياته كاملة بل أملاها من ذاكرته

(٩٢) الملحق الثاني

(٩٣) أنظر هامش ٧٠

(٩٤) الفارز ص ٣٥٢

(٩٥) استنجدت قبيلة الغربية التي سكنت أرض المحس بالسلطان سليم بعد الفتح العثماني لمصر ليعينها على رد عدوان قبيلة الجوابرة التي كانت منتشرة في النوبة وقد استجاب السلطان لهذا النداء بإرسال حملة بقيادة حسن قوسى الذي تمكن من طرد الجوابرة إلى منطقة دنقلا وحدث ان ابن جنبلان الذي خلف حسن قوسى بعد وفاته قد اشتبك مع القبائل التي تسكن شمالي منطقة دنقلا في موقعة فاصلة عند « حنك » حيث أقيمت قبة ضمت القتلى واعتبرت هذه المنطقة الحد الفاصل بين حكم الكشاف والبلاد الجنوبية.

وقد اتصل السلطان عميرة ومركزه في منطقة ملم بالسلطان العثماني سليم (الذي حكم من ١٥١١ - ١٥٢٠م وذلك بأن أرسل إليه كتابا أعده الشيخ السمرقندي ، موضحاً به أنساب العرب أهالي السودان، وطلب منه أن لا يغزو البلاد وسكانه من المسلمين ، الذين لا يجوز شرعاً فتح بلادهم بالسيف . وهو الخطاب الذي ذكر نعوم شقير (٩٦) خطأ أنه أرسل إلى السلطان سليم . ووجه الخطأ أن السلطان سليم لم يصل إلى سواكن ولم يحتلها بشخصه، وإنما احتلها الباشا العثماني في أعقاب الفتح العثماني لمصر في سنة ١٥١٧ ميلادية، وأننا نخالف هذا الرأي القائل بأن السلطان قد جاء إلى سواكن لغزو السودان ، فالأصح أن يكون السلطان عميرة قد أرسل ذلك الكتاب (حوالى عام ١٥١٧م أى بعد ضم مصر إلى تركيا) ، وكان عميرة يهدف من ذلك أن يعمل السلطان العثماني على وقف التحدى الذي وقع على الحدود الشمالية من السودان ، بين قبيلتي الغربية والجوابة وهما من البربر الذين نزحوا إلى مصر فالنوبة السفلى . وقد دفع وصول الكشاف إلى بلاد المحس إلى توثيق عرى الاتحاد بين المشيخات في السودان والسلطان عميرة وعاصمته في ملم . ونرجح أن هجرة السلطان إلى حوض النيل الأزرق قد سبقتها محاولات استطلاعية مهدت لسيطرته على ذلك القطاع . والمعروف أن مملكة علوه قد زالت في السنوات القليلة من أول القرن السادس عشر الميلادي ، ويستخلص مما جاء في رحلة روبيني أن السلطان عميرة لم ينتقل من عاصمة أسرته في منطقة ملم إلا بعد الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي أو قبيل ذلك بعام أو عامين على أكثر تقدير، أعنى في سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٥ ميلادية . ويؤيد هذا الرأي ما جاء في الروايات المحلية في شرق السودان عن القتال الذي حدث بين الفونج من جهة والارتيقة والبلي من جهة أخرى ، كما أشرنا إليه من قبل . ونرى أن هذا الصراع قد دفع بالسلطان إلى الانتقال إلى موطنه الجديد في حوض النيل الأزرق . ولا يفوتنا أن نذكر أن تلك الحقبة كانت مليئة بالأحداث والتطورات . فميناء سواكن صارت عثمانية في سنة ١٥٢٠م وكانت المراكب البرتغالية تجوب مياه البحر الأحمر لمنازلة الأتراك وأن هذه المراكب قد بقيت فترة من الزمن في خليج مصوع ، التي صارت عثمانية في سنة ١٥٢٧ ميلادية . وأغارت السفن البرتغالية على ميناء السويس في ١٥٤٠م غير أنها قد فشلت .

* * *

(٩٦) أنظر نعوم شقير الجزء الثاني ص ٧٢/٧٤ .

وننتقل الآن إلى بيان المجموعات الاقليمية التي كانت قائمة عند قيام الاتحاد بين المشيخات والسلطان . ومن ثم إلى المجتمع في بنيته ومظاهر نشاطه ونظم الحكم والاقتصاد . وإننا بذلك نحاول أن نصور أثر ذلك في تطور نظم الحكم في مختلف المراحل .

توزيع السكان في حوض النيل الأوسط

ينقسم السودان سبع مناطق تأثرت كل منها بالحياة الاقليمية الخاصة وهي :-

١ - السطوح المستغلوبة بالزراعة والتجارة في السودان :

١ - المجموعة الاقليمية الأولى :

تقع هذه المنطقة بعد شلالات حنك شمالاً وجنوبى الشلال الرابع جنوباً ، وهى الرقعة من الأرض التى عرفت بمملكة المقررة ، التى سقطت فى أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، بعد حياة ناهزت العشرين قرناً ، شاركت فى خلالها مصر فى المدنية والثقافة كما شاركت مصر فى منحها بسبب دخول الفرس والروم الخ . . . وقد حافظ أهلها على لغتهم وأسس مجتمعهم ، ومن أقسامها :-

١ - دار الجوابرة وحدودها من شلالات حنك شمالاً حتى حلة تيتى ، جنوباً وبها مشيخات أرقو وجزيرة مقاصر والحناق .

وتسكن هذه المنطقة الجوابرة والنوبة وهما الغالبية وقليل من المهاجرين المصريين وبعض العرب الذين يرجعون فى أصلهم إلى البشا (البجه) وتصدر زعامة هذه المشيخات ملك ارقو الذى بسط نفوذه على المشايخ الآخرين ويسكن هذه المنطقة جماعة من الهامق وهم فى الصحراء شرقى جزيرة ارقو (٩٧) .

٢ - دار البديرية وتبدأ من حلة تيتى حتى جبل دافر (حد دار الشايقية) وبها مشيخات الحندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنقس وابكروالدفار ويتزعم هذه المشيخات ملك دنقلا العجوز .

وتسكن البديرية والنوبة في هذه الرقعة عدا قطاعي كورتي وامبقول حيث تسكن
بجموعة الطريفية التي تنتمي إلى البديرية .

٣ - دار الشايقية وتقع بين جبل دافر حتى الشلال الرابع وبها مشيخات حنك
وقوشاني ومروى والعمرى .

وسكانها من الشايقية الذين يكونون الغالبية العظمى وجماعات قليلة من النوبة
الذين يعيشون في درجة الموالي للشايقية .

وتتميزت دار الشايقية بأنها وهي منقسمة أربع مشيخات كما أوضحنا، إلا أنها
كانت تستجمع كلتها وتوحد قواتها في جهة واحدة لمقابلة العدو الذي يتعدى على
إحداها ، بينما نجد أن سكان دار الجوابره ودار البديرية متفرقو الكلمة لا يفتأون
عن مناوأة بعضهم البعض .

وتحتل دار الشايقية مركزاً استراتيجياً على طرق القوافل ، بين ذلك الجزء من
وادي النيل والغرب (درافور وفزان والمغرب الأقصى) وبين وادي النيل ، وساحل
البحر الأحمر ومصر عبر صحراء العظمور ، وكانت العلاقات مع الغرب زاهرة
وخاصة بعد قيام سلطنة الفور . وكان لهذه العلاقات أثرها في قيام الشايقية بالانفصال
عن الاتحاد السناري كما سنبينه في موضعه فيما بعد .

ب - المجموعة الاقليمية الثانية :

تحتل هذه المجموعة رقعة من الأرض تبدأ من الشلال الرابع حتى رأس الوادي
(عند مصب العطبرة بالنيل) ، وسكان هذه المجموعة أقل عدداً من المجموعة الاقليمية
الأولى ويرجع ذلك إلى طبيعة بلادهم الصخرية القاحلة ، وبخاصة في القسم غربي بلدة
« أبو حمد » وتنقسم هذه المجموعة إلى : -

(١) دار المناصير - من الشلال الرابع حتى غرب أبو حمد - تميزت هذه المنطقة
بأن أراضيها الصالحة للزراعة تنحصر على شاطئ النيل الصخري بسبب طغيان الرمال
على الأراضي الخصبة، وقد دفعت هذه الحالة من الجذب إلى فقر السكان واحترافهم
السطو على القوافل ، وقد عرفت هذه المنطقة في الزمن القديم باسم « شنقير » ومعناها
« نقود » أو « مال » ، وكانت هذه البلاد معروفة بهذا الاسم قديماً لوقوعها على الطريق
إلى مناجم المعادن في صحراء العظمور .

(٢) دار الرباطاب - تبدأ من حلة الشماخية (غرب أوحد بنحو خمسين كيلومترا) حتى الشلال الخامس (شمالي بلدة العبيدية)، وهذه منطقة أكثر يسراً من دار المناصير وتتألف القبيلة التي تسكن هذه البلاد من شعب كثيرة منها الكبير في مجموعته ومنها القليل وكانت لهم زعامتان إحداهما في الشمال والثانية في الجنوب .

(٣) دار الميرقاب - تبدأ من الشلال الخامس حتى رأس الوادي وفيها زعامة هذه المجموعة الاقليمية، ومركزها مدينة بربر الشهيرة بمركزها التجاري حيث تلتقي فيها الطرق التجارية بين مختلف البلاد، عن طريق النيل جنوباً إلى الخرطوم وما بعدها وتتصل عن طريق القوافل بموانئ البحر الأحمر .

وطغيان الرمال على الاراضى الخصيبة في هذه المنطقة واضح الاثر .

والعلاقات بين المجموعتين الاولى والثانية وثيقة العرى في مختلف نواحي النشاط. وما زالت هذه المنطقة بمحولة تماماً من الناحية الاثرية (الأركيولوجية) وقد ورد ذكر بعض بلدان من جنوب هذه المجموعة في لوحة ملك أكسوم عيزانا الذي غزا بلاد مرو (بين نهر العطبرة والنيلين الأزرق والرئيسي) .

اللغة السائدة هي العربية العامية متأثرة باللهاجات الخاصة بالبطون كل في منطقته وما زالت اللغة محتفظة بالكثير من الكلمات النوبية القديمة كما احتفظت بعض الاماكن بأسمائها القديمة مع بعض التصحييف .

ج - المجموعة الاقليمية الثالثة :

تبدأ من الجانب الايسر لنهر العطبرة حتى شمالي « أربجي » ، وأرضها أكثر خصباً وإنتاجاً من سابقتها وشملت : -

١ - الدامر - وقامت فيها زعامة بيت المجاذيب الدينية .

٢ - دار الجعليين - ومركزها شندى حيث يقيم الملك وضمت بعض المشيخات الصغيرة وحدث فيما بعد قيام أكثر من زعامة للجعليين خضعت لسلطان العبد اللاب المباشر .

٣ - دار العبد اللاب - من جنوب شندى حتى شمالي بلدة « أربجي » وضمت هذه بعض المشيخات المتفرقة على حوض النيل وفي شمال الجزيرة ومركزها في بلدة « قري » حيث أقام عبدالله جماع ، الذي مارس سلطاته المباشرة على هذه المجموعة وقد امتدت

سلطانه على هذه المجموعات الأخرى بأسم السلطان السنارى . واحتفظت دار العبد
اللاب فى حدودها على ما كانت عليه « علوه » .

د — المجموعة الاقليمية الرابعة :

احتلت هذه المجموعة قطاع الحكم السنارى، الذى شمل أرض الجزيرة من مدينة
« أربجى » شمالا حتى دار فنج جنوبا وفيها مشيخات خشم البحر . فازوغلى . كنجارا،
ومن ناحية الشمال فقد امتد القطاع عبر البطانة متخذاً طريقاً شمالياً شرقياً ، للحفاظه
على طرق القوافل بين داخلية البلاد وموانى البحر الارتيرى وشمل هذا القسم من
القطاع مشيخة رأس الفيل والجزء الجنوبى من ولقايت وتعرضت أطراف هذا
القطاع لمنازعات بين ملوك أتوبيا وسلاطين سنار .

* * *

٢ — مناطق الرعى والزراعة البرائية :

المجموعة الاقليمية الخامسة :

قامت هذه المجموعة فى أرض البطانة التى تحد جنوبا بالنيل الأزرق ورافد الرهد
شرقا، وتتعدى حدودها الشمالية حوض العظيرة وتفصل بين هذه المنطقة والنيل الرئيسى
(بين العظيرة والخروطوم) المدن والأراضى الزراعية القائمة على النيل . وقد قامت
فى هذه المنطقة أكثر من ولاية، عصفت بها الحروب الداخلية وغزو الاتيوبيين مما
ساعد على طغيان الرمال بطبقات كثيفة بفعل الرياح الموسمية التى تعرف بالهبوب .
ففقدت بذلك الأرض خصائصها وهجرها أهلها وتحول من بقى منهم الى حياة الرعى،

المجموعة الاقليمية السادسة :

تحتل هذه المجموعة المنطقة رقعة الصحراء الشرقية التى تبدأ من جنوبى أسوان
حتى دهلك (مصوع)، وتكاد أن تكون هذه المنطقة صورة لما كانت عليه مملكة
نقيس التى ذكرها اليعقوبى والتى تسكمنها عنها فيما سبق .

ولم تكن هذه المنطقة واقعة تحت سيطرة السلطنة السنارية المباشرة، وبخاصة الجزء الجنوبي منها، الذي تعرض فيه سلطان الفنج للامتداد والانكماش، متأثراً بالعلاقات مع البشا والأتوبيين، بخاصة بعد القتال المرير الذي حدث في القرن السادس عشر الميلادي^(٩٨)، كما حدثت منازعات وقتال بين سنار وأتوبيا بسبب الحدود.

المجموعة الاقليمية السابعة:

احتلت هذه المجموعة الصحراء غرب النيل من دنقلا شمالا حتى تقلى جنوبا، وتعرضت هذه الرقعة لاعتداء سلاطين السودان الغربي والفور. وكانت القوافل التجارية بين مختلف البلدان الافريقية وحوض النيل تخترق هذه المنطقة، في نقل السلع المتبادلة بين حوض النيل وموانئ البحر الارتييري من ناحية وداخلية أفريقيا من ناحية أخرى. وإلى هذا يرجع اهتمام سلاطين السودان الغربي والفور بالعمل على امتداد نفوذهم إلى هذه المنطقة.

ولم تكن ولاية تقلى من القوة بمكان عند قيام السلطان السناري في حوض النيل الأزرق، وبقيت على هذا الحال حتى اشتداد المنافسة بين سنار والفور. في القرن السابع عشر الميلادي.

• تطورات الوضع السياسي :

يحمل بنا قبل أن نتعرض لحياة المجتمع في مختلف مظاهر نشاطها، أن نتعرف على الوضع السياسي وتطوراته، كما نتعرف على العلاقات والروابط التي كانت قائمة بين شطري الوادي (مصر والسودان)، بخاصة والعلاقات مع دارالاسلام بعامة، وذلك في الفترة التي سبقت انتقال السلطنة الزرقاء^(٩٩) إلى حوض النيل الأزرق. ولا شك في أن التعرف على العلاقات والروابط، التي أشرنا إليها سوف يفسر لنا تطور حياة المجتمع، كما تصور لنا سلوك الأفراد في هذا المجال الذي تأثر بالآراء التي نقلت إليه، وما ترتب على ذلك من تقدم.

(٩٨) أنظر الملحق الثاني لمذكرات الضابط الإيطالي تالا موت.

(٩٩) عرفت السلطنة السنارية بالزرقاء وسلطنة الفور بالحضراء ومصر بالسلطنة الحمراء.

فقد قامت في البلاد دويلات ومشیخات إسلامية على أنقاض ما كان قائماً من دويلات مسيحية أو شبه مسيحية ووثنية ، وكان لزاماً بعد أن استكملت تلك الدويلات والمشیخات الإسلامية مراحل تطورها، أن تتطلع إلى سلطة مركزية تجمع في صورةٍ ما ، بين تلك الدويلات والمشیخات (١٠٠) استجابة لدوافع النمو الطبيعي .

كانت البلاد أصلاً محكومة بملوك مؤهلين ، وكان كل شيء ملوكاً لهؤلاء المؤهلين ، وكان طبيعياً أن تتغير تلك النظم بدخول المسلمين إلى البلاد ، في هجرات جماعية متلاحقة ، وكان شأن تلك الهجرات العربية في صدر الإسلام مختلفاً كل الاختلاف عما عرفته البلاد في علاقاتها وصلاتها من العرب قبيل الرسالة المحمدية ، فقد كانت تلك العلاقات والصلات محصورة في نطاق التبادل التجاري ، وما إلى ذلك من معاملات . أما في العهد الإسلامي فقد خرج العرب من بلدهم في أخطر تجربة وأقساها هدفها بناء (أمة) إسلامية لها قوميتها الموحدة ، تضم المواطن التي امتدت إليها رسالة الدين الجديد . وكان طبيعياً أن تظهر مشاكل كثيرة بعد التوسع الإسلامي ، الذي شمل مناطق متباينة من النواحي الاجتماعية . وقد احتلت هذه المشاكل اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، الذي أخذ بمعاونة مستشاريه في وضع دستور للدولة الإسلامية الكبرى ، إلا أن المنية قد عاجلته ولعبت بعد ذلك الفن والقلقل دورها ، والتي كان من أبرز نتائجها تعطيل الحركة التهذيبية التي جاءت مع رسالة الإسلام ، وتغلب الخصائص والمميزات الشخصية لمختلف الشعوب ، التي امتد إليها سلطان المسلمين . دفع الوضع الإقليمي للسودان إلى الدخول في روابط اقتصادية مع البلدان الإسلامية ، الواقعة خلف حدوده ، كما اتصل مع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ، أما عن العلاقات بين شطري الوادي (مصر والسودان) فإنها قد كانت أعمق أسساً مما كانت عليه مع البلدان الأخرى من دار الإسلام وغيرها ، ومرجع ذلك إلى أن شطري الوادي يطلان على منفذين إلى المحيطات ، وهما البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، كما أنهما يحتلان المدخل الأول إلى قلب القارة الأفريقية (١٠١) ، الأمر الذي

(١٠٠) أنظر نهاية الفصل السابق حيث أوضحنا الدويلات والمشیخات التي كانت قائمة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) والتي دخلت في حلف مع السلطات السنارية .

(١٠١) راجع خريطة نغرة ٥

وجهود موحدة ، للاستفادة من هذا الوضع الاستراتيجي ، بما فيه مصلحة البلدين ،
ولانريد أن نذهب بعيداً في توضيح الصلات البعيدة العمق ، ويهمننا أن نحدد
العلاقات في فجر الاسلام وفي السنوات التي تلت ذلك (١٠٢) .

* * *

ورد ذكر النوبة لأول مرة في وثيقة إسلامية هي عهد الأمان الذي أعطاه عمرو
ابن العاص لأهل مصر ، ونصه كالآتي كما ذكره الطبري (١٠٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو ابن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم
وكنائسهم وصلبهم (مفرداً صليب) وبرهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شيء من ذلك
ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا
على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصونهم ، فإن
أبي أحد منهم أن يجيب ، رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا بمن أبي بريئة وأن نقص
نهرهم من غايته إذا انتهى ، رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم
والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبي واختار الذهاب ، فهو آمن حتى
يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا عليهم ما عليهم ، أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم .
على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته ورسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذم
المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً
على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله
ومحمد أبناء وكتب وردان وحضر .. وذكر النوبة في هذه الوثيقة
إن دل على شيء فهو يدل على ما كان عليه النوبة من نفوذ اقتصادي بالنسبة
للتجارة الواردة والصادرة عبر بلادهم . ثم أن الأمور لم تكند تستقر في مصر بعض

(١٠٢) راجع المجلد العاشر من موسوعة « مصر القديمة » للدكتور سليم حسن

(١٠٣) الطبري طبعة غوي . القسم الأول صفحة ٢٥٨٨ / ٢٥٨٩ - نشرها استاذي اين
بول في أعمال الأكاديمية الايرلندية الملكية المجلد ٢٤ ص ٢٢٧ / ٢٣١ .

الشيء ، حتى أرسل عمرو ابن العاص حملتين إلى الحدود الجنوبية لوقف التعدي من القبائل القاطنة في جنوبي أسوان ولتأمين الحدود وافتحها للتجارة ، وكانت حملة تحت أمره عقبة ابن نافع ابن عبد القيس الفهري (أخ عمر ولامه) وأخرى بقيادة عبدالله ابن سعد بن أبي سرح ولا يعلم بالضبط أي الحملتين قد سبقت الأخرى ، وقد ذكر البلاذري (١٠٤) أن حملة عقبة بن نافع الفهري قد أرسلها عمرو ابن العاص بعد فتحه لمصر ، وأن هذه الحملة قد انصرفت بجراحات كثيرة ، والمؤكد على أي حال أن حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح قد أرسلت في سنة عشرين أو في إحدى وعشرين من الهجرة ، وأنها اشتبكت مع النوبة في قتال انتهت إلى « مصالحة هدنة » ، تقرر فيها تبادل بعض المعونة والهدايا فكان على النوبة أن يقدموا إلى المسلمين ثلاثمائة وستين رأساً الخ الخ ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المصالحة قد جاء فيها « وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم (يشير إلى النوبة) ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان » وقد عرفت مصالحة الهدنة هذه بالبقط (١٠٥) . وقد أصدر عبدالله بن سرح عهده هذا عقب حملته الثانية ، التي دخلت بلاد النوبة حتى مدينة دنقلة ، وذلك في العام الحادي

(١٠٤) البلاذري ف ٢٣٨ وما بعدها .

(١٠٥) البقط ما كان يؤخذ من النوبة في كل عام في قرية القصر التي تقع جنوبي مدينة أسوان بما يقرب من الخمسة أميال ويرجم هذا الاصطلاح إلى الأصل الرومي ، حيث يعرف هذا النوع من الاتفاقات بـ (bactum) ومنها (Pact) وتدل هذه المصالحة لحسم خلاف بين دول لا غالب ولا مغلوب بل أن الطرفين أو أكثر متعاقدين على قدم المساواة وهي أقرب شيء في تفسيرها إلى أنها عربون صداقة متبادلة أما البقط الذي اصطلاح عليه العرب عقب غزوة عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام عشرين أو واحد وعشرين هجرية هو ثلثمائة وخمس وستين رأساً من الرقيق لبيت مال المسلمين والامير بمصر غير ما ذكر أربعون رأساً ولخليفته المقيم بأسوان وهو المسئول لقبض البقط عشرون رأساً وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس ولأثنى عشر شاهداً عدولاً من أهالي أسوان يحضرون مع الحاكم قبض البقط اثني عشر رأساً من الرقيق وكانت النوبة قد دفعت إلى عمرو ابن العاص أربعين رأساً من الرقيق فلم يقبلها وردّها إلى كبير البقط الذي اشترى بثمنها جهازاً وخمراً وأرسله للملك النوبة وبعث عبد الله بن أبي سرح ما وعد النوبة به من الجبوب قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً ثم تطاول الرسم على ذلك فصار رسماً يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة وصارت الأربعون رأساً التي أهديت أصلاً إلى عمرو ابن العاص يأخذها إلى مصر (أنظر المقرئى المواعظ والاعتبار ص ٢٨٩ / ٢٩٩ الجزء الثالث - نشر في بيت مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية - القاهرة سنة ١٩٢٢) .

والثلاثين من الهجرة عند ما نكشت النوبة العهد السابق ، وذلك بعد وفاة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ظناً منهم ، كما هي عادتهم التي تميزوا بها في مختلف العصور انهم في في نكستهم للعهد الذي قطعوه على أنفسهم في ولاية خليفة سابق، قد يصل بهم إلى تخفيف ما اصطلاح عليه أصلاً . وهذه الظاهرة ما زالت قائمة في المجتمع، وبعد استسلام ملك النوبة فيلدروت تقرر الصلح على ثلاثمائة وستين رأساً من الرقيق في كل سنة ، ووعد عبد الله ابن سعد بهدية سنوية من حبوب وملايس الخ وكتب عبد الله ابن سعد أماناً، اشترط لقيامه ان يؤدي النوبة في نهاية كل عام عدداً من الرقيق تحددت أوصافه . كما اشترط عدم التعرض للمسلمين من إقامة شعائرهم الدينية وحفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقله وغير ذلك ، ولم يشر الجانب العربي إلى ما وعد به عبد الله بن سعد من حبوب وملايس الخ (١٠٦) . وقد وفي الجانبان العربي والنوبي بالتزاماتهما حفظاً للعلاقات الوثيقة، الأمر الذي استمر نافذاً أكثر من ستة قرون، حتى حدثت تطورات في العلاقات السياسية بين شطرى الوادى في القرن السابع الهجرى كان من نتيجتها قيام حلف جديد ربط بين شطرى الوادى وسوف نتعرض لهذه التطورات فيما بعد .

هذا ما كان من العلاقة مع البلاد النوبية التي على حوض النيل الاوسط . أما العلاقات مع البشا (البجة) فقد تحدت في عقد الأمان الذى أعطاه عبد الله بن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البشا في عام ٢١٦ هجرية (٨٣١ ميلادية) وقد سبق أن أوضحنا ما جاء في ذلك العقد (١٠٧) من امتيازات منها أيلولة ملكية القطاع من جنوب أسوان حتى جنوب دهلك (مصوغ) للخليفة .

وحدث في عهد المماليك البحرية تدهور في العلاقات بين المماليك ، الذين ألت إليهم مقاليد الحكم وبين العرب والعربان المسلمين في القطر المصرى . وكان ذلك مدعاة لقيام العربان بأثارة الفتن والقلاقل ، وكانت البلاد مهياة لتلك الاحداث لسبب ما تغلغل

(١٠٦) أنظر المقرئى ص ٢٩٦ جزء ثالث .

(١٠٧) راجع عقد الأمان في صفحة ٢٢ وهامش ٥٨

حدث أن نقض البشا عهدهم بعزو صعيد مر الأعلى حتى بلدة اسنا وذلك في عام ٢٤١ هجرية (٨٥٥ ميلادية) في عهد الخليفة جعفر المتوكل وأرسلت حملة لتأديبهم واضطر كبير البشا إلى التسليم فأحسن العرب معاملته وأرسل مكرماً ليطأ بساط أمير المؤمنين في بغداد . وكانت هذه الجملة تحت أمره محمد بن عبد الله القمى .

في المجتمع المصري من آراء وأساليب جديدة من العهود السابقة ، وقد قتل في هذه القلاقل ألوف من العربان فقدوا ما شيتهم وممتلكاتهم ، وذهب الكثيرون منهم صوب شطر الوادي الجنوبي هرباً من انتقام الممالك ، وتوالى حملات الممالك نحو الجنوب ، حيث كثرت المشاحنات والحروب الداخلية ، التي عطلت الحياة وهددت البلدان الواقعة شمال الشلال الأول . وانتهت الحملات التي أرسلها الممالك على النوبة بأن أجلس شكنده (١٠٨) على كرسي الملك في دنقله في عام خمس وسبعين وستمئة هجرية (١٢٧٦ م) ، ولما نصبوه حلفوه بأن يكون نائباً للسلطان وجرى قسبه كالآتي « والله والله والله وحق الثالوث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية ، والأنبياء والرسل الخواريين والقديسين والشهداء والابرار ، وإلا أجدد المسيح كما جدد ديوس وأقول في فيه ما تقوله اليهود ، وأعتقد ما يعتقدونه ، وإلا أكون ديوس ، وأطعن المسيح بالحربة ، كما طعنوه اليهود ، انني أخلصت نيتي وطوبى من وقتي هذا وساعتي هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الطاهر ركن الدنيا والدين بيمبرس خلد الله ملكه وانني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته ، وانني ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على في كل سنة تمضي ، وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يتحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة ، وأن يكون النصف من المتحصل لمولانا السلطان مخلص في كل فن (حق) ، والنصف الآخر مرصداً لعبارة البلاد وحفظها (حفظها) من عدو يطرقها ، وأن يكون على في كل سنة من الأفيلة الثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربع مائة رأس ، وانني أقرر على كل نفر من الرعية الذي تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً ، وانه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخوه (أخيه) شنكوا ولأمه ولأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور ، أحمله إلى الأبواب العالية ، وانني لا أترك شيئاً منه قل ولا جل ولا أخفيه ، ولا أمكن أحداً من اخفائه ، ومتى خرجت عن شيء مما قرر على أعلاه كنت بريئاً من المسيح ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دين النصرانية ، وأصلى لغير الشرق وأكفر بالصليب ، وأعتقد ما يعتقدونه اليهود ، ثم انني لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً ، ومن وجدته احتطت عليه ، وأرسلته إلى الأبواب العالية ، وانني مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت مولانا السلطان في وقته وانني لا أنفرد بشيء من الأشياء

وانتى عبد مولانا السلطان عز نصره وغرس صنائعه وسيفه المنتصور ، وأنا ولى من
والاه ، وعدو من عاداه ، والله على ما أقول وكيل وشهيد .

وأقسم شكندة يميناً ثانية : اننى متى ورد على مرسوم السلطان فى ليل أو نهار
يطلبه إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته ، ولا يتأخر بوجه من الوجوه ، إلا
بمقدار ما يدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر (١٠٩) . ومن هذا يتضح لنا أن شطر
الوادى الجنوبى قد صار وفق ما جاء فى هذه المواثيق التعهدية «دار الصلح» . ولم يمض
طويل وقت حتى كانت الهجرات العربية الجماعية قد تغلغلت فى بلاد النوبة والبشا ،
وكونت عنصراً خطيراً وخاصة بعد مصاهرة المهاجرين للأسرات الحاكمة ، الأمر
الذى مكن أبناء العرب من مقاليد الحكم بفضل التقاليد المحلية التى تمنح ابن الأخت
وابن البنت حق الوراثة دون ولد الصلب ويقولون ان ولادة ابن الأخت وابن
البنت أصح ، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال (١١٠) .

وكان من أثر هذا العهد الذى قطعه شكندة ، امتداد سيطرة سلطان شمال الوادى
المباشرة على المنطقة السفلى للنوبة المعروفة بالمريس ، وهى الواقعة بين الشلال الأول
وبلدة كرسكو ، التى تبعد عن شمالى وادى حلفا بحوالى الستين ميلاً ، وصارت المقررات
المعتادة من الضرائب على البامح والقطن وغير ذلك من المحصولات تدفع للسلطان ،
كما كانت تجبى الجزية من المواطنين الذين يحتفظون بغير الاسلام ديناً وذلك بواقع
دينار واحد عن كل ذكر بالغ . وبعد وفاة السلطان ببيرش تولى الحكم قلاوون
وفى عهده قتل شكندة واستولى على كرسي الملك (Berek) الذى لاقى حتفه على يد
بعض المماليك ، وقام شمعون بأعباء الحكم ، ولم تكن علاقات هذا الملك طيبة مع أمير
(الأبواب) الواقعة على حوض النيل جنوبى مصب نهر العطبرة ، وقد أرسل هذا
الأمير بعثة إلى السلطان شاكيًا (شمعون) لتعرضه للطريق التجارى بين الأبواب

(١٠٩) مفضل ج ٢ ص ٢٣٩ وتاريخ هذا القسم ٢٤ مايو سنة ١٢٧٧ م وجاء فى المقربرى
(ص ٢٩٨ جزء ثالث) عن تقسيم بلاد النوبة « أن تكون بلاد النوبة نصفين نصفها للسلطان ونصفها
لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجبال فانها كلها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد
الجبال فانها كلها للسلطان لقربها من بلاد أسوان وتكون نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل ما بها
من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية
ويدفع كل بالغ منهم فى السنة ديناراً عيناً . . . والنزم (شكندة) أن يحمل جميع ما لداود واسكن
من قتل وأسرى من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم » .
(١١٠) المقربرى ص ٢٦٧ و ٢٦٨

وشمال الوادي . وحاول شمعون أن يضعف من أمر هذه الشكوى ، بإرساله وفدا إلى السلطان ليكسب ثقته ، غير أن السلطان قد أرسل بعض الأمراء إلى الإمارات الواقعة جنوبي مملكة دنقله (١١١) ، كما أرسل مندوبا إلى شمعون ، وقد استطاع أمراء الأبواب والبصرة (والأخيرة واقعة بين النيل وكسلا جنوب شرق شندى) من تدعيم شكائهم من ملك النوبة ، ولهذا أرسل قلاوون حملة عسكرية لتأديب ملكها ، وانتهت هذه الحملة بهرب شمعون وتولية ابن اخته ملكا ، وبعد عودة الحملة عاد شمعون ، واستولى على الحكم ، فأرسلت قوة كبيرة في عام ١٢٨٩ م وقد صحبها اثنان من الأمراء النوبيين ، واستطاع شمعون أن يهرب ثانية ، ونصب ابن أخت الملك داود ملكا على دنقله . وتكررت المأساة بعد عودة حملة بظهور شمعون ، وذلك في ١٢٩٠ م واغتصابه الحكم بعد أن قتل الملك وبعض حكام الأقاليم الشمالية لمعاونتهم للسلطان ، وكتب شمعون إلى قلاوون معلنا ولاءه ، واستعداده لدفع الحزبة المقررة ، وبقي على عهده الذي قطعه فترة من الزمن ، دون أن يقوم بتعكير العلاقات ، وحدثت ثورة قام بها الأمير آنى من حكام الجنوب ، وتولى الملك بوديما (Boudima) الذي كان في مصر الحكم في دنقله بدلا من شمعون . وفي عهد السلطان الناصر محمد قلاوون أرسل عز الدين الأفرم على رأس حملة إلى الأبواب ، التي كان ملكها في مطاردة الأمير الشائر آنى .

وأخذت الأحوال في الجنوب تسير في خطى سريعة نحو النهاية في عام ١٢٩٩ أصيب المماليك بهزيمة في حمص الشام في حربهم مع المغول . وقد كانت هذه الهزيمة فرصة استغلها العربان في مصر في عام ١٣٠٢ ميلادية ، باحداث قلاقل دفعوا ثمنها غالبا في الرجال والمال ، وشرذ من بقي منهم على قيد الحياة فالتجأ الكثيرون منهم إلى بلاد النوبة ، هربا من الاضطهاد وتعقب المماليك لهم ، وأرسل السلطان حملتين في عامي ١٣١٣ و ١٣١٦ ميلادية إلى بلاد النوبة ، التي كان يحكمها الملك كرينيس . وقد صحب الحملة الثانية الأمير النوبى عبد الله برشنبو (١١٢)

(١١١) جاء في مخطوط تاريخ قلاوون ٩ إلى صاحب باره وإلى صاحب التناكه وإلى صاحب كدروا وإلى صاحب ديفوا وإلى صاحب أرى وإلى صاحب صفال وإلى صاحب سانج وإلى صاحب كوسه (١١٢) تربى هذا الأمير في القاهرة تربية إسلامية وقد احتلط اسم هذا الأمير على « ماك ميكل » الذى ذكر في كتابه تاريخ العرب في السودان ان اسمه عبد بن « سنبو » وقال انه زنجى بسبب اسم والده « سنبو » والحقيقة ان الاسم « برشنبو » معناه « ابن الأسد » وكان النوبة يميلون إلى استخدام أسماء الحيوانات حربا على عادة شمال الوادي (أنظر كتيب النوفذ اليونانى في حوض النيل الأزرق) للمؤلف .

ابن أخت الملك داود . وقد أسندت إلى هذا الأمير مقاليد الحكم في دنقله بعد أسر ملكها كرنيس (١١٣) وقريبه ابراهام اللذين نقلوا إلى القاهرة . وانتهت بعزله كرنيس الدولة النوبية المسيحية الشمالية . وسادت البلاد قلاقل ومطاحنات ، بين الجالس على كرسى الحكم والنفر من المغامرين الذين تطلعوا لانتزاع السلطة . فقد حدث بعد عودة الحملة أن قتل كنز الدولة الملك عبدالله واستولى على الحكم ، فأرسل السلطان حملة صحبها ابراهام الذى وعده السلطان بولاية الملك إذا تغلب على كنز الدولة وقد تم له ذلك ، غير أنه لم يعيش طويلا فتوفى عام ١٣٢٣ . وظهر كنز الدولة ونادى بنفسه ملكا على كرسى دنقله . وأرسل السلطان حملة صحبها كرنيس للتخلص من كنز الدولة وأعادت الحلقة المفرغة دورتها بعد عودة الحملة بظهور كنز الدولة واغتصابه مقاليد الحكم . واشتدت الاضطرابات الداخلية ، التى تخللها جهود الجماعات العربية التى دخلت البلاد لتكوين ديارها التى أوضحناها فيما سبق ، واستمرت هذه الحالة أكثر من قرن كان فيها كل من شمال الوادى وجنوبه فى عزلة ، بسبب هذه الاضطرابات الداخلية فى كل منهما . وانتهت هذه الحال بدخول الزعامات القبلية للمجموعات الاقليمية فى اتحاد تزعمه السلطان السنارى الذى انتقل إلى عاصمته الجديدة فى قطاعة الاقليمى الذى شمل حوض النيل الأزرق جنوبى مدينة « أربجى » واستمر السلطان السنارى فى ممارسة سلطانه من عاصمته « سنار » التى أعاد بناءها .

وكان قيام هذا الحلف بين المشيخات المحلية والسلطان السنارى أمراً قرره الاستجابة لعراك حياة مجتمع فى صورة جديدة تمخض عنه ذلك الصراع الحفى بين المجموعات العربية التى دخلت البلاد فى طرف وبين السكان من أهالى البلاد فى طرف آخر ، وقد صهر هذا التزاوج المجتمع الجديد فى قالب تغلبت فيه مميزات البيئة المحلية التى اتخذت من أنساب تربطها بالعرب مدارج ارتقت بها إلى القول بانحدارها من بيوت الأشراف من العباسيين الذين دخلوا البلاد فى أعقاب مختلف الهجرات العربية . وهنالك مجموعات من الوطنيين المستضعفين بقيت محتفظة بمركزها الاجتماعى المتواضع

(١١٣) ورد اسم كرنيس فى وثيقة « دير سمعان » التى جاء فيها - كما حققه مارجليوت على نسخة بودليان - ان كرنيس تولى الحكم فى عام ١٣١٢ م (٧١١ هجرية) بعد مقتل أخيه الذى لم يعرف اسمه وكان ذلك فى العام الثانى من ولاية السلطان الناصر الذى أرسل حملة فى عام ١٣١٥ م إلى دنقلا انتهت بتنصيب عبد الله برشنبو ابن أخت الملك داود (أنظر مقال جريفت « وثائق مسيحية من النوبة التى نشر فى محاضر الأكاديمية البريطانية الجزء الرابع عشر عام ١٩٢٨) .

وتتغير علاقاتها مع أصحاب الاقطاعات سواء كانت قبلية أو فردية عما كانت عليه في سابق العهود، بل بقيت هذه العلاقات على سابق عهدا المتوارث وبخاصة في مناطق المجموعات الاقليمية الاولى والثالثة والسادسة، وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك فئات مستضعفة في المناطق الاخرى، بل كانت هنالك جماعات من السكان الاصليين تحكم فيهم القائمون على الامر، كما هو الحال في المجموعات الاقليمية الاولى والثالثة والسادسة. وأن هذه الجماعات على استضعافها لم تكن موضع تعسف أو اضطهاد، بل كانوا يعاملون كطبقة خاصة، ترتفع في مستواها الاجتماعي على الرقيق، فهم يملكون حرية ممارسة العمل كما يرغبون، ولا يدخلون في المعاملة بالبيع والشراء وكل ما في الامر إمكانية نقلهم من سيد إلى سيد، ولا تربطهم بالسيد إلا بعض التقاليد مثل اصطنائهم للحرب وتقديم بعض الهدايا في المناسبات (كالزواج - الولادة، الطهور الخ الخ)، وقد أخذت هذه التقاليد في الاختفاء السريع.

وهكذا سارت الحياة على أطراف متناقضة استغل بعضها الرؤساء الروحيين، الذين سلكوا بها منهجاً خاصاً أملت عليهم نظرياتهم الخاصة. وسار في الجانب الآخر أصحاب السلطان ولم يكن بين هذه الجماعات ما يربط بينها نحو أهداف معينة. فكل من المعسكرين اتخذ طريقه نحو تحقيق مصلحته الذاتية. وكان طبيعياً والحالة هذه أن تعطل الحياة وأن تتهي إلى ما وصلت إليه من تعطيل الشعور عند الأفراد بضرورة التطور الذي يتمشى مع طبيعة الاشياء. ويمكن فقدان التوازن بين المعسكرين الروحي والمدني من تهديد الطريق وتعبيده للجماعات القوية لتستولى على الحكم كلها سنحت الفرص التي يضعف فيها رجال الصدارة من هذا الفريق أو ذاك.

٥ - المجموع :

١ (بيئته - حياته - مظاهر نشاطه الاجتماعي :

جاء المهاجرون كما سبق أن أوضحنا في جموعهم التي بدأت في قلة بعد فتح مصر (١١٤) ثم أخذت هذه القلة تتزايد تدريجياً حتى تحولت إلى موجات متلاحقة من الفارين من شمال الوادي وذلك في القرنين السابع والثامن من الهجرة (الثالث عشر والرابع

(١١٤) لقد حدد العهد الذي أعطاه عبد الله بن سعد بن أبي سرح من الهجرة إلى البلاد جنوبى الشلال الأول واتخاذها موطناً غير أن هذا الخطر قد أهمل بعد أن استعاد سكان الوادي ما بينهم من قديم الصلات والروابط.

عشر الميلادى) ، ويرجع تطور الخروج من شمال الوادى فى موجات من الفارين إلى ما أصاب القوم من اضطهاد وعدوان من المماليك الذين تملكوا زمام الحكم فى مصر بعد انتزاعه من العرب أصحاب السلطان أصلاً والذين نظر إليهم المماليك ، وبخاصة المماليك البحرية ، كعنصر غير مرغوب فى بقائه فى البلد الذى آلت إليهم مقاليد حكمه وذلك لخوف المماليك وقلقهم من قيام العرب والعربان باشاعة الفتن والثورات ، فى كفاح لاسترداد سلطانهم المغتصب . ولم يكن هناك من طريق غير هجرة العرب للخلاص مما حاق بهم بسبب ما حدث فى مصر من تغيرات ، بانتزاع أداة الحكم وانتقال السلطان من أيدي العباسيين إلى الطولونيين الاخشيديين ثم إلى الفاطميين فالأيوبيين والمماليك .

وجاءت إلى جنوب الوادى فى ركاب هذه الهجرات مختلف العقائد والمذاهب الفكرية وبخاصة مع اتباع الفاطميين من جند وغيرهم (١١٥) . وقد بلغ النزاع أشده فى أوائل القرن السابع الهجرى عندما أنزل المماليك بالعربان أفدح الخسائر (١١٦) ، الأمر الذى بلغت معه موجات الفرار ذروتها فى طريقها صوب جنوب الوادى حيث الملجأ الطبيعى .

جاءت هذه الجموع ولها من القوة الروحية ، المستمدة من الحماس للرسالة الدينية الجديدة ما جعلها تتغلغل فى سرعة فائقة فى المجتمع المحلى ، وتكتسح أسسه التى قامت فى ظل نوع من العبادات لم يكن راسخ الأركان بل كان طابعه الغالب تلك البقايا من المعتقدات القديمة التى ورثوها من عهود الوثنية السحيقة فى قدمها والمتعددة المعبودات وكان يسيراً على المهاجرين العرب تفويض جهاز الملكية التى مارسها رجال مؤهلون من رجال الكهنوت . وقد وجد المهاجرون عوناً على ذلك عن طريق المصاهرة ، كما تمكنوا من إنشاء مشيخات وملوكيات ، يحكمها زعماء القبائل التى اختار كل فريق منها المنطقة التى تناسب مع بيئته ، بالقدر الذى قدمته الظروف المحلية فى الوطن الجديد ، وأخذت الزعامات القبلية العربية فى تكوين ديارها التى أخذت فى التوسع بانضواء المجموعات القليلة العدد الضعيفة الجانب فى حمى هذه القبيلة أو تلك . وتمكنت الزعامات العربية من السيطرة الكاملة على مصير الوطن الجديد فى مختلف مناطقه

(١١٥) جاءت مع هؤلاء المذاهب الشيعية التى انتشرت فى صورة أخرى غير ان مدي انتشارها ضيق جداً وهذا الموضوع جدير بالدراسة واناها ما زالت باقية إلى اليوم
(١١٦) المقرئى البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب

الاقليمية في البادية وفي الحضر وفي الريف . ولم يحاول المهاجرون انتزاع السلطان من الاسرات الحاكمة المحلية بقوة السيف بل تركوا الامر لياخذ طريقه العادى ، وشغلوا أنفسهم بتوطيد أقدامهم في الأرض الجديدة موضعاً موضعاً ، فنهضوا من اشتغل بالزراعة وممارسة الحرف في المدن وفي مواطن الخصب ، واختلط بذلك مع السكان اختلاطاً كاملاً ، وشاركهم في حياتهم ومظاهر نشاطهم ، ومنهم من ضرب في مسالك الصحراء يخط سجل حياته بين خطى بعيره ومضارب خيامه ، يردد أناشيده وأشعاره التقليدية ، عازفاً بزمماره متنقلاً من واد إلى وادى ، طلباً للمواطن المرعى في مختلف مواسمها . وكان اختلاط هؤلاء بأهل المدن في أضيق الحدود . ومن المهاجرين أيضاً من اشتغل بنقل التجارة على ظهور الإبل على الطرق الصحراوية بين النيل وموانئ البحر الأحمر وشمال الوادى والمناطق المجاورة ، كما اشتغلت جماعات في استخراج المعدن (١١٧) . وكان اختلاط هؤلاء بالقبائل التي سكنت ساحل البحر الأحمر .

واستطاع المهاجرون المحافظة على تقاليدهم العربية الموروثة بفضل تتابع الهجرات المتلاحقة ، والتي كانت تحمل دائماً في ركبها دماً عربياً جديداً ، الأمر الذى حال دون غلبة التقاليد واللغات المحلية غلبة كاملة كما كان متوقفاً أن يحدث بين جماعات اتخذت الزوجات والسرارى من أهل الوطن الجديد ، الأمر الذى تحمى معه الحياة الشعبية المحلية بامتصاص الوافدين ، وتكييفهم بعد صهرهم في قالب الحياة المحلية فتدخل لغة الوافدين وتقاليدهم في صراع مع منافساتها من المحليات . غير أن هذا الانتصار الذى كسبه العرب في الجولة الأولى من صراعهم السلمى ، لم تكتب له الغلبة النهائية بعد أن نضب معين الهجرات المتلاحقة ، وبعد مضي الزمن الكافى فى الاضطراب الحفى بين العرب وأهل البلاد ، وكان أثر ذلك واضحاً فى العرب الذين اشتغلوا بالزراعة ومارسوا الحرف ، ولا شك أن دراسة علمية منظمة فى مختلف المهاجر سوف تكشف الكثير عن التطورات ، التى حدثت كما تبين ما كان من روابط بين المناطق وبعضها ودراسة اللهجات المحلية وما أصابها من تغيير وتبدل سواء كانت عربية خالصة أو محلية ، سوف يزيل الستار عن مراحل الصراع فى البيئات الاقليمية المتباينة .

(١١٧) يقول المقرئى ص ٢٧٧ « وقدم عليهم مشيراً إلى البشا » أبو عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحميد العمري بعد محاربته النوبة فى سنة خمسة وخمسين ومائتين ومعد ربيعاً وجهينه وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة فى البجة (الباشا) حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التى تحمل من القلزم الى عيذاب .

أحدثت الهجرات في مراحلها المتعاقبة كما سبق أن أشرنا تطورات في نظم الحكم ، وفي حياة المجتمع ومظاهر نشاطه الاقتصادية والسياسية فقد أزلت ما كان قائماً من فوارق بين الراعى والرعية ، وما بينهما من عبودية مطلقة واستردت الرعية حريتها الفردية ، بزوال جهاز الحكم المتوارث وقيام التقاليد النبلية العربية بعد أن كانت مقاليد الحكم تنتقل إلى ابن الاخت أو ابن البنت ، وصارت الأرض ملكاً للجماعة النبلية متمثلة في شخص زعيمها ، بعد أن كانت ملكاً خاصاً لرئيس الدولة أو موقوفه على المعابد وكان الأهليون عبيداً لا يملكون الأرض ، بل يعملون عليها لمصلحة الحاكم ورئيس المعبد أو من ينوب عنها (١١٨) . ولم يكن ذلك النوع من التقاليد التي أقامها النظام القبلي من حيث زوال قدسية الحاكم واختفاء الفوارق بين الأهالي وصاحب السلطان ، وصارت الأرض توزع على الجماعة يقومون على استغلالها ، ودفع الجعل المعين لشيخ القبيلة أو زعيم الدار ، إلا مرحلة من مراحل التطور من النظام الإقطاعي المطلق إلى نظام يعطى للفرد نصيباً من جهوده ، بعد دفع الأتاوة المعينة للزعيم الذي يقوم بدفع جزء منها لحاكم الدار . ولم يكن نظام توزيع الأرض الزراعية ، بين أفراد القبيلة عادلاً مطلقاً ، يقتنع به الجميع حتى لا يكون نواة للتدمير الذي يبدأ خفياً ثم يتخذ طريقه نحو الظهور في شكل أو آخر .

جاء المهاجرون من العرب تظاهروا القوة المعنوية المستمدة من أسس الدين الجديد ، الأمر الذي أكسب هؤلاء القوم مظهراً قوياً ، تضاءلت أمامه الروح المعنوية المحلية ، وكان من اليسير أن يستولى العرب على مشاعر سكان السودان الذين كانوا في حالة من الانحلال والفوضى ، التي أخذت في الازدياد منذ اللحظة الأولى لدخول المسيحية في البلاد . وقد كانت ربوع السودان بعد دخول المسيحية إليها بعيدة لحد ما عن متناول السلطان الأجنبي (البطلاني والرومي) الذي سيطر على مصر . وكان لزاماً والبلد تدين بالوثنية والعبادات القديمة ، أن يعمل رجال الكهنوت عند دخول

(١١٨) المقريري ص ٢٨١ / ٢٨٢ جزء ثالث . وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم (النوبة) بوفد وفدهم إلى الفسطاط ذكروا عنه أناساً من أهل مملكته وعبيده باعو ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العمارين « وكان أن أنسكر النوبة الاقرار للملكهم بالعبودية وطالبوا بمعاملتهم كالمسلمين في علاقاتهم مع حكامهم . أنظر نفس المصدر ٢٦٣ / ٢٦٤ عن مملكة علوة حيث يقول نقلا عن ابن سليم الأسواني « وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا يذكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع لهم وينادون الملك « يعيش فليكن أمره » .

المسيحية ، وقد كانت مقاليد الأمور الدنيوية والدينية في يدهم ، أن يعملوا على تكييف رسالة الدين بالطابع المحلي الذي يخدم مصالحهم الخاصة أولاً . فكان هؤلاء الكهنوت أول من تقبل الدين الجديد ، واعتنقه ليحتفظ بمركزه في المجتمع لئلا يرس تقاليد وعقائده الموروثة في ظل الدين الجديد ، وحتى لا تفلت من أيديهم مقاليد الحكم التي توارثوها عن آباؤهم وأجدادهم ، وقد ساعد التطاحن المذهبي بين اليعقوبية والملكانية على اضمحلال مركز البعثين التبشيريين ، فقد أرسل الإمبراطور جوستنيان بعثة للتبشير بالمذهب الملكاني كما أرسلت في نفس الوقت الإمبراطورة تيودورا زوجته بعثة أخرى للتبشير بالمذهب اليعقوبي وكان ذلك في حوالى عام ٥٤٣ ميلادية .

وحاول رجال كل من البعثين ضم أكبر عدد ممكن من الأنصار ، إلى هذا المعسكر أوذاك لتساعد الكثرة على التفوق على الفريق النليل العدد ، دون اعتبار إلى رسوخ العقيدة من عدمه ، وهكذا تحولت الجهود التبشيرية لغير الغرض الذي جاءت من أجله ، باستخدامها مختلف الوسائل والدعايات للقضاء على الفريق المضاد ، وطبيعياً أن يكون ذلك على حساب الدين ، الذي جاؤوا به مبشرين وقد أفاد هذا الوضع سكان البلاد وقادتهم لتثبيت أقدامهم في ظل الرسالة الجديدة وهكذا استطاعت البلاد المحافظة على الكثير من تقاليدها في ظل المعركة التي تبادل فيها كل فريق الغلبة إلى حين ، حتى جاء الاسلام إلى مصر فكانت أن تمكنت اليعقوبية التي أزرها العرب ، وهى دين الكنيسة المصرية من القضاء نهائياً على الملكانية مذهب الباباوات ، الذى أيده الرومان وقد بقيت التقاليد الوثنية فالمسيحية المتوارثة في صورة أو أخرى حتى يومنا هذا . ومن تلك التقاليد الباقية « الطاقية أم قرين » التي يلبسها الملوك وسوار الذهب (١١٩) ، ومراسم تقاليد الحكم للبشيوخات الصوفية أو الادارية ، ومنها أيضاً ما هو متبع في استقبال إمام المسجد في أيام الجمعة ففي بعض المناطق يستقبل الامام عند باب المسجد ، ويسير أمامه حامل السيف الخشبى التقليدى أو « العكاز » حتى باب المنبر حيث يسلم إلى الامام قبل صعوده المنبر (١٢٠) ومنها صليب الكحل على جبهة الطفل وعملية التغطيس في الماء (١٢١) .

(١١٩) أبو صالح الأرمي س ٢٦٠ ومقال كروفورد « الطاقية أم قرين » الذى نشر في مجلة السودان في مذكرات ومدونات ص ٣٣٣ / ٣٤ من المجلد السادس والعشرين (عام ١٩٤٥) وبما يجدر التنبيه اليه أن « القاف » في « أم قرين » تنطق كحرف الجيم عند أهل مدينة القاهرة أو كالفاء الصعيدية .

(١٢٠) حامل السيف الخشبى « أو العكاز » هذا يمثل صورة من الصور التي ترمز إلى الوظيفة التي يحتلها « الجندي » وسنعرض لهذا في مراسيم تقاليد الحكم .

(١٢١) عملية التعميد .

ويرجع بقاء هذه التقاليد وممارستها في ظل الاسلام إلى تلك الجماعات من الأشراف واضرابهم ممن انتشروا في دار الاسلام ، بعد ولاية عثمان رضى الله عنه للخلافة بعد أن منعهم الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من الهجرة ، وكان لهؤلاء وما تميزوا به من حرص على المال وطمع في الاستكثار منه ، وهم في ذلك إلى العقائد والرغبات التي استقرت في أعماق نفوسهم من ممارستهم التجارة قرون عديدة كانت مقاليدها في يدهم وهم سدنة البيت الحرام وقد أكسبتهم خبرة في الأعمال الاقتصادية وولايتهم للقوافل ، الحنكة والدهاء ونفاذ البصيرة كما جعلتهم أن يزدروا بالقيم التي جاء بها الدين الاسلامي ، في سبيل مصلحتهم القريبة والبعيدة ، فاستطاعوا أن يكتفوا الوضع الديني الجديد بما يتناسب مع مغامراتهم بعد أن فقدوا طريقهم إلى الولاية والسلطان . وجاء في مخطوطة « تاريخ سنار » . « وأيضاً في مدة خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد قدم إليه جماعة من بر السودان وهو ببغداد وطلبوا منه أن يرسل معهم علماء يعلموهم أمور الديانة فأرسل معهم سبعة علماء من بني العباس ووصلوا إلى دنقلة وأقاموا بها وتنازلت منهم ذرية (١٢٢) كثيرة ، وإذ أرجعنا إلى كتاب الطبقات نجد تصويراً لحالة البلاد العسكرية والروحية ، كما تناقلتها الأجيال حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث دونها الشيخ ضيف الله في طبقاته (١٢٣) وليس من شك أن كثيراً من التعديل تغيير وتبديل قد أصاب الروايات التي أخذت سبيلها عن طريق النقل الشفوي من جيل إلى جيل وقد بعدت الشقة في بعض التراجم لاكثر من ثلاثة قرون وهذه الفترة الطويلة كفيلة باحداث ما نجده من خوارق للعبادات وكرامات أراد بها ناقلوها وهم اتباع هذا الشيخ أو ذاك أن يرفعوا من قدره بالنسبة لغيره . ويجدر بنا أن نذكر ما للبيئة المحلية والزوجات والسراري من أهالي البلاد

(١٢٢) بنصه من مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٢ - دار الكتب المصرية (صورة شمسية تقلا عن المخطوط المحفوظ بالكمية الأهلية بباريس تحت رقم ٥٠٦٩ يدو ان هذا الطالب قد تقدم به بض حاشية قيرقي ابن كبير النوبة زكريا بهنسي الذي قدم على المعتصم (٢٠٨ - ٢٢٧ هـ ٨٣٣ - ٨٤٢ م) لنسوية مشكلة البقط المتأخر كما يدو ان قيرقي قد ضجبت نفر من مسلمي دنقلة لتسهيل مهمته في بغداد .

(١٢٣) قام بنشر كتاب الطبقات الأستاذ سليمان داود منديل في عام ١٩٣٠ كما قام الأستاذ الشيخ ابراهيم صديق بنشر طبعة أخرى في عام ١٩٣٠ م بعد أن حقق ما جاء فيها وعاق عليه وهذا الكتاب جدير بالدراسة الخاصة في مختلف نواحي الموضوع وفي مقدمتها تحقيق ما جاء في الكتاب وتلقيته مما قد يكون مضافا اليه لغرض ما .

من أثر في تكييف الحال التي كانت تختلف باختلاف مناطق نفوذ رجال الدين ، الذين لم تكن تربطهم سياسة دينية موحدة بل كانت هناك منافسات بين أولئك المشايخ مصدرها التلاميذ ومن تشجيع العلماء من أنصار ومريدين .

ان هذه الظاهرة ظاهرة التشيع لأصحاب السجاجيد ، ورفعهم إلى مراتب الكشف عن الغيبات والاثيان بالمعجزات وخوارق العادات تصور لنا ما كان عليه المجتمع من تدهور في حياته المعيشية . الأمر الذي دفع أفرادهم إلى الالتجاء إلى هؤلاء الرؤساء الروحانيين طلباً للنجدة والغوث في قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضرب وجلب للنفعة والخير والمثوبة عند الله تعالى وصرف للعدو ولم تكن هذه الحالة من المعتقدات في الشعوذة والسحر وما إلى ذلك (١٢٤) وليدة الهجرات العربية بل هي عريقة في القدم توارثها القوم من آبائهم وأجدادهم عن أقدم العصور الوثنية عندما تمخضت عنها حياة مجتمع ارتبط بسلفه من الغابرين وغيرهم في صورة أو أخرى من التقديس والتبريك ، وأخذت هذه المعتقدات تتطور مع انتقالها من عصر إلى عصر . وتمسك بأحيائها في العهد الإسلامي بعض الرجال الذين استأثروا بالتعليم الديني وورث خلفائهم عنهم القيام بهذا النشاط وقد يكون رجل الدين الأول عارفاً لرسالته قائماً بها على وجهها الصحيح غير أن الأمر قد أصابه التعديل والتبديل جيلاً بعد جيل وبخاصة أن دخول أمثال هؤلاء العلماء للبلاد لم يكن متصل الحلقات . وكان للمرأة الوطنية أثرها الخطير في تكييف الرسالة التعليمية في نطاق التقاليد والعادات المحمية التي توارثتها عن بيتها ، وقد ساعد ذلك على جعل الافادة من القرآن والعلوم النقلية محدودة وصار طلاب العلم يحفظون عن ظهر قلب ما يرويه مشائخهم دون المعرفة والعمل على تبسيط المعارف ونشرها لتساهم في تقويم المجتمع . وآية ذلك ان مسألة الزواج والطلاق كانت تباشر دون استكمال العدة الشرعية في الوقت الذي كان فيه علماء الدين (الفقهاء) يمارسون نشاطهم .

وسرعان ما اختفت الشخصية العربية في المناطق المنعزلة التي اختلطوا فيها

(١٢٤) يتطلب موضوع « الشعوذة والسحر » دراسة دقيقة على أسس علمية في محاولة لكشف أسرارها . فهذه لا تخرج عن كونها أداة للسيطرة على عقول العامة وتسخيرهم كما كان يفعل رجال الكهنوت في الوثنية والكثير من الأعمال التي يظن لأول وهلة أنها من المعجزات وخوارق العادات ومنها صناعة المطر واستخراج الذهب من بعض الزواحف بعد حرقها وغير ذلك مما لا يسمح المجال بالتوسع في ذكره فهذا يرجع إلى « مهارة علمية » يستخدم في انجازها بعض العناصر التي تساعد على عملها .

بالكثرة من السكان المحليين وكان من الطبيعي أن تتأثر المقومات التي جاء بها الاسلام وتختلط بالتقاليد والعادات الموروثة كما سنبينه فيما بعد ، وبهذا صار المجتمع تربة صالحة تنمو فيها الدعوات التي تبدأ مرحلتها الاولى بالتوجيه إلى الاصلاح ثم يتحكم فيها الانصار والاتباع فيفقد صاحبها سيطرته ويخضع للتيارات التي توجهه لتحقيق أهداف الجماعة أو الجماعات صاحبة المصلحة والتي كانت تتصيد الفرصة المواتية لتحقيق مطامعها بتشجيع الحركات الخفية ذات الطابع القومي وتقوم على رعايتها حتى تستكمل مظاهرها وتمتصوى الاتباع وعند ذلك تعمل الجماعة أو الجماعات ذات المصلحة على توجيه الحركة نحو أهدافها الحقيقية ويجد الزعيم نفسه ، وقد جرفته الحركة عاجزاً عن ملاحقتها في خطاها . ويرجع ضعف القائم على الدعوة وعجزه عن السير بها في طريقها الذي رسمه لها إلى أسباب نفسانية فهو قد اعتكف فترة من الزمن طويلة أو قصيرة في نوع من الاستذكار والعبادة في خلوات قد تستمر لأيام وشهور على غذاء من القلة بمكان ويخرج بعد أن يشعر ببلوغه المرتبة التي تمكنه من إظهار دعوته . والفكرة أصلاً قد قامت في باطنياته ثم صهرتها فترة الاعتكاف وأعطتها الصورة المناسبة ، ولاشك ان هؤلاء بعد خروجهم من خلواتهم يكونون في حالة عصبية مرهقة ، بسبب الاجهاد الطويل والصوم وبذلك تكون الأعصاب قد تحطمت تحطماً بالغاً فتفقد قدرتها على الاستمرار على تحمل الأعباء في نواحيها المختلفة - واني أعرف أكثر من حالة نادى فيها أصحابها بأن أحدهم « نبي الله عيسى » وثان بأنه « قطب الزمن » الخ الخ . وقد استطاع أهلهم حجزهم لفترة من الزمن قاموا فيها على رعايتهم وبذلك هدأت أعصابهم وعادوا إلى صوابهم .

ولهذا نجد ان البلاد لا تخلو في سنة من سنى حياتها الطويلة من قيام أكثر من حركة اتخذت مظاهر مختلفة فبعضها يستشرى ويحدث أثراً بعيداً يكون في الغالب معطلاً لتقدم الحياة اليومية وهذا النوع يسلك مسلك العنف في دعواه ونشرها وتلتف حوله الجماعات من المتزمطين التي تجد في مثل هذه الدعوات ما يفرج عنها كربتها . وهناك دعوات لا يلجأ زعمائها إلى العنف بل تأخذ طريق اللين والمسايرة بما يمشى والحياة اليومية وتسكتب لهذا النوع الغلبة والبقاء .

وتتميز الدعوات التي تستشرى وتعطل تقدم الحياة بظهورها في المناطق المنعزلة التي يغلب فيها العنصر المحلي حيث تلقى مثل هذه الدعوات من الانصار والمريدين

ما يساعد على امتداد السيطرة إلى مناطق أخرى لا تستطيع الوقوف أمام التيار أو
أنها تجد في الدعوة الجديدة مخرجاً لها من حالة قائمة لا ترضاها .

ونذكر عن سبيل المثال لا التحديد بعض الحوادث التي حصلت في أوائل
القرن الحالى .

عام ١٩٠٣ قام محمد أمين الشريف البرناوى (نسبة إلى برنو) بحركة دينية في
« دار جمع » انتهت باشتباكه مع إدارة السودان والقبض عليه وشنقه في الأبيض .

عام ١٩٠٤ ادعى محمد ود آدم بأنه « نبي الله عيسى » وقد قتل في معركة مع
الجنود في سنجة .

عام ١٩٠٤ ذهب حسن ود حسونة من « أبى دليق » بالبطانة إلى كردفان واثار
حركة دينية إنتهت بالقبض عليه وعند التحقيق ظهر ان هدفه كان لجمع المال كما ورد
المصادر الرسمية ، وقد أفرج عنه بضمن « حسن السير والسلوك » .

عام ١٩٠٨ اشتبك « عبد القادر ود حبوبه » في الكيفية بالجزيرة مع إدارة
السودان وتقول الدوائر الرسمية ان عصيان « ود حبوبه » يرجع إلى حكم أصدره
مفتش المركز لصالح عمه الشيخ عبد الله مساعد العمدة وأخيه محمد ، وذلك في منازعة
عن أرض طالب ود حبوبه بردها اليه . أما الاسباب التي تحتفي وراء هذه الحادثة هي
ان رجال المساحة المصرية الذين عهد إليهم بالقيام بتخطيط أرض الجزيرة تمهيداً
لمشروع زراعة القطن قد وضعوا أوتاداً حديدية لتحديد المناطق غير ان رجال ود
حبوبه قد قاموا برفع هذه الأوتاد بسبب اعتقادهم بأن مثل هذه الأوتاد سوف يمنع
المطر الموسمى الذى تقوم عليهم زراعتهم . فذهب المفتش مونكرىف ومعه المأمور
اليوزباشى محمد شريف إلى « ود حبوبه » في قريته وعندما قابله المفتش وجه اليه
عبارات لوم قارصة إلى الحد الذى دفع بعض أنصاره أن يطعنوا المفتش طعنات
أفضت إلى موته وقتل معه المأمور . وأخذت هذه الحادثة صورة خطيرة أفلقت
إدارة السودان ومرجع ذلك إلى قرب عهدها بنهاية المهديّة وعلاقة « ود حبوبه »
بذلك النوع من الحكم . فأرسلت القوات من الجيش المصرى إلى الجزيرة وقامت
الدوريات النيلية في النيل الأبيض بين الخرطوم وكوستى ظناً بأنها حركة من المهديين
واسعة النطاق وانتهت الحملة بهزيمة أنصار ود حبوبه الذى قبض عليه بعد ذلك وقتل
مع بعض أتباعه شنقاً وسجن آخرون وقد أقامت هذه الإجراءات ضجة في الصحف
المصرية وفي العام الاسلامى .

عام ١٩٠٩ و ١٩١٧ . وهناك حوادث بين ١٩٠٩ و ١٩١٧ منها حادثة فى الرماش بجوار سنجه والثانية فى كسلا .

عام ١٩٢١ قام الفقيه عبد الله السحيني بدعوته فى مركز نيالا وانتهت باخماد ثورته .

* * *

وقد يبدو غريبا أن تظهر هذه المحاولات الانقلايية أو الحوادث العنيفة فى مثل هذا العدد فى هذه الفترة القصيرة من الزمن فى الوقت الذى تنعدم فيه كلية مثل هذه الحالات من الحوادث العنيفة فى عهد السلطنة السنارية وفى الستين سنة الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان أى من عام ١٨٨٠ . ففى الثمانين من القرن الماضى (١٨٨٠ ميلادية تقريبا) بدأت الزوبعة تتجمع ولم يمض طويل وقت حتى تمخضت عن حركة مهدي السودان فى مظهرها العنيف . كما سنبينه فى الكتاب الثالث من هذه الدراسة . وبعد وفاة المهدي ببضعة أعوام قام أبو حميرة بدعوته فى دارفور وناصره الكثيرون ومنهم الأمير أبو الخيرات من بيت سلاطين الفور ومطالب بالعرش (١٢٥) وكان هدف أبو حميرة أن يغزو أم درمان ليقضى على حكومة الخليفة عبد الله التعايشى لولا أن عاجلته المنية وعجز خليفته عن القيام بتنفيذ خطة سلفه كما ان الحركة لم تأخذ مرحلتها الأولى الكافية لتمكين أبو الخيرات من السيطرة عليها توجيها لتخدم مطامعه .

وهناك حادثة أخرى حدثت فى النصف الثامن من القرن السابع عشر الميلادى وذلك عندما ذهب الشيخ حمد النحلان ابن محمد البديرى المشهور « بود الترابى » إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وهناك فى مكة نادى بنفسه « المهدي المنتظر » فسك الحجاج بتلابيه وأوسعوه ضربا وحبس من صحبه ثم أطلق سراحه . وقد أرسل هذا الشيخ تلميذه « ميرف » إلى سنار لإعلان دعوته بأنه « المهدي المنتظر » فأمر الملك بادی أبو دقن بقتله وهكذا قضى على هذه الدعوة . ولما عاد الشيخ محمد النحلان إلى السودان كان قد تخلى عن عودته وكرس حياته فى العبادة (١٢٦) .

(١٢٥) ظهر أبو حميرة بدعوته الدينية فى ١٨٨٨ م . وقد حدث أن استدعى الخليفة عبد الله التعايشى الأمير زقل من دارفور تاركا يوسف ابن السلطان ابراهيم على ادارتها . ولما ظهرت اتجاهات يوسف إلى الاستقلال أرسل الخليفة . عثمان جانو أمير كروفان لكبح جماحه . غير أن يوسف قد هرب إلى جبل مرة حيث قتل فى ١٨٨٨ م . ونادى أخوه أبو الخيرات بنفسه سلطانا وانضم الحركة التى تزعمها أبو حميرة ولكنه فشل بعد وفاة هذا الزعيم الدينى . ولم يكن خليفته من الكفاءة بمكان .

(١٢٦) انظر كتاب الطبقات ص ٦٠

وقد يبدو هذا عجيباً حقاً إلا أن هذا العجب سوف يتلاشى فيما أرى إذا رجعنا إلى ما جاء في كتاب الطبقات والروايات المحلية . فالطبقات قد ذكرت تراجم حوالى خمسين ومائتين من الشخصيات الدينية التى كان لكثير منهم . كما أوضح الكتاب المذكور . مراتب صوفية وكرامات ظاهرة . فمنهم قطب الوجود ، (١٢٧) و « حامل لواء أهل الأعيان » ، و « الأربعين الذين وصلوا القطبانية » ، الخ (١٢٨) وهنالك عدد كبير من الشخصيات الدينية لم يذكرها صاحب الطبقات لسبب أو آخر . سواء لعدم وصول أخبارهم إلى الشيخ ود ضيف الله أو أنهم عاشوا في زمن لاحق لكتابة الطبقات غير أن الفقهاء في مختلف المناطق في يومنا هذا يحتفظ كل منهم بسلسلة من أسماء الفقهاء من أهله وأهل منطقته ولكل من هؤلاء روايته عن مفاخر أولئك الفقهاء وما وصلوا إليه من مراتب عالية في التصوف . ومن هذا أجد أن الفترة التى تولى فيها السلطان السنارى والستين عاما من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان أى الفترة من حوالى ١٥٠٠ م إلى ١٨٨٠ م لم تخل سنة من سنواتها من هذا النوع من الحركات الدينية مع اختلاف واضح في مظاهرها . فبينما نجد أن الحركات التى حدثت بعد ١٨٨٠ م حتى ١٩٢١ م . قد سلكت مسلك العنف الذى فرضه الفراغ المفاجئ الذى تسبب عن الاسراف فى إلغاء الرقيق وهو دعامة اقتصادية أساسية فى قسوة بالغة على يد أجانِب أطلقت لهم الحرية فى إدارة البلاد السودانية فأفسدوا الجهاز الإدارى وتعطلت الحياة الاقتصادية وكان من نتيجة ذلك قيام الثورة المهدية التى سوف نتعرض لها فى القسم الثالث الخاص بامتداد الإدارة المصرية إلى السودان . أما الحركات التى ظهرت قبل ١٨٨٠ م فقد اتخذت صورة بعيدة عن العنف فقد كان التنافس قائما بين الفقهاء وأتباعهم كما أوضحنا من قبل وكانت العلاقات بين الزعماء الدينيين المحليين والحكام على خير ما يكون بل وصلت الأمور إلى أبعد من هذا فقد كانت هؤلاء الفقهاء الكلمة العليا فالسلاطين يتقبلون وساطاتهم ويستجيبون لها . كما كان السلاطين والحكام يلجأون إلى الفقهاء طالبين منهم الدعاء لقضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم وشفاء مرضاهم الخ الخ (١٢٩) ولا شك أن الفقهاء فى تلك الفترة التى سبقت عام ١٨٨٠ م قد شغلوا مرتبة الرئيس الدينى فى المنطقة وبجوار هذا تضاءلت سلطة

(١٢٧) المصدر أنف الذكر ص ٨ ترجمة الشيخ الزين ابن الشيخ صغيرون .

(١٢٨) أنظر كتاب الطبقات ترجمة « عبد الرحمن بن جابر » ص ١١١ وتراجم تلاميذه

الذين بلغوا درجة القطبانية .

(١٢٩) أنظر خطاب الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان وزير السلطان بادي آخر سلاطين

الفتح إلى الشيخ احمد بن ابراهيم الفرضى . (الملحق السادس) .

الملك أو الزعيم المحلى . وقيام هذا النوع من الحكم الذى تتوزع فيه السلطات بين اثنين « رئيس دينى ، و « رئيس مدنى ، لم يكن غريباً على المجتمع لما ورثه عن أسلافه من عادات وتقاليد قديمة الأمر الذى سنتعرض له فى القسم التالى .

٥ - المجتمع :

ب) نظام الحكم :

كانت مقاليد السلطان فى العهود التى سبقت سيطرة العرب القبلية قائمة على أسس دينية يتولى تصريفها رجال من طبقة الكهنوت يتبادلون السلطة على نحو ما كان يفعله اضراهم فى مصر التى ورث عنها هؤلاء فى الشطر الجنوبى الوادى (السودان) . فالملوك مؤهلون يعاونهم رجال الكهنوت ، وقد انطبعت هذه النظم بالطابع المحلى الذى تأثر إلى درجة بالغة بمجريات الاحوال فى الشمال وبما أصاب حياة المجتمع من دخول الجماعات الافريقية البدائية فى دائرة نفوذ حكومات جنوب الوادى . وقد بقيت هذه النظم فى صورها المختلفة حتى الفترة التى بدأت فيها الهجرات العربية تشق طريقها نحو الجنوب فى مجموعات متلاحقة اختلطت بالسكان المحليين وصاهر زعماء القبائل العربية بيونات الحكم فى المواطن التى استقرت فيها رحالهم وتمكنوا عن طريق هذه المصاهرة من ولاية السلطان تدريجياً وكان لزاماً أن تترك المرأة الوطنية صورة من تقاليدها ومعتقداتها التى ورثتها عن بيتها فى أبنائها ومن هؤلاء الأبناء من تدرج لولاية الحكم بحق وراثته أبناء الأخت أو أبناء البنت وكانت مقومات السلطان قائمة على عناصر متشابهة من الدين والتقاليد والمعتقدات ذات الجذور البعيدة العمق فى حياة المجتمع ولم يكن من اليسير أن تقتلع هذه العناصر بل قدر لها أن تصطرع فى عراك خفى مع عناصر الحكم ومقوماته التى جاء بها المهاجرون .

قامت زعامة العنصر الوطنى للحكم على علاقة وثيقة الارتباط بالدين وبممارسة أنواع من السحر والشعوذة التى ترتبط بدورها بحياة المجتمع ومظاهر نشاطه . قد تكون المراحل الأولى لانتقال الحكم لأبناء العرب أثرها فى اختفاء بعض المقومات التى قامت عليها الزعامة الوطنية وذلك بعد أن بسط العرب سيطرتهم وبمارستهم للحكم حسب التقاليد القبلية العربية - غير أن هذا الاختفاء كان مؤقتاً فبدلاً من أن يمارسه الزعيم العربى قد قام بجانبه الفقيه الدينى الذى اختص بأمور الدين والسحر والشعوذة فى شكل أو آخر كما أشرنا إليه فى الصفحات الأولى من هذا الباب ولم يحتفظ

الزعيم العربي إلا ببعض المظاهر التي تمت بصلته للدين والسحر منها خروجه في المواسم
لبذر أولى البذور وغيره من الاحتفالات وفقاً للتقاليد المرعية التي يتولاها الزعيم
بحكم صدارته . ولم يكن انتقال السلطان إلى العرب ومن قام بجانبهم من الفقهاء عاملاً
على إحداث تغييرات ذات أثر في المجتمع في حياته اليومية التي استطاعت أن تكسب
الغلبة وأن تبقى فالنظم العربية قد أعطت الوطنيين حقوقاً خرجت بهم من استعباد
الحكام السابقين للعرب وجعلت للفرد كياناً تساوى فيه مع العرب غير أن ذلك لم
يقطع صلة الوطنيين بماضى تنظيمات مجتمعاتهم . ليس من السهل أن تحل نظم جديدة
مكان نظم قديمة مالم تكن هذه النظم الجديدة متمشية مع التطور الطبيعي للأشياء
والأحداث رد فعل بعيد الأثر في تهيئة الأرض الصالحة للانقضاء على هذه النظم
الجديدة عندما تحين الفرصة لذلك . بصرف النظر عن صلاحية هذه النظم الجديدة
وتفوقها على القديم الموروث فالمسألة يتحكم فيها رأى الوطنى وفق تكوينه الاجتماعى
الخاص به والذي يحدد عقله هو ما يتمشى مع طاقته وحاجياته اليومية .

توارثت طبقة رجال الكهنوت الحكم في المدن الكبيرة وتولى أقاربهم وأنصارهم
حكم المناطق الريفية وكان انتقال الحكم محصوراً في أبناء الأخت وأبناء البنت كما
سبق أن أوضحنا . وكانت الأرض الزراعية ملكاً خاصاً لأولئك الحكام أو موقوفة
على المعابد الدينية وهى فى ذلك صورة لما كانت عليه فى شمال الوادى مع اختلاف
لا يعتد به لقيام معبودات محلية بجانب المعبودات المصرية . وقد ترك المواطن
العادى العمل على الأرض وفلاحتها وكان عليه أن يتقبل ما يجود به عليه مالك
لأرض لاستقامة حياته التى لم تكن بأحسن مستوى معيشة لرقيق الذى استخدم
بكثرة فى الزراعة ورعى الماشية والخدمة البيتية كما جند لخدمة الحاكم فى حروبه
وغاراته التى يشنها على أعدائه . وقد عملت حالة المناخ فى المناطق المختلفة على
الاستكثار من تملك الرقيق إلى الدرجة التى صارت معها جميع الأعمال اليدوية شاقة
أو خفيفة موكولة إلى سواعد الرقيق . وقد توارث القوم هذه التنظيمات الاقطاعية
التي قامت أساساً على الرقيق الذى صار حجر الزاوية فى حياة المجتمع وسوف تتعرض
فيما بعد إلى أثر هذا العنصر فى مجريات وما حدث من ثورات وقلاقل .

وبما يجدر ذكره ان الزراعة قد احتفظت بأسسها البدائية ولم يصحبها تطور من
ناحية النوع أو الاكثار من المحصول لأغراض تجارية أو من ناحية الآلات التي

كانت تستخدم في فلاحية الأرض . وبقيت الزراعة محصورة في الأذرة (١٣٠) بأنواعها الخاصة بمختلف المناطق ويمتد في زراعة هذه الغلة على الأمطار الموسمية التي كانت كثرتها وقلتها من موسم لآخر تتحكم في المحصول الانتاجي وقامت بجانب هذا المحصول الغذائي الرئيسى بعض الزراعات المحدودة من خضر وفاكهة لسد الحاجيات المحلية ويتم التبادل التجارى عن طريق المضايقة وكان الرقيق والريش والعاج وبعض المصنوعات الجلدية والذهب والمنسوجات القطنية المعروفة بالدمور من السلع التي تستبدل بالتجارة الواردة مع القوافل .

كانت البلاد عند دخول الهجرات العربية الجماعية في حالة من الانحلال والتطاحن بعد ما أصاب مدينة البلاد من تدهور في أعقاب الهجوم الاتيوني الذي شنه النجاشي عيزانا على مروء في منتصف القرن الرابع الميلادى . فقد صارت البلاد منقسمة شيعاً متفرقة يحارب بعضها البعض الامر الذى جعل الروح المعنوية المحلية تتضاءل وتخبوا أمام الروح القومية التي حملها المهاجرون من العرب والمستمدة من الحماس الدينى الاسلامى وقد أخذ هؤلاء المهاجرون في العمل على بسط سيطرتهم التدريجية حتى آلت إليهم مقاليد الحكم وتمكنوا من إدخال التنظيمات العربية القبلية على المجتمع المحلى . وكان من تلك التنظيمات ما يتمشى مع التطور الطبيعى لتقاليد محلية وكان البعض الآخر تطوراً مفاجئاً للحالة القائمة وقد أصاب ذلك حياة المجتمع بتصدع عميق الاثر في حياة الاسرة وعلاقتها مع الزعيم والأرض الامر الذى قام على روابط دينية . فقد تولى شيخ القبيلة الحكم في مجموعته القبلية ومن سكن معاً - ا - في دارها من العشائر المتحالفة وصار الحكم وراثياً في بيت الشيخ . وتكونت من مجموعات القبائل بحكم الرقعة الاقليمية التي اتخذتها دياراً لها زعامات اقليمية تولاهما « شيخ المشايخ » الذى يكون عادة شيخ أقوى قبيلة في المجموعة وقد عرف هذا

(١٣٠) ورد ذكر الأذرة في كتب الرحلات كغذاء رئيسى في البلاد كما زرع القمح في المناطق الشمالية (دقلا) ويبدو ان الأذرة الشامية قد دخلت البلاد مع العرب بعد قيام السلطنة السنارية وهذا النوع من الأذرة يعرف في البلاد باسم « عيش الريف » ويقصد بالريف « شمال الوادى » وتعرف أيضاً باسم « قنقر » (قاف صعيدية) وهذه نوية معناها أوراق القمح ويجدر القيام بدراسة يقصد منها التعرف على تحقيق دخول النباتات التي لم تكن معروفة قبلاً سوف تكشف عن العلاقات الاقتصادية بين البلد ومصادر انتاج الأنواع المستوردة .

اللقب في عهد السلطنة السنارية باسم الملك (١٣١) أو المانجل (١٣٢) وتستعمل كلمة « أرباب » مع هذين اللقبين للتكريم الرفيع وتطلق أرباب على أفراد الأسرات المالكة .

وكان الشيخ يمارس مسؤولياته في مجلس الأجاويد وذلك في المسائل الخارجية عن سلطاته التقليدية التي يباشرها بشخصه وهذه تلتخص في توزيع الأراضي الزراعية على رؤساء البيوت وأن يحافظ على حقوق القبيلة في الأراضي التي تحتلها والآبار التي تستخدمها الطرق والمقازات ، (العقبات) الواقعة في حدودها الإقليمية وإذا كانت القبيلة ضاربة القبيلة في الصحراء فشيخها يتولى إصدار أمره بالرحيل والنزول والقيام في مواطن المرعى الموسمية وتختص كل قبيلة بموطن مرعاها الخاص بها والذي يحدد عادة بأشجار مطلة على حدوده الأربعة ويفضل زراعة الأشجار عن وضع أحجار بسبب أن موجات زحف الرمال تنكسر عند الأشجار وتغطي على الأحجار وتخفي أثرها . وعلى الشيخ أن يكون عارفا بتقاليد القبيلة وتقاليد القبائل المجاورة لها في الدار وأن يكون حافظا للأنساب وأن يقوم باستضافة الغرباء الذين ينزلون دار القبيلة وفي بعض القبائل يأخذ الشيخ على عاتقه مسؤولية ما يحدث في حدود دار قبيلته من حوادث يدفع التعويض ودية الدم . بهذا حق له أن يحصل على جانب من المال أو الغلة ويحتفظ به لمصلحته .

كما كان على الشيخ أن يتولى تنظيم إقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك من العادات القائمة فالشيخ بذلك رمز القبيلة يتولى إداره شئونها الخاصة والعامة ويفض مشاكلها وينظم علاقاتها مع شيخ المشايخ . وهو الذي يقوم بجمع العشور عن الأرض الزراعية والتي تكون عادة هينا ويرسل جزءا منها إلى شيخ المشايخ وهذا بدوره يدفع جانبا إلى خزينة السلطنة السنارية عند قيامها على رأس اتحاد المشيخات في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) .

(١٣١) يرجح أن أصل هذه الكلمة من الأثيوبية حيث معناها عظيم كما ذكره بدج في كتابة المصري جزء ٢ ص ٢١٢ .

(١٣٢) أطلق هذا اللقب على زعماء قرى (قاف صعيدية) خشم البحر الدندر - القصارف بيل - دقلا - الكيلي - وامتد في زمن لاحق إلى زعماء القضايا (ينطق القاف أحيانا غينا) والبديرية من قبائل كردفان . وتعرف هذه المناطق باسم المانجليات مفردتها مانجليه نسبة للمناجل - وهذا لقب لم يتحقق مرجعه بعد تحقيقا يخفى معه الشك ويعتبر هذا من أرفع ألقاب السلطنة السنارية أنظر هامش / ٥٢ :

فاذا قارنا بين تنظيمات المجتمع التي توارثها القوم وبين ما استحدثه العرب نجد أن الوطنى قد استرد شخصيته وكيانه في المجمع كما استرد حرية في أرضه التي يستغلها بزوال الفوارق بينه وبين حكامه من الغابرين وصار عليه أن يدفع للزعيم القبلى المحلى المقرر من الضرائب وكان من نتيجة هذا التطور دخول تحسين على مستوى المعيشة للأفراد وتبعاً لذلك فتحت افاق جديدة غير أن طريق التطور والتقدم قد أصيب بنكسة (أولاً) بسبب من أصاب شمال الوادى من تدهور وانحلال وتطاحن تحت حكم الممالك وكان لهذا أثره فى العلاقات بين شطرى الوادى وبخاصة من الناحية الاقتصادية لتوقف التبادل التجارى (ثانياً) ان التغييرات الذى استحدثها العرب فى الزعامة القبلية والعائلية والأرض اقتلع جذوراً بعيدة العمق فى حياة المجتمع وتقاليد الدينية . ورغم ان هذا الاصلاح قد أدخل تحسينات لها قيمتها إلا أنه لم يأخذ طريقه الطبيعى للتطور فى فترات كافية تسمح لقبول الاصلاح الجديد والدفاع عنه

وتأثرت بلاد جنوب الوادى (السودان) بالحالة التى قامت فى شمال الوادى (مصر) وتعطلت معها التجارة فاختل الأمن وكثر التعدى بسبب الصراع الذى دفعت اليه الاطماع القبلية وكان من نتيجة هذه المطاحنات اشتداد الضيق الاقتصادى والانحلال الاجتماعى . وكان أثر هذه الحالة واضحاً فى الجزء الشمالى من جنوب الوادى (النوبة السفلى) لاتصاله الوثيق بشمال الوادى حيث أخذت الأحوال فى التدهور كما أوضحنا وتأثرت المنطقة الوسطى من البلاد بالنشاط العربى على ساحل البحر الأتربرى وقد امتد هذا النشاط نحو حوض النيل الأزرق وشق طريقه نحو المشيخات المترامية فأدخل فيها روحاً جديدة من الانتعاش الاقتصادى الذى خلق العناصر المشتركة التى مهتت القيام حلف بين المشيخات مع السلطنة السنارية .

* * *

ج) التنظيمات الاقتصادية :

قامت الحياة اليومية للفرد والمجتمع على أسس وثيقة الارتباط بالعقيدة الدينية التى كفلت مطلق التصرف للزعيم المحلى الذى يختار عادة من رجال الدين كما سبق لنا شرحه . وكانت الأرض هى الركن الأساسى الذى نشأت عليه العلاقات بين الزعيم والعامل على الأرض . واختص الزعيم بملكية الأرض بوصفه صاحب السلطان

وهو الذى يجرى توزيعها على أصحاب البيوتات من رعيته بالقدر الذى يتناسب مع إمكانياتهم على العمل الزراعى . وكان التوزيع فى كثير من الأحوال مثار مشاكل ومصدر تدمير وقلق . فقد يعتبر الزعيم أن ما قام به توزيعاً عادلاً بينما يرى العاملون على الأرض غير ذلك . وبقيت ملكية الزعيم للأرض قاعدة سارت عليها المجموعات العربية فى صورة تناسب مع تقاليدهم وما ألفوه فى موطنهم الأولى وفى معابر هجراتهم وصارت الملكية للأرض فى عهد العرب معترفاً بها وحددت العلاقات بين الملكية الجماعية للقبيلة صاحبة الدار كطرف أول وبين العامل على الأرض والمنتفع بها كطرف ثان هذا فيما يختص بالأراضى الزراعية وهى الواقعة عادة فى المناطق التى تجرى فيها المياه المستديمة الجريان أو الموسمية ، أما عرب البادية فكانت علاقاتهم بالأرض مختلفة كل الاختلاف عما هى عليه فى الحضر . وكان من أترحات التدهور التى أصابت شمال الوادى وجنوبه فى القرن الخامس عشر الميلادى ما ساعد على ركود العلاقات التجارية وصار كل من شطرى الوادى فى عزلة . وتوقف دفع البقط بأيلولة مقاليد الحكم للعرب فى جنوب الوادى وكان طبيعياً أن تصاب العلاقات بتوقف تام لما بين العرب فى الجنوب والمهاليك فى الشمال من تنازع وصراع .

وقد ورث العرب التنظيمات المحلية الخاصة بالأرض التى كانت متبعة فى المناطق التى اتخذوا فيها مأواهم وقد اختلفت هذه التنظيمات بعض الشيء بين منطقة وأخرى ومرجع ذلك إلى ظروف البيئة والمناخ التى تحكم فى أعداد الأرض للدورات الموسمية وعلى هذا الأساس صار تقدير درجة تربة الأرض كما هو مبين بالملحق رقم (٥) .

واحتفظ الزعيم بمساحة من الأرض لاستغلالها لمصلحته الخاصة وعرفت هذه باسم « العبارة » وكان الزعيم أو السلطان السنارى فيما بعد يتصرف فى جزء من أرض العبارة من طريق الهبة خاصة للفقهاء الروحيين . وصارت هذه الهبات نواة للملكيات التى سمح للفقهاء ووارثيهم بالاحتفاظ بها واستغلالها لمصلحتهم .

وكان على العامل على الأرض (١٣٣) وعلى صاحب المال والتجارة والماشية أن يدفع كل فى حدوده ضرائب معينة كما هو مقرر فى جداول الملحق رقم ٥ وكانت

هذه الضرائب بما فيها الفطرة والزكاة تدفع في غالب الاحوال عينية ، بخاصة في الريف والبادية البعيدة عن مراكز تجارة القوافل ، ويقوم نظام التعامل بالدفع العيني على أساس المقايضة . وبالإضافة إلى هذه الجبايات ، فقد كان من حق الشيخ المحلي للدار أو القبيلة الضاربة في بطن الوادي ، أن يحصل ما يسد به المطالب التي يقوم بها بوصفه زعيماً ، كالضيافة وإقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك . وكان على الزعيم المحلي أو القبلي أن يدفع جزءاً مما يحصله لزعيم الدار الإقليمية ، وكان على زعيم الدار هذا أن يدفع نصيباً إلى خزينة السلطان السناري ، التي كما يبدو من خطاب السلطان عدلان (ملحق رقم ٤) أنها كانت قائمة في العواصم الإقليمية - ولا يفوتنا أن نذكر أن الأهالي كانوا يدفعون ضرائب للرؤساء الروحيين المحليين في صورة النذور أو الهدايا ، وقد كانت هذه مباشرة بين المواطن والشيخ ، ولم تكن محددة بل تركت لقدرة المواطن . وهكذا استمرت الأسس التي قامت عليها الجبايات ، وانتقلت من جيل إلى جيل ولم يكن للفرد ما يفيد منه ، بل كان يدفع ما يخصه للشيخ المحلي وهذا بدوره يدفع عن قبيلته أو داره إلى زعيم الدار الأكبر خزينة الذي يدفع المقررات إلى خزينة السلطان السناري وقد كانت مقررات السلطان السناري شكلية غير محجفة كما أن الزعماء كانوا يحصلون ضرائبهم بنسبة المقدرة الشخصية لأعلى أساس فرض رسم معين يتساوى فيها الجميع . كما كان الزعيم المحلي لا يحصل ضرائب من الفقراء ومتوسطي الحال .

وما يسترعى الالتفات أن مراكز تجمع التجارة في السودان ، التي اتخذتها القوافل محاطاً لرحالها ، كانت قليلة الأثر في النهوض بالزراعة والصناعة والتعليم - النهوض الذي من شأنه أن يحدث تطوراً اجتماعياً اقتصادياً ، ويرجع ذلك إلى أن القوافل كانت أساساً يتولى شئونها زعيم يتسلم السلع من مكان إلى مكان ، ويقوم بعملية التبادل ويعرف هذا الزعيم « بالخبير » ، وهو القائم على الإبل ورجالها ، وكانت طرق القوافل تسير بعيداً عن المدن ، وتصور لنا هذه الحالة ما كان عليه الفرد والمجتمع من تأخر وركود ذهني وجمود تعليمي ، ولم تكن حياة المدن في تلك الآونة بأحسن حالاً من الحياة في الريف .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن العلماء من رجال الدين وغيرهم الذين دخلوا البلاد من وقت لآخر لم يكن لهم كذلك الأثر المحسوس في بعث شعور الفرد وبقضته للسير نحو مستوى للحياة أفضل . وكان شأن أولئك العلماء شأن أمثالهم من رجال القرنين التاسع

والعاشر الهجرى الذين عرف عنهم التباغض والسعى لدى الحكام وأصحاب الجاه لقضاء مصالح الناس طمعاً في عطاياهم .

* * *

قدمنا فيما سبق صورة من العلاقات بين صاحب الأرض المعروف محلياً باسم « سيد الأصل » سواء كان هو الزعيم القبلى أو الشيخ المحلى أو الملتزم القائم على الأرض وقد كانت هذه نظم « الاقطاع » فى الشطر الجنوبى من الوادى ، الامر الذى لا يختلف كثيراً عن نظم الاقطاع فى الاقطار الشرقية . وإذا قارنا هذه الاسس مع مثيلاتها فى بلاد الفرنجة نجد أن الفارق شاسعاً بين الاهداف والغايات المرجوة من قيام الاقطاع . قام الاقطاع فى بلاد الفرنجة على أساس استغلال الأرض والانتفاع بها كمصدر من مصادر الاقتصاد الطبيعى لبناء دولة . فقد منح الزعيم سواء كان ملكاً أو أميراً الأرض للإشراف والفرسان الذين كان من واجبه الأول الولاء لصاحب الأرض ، وكان عليهم أن يحتفظوا بقوات مجهزة تجهيزاً كاملاً كما تقتضيه ظروف العصر ، الذى عاشوا فيه وكانت هذه القوات مستعدة لتلبية نداء الزعيم بالاشتراك فى حربه لأعدائه . وهكذا كان على الشريف أو الفارس أن يقوم نيابة عن زعيمه بتكوين جيش ، يدفع له مرتباته وتكاليف تجهيزه ، ومن هذه التنظيمات نشأت فكرة قيام « الدولة » بانتقال التزامات الإشراف والفرسان إلى « سلطة مركزية » وصار تمويلها عن طريق الجبايات المختلفة - أما الاقطاع فى السودان كما فى غيره من البلاد الشرقية فقد قام أصلاً على أساس دفع المال لصاحب الأرض وهو الأمير صاحب الزعامة التى تستند على العلاقات الدينية والمعتقدات التقليدية من سحر وغيره . فكان الزعيم يقوم بافتتاح الموسم الزراعى بصلواته ، كما كان يمارس طرد الأرواح الشريرة بالعزائم على الأرض عند استصلاحها للزراعة لأول مرة - وكان على العامل على الأرض أن يدفع ضرائب عينية شملت الرقيق الذى كان يستخدم فى العمل على الأرض وغير ذلك من الخدمات البيتية ، وكان على الزعيم القبلى أن يبعث بجزء مما يحصله من قبيلته إلى زعيم الدار وكان على الزعيم الأكبر أو السلطان السنارى أو مانجل العبد لاب فيما بعد أن يكون جيشه ، ويحتفظ به فى عاصمته ويقوم رجال هذا الجيش بالعمل على أرض « العمارة » فى وقت السلم ، ويجمع أفراد هذا الجيش من الرقيق الذى تقوم الغزوات الموسمية ، التى تعرف فى بعض المناطق بالنهاضة ، بصيده من مواطنه فى المناطق البدائية ، وكانت هذه الغزوات مصدر كسب العيش للشغغلين بهذا الغزو ، من رجال القبائل القائمة على

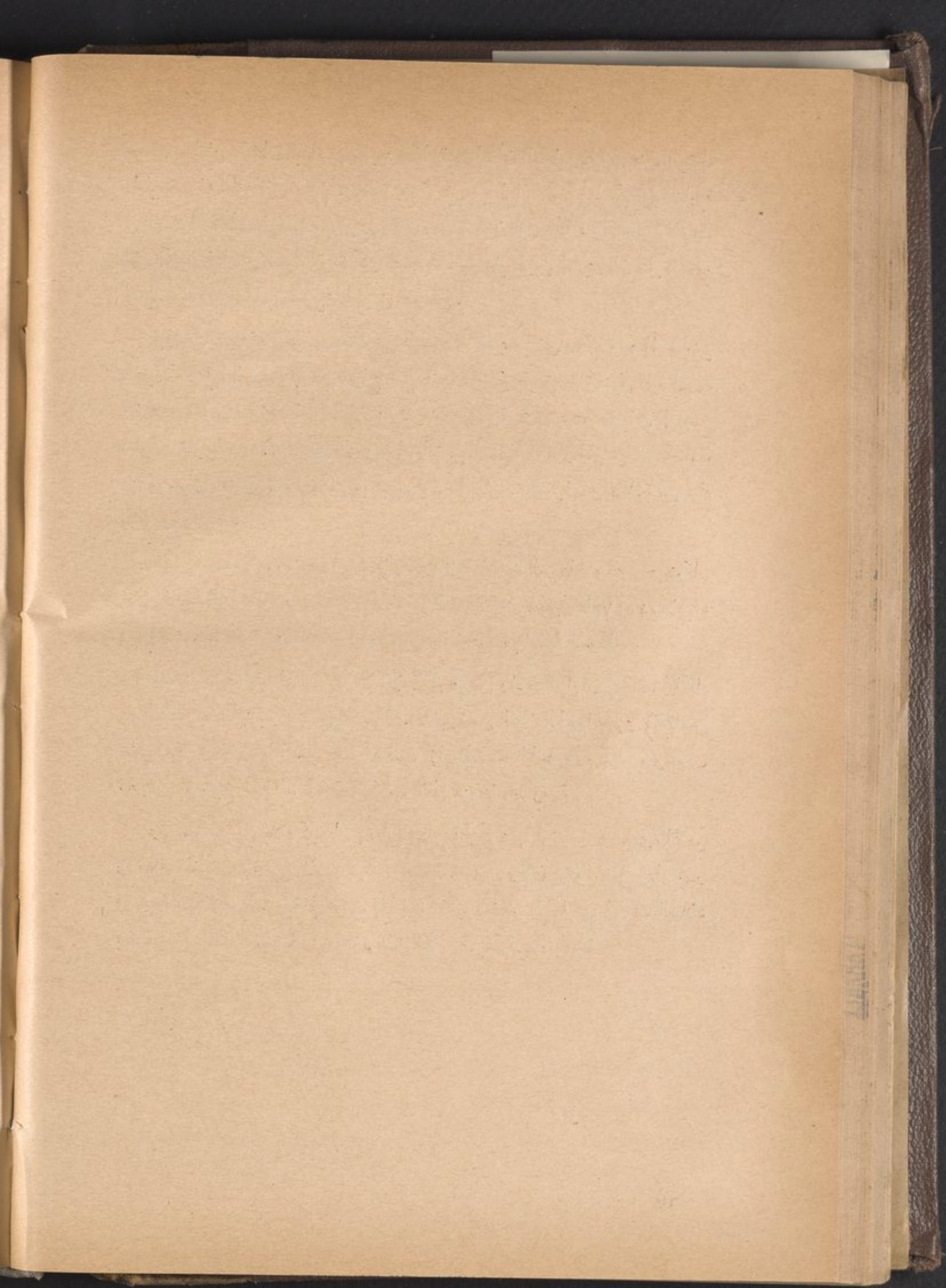
حدود مواطن السكان البدائيين ، ومن هذا يتبين لنا أن العاملين على الأرض والزعماء المحليين في المناطق الزراعية لم يرتبطوا مع الزعيم برباط الولاء . أما القبائل الضاربة في الصحراء فتكاد علاقاتها مع الزعيم الأول أن تكون غير قائمة ، وفي بعض الحالات التي تكون فيها دار القبيلة التي تسكن الصحراء قائمة على طريق تجارى فان أتاة تدفع لزعيم هذه القبيلة لتأمين لتأمين الطريق للقوافل .

ونشأت عن هذه الظروف حالة من الركود والجود ، الذي أدى بدوره إلى فوضى ذهنية تحكم فيها الفقهاء ، كما قام صراع خفي كانت من نتيجته خلق ضيق اقتصادى ، وتدهور معاشي ، وبخاصة أن البلاد قد تعرضت إلى وقوع مجاعات دورية في كل سبع سنوات تقريباً ، وذلك لاعتماد الزراعة اعتماداً كلياً على الأمطار الموسمية التي تختلف من موسم إلى موسم . ولم تسكن في البلاد نظم للرى والصرف والافادة من مياه النيل وروافده .

وقد زادت الأمور تعقيداً باختلال سير القوافل بين السودان ومصر حيث كان حكم المماليك قد دخل في مرحلته الأخيرة ، قبل الفتح العثماني لمصر في عام ١٥١٧ ميلادية ، ولم يحدث هذا الفتح تحسیناً كبيراً في استقرار الأحوال بالنسبة للسودان .

هذا ما كانت عليه المشيخات الاسلامية في حوض وادى النيل التي دخلت في اتحاد مع السلطان السنارى وذلك حتى السنوات الأخيرة من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عندما انتقل ذلك السلطان إلى عاصمته الثانية في « سنار » وسوف نتعرض لموضوع هذه السلطنة في الكتاب الثانى من هذه الدراسة .

ولم نتعرض إلى بلاد كردفان (تقلى) ودار فور ، لأنها لم تدخل في بادىء الأمر في نطاق المشيخات ، التي تكون عنها الاتحاد السنارى - ولأن دخول تقلى ودار فور في محيط العلاقات السنارية لم يحدث إلا بعد تغلب العنصر الاسلامى في تلك البلاد بعد قيام السلطنة السنارية في حوض النيل الأزرق بفترات متباعدة .



الكتاب الثاني

السلطنة السنارية

في

حوض النيل الازرق

السلطنة السنارية في حوض النيل

لقد استعرضنا مجريات الحوادث وتطورها ، في الحقبة التي سبقت هجرة السلطان عميرة وأسرتة من منطقة « لملم » إلى حوض النيل الأزرق في السودان ، واتخاذها مدينة « سنار » ، التي أعاد عمارتها ، لتكون عاصمة للملكة في تنظيماته الجديدة . كما أوضحنا حياة المجتمع في السودان ، وأثر الهجرات العربية ، وما أدخلته على مظاهر الحياة ، وما كان من أثر الصراع الحفي ، الذي نشب بين المجموعات من المهاجرين من العرب والمجتمع الوطني . وقد كان من أثر ذلك الاضطراب بدء حياة جديدة ، لها أسسها المستمدة من اختلاط المهاجرين والوطنيين وتزاوجهم .

وقد أوضحنا الظروف التي مهدت لقيام الحلف الاتحادي ، الذي تزعمه السلطان عميرة دونقس ، أول سلطان للبيت السناري بعد انتقاله إلى حوض النيل الأزرق ، ولانعلم على وجه التحديد الأسس التي قام عليها ذلك الحلف ، بين مختلف المجموعات القبلية والزعامة المركزية في سنار ، والثابت أن هذا الحلف قد تدرج في مراحل متعددة ، لم تلبث أن أخذت صورتها النهائية ، في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي ، بقيام حلف من المشيخات والشيخ عبد الله جماع شيخ العبد اللاب ، بوصفه أقوى الزعماء المحليين ، في تلك الفترة من الزمن ، والذي دخل بدوره في حلف مع السلطان عميرة ، وبهذا تم الحلف الاتحادي في صورته الأخيرة . وقد كان الشيخ عبد الله جماع ومقره في « قري » ، الزعيم المباشر للمجموعات القبلية من قري حتى « حنك » في شمال دنقلة ، أما السلطان عميرة دونقس ، وهو الذي تميز بحمل اللقب « السلطان — دونقس »^(١) ، فقد احتفظ بحق اختيار المرشح لتولي المانجليزية أو الشياخة^(٢) ، وقد جرت العادة بحكم الظروف القبلية المحلية ، أن يكون هذا المرشح من بين أفراد أسرة بيت الزعامة

(١) اتخذ السلطان الأول عميرة أو عمارة لقب « دونقس » وهذه كلمة اليومية معناها « دو » أصلها « DJAN » و NEGUS ومعناها عظيم « نقس » معناها أي نجاشي وبذلك يكون اللقب « النجاشي العظيم » .

(٢) المانجل « لقب يمنح لزعيم الدار وهو أرفع ألقاب السلطنة بعد السلطان وتأتي بعده مرتبة الشيخ أو الملك وهو زعيم في جزء هذه الدار .

القائم ، ثم أن السلطان لم يكن له ليتدخل في تصريف شؤون المشيخات الداخلية ، وفي علاقاتها بعضها ببعض ، بل اكتفى بزعامته الرمزية ، وحصوله على نصيبه من الضرائب والزكاة وغيرها ، التي كانت تدفع إلى خزانة السلطان المحلية (٣) ، التي أقامها السلطان في عاصمة كل دار أو إقليم ، لكي تدفع إليها هذه المخصصات ، ويصرف منها في الأوجه التي يأمر بها السلطان ، ولم تكن هذه الخزانة المحلية إلا فرعاً من بيت المال أو الخزانة العامة لمال المسلمين ، الذي صار السلاطين يتصرفون في موارده ، وفق اتجاهاتهم الخاصة غير مقيدون بالتشريعات الإسلامية ، الخاصة بإدارة بيت مال المسلمين ، وكان على السلطان كما ذكرت روايات العبد اللاب أن يساعد قري في حالة الحرب .

وكانت موارد السلطنة ، زعيمة الحلف ، كذا موارد الزعماء في مختلف المناطق ، ملكاً للزعيم المحلي ، وبالإضافة إلى ما كان يجمعه السلطان من منطقته ، التي يسيطر عليها نفوذه المباشر ، فإنه يتحصل على نصيب من العشور والضرائب ، التي يجمعها المشايخ من مناطقهم ، كذا على نصيب من الرقيق الذي تصطاده الناهضة في المواسم ، وكان للسلطان نصيب من الرسوم ، التي تحصل في محطات الجمارك ، وأهمها في دنقله وقرى وتشلجه (٤) ، وكان للسلطان وكلاء في القاهرة وأسيوط وبعض المدن الأخرى مثل أسنا ودراو واسوان ، للقيام بالشؤون التجارية الخاصة بالقوافل ، والتي كان للسلطان نصيب وافر في أموالها .

وكانت للسلطنة صلات وثيقة بالبasha التركي ، في رواني البحر الأحمر (سواكن ومصوع) ، كما كانت لها علاقات خارجية مع اليمن ، التي كانت تستورد منها السيوف والدروع (٥) ، ومع الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، كما كانت للسلطنة علاقات مع المغرب الأقصى (٦) ، عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور ، وعن الطريق المباشر بعيداً عن دارفور فيما بعد ، وذلك عندما اشتد التنافس بين الفور وسنار .

(٣) راجع الملحق الرابع .

(٤) تقع تشلجه (Chelga) شمالاً بحيرة تانا - داخل الحدود الحبشية وهذه الحالة أقرب إلى النظام الذي اتبعته حكومة السودان في إنشاء نقطة تجارية في جيبلا داخل الحدود الحبشية على نهر بارو (السوبات) للتبادل التجاري . وكانت إيرادات تشلجه الجركية تقسم مناصفة بين سلطان سنار ونجاشي الحبشة .

(٥) ملحق ٣ = قصة الشيخ أحمد إبراهيم الذي سافر إلى مخا بالين واستورد سيوفا ودروعاً .

(٦) كتاب جيمس جراي جاكسن ص ٢٨٢ وما بعدها

ويتبين لنا من هذا أن اللامركزية المطلقة كانت طابع الحكم، في الديار المختلفة تمارسه وفق عاداتها وتقاليدها المحلية، وقد تميز الاتحاد بين المجموعات الاقليمية، الذي تزعمه السلطان السنارى بتقاليد «الجمهورية التجارية»، على النحو الذى كان متعارفا عليه في الجزيرة العربية، مع امدخل عليه من تعديلات اقتبست من مواطن الهجرات، قبيل انتقال البيت السلطاني إلى حوض النيل الأزرق.

وكانت التقاليد الخاصة بالجمهورية التجارية تربط بين الجماعات من أصحاب المصلحة الاقتصادية، الذين يوجهون بالغ اهتمامهم نحو استثمار المال في مناطق معينة، وكان طبيعياً أن يمتد نفوذهم إلى المناطق، التي تقوم على الطرق التجارية بين مراكز تجمع السلع، ومراكز التسويق لتأمين المواصلات، وتقديم ما تحتاج إليه القوافل أو السفن من مؤن ومعونة.

وقد قامت تنظيمات الادارة في المشيخات، التي دخل زعمائها في حلف مع سنار في نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط، وترك كل شئ، عدا ذلك يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة، لهذا نجد أن السلطنة السنارية، بوصفها زعيمة الجمهورية التجارية، لم تحاول القيام بتنظيم جهاز للحكم، على أركان ثابتة من شأنه أن يشمل جميع نواحي النشاط، ومن شأنه أن يتطور لقيام دولة بمعنى هذه الكلمة السياسي، ويمتد نفوذها الفعلي على مختلف المشيخات، وتجمعها مع الزمن في وحدة كاملة، إلا أن الاسرة السنارية قد اكتفت بتطبيق تنظيمات الجمهورية التجارية، وكانت تلك التنظيمات جامدة تعطل معها النشاط الفردي، وما يلفت النظر أن الاسرة السنارية لم تراعى في تطبيقها تنظيماتها التجارية الاعتبارية المحلية، التي تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه الاحوال في الجزيرة العربية، ففي حوض وادي النيل الاوسط، المساحات الواسعة من الاراضي الزراعية، وكانت في البلد صناعات وحرف أخذت في التدهور وأهملت السلطنة إيجاد هيئة مركزية، لتنسيق جهود مختلف الجماعات في المشيخات نحو هدف موحد، بل ترك كل أمر لا يتصل بالمصلحة الاقتصادية على حاله في نطاق التقاليد القديمة العهد، التي خضع لها توزيع الاراضي، والتي تجعل الزعيم مالكا للأرض كما سبق أن أوضحنا، ولم تكن العلاقة بين المنتفع والزعيم قائمة على الولاء، وكان الزعيم أو السلطان يعتمد على جيشه المكون من الرقيق والمرزقة، وكان للشيخ المحلي أن يعلن الحرب، على من يحاوره من زعامات، دون الرجوع إلى السلطان. وهكذا أخضعت إدارة الحكم لنظامين متنافرين بالنسبة للمجتمع، أولهما نظام الجمهورية

التجارية ، الذى يهدف إلى استغلال موارد الشعب لخدمة الزعماء ، وثانيتها نظام
الاقطاع الشرقى ، الذى يوزع الأرض على السكان للعمل عليها ، وللزعم نصيب ،
ولهذا لم يكن من السهل التوفيق بين هذين النظامين ، وبين قيام حكم صالح ، إلا إذا
أعيد تنظيم الجمهورية التجارية والاقطاع الشرقى ، بما يكفل التطور الطبيعى لخلق قومية
ومشاعر ، تلتقى عندها مختلف المجموعات القبلية ، أما وقد أهملت الزعامات تنظيم
الحكم ، بما يتجاوب مع خلق حياة جديدة عامة ، فإن قوة الزعامات وضعفها وتدهورها
وانحلالها كان مرهوناً بأثر العوامل الاقتصادية الخارجية ، من حيث قوة هذا العوامل
أو ضعفها ، وكانت من أسباب الانحلال والتفكك ، الذى أصاب السلطة ، لتعطيله
المجتمع كلية من ممارسة أقل حقوقه .

وكانت سلطة السلطان المباشرة ، محصورة فى حدود قطاعة فى حوض النيل الأزرق ،
ومثلت البطانة ، وهو الطريق المؤدى إلى موانئ البحر الأحمر ، وكان لمنطقة حوض
النيل الأزرق طابعها الخاص الموروث ، عن مملكة علوة القديمة وعاصمتها « سوبا » (٧) ،
وقد قامت هذه المملكة بعد سقوط المملكة المروية ، فى منتصف القرن الرابع
الميلادى وتخربت مدنها وتشرد سكانها ، وتعرضت مملكة علوة لدخول هجرات ،
كانت فى الأكثر من مجموعات كبيرة من القبائل الأفريقية ، ومن جماعات اتيوبية
(حبشية) ، وبخاصة بعد عودة البيت السليمانى ، الذى استرد الحكم فى اتيوبيا
(الحبشة) من البيت الزغوى ، فى قرابة نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (عام ١٢٧٥)
وتعقب البيت السليمانى مناوئيه ومن تعاون معهم ، كما اضطهد المسلمين ، لما كان بينهم
والبيت الزغوى من علاقات ، واضطروهم إلى الفرار فى جماعات كبيرة إلى حوض النيل
الأزرق ، بوصفه المجال الطبيعى - وحدثت هذه الهجرات بخاصة فى القرنين الرابع عشر
والخامس عشر الميلادى وقد اتخذت الجماعات الاتيوبية لنفسها بعد نزولها فى حوض
النيل الأزرق لقب « فننج » أو « فوننج » ، وتصحف « فنينجا » (٨) ، ومعناها البيت الحاكم
وقد ورث البيت السنارى هذا اللقب ، وذلك عندما انتقلت السلطنة ، وعلى رأسها
عميرة « دونقس » إلى سنار .

وجاءت موجات أخرى من المجموعات الأفريقية والعربية من الجنوب والشمال ،
واشتد تدفقهم فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ودخلت
هذه المجموعات فى صراع من الجماعات الاتيوبية ، وانتهى الأمر بخروجها من البلاد
إلى الغرب - بلاد دارفور (٩) .

(٧) سوبا أو علوه = جنوبى شرقى الخرطوم مباشرة على الشاطئ الأيمن للنيل الأزرق .

(٨) مكمل ص ٧٥ .

(٩) نفس المصدر السابق ص ٧٥ .

وقد اختلط أمر هذه الهجرات ، الاتيوبية والافريقية - العربية على بروس (١٠) فاعتقد أنها جماعة من الشلك الذين يسكنون الشاطئ الغربى للنيل الأبيض ، والذين قاموا بغزوة فى عدد خضم من الزوارق ، على المنطقة العربية فى الجزيرة ، ووقعت بينها معركة فاصلة بالقرب من مدينة أربجى ، انتصر فيها الغزاة وفرضوا إرادتهم على العرب ، ويضيف بروس أن هؤلاء كانوا من الوثنيين ، واعتنقوا الاسلام فيما بعد ، بسبب العلاقات التجارية مع القاهرة ، أى أن اعتناقهم للاسلام ، قد دفعت إليه رغبتهم فى المحافظة على التجارة مع مصر . والحقيقة وواقع الأمر كما سبق ، أن أوضحنا لم يكن أولئك الذين قال عنهم بروس أنهم من الشلك ، لإجماعات من البيت الزغوى الذين نزلوا فى حوض النيل الأزرق .

وقد تميز القطاع السنارى ، فى حوض النيل الأزرق بصفته المسيحية التى تأثرت كثيراً بالتقاليد والعقائد الدينية القديمة . وقال فى ذلك الفارز (١١) ، الذى نقل عن حنا السريانى ، الذى زار بلاد النوبة فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى ، أنه قد رأى فى بلاد علوه حوالى الخمسين والمائة من الكنائس ، مزدانة بصور العذراء مريم ، ومع ذلك فإن السكان فى تلك البلاد (التى تشمل بصفة خاصة أرض الجزيرة) كانوا كما قال فى حالة بعيدة عن اليهودية أو المسيحية أو الاسلام ، وأنهم فى حاجة إلى التبشير بالدين المسيحى .

وقد ذكر جكسن حادثاً ، يدل على بقاء العادات الوثنية إلى وقت متأخر ، حيث اضطر السلطان عبد القادر ، الذى خلف والده السلطان عميرة حوالى ١٥٣٧ م ، إلى قتال السكان المحليين فى جبال مويلا وسقدي (١٢) ، لأنهم ظلوا يقدمون فتاة فى كل عام قرباناً للآلهة ، كى لا تمنع عنهم الأمطار (١٣) ، وبقي الكثير من التقاليد والعادات الوثنية ، الموروثة عن المدنية المصرية القديمة . فى صورة أو أخرى حتى اليوم ، وقد تركت هذه التقاليد ، أثرها فى الجماعات الاسلامية التى دخلت البلاد السودانية ،

(١٠) بروس الجزء الرابع ص ٤٥٨/٤٥٩

(١١) الفارز ص ٢٥٢

(١٢) جكسن « سن البار » ص ٢١

ونجد هذه العادات عادة التقرب للاله فى شكل أواخر منتشرة فى المنطقة من هضبة اتوبيا حتى دارفور والغرب فقد ذكر براون فى كتابه « أسفار فى أفريقيا » ص ٣٠٣ ان سكان الجبال يقدمون لآلهة الجبال قرايين ضحيتها ولد أو بنت تذبح فى حفل رسمى ترفع فيه الطبول الكبيرة .
(١٣) مقال المؤلف « النفوذ اليونانى فى حوض النيل الأزرق » الخ الخ

فأضعفت تمسكهم بالشريعة ، حتى قيل أن الرجل صار يطلق امرأته ، ويعقبه عليها غيره من يومه بدون وفاء عدة ١٤ . ورغم أن هناك تضارب في الروايات المحلية ، عن هذه النقطة ، إلا أن المؤكد أن التعاليم الدينية لم تستقر في القلوب ، وأنها تأثرت بالظروف المحلية . وكانت المحاولات لنشر الدين ، متروكة لنشاط العلماء المحليين الذين لم تكن تربطهم سلطة مركزية إدارية أو روحية ، وقد تكيف وضع أولئك العلماء بحالة المجتمع ، التي سبق الكلام عنها . وكان للمجتمع أثره في بقاء الوثنية ، بعد دخول المسيحية والاسلام إلى البلاد ، وإذا نظرنا من وجهة اقليمية إلى وضع الجزيرة ، نجد أنها أكثر خصبا وأوسع رقعة ، وأن سكانها الأصليين لم يهجروا بلدهم هذا حتى في أسوأ الظروف ، التي أطاحت بالمملكة المروية في منتصف القرن الرابع الميلادي ، ولم يكن من السهل على بيئة كهذه ، كثيفة السكان عريقة التقاليد الوثنية ، أن تتقبل الدين الجديد قبولا حسنا ، وبخاصة أن الظروف المحلية لم تمكن العلماء من خلق أجيال تخلفهم ، ونجد دليلا على بقاء مظاهر المسيحية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي ، فيما كتبه الفارز الذي أشرنا إليه من قبل ، وفي بكاري (Beccari) ، الذي يقول أن اقتراحا قد قدم إلى روما في عام ١٦٩٤ ميلادية ، لتأسيس ارسالية تبشيرية في سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك ، الذين قيل أنهم هربوا من أتيوبيا ، بسبب الاضطهاد المذهبي ، وأعيد تقديم الاقتراح في يناير سنة ١٦٩٧ م من الكاردينال سكرنتي (Secrapenti) الذي نجح في الحصول على موافقة البابا باعتماد مبلغ يقرب من العشرة آلاف من الجنيهات ، وفعلا تأسست الارسالية في مدينة أخميم في صعيد مصر وذكر الرحالة العثماني أوليا شلي ، أن من بين الاسماء التي يستعملها أهالي حوض النيل الازرق « جرجس » ، وهذا اسم مسيحي .

وإذا رجعنا إلى التقاليد والعادات في أرض الجزيرة ، وبعض المناطق من سودان وادي النيل ، التي لم يتركها أهلها القدامى ، نجد فيها دليلا على أن مجموعات السكان المحلية قد دخلت في رعوية المشيخات ، التي أقامها العرب والتي دخلت في اتحاد مع السلطنة السنارية ، التي امتدت سيطرتها المباشرة على قسم كبير من مملكة علوة ، التي اختفت في السنوات الاولى من القرن السادس عشر الميلادي ، ولاشك أن الذي دفع السكان القدامى إلى قبول الحكم الجديد ما كانت عليه الأرض من خصوبة ، نظمت

(١) أنظر تاريخ سنار مخطوطة وكتاب الطبقات .

بمجتمعهم وحياتهم ، وكانت لهؤلاء تقاليدهم الدينية ، ولهم لغتهم ومدنيتهم الموروثة ، وكان لزاماً أن تدخل هذه العوامل مجتمعة في صراع مع ماحمله السكان الجدد .

وبما يؤسف له أن تاريخ السلطنة السنارية ، الذي وصل إلينا ، لم يدون إلا في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (١٥) ، ولهذا نجد أن ما كتب عن السنوات الأولى ، يقتصر على ذكر اسم السلطان وتاريخ ولايته للحكم وتاريخ اعتزاله ، ولم توضح لنا الأسس التي قامت عليها السلطنة ، وعلاقاتها الداخلية والخارجية ، ولهذا كان علينا أن نتلمس الخيوط ونقتبعها هنا وهناك . في مختلف المصادر لكتابة تاريخ أقرب إلى الصحة - فالسلطنة في سنواتها الأولى ، التي جاوزت القرنين من الزمان ، قد حكمها سلاطين من أبناء الصلب للسلطان عميرة ، مؤسس البيت السنارى في عاصمته في حوض النيل الأزرق ، وانتقل الحكم بعد ذلك إلى بيت عين الشمس ، الذي يمت للبيت السنارى بصلة الرحم ، انتزع الحمق (الهمج) ، الذين تولوا المشيخة ، الحكم من أولئك السلاطين ، وسنبن ذلك في موضعه . ولما كانت السلطنة قد أهملت بادىء ذي بدء أن تقيم جهازاً لسلطانها ، يتمشى مع حالة البلاد وتطورها ، فإن الزمام قد أخذ يفلت من يد السلاطين ، عندما تأثرت التجارة بعوامل خارجية .

(١٥) المخطوطات التي دونت في أوائل القرن التاسع عشر (بعضها قد نشر) والتي وصلت إلينا هي كالآتي :-

أ (طبقات « ود ضيف الله » في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان نشرها السيد سليمان داود منديل طبع الخرطوم ١٩٣٠ م - وطبعة أخرى أعدها وعلق عليها فضيلة الشيخ ابراهيم صديق - طبع القاهرة في ١٩٣٠ م

ب (تاريخ « مدينة سنار » - جمعه وكتبه احمد الحاج أبو على المعروف بكاتب الشونة . الذي كان موظفاً بالديوان في الخرطوم وافته ناريته حتى عام ١٨٣٥ م . ومنها نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

ج (تاريخ « مدينة سنار » ويشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهاية عهدها وهذه المخطوطة تكون القسم الأول من مخطوطة كاتب الشونة آفة الذكر - وقد نقلها عن الأصل أحد الفقهاء في الخرطوم كطلب المبشر اجناز كنوبلخر الذي أودعها في مكتبة فينا الأهلية - وهناك بعض الاختلاف بين النسختين ب . وج وليس من اليسير تحقيق ذلك إذا لم تحصل على النسخة الأصلية لكاتب الشونة .

د (تاريخ ملوك القوة والسودان وأقاليمه - كاتبه مجهول منقول عن النسخة ب مع تعديلات وإضافات وتنتهى في عام ١٨١٣ م - ومنها نسخة بدارالكتب المصرية (منقولة عن نسخة المكتبة الأهلية بباريس) وهى تحت رقم ٢٥٤٧ .

هـ (تاريخ مختص بأراضى النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفنج - كاتبا مجهول - وهى أصلا

ويحمل بها أن نستعرض تاريخ السلطنة ، بمثل رجالاتها من سلاطين وغيرهم ، وما وقع في فترات ولايتهم الحكم أو الزعامة ، من أحداث وهذه تصور لنا من الناحية الواقعية ، وتساعدنا من ناحية أخرى على تفسير تلك الحوادث ، ومجريات أمورها وأثر ذلك في الحياة اليومية .

فالسultan عميرة بن عدلان (ورد في بعض الروايات « عمارة ») هو السلطان الأول للبيت السنارى ، عند قيامه في حوض النيل الأزق ولم يحظ في الروايات المحلية ، التي وصلت إلينا في أكثر من مخطوط ، بأكثر من تأريخ ولايته وتاريخ وفاته ، وتحالفه مع الشيخ جباع (شيخ قرى) على غزو حوض النيل الأزرق . وبقي تاريخ هذا البيت غامضاً عن الفترة التي سبقت انتقاله . وقد كان قائماً كما سبق أن أشرنا يمارس سلطانه في منطقة « لملم » على الأقل في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، واستناداً على قول روبينى نجد أن قيام السلطنة في سنار لم يكن إلا امتداداً لحكم سابق لجأ أصحابه إلى حوض النيل الأزرق ، بعد أن تغيرت الظروف في الموطن السابق ، وصار الاستمرار هنالك مستحيلاً لدرجة ما ، ولم تذكر الروايات عن السلاطين الثلاث الأول ، الذين تولوا بعد عميرة أكثر من تاريخ الولاية وتاريخ الوفاة . واختلفت الروايات في الترتيب الزمني لعبد القادر ونایل ، الذين حكما بعد عميرة بالتوالى ، أو سبق أحدهما الآخر ، ويرجع هذا الاختلاف في الرواية ، إلى أنها قد كتبت بعد انقضاء أكثر من ثلاثة قرون من ظهور السلطان عميرة في السودان ، ومن عهد السلطان دكين ولد نایل ، وهو الخامس بعد عميرة ، نجد أن هذه المعلومات قد أخذت في الزيادة ، فقد ذكرت الروايات عن هذا السلطان (١٦) ، أنه « ملك العادة » الذى رتب الدواوين ،

== مأخوذة عن كتاب كاتب الشونة مع تعديلات وإضافات - أهمها الطعن في إدارة احمد ممتاز باشا - وهنالك ، يجعلنا نعتقد أن الذى أوعز بذلك - معنى بك الشامى « الذى كان وكيلاً لمديرية الخرطوم لما كان بينه وبين وممتاز باشا من من علاقات سيئة - وقد اعتمد نعوم بك شقير ومكيكل على هذه النسخة - وقد نقل غوردون منها نسخة أودعها في المتحف البريطانى وهنالك نسخة أخرى أرسلت إلى المعية السنية غير أنها قد فقدت . وتوجد في مكتبة جامعة الاسكندرية نسخة من هذه المخطوطة - وقد نشرها السيد الدكتور مكي شبيكة (طبع الخرطوم ١٩٤٧ م) ضمن مطبوعات كلية غوردون التذكارية بالخرطوم - تاريخ رقم (١) .

(١٦) أشار النجاشي في كتابه الذى أرسله إلى سلطان سنار في ٢١ يناير سنة ١٧٠٦ م إلى العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين الحبشة وسنار وسلطانها دكين وقد ورد اسم هذا السلطان ==

وأجرى قوانين مربوطة ، لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيساً ، معلوما ورتب عليه ما رتبته ، وكان دخولهم وجلوسهم عنده حسب الرتب الأعلى فالأعلى ، وهذه التنظيمات الديوانية ، تكشف لنا عن تغلغل الآراء والنظم العثمانية ، وأثرها على سنار ، ولا غرو فقد كانت لباشوات سواكن (١٧) ومصوع من العثمانيين ، وكلاء تجاريين في سنار واريجي ، (١٨) ويبدو أيضاً ان النفوذ الهندي لم يكن بأقل خطر من النفوذ العثماني ، فقد كانت للهنود جاليات من التجار « البنيان » ، في موانئ البحر الأحمر وفي داخلية البلاد . ونجد في الصورة التي تركها كايو ، عن السلطان بادى (آخر ملوك سنار) ، ملابسه وحذاءه صورة طبق الأصل مما كان يلبسه المهراجات في الهند في ذلك الزمن .

وقد سار خلفاء السلطان دكين على نهجه ، حتى ولاية السلطان عبد القادر (حكم من ١٦٠٢ - ١٦٠٦) ، ولم تذكر الروايات المحلية عنه شيئاً غير تاريخ ولايته ووفاته على حد قولها ، لكن المصادر الحبشية تلقي الضوء على حياة هذا السلطان ، الذي عزل عن الحكم بسبب لهوه وخلاعه ، وقد هرب إلى تشلجه ، حيث التجأ إلى النجاشي ، الذي منحه اقامة ، تتناسب مع مركزه السابق ، وبما يؤخذ على هذا السلطان ، انه عقد اتفاقاً مع النجاشي ، اعترف فيه بتبعيته للحبشة ، وقبل « نقارة » محلاة بسلسلة ذهبية ، وتبادل الهدايا مع النجاشي ، على النحو الذي يوحى بخضوع سنار لسيطرة النجاشي وسيادته ، ويبدو ان وجود عبد القادر في بلد على الحدود الحبشية السنارية ، قد أساء إلى العلاقات بين البلدين ، فقد جاء في حوليات النجاشي « سوسنيوس » ، ان عبد القادر قد أجبر على مغادرة الحبشة ، بدعوى المحافظة على العلاقات الودية مع سنار .

وتولى الحكم بعد عبد القادر ، عدلان ولد آي ، الذي أدخل تعلايلات على التقاليد والعادات المرعية ، الأمر الذي سبب قلقاً وتذمراً ، كان من نتيجته قيام

في المؤلفات الأجنبية وخاصة « بروس » محرراً حيث كتبه (De Kim) دي كم وفسره بأنه ملك من ملوك القيروان . وكتاب النجاشي المشار اليه قد أرسل من النجاشي نقلا هيمنوت للسلطان بادى للسماح للبعثة الفرنسية وعلى رأسها « دي رول » بالسفر إلى الحبشة .

(١٧) بنصه من مخطوطة تاريخ ملوك ملوك الفونج والسودان أقاليه - دار الكتب المصرية
نمرة ٢٥٤٧ .

(١٨) عرف باشا سواكن بباشا سنار .

حركة تمرد وعصيان ، أخذت مظهرها في محاولة الشيخ عجيب ود عبد الله زعيم
العبد اللاب ، الانفصال عن الاتحاد السنارى وقد اشتبك مع عدلان في معركة فاصلة
في السكالكول (١٩) قتل فيها الشيخ عجيب ، وفر أهله إلى دنقله ، فأرسل السلطان
الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (٢٠) ، ومعه عفو السلطان وطلب من أهل عجيب ،
العودة إلى بلدكم « قرى » حيث أسند إلى العجيل ، أكبر أبناء عجيب ، منصب والده
وتميز عهد هذا السلطان بهجرة كثير من العلماء ، من مصر والمغرب والجزيرة العربية
وغيرها إلى السودان ، ومن هؤلاء العلماء من رجال الدين ، الشيخ حسن ودحسنونه
الأندلسي (٢١) ، والشيخ ابراهيم جابر البولادى المصرى (٢٢) ، والشيخ محمد المصرى (٢٣)
وقد أدخل هؤلاء طريق الصوفية إلى البلاد .

واختلفت الروايات المحلية ، في مدة حكم هذا السلطان ، فالخطوطات تقول انه
حكم ثلاث سنوات ، انتقل بعدها إلى رحمة مولاه ، بينما تذكر الطبقات في ترجمة
الشيخ صغيرون ، ان الملك عدلان بعد ما قتل الشيخ عجيب في كركوج ، سافر
بجوشه إلى دنقله ، فلما جاء في « حفير مشو » عزله الفونج عن الملك ، وولوا بدله
بأدى سيد القوم ، وهذه مسألة جدية بالتحقيق ، وتعوزها الوثائق واننا نشك كثيراً
في ان عدلان هذا كان ملكاً على سنار ، ونرجح انه كان يشغل منصب « سيد القوم » ،
وهو « الوزير الأول » ، والذي عليه قيادة الجيش (٢٤) ، ويحتمل انه كانت له شخصيته
القوية ، التي حجبت السلطان ، وتولى الملك بعده السلطان بأدى سيد القوم ابن السلطان
عبد القادر ، الذى خلع وهرب إلى أتيوبيا ، وقد أرسل النجاشى للسلطان بأدى
سواراً من الذهب وكرا أخ أخ ، ولما كانت مثل هذه الهدايا ، لا ترسل عادة إلا
من سيد إلى مسود ، الأمر الذى أغضب بأدى ، فأرسل النجاشى اثنين من الخيل الهزيلة
العرجاء العمياء ، ويهدف بذلك أن يشعر النجاشى بأن سنار لا تدين بالولاء

(١٩) السكالكول في رواية وكركوج في رواية أخرى وولد أبي عمارة في رواية ثالثة وهذه
جميعها واقعة في منطقة على الشاطئ الشرقى للنيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم .

(٢٠) طبقات ووضيف الله - ص ٧ - طبع القاهرة سنة ١٩٣٠ م

(٢١) المصدر نفسه ص ٦

(٢٢) المصدر نفسه ص ٤٧

(٢٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ وهو الشيخ محمد بن على بن قرم السكيمانى المصرى

(٢٤) الفصل الثانى « الترتيب الزمنى لسلطين سفار » .

للحبشة (٢٥) ، وتقدم في نفس الوقت بالشكوى ، من وجود والده عبد القادر في تشلجه ، يزاول نشاطاً يتنافى مع علاقات حسن الجوار بين البلدين ، فقد تعاون مع النجاشي في حملته على المملكة صديقة ، التي كانت تحكم على المنطقة المجاورة لحدود الحبشة ، ويغلب أنها كانت في حوض نهر العظيرة . ويبدو أن تطور العلاقات واحتجاج سنار ، قد أديا إلى إخراج عبد القادر من الحبشة ، غير أن ذلك لم يحسن العلاقات كما كان مرجوا ، فقد حدث أن هرب « غالب » ، حاكم مقاطعة مزقه ، ودخل إلى السلطنة السنارية ، وقد رفض السلطان تسليمه ، أو إعادة خيل النجاشي وشارات الحكم ، التي حملها غالب معه . وأوعز السلطان إلى نايل ود عجيب ليشن غارات على منطقة بحيرة تانا . ولم يكن من المستطاع أن ينتقم النجاشي من السلطان لهديته المهيمنة وما تسلاها من مشاكل وذلك بسبب مشاغله الداخلية غير أنه أخذ في العمل على استماله نايل ود عجيب إلى جانبه ، ليفيد منه عندما تحين الفرصة . وانتقل الحكم بعد بادي إلى ابنه رباط ، الذي حكم أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وقد ترك له بادي تركة مثقلة بالمشاغل ، التي تصور لنا مظهراً ، من مظاهر بداءة التحول في تاريخ البيت السناري ، ولم تذكر لنا المصادر المحلية شيئاً عن تلك التطورات ، بينما تلقى المصادر الأخرى ضوءاً على مجريات الأمور في عهد السلطان رباط . فالنجاشي قد أخذ في الاستعداد ، لغزو أراضي السلطنة السنارية ، ولم يمض طويل وقت ، حتى استطاع إرسال ثلاث حملات ، واحدة منها لغزو التاكة (كسلا) ، والثانية على حوض العظيرة ، والثالثة اكتسحت الحدود بين التاكة والنيل الأزرق وكان ذلك في عام ١٦١٩ ، كما ذكر بايز في تاريخه . وقد استطاع سكان التاكة ، ومنطقة الحدود ، الهرب في الوقت المناسب ، قبل وصول جنود الأحباش ، أما الحملة التي أرسلت إلى حوض العظيرة ، فقد تمكن قائدها من أسر المملكة فاطمة ، التي كانت تحكم في شرق منطقة « الميرفاب » (بين مصب العظيرة

(٢٥) حكم السلطان بادي من سنة ١٦١١ ميلادية (تقريباً) وقد ورد ذكره في المخطوطات المحلية « بادي المعروف » بسيد القوم ولقب بسيد القوم هذا من الألقاب التي كانت شائعة الاستعمال في أوائل عهد السلطنة السنارية فبينما كان يعرف به الشيخ المتولى الوزارة فقد عرف به أيضاً القائم على شئون السلطان الخاصة - وقد أشار اليه بروس في كتابه (مجلد ٤ ص ٤٦٠) بأنه المتولى تنفيذ قتل السلطان عندما يصدر إليه الأمر بذلك واستعمل هذا اللقب أيضاً لأمناء المشايخ الدينيين كما ورد في الطبقات - ترجمة الشيخ حسن ود حسونة - ص ٤٩ . . خمسمائة عبد كل واحد شاييل سيفاً قبضته وابزيمه ومحاجيره فضه ولهم سيد قوم وجندي وعكا كيز .

ونجد ان الانجسنا يطلقون (Sen.i- Kung) وبالعرية « سيد القوم » على الشيخ المتولى شئون القرية وله صفة قيادة الحرب . والنظر في الشؤون الخاصة بأهل القرية وما يعجز عن حله يرفعه إلى الملك الذي يتولى المسألة بالاشتراك مع سيد القوم والأجاويد . ووظيفة سيد القوم كما هي اليوم في الانجسنا وراثيه

وبربر) ، وتعرف هذه المملكة باسم نجاشية الروم (٢٦) ويبدو كما جاء في المصادر الآتيوية ، ان هذه الغزوات كان القصد منها التأديب والحصول على الاسلاب .

وجاء في الروايات الخاصة بتاريخ مملكة تغلي ، ان الملك « قبلي أبو قرون (حكم من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٨ م تقريباً) ، قد تزوج من « عجايب » ابنة السلطان رباط ، وقد أغفلت هذه الروايات ذكر الظروف التي عملت على التقرب بين السلطان السناري وملك تغلي بالمصاهرة ، أما تفسير ذلك من تاريخ تغلي ، خلال تلك الفترة فهو ان السلطان السناري قد لجأ الى كسب مودة تغلي للعمل سوياً على الحد من نفوذ الفور ، وبخاصة ان تغلي بحكم موقعها الجغرافي ، بين سلطنتي سنار ودارفور ، وهي بحكم هذا الموقع ، تعتبر قلعة أمامية بالنسبة لتجارة القوافل ، من وإلى سنار ، ولكن هذه المحاولة فشلت ، لأن نفوذ الفور قد أخذ في الامتداد إلى حوض النيل ، في دار الشايقية ، حيث أراد الفور أن تسير قوافلهم التجارية متجهة إلى دار الشايقية ، ومنها إلى موانئ البحر الأحمر ، بعيداً عن مناطق النفوذ السنارية . وبقيت العلاقات قائمة بين الفور والشايقية ، حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادي ، كما تبينه الوثيقة رقم ٣ ، وهي التي أرسلها سلطان الفور محمد الفضل ابن عبدالرحمن (حكم من ١٨٠٠ إلى ١٨٣١ م) ، ومعها هدايا مختلفة ، ليستعين بها الفقيه محمد أبو جبة (أبو دلق) على إقامة المسجد وعمارته ، اطعام المساكين في دار الشايقية ، وبعد وفاة السلطان رباط وانتقال العرش إلى ابنه بادي أبو دقن ، وقد استمر في الحكم فترة طويلة ، بلغت السلطنة السنارية في خلالها عصرها الذهبي ، كما بدأت تتجمع الزوبعة ، التي نقلت الحكم من يد خلفه الثالث إلى بيت الأونساب .

وتميز عهد السلطان بادي أبو دقن ، بعلاقاته الطيبة مع علماء الأزهر لما كان يرسل لهم من عطايا ، فنظموا القصائد في مدحه ، ومنها قصيدة الشيخ عمر المغربي ، الذي بعث بقصيدة للسلطان بادي ، مع خبيره الشيخ احمد علوان ، استهلها بقوله : -

أيا راكبا يسرى على متن ضامر إلى الغرب يهدي نحوه طيب الذكر
ويطوى إليه شقة البعد والنوى ويقتحم الأوعار في المهمة القفر

(٢٦) لا يعلم على وجه التحقيق مصدر هذه الكلمة . فهل هي تشير إلى الروم أي الأغريق أو هي تصحيف لكلمة أروم (Urum) في اللغة السكزية ومعناها أسود على حد قول بورخاردت

وينهض من مصر وشاطئ نيلها وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير ان وافيت سنار قف بها وقوف محب وانتهز فرصة الدهر (٢٧)

وقد بنى هذا السلطان مسجد سنار ، وقصراً للحكومة ، وجعله من خمس طبقات فوق بعضها ، وأقام مخازن عديدة لحفظ مهمات الحكومة ، من أسلحة وغيرها ، وأقام أيضاً حائطاً كبيراً حول القصر ، وجعل في ذلك الحائط تسعة أبواب ، خصص كل باب منها لواحد من كبراء دولته ، وكانت كل هذه الأبواب تفتح في حائط مستقيم ، وأمام هذه الأبواب سقيفه بعمدان ، وفيها دكة عالية تعرف بـ دكة (٢٨) من « ناداك » ، تسمع فيها الشكاوى والقضايا ويصدر السلطان حكمه . وكان مجلس السلطان هذا ، يجتمع كالعادة صباحاً ومساءً خلال أيام الأسبوع عدا أيام السبت والأربعاء ، التي يخرج فيها السلطان وحاشيته إلى بيته الريفي في العيرة ، الواقعة على مسافة قصيرة من العاصمة .

وحدث في عهد هذا السلطان ، أن ذهب الفقيه حمد النحلان المعروف بود الترابي ، إلى الحجاز وهناك نادى بنفسه انه « المهدي » المنتظر ، فضربه الحجاج وحبسوه ، وبعد ذلك أرسل أحد تلاميذه المدعو « ميرف » ، وقال امش في سنار وقل المهدي ظهر ، فأمر الملك بادي بقتله (٢٩) .

كما اشتد في عهد هذا السلطان ، التنافس التجاري بين سنار والفور ، الأمر الذي اتخذت معه تقلى موقفاً ، أكثر ميلاً إلى الفور منه إلى سنار ، ولم تكن للمصاهرة التي تمت في عهد السلطان رباط ، من أثر في تخفيف حدته ، ومرجع ذلك إلى طبيعة المجتمع في كل من تقلى ودارفور ، وأسس الحكم فيهما ، مما جعل ذلك التقرب بينهما سهلاً ، فالحاكم في البلدين يهدف إلى نشر الرسالة الإسلامية ، بين شعبه ، وحكام الأقاليم فيهما يدينون بالولاء الكامل للزعيم الأكبر ، وكان الأمر على عكس ذلك في الجمهورية التجارية السنارية .

وقد تأثرت تقلى ، بحكم موقعها الاقليمي بالمنافسة التجارية الشديدة بين سنار والفور ، ولما كان الفور أشد بأساً وأقوى نفوذاً من سنار ، فإن تقلى اتجهت نحو

(٢٧) أنظر مخطوطة تاريخ سنار (نسخة المكتبة الأهلية : باريس) ص ٧ وما بعدها .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٠

(٢٩) أنظر كتاب الطبقات (نشر الشيخ إبراهيم صديق) ص ٦٢

تحسين علاقاتها مع الفور ، الأمر الذى أغضب مجموعة الحلف السنارى ، وعلى ذلك فقد انتهز السلطان بادی ، على نحو ما جاء فى الروايات المحلية ، حادث تعرض ملك تقلى لتجارة خاصة بصدیق له ، فأرسل حملة للانتقام من تقلى ، واستمر القتال بضعة أيام وانتهى بصلح ، صارت تقلى بمقتضاه تدفع جزية سنوية لسنار ، ولم يهتم الفور بنجدة تقلى ، لأن اهتمامهم كان متجهاً نحو امتداد نفوذهم إلى دار الشايقية ، وفتح الطريق التجارى مع حوض النيل ، بعيداً عن المرور عبر منطقة تقلى .

ولقد كان لهذه العلاقات بين الشايقية والفور أثرها فى تقوية مركز الشايقية أنفسهم حيث انهم شقوا عصا الطاعة على سنار ، ودخلوا فى حرب مع العبد الآب ، واسطة الحكم السنارى ، وزعيمة المشيخات الشمالية ، المتحالفة مع سنار . وكانت تلك الحرب فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان بادی .

وقد اشتد فى عهد السلطان بادی ، أو فى السنوات القليلة التى سبقتة ، نشاط البعثات الدينية من الفرنسيسكان ، ويسندهم بابا روما ، والجزويت ومن خلفهم لويس الرابع عشر ، وكل من هاتين الجماعتين تحاول بسط نفوذها فى أتيوبيا ، وبجانب ذلك يهدف لويس إلى فتح أسواق تجارية فى أتيوبيا وسنار وأخذ الفرنسيسكان (٣٠) فى التودد إلى السلطان السنارى ، لتسهيل سفر رجالهم عبر بلاده من مصر إلى أتيوبيا ، بدلاً من السفر من القاهرة إلى أتيوبيا ، عن طريق عيذاب وسواكن ، بسبب العراقيل التى يقيمها باشا سواكن ، وتتابع بعد ذلك الرحلات عن طريق النيل ، كما فعل الرحالة العثماني أوليا شلي فى سنة ١٦٧٢ م ، أما البعثات فقد سارت عبر الصحراء من أسيوط إلى الواحات ، ومن ثم إلى بلدة « مشو » (على النيل شمالى دنقله) ، وتخرج القوافل من منطقة دنقله ، مخترقة صحراء البيوضة ، إلى منطقة شندى ، ومنها إلى قرى وأربحى وسنار .

وذكر أوليا شلي فى رحلته ، انه قد شهد حرباً وقعت فى منطقة دنقله فى أكتوبر أو نوفمبر سنة ١٦٧٢ ميلادية ونرجح أن تكون هذه الحرب ، هى التى حدثت بين الشايقية والشيخ الأمين ود عجيب ، شيخ العبد لآب وزعيم المشيخات الشمالية المتحالفة مع سنار . وترجح أسباب هذا القتال إلى امتداد نفوذ الفور إلى دار الشايقية كما أشرنا من قبل . وقويت بذلك شوكة الشايقية ، وحاولوا الانفصال عن الحلف

(٣٠) بيليوتكا - جزء أول ص ١٢٧

السنارى ، الامر الذى دفع الشيخ الامين الى انتهاز الفرصة المناسبة للاشتباك مع الشايقية ، للحد من نفوذ الفور وأضعاف الشايقية ، وجاءت المناسبة فى التجاء أحد الخارجين ، على هذا الزعيم إلى دار الشايقية ، فأرسل فى طلبه إلى الشيخ عثمان سيد دار الشايقية ، الذى رفض تسليمه أو قتله . ولم يتوان الشيخ الامين ود عجيب من الزحف برجاله على دار الشايقية ، وعسكر على شاطئ النيل أمام دلقه (٣١) ، وأرسل إلى الشيخ عثمان بالتسليم ، فى مدة لا تزيد عن خمسة أيام ، ولما كانت القوة التى تحت أمره عثمان قليلة ، فانه قد لجأ إلى جمع الخيل ، التى أخذ فى تلوين جلودها بلون لكل مرة يرسلها فيها للشرب من النيل ، على مرآى من معسكر الامين ، الذى ظن أن عثمان سوف يهاجمه بقوة كبيرة ، فأرسل فى اليوم السادس إلى عثمان ليوافيه للمفاوضة ، وجاء عثمان بمفرده لكشف الخبر ، والتحقق من نوايا الامين ، وعندما دخل عثمان وجد الامين يلعب «المنقلة» ، وأشار الامين لبعض رفاقه بالحضور ، للقبض على عثمان غير أن أحد الشايقية ، من أصدقاء الامين صرخ فى عثمان ، باللهجة الاقليمية للشايقية وقال «وحياة الرب شرك أم حبيبة فى رقيبك طب» ، ومعناها «انج بنفسك قبل أن يقبض على رقبتك شرك الطير» ، فأسرع عثمان إلى ظهر جواده إلى جزيرته ، وكان الماء على عمق بسيط . وجمع رجاله وحزم أمره على القيام بهجوم خاطف ، على العبد اللاب ، وفى ظلام الليل أعد جميع ما لديه من ماشية ، حمير وغنم وماعز ، وربط على ظهر كل منها كمية من القش الجاف ، وعبر بها فى صمت وسكون ، وأخذ رجاله وعندما وصل إلى مكان قريب من معسكر العبد اللاب ، أشعل النار فى القش ، وطارد الحيوانات فى اتجاه المعسكر ، فأحدث ذلك هرجا ومرجاً بين العبد اللاب ، وأخذ رجال عثمان فى قتل من يقع فى يدهم ، ووجد الامين جالسا على فروة الصلاة فى انتظار الموت . ولما وصل اليه عثمان قال له وهو شاهر سيفه ، اننى أعفو ، على أن تضمن لى استقلال الشايقية ، ولم يسع الامين إلا أن يؤمن عثمان على استقلال بلاده ، وقطع الموائيق له بذلك .

وقد لعبت المرأة الشايقية دورها التقليدى ، فى تقدم المقاتلين والمباداة بالحرب واشعال الحماس فى الجند للاستماتة فى القتال (٣٢) .

(٣١) دلقه - جزيرة جتوبي بلدة مروي على مسافة تقرب من الستة والخمسين ميلا .

(٣٢) جاء فى كتاب الشايقية نيكولس Nicholls بالانجليزية ص ١٠/١١ الدور الذى لعبته =

وكان تحديد التاريخ الذي حدثت فيه هذه المعركة بين الشايقية والعبد اللاب موضع جدل ، والغالب انها حدثت في وقت ما بين عامي ١٦٥٩ و ١٦٨٠ ميلادية ، ونرجح ان القتال الذي شهده أوليا شلي ، وهو في طريقه إلى سنار وحدد تاريخه في شهر رجب ١٠٨٣ هـ (أكتوبر / نوفمبر سنة ١٦٧٢) هو القتال الذي انتهى كما سبق أن أوضحنا ، باستقلال الشايقية عن الحلف السناري . وترك لنا أوليا شلي وصفاً خيالياً عن المعركة ، ولم يذكر شيئاً عن تفاصيل القتال ، أكثر من انها كانت حرباً بين هارديقان عابد النار وبربرستان ، وان القتال قد انتهى بهزيمة هارديقان — والمقصود بهارديقان الشايقية ، وبربرستان العبد اللاب ، بينما حقيقة الواقع على عكس ذلك ، فالشايقية (هارديقان) قد انتصر على العبد اللاب (بربرستان) ، وإذا راعينا ظروف أوليا شلي المختلفة ، نجد ان أخطاه وخلطه بين الأسماء والحوادث أمراً غير مستبعد .

وقد نتج عن هذه الحرب تحول طرق التجارة بعيداً عن متناول الشايقية كما كانت القوافل تزود بحراسة قوية ، لحمايتها من تعدى الشايقية ، وأشار إلى هذه الحالة أوليا شلي نفسه ، وبونسيه (Poncet) ، وكرمب (Krump) ، والفرانسكان ، وغيرهم من الرحالة الذين زاروا منطقة دنقله في تلك الفترة .

وبعد وفاة السلطان بادى أبو دقن ، تولى السلطان أونسه بن ناصر بن رباط ، على حد قول الروايات المحلية ، ولكن هذه الروايات على ما يبدو لنا غير صحيحة ، بل المرجح أن يكون سلطان آخر قد حكم بعد السلطان بادى أبو دقن ، وهو السلطان عدلان بن محمد . أما السلطان أونسه فيرجح أنه قد حكم بعد عدلان بن محمد ، والدليل على ذلك ، أنه يوجد خطاب يحمل ختم السلطان عدلان بن محمد ، وجاء في ختام هذا الخطاب « يامن يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور ، أنه توصيت (توصية) من السلطان جمرة الاموى . سنة ألفاً وأربعة وثمانون ، (أى ١٦٧٣ / ١٦٧٤ م) (٣٣) ، وهذا التاريخ هو تاريخ

==عديله والده الشيخ عثمان في الخروج أمام جند الشايقية وهذه تعيد إلى الناكرة الدور الذي لعبته الفتاة مهيبة بنت الشيخ عبود عند ملاقاته الشايقية للحملة المصرية بقيادة اسماعيل كامل بن محمد على وقد وقعت في الأمر فأحسن إليها وأعادها إلى معسكر والدها مكرمة معززة الأمـر الذي أعجب والدها وكان ان طلب الصلح مع اسماعيل الذي حافظ على ابنته وأكرمها .

(٣٣) أنظر المحققين مرة ٧ و ٨

الخطاب وليس تاريخ توصية السلطان جمره الاموى ، والدليل على ذلك أن اسم السلطان جمره ، قد ورد في وثيقة أخرى ، أنه تولى الحكم في الفترة السابقة لعام ١٦٠٢ ميلادية ، ورب معترض يقول أن قائمة السلاطين ، التي أعطيت إلى الرحالة بروس^(٣٤) ، ذكرت أن السلطان بادی أبو دقن توفي في ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٧٠ م (٦ ذو الحجة سنة ١٠٩١ هـ) ، فهذه القائمة قد كتبت بعد حوالي مائة عام من حكم عدلان ، ولا مفر لنا من قبول الوثيقة الخطية الاصلية ، التي صدرت عن السلطان نفسه وحدثت في عهد « أونسه » زيادة النيل عن المنسوب العادى للفيضان ، وكان ذلك في عام ١٦٨٣ ميلادية ، وتسبب عن تلك الزيادة أضرار جسيمة ، وغلاء شديدا جداً أكل فيه الناس لحم الكلاب ، لذلك عرفت بسنة أم لحم ، وانتشر الجدري في صورة وباء تخربت بسببه الحلال (مفردها حلة - القرية) الكثيرة ، وصارت الحاجيات الغذائية ، وفي مقدمتها الأذرة وهي الغذاء الرئيسى ، تباع بأعلى الأثمان .

وبعد وفاة هذا السلطان ، تولى ابنه بادی الاحمر ، الذى لم يكن موثقاً في إدارته بفرج عن طاعته أهله من الفونج والشيخ أمين أرادب ، وولد عجيب ، وأقاموا ملكاً آخر اسمه « أوكل » ، ونادوا بعزله ، ولكن بادی الاحمر تمكن من إخماد حركتهم . وتميزت الفترة التي قضاها السلطان بادی الاحمر في الحكم ، بدخول البعثات الأوروبية الدينية في طريقها إلى الحبشة ، وكانت « سنار » مركزاً للصراع والدسائس التي كان يحكمها كل فريق من هؤلاء المبشرين ، لتعطيل منافسه من مواصلة السفر إلى الحبشة ، ففي عهده جاء الرحالة الفرنسى بونسييه ، وهو من الجزويت^(٣٥) (١٦٩٨/١٧٠١ م) .

ودخل السودان في أعقاب بونسييه مباشرة ، رجال من الفرنسيين الذين أسسوا مركزهم التبشيري في بلدة أخميم في صعيد مصر ، للعمل في بلاد الفونج^(٣٦) وأتيوبيا ومن هؤلاء الفرنسيين الأب يوسف ، الذى كان في سنار سنة ١٦٩٩ م إلى ١٧٠٣ م ومن ١٧٠٥ إلى ١٧١٠ م ومعه باسكال ، الذى اشتغل طبيباً للسلطان السنارى بادی الاحمر ، لمدة سنتين ، وسافر إلى أتيوبيا ، وخلفه في عمله كطبيب للسلطان كرمب البافارى^(٣٧) .

(٣٤) أنظر قائمة الترتيب الزمني لولاية الحكم ص ٩٨ وما بعدها

(٣٥) وهو ثالث رحالة من الذين دخلوا السودان ولهم مذكرات عن أسفارهم . أو لهم داود =

وفي الوقت الذي كانت فيه بعثة الفرنسيين دائبة النشاط والحركة ، بين غندار (شمالى بحيرة تانا فى الحبشة) وسنار والقاهرة ، كان القنصل الفرنسى فى القاهرة دى ماليت (De Maillet) يعد التجهيزات لارسال بعثة إلى الحبشة ، عن طريق سنار وقد سافرت هذه البعثة من القاهرة فى ١٩ يولييه سنة ١٧٠٤ م ، وعلى رأسها جاك لنوار - دى رول ، الذى كان قنصلا لفرنسا فى دمياط بالقطر المصرى ، ووصلت هذه البعثة إلى سنار فى حوالى العاشر من يولييه من العام التالى (١٧٠٥ م) ، بعد أن حجزت لفترات طويلة فى بلدة مشو (شمال أرقو فى دنقله) ، وكان هدف هذه البعثة أولا إنشاء علاقات تجارية بين الحبشة وفرنسا ، لىكى تتمكن الأخيرة من فتح أسواق جديدة لتصريف منتجاتها الصناعية ، وثانياً التبشير الدينى ، وتركيزه فى يد الجزويت ، وثالثاً جمع المعلومات عن الامكانيات العسكرية ، فى الممالك التى تزورها البعثة ، وكانت فرنسا تخشى أن يفلت منها سوق الحبشة ، بدخول جماعات من الصناع الأجانب لتلك البلاد ، ويتعلم الأهالى منهم صناعاتهم ، ولم يكن للفرنسيين أن يتركوا الباب مفتوحاً ، لامتداد نفوذ الجزويت ، ومن ورائهم التجارة الفرنسية ، دون إحباط هذه المساعي الفرنسية ، التى بدأت فعلاً بالبعثة الاستطلاعية التى رأسها « بونسيه » .

وقد قام الفرنسيون بتنفيذ خططاً إيجابية ، فى صورة حملات من الدس لدى نجاشى الحبشة وسلطان سنار ، عن بعثة « دى رول » فأشاعوا فى سنار أن هذه البعثة سوف تعمل على تحويل مجرى النيل الأزرق ، وتخريض النجاشى على الهجوم على الأتراك واحتلال سواكن ومصوع ، ومن سوء طالع تلك البعثة أن الفيضان فى عام ١٧٠٥ م وهو العام الذى وصلت فيه إلى سنار ، كان منخفضاً ، مما أكد الاشاعات ، التى راجت وكان ان ذهب دى رول ورجال بعثته ، ضحية لهذه الخلافات الذهبية بين البابا وملك فرنسا ، فقد قتل وصحبه فى سنار (فى حوالى الساعة الثالثة من ظهر يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٠٥

وأوغر مقتل بعثة دى رول صدر نجاشى الحبشة تقلداً هيمنوت ، وبخاصة بعد أن أرسل رسولا خاصاً ، يحمل كتاباً لسلطان سنار بادى الأحرار ، للسماح لهذه البعثة بمتابعة سفرها إلى غندار^(٣٨) ، وكان أن وصل هذا الرسول إلى سنار بعد مقتل رجال

== روينى (١٥٢١/ ١٥٢٣ م) ثم أوليا شلبى (١٦٧٢/ ١٦٧٣ م) وبعد ذلك جاء بونسيه وزملاؤه .

(٣٦) انظر صفحة ٧٥ حيث أوضحنا ان اقتراحاً قدم إلى البابا لتأسيس مراكز تبشيرية فى سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك الذين قيل انهم هربوا من الحبشة بسبب الاضطهاد المذهبي .
(٣٧) أنظر كتاب كرمب وقد نشر ملخصاً له كروفرود فى كتابه ص ٣١٣ - ٢١٦

البعثة ، واعتبر النجاشي نقلاً هذا الحادث مأساً بكرامته ، وأعتقد أن القاهرة هي المسئولة عنه ، لذلك أرسل كتاباً شديد اللهجة ، يهدد فيه بتحويل مياه النيل الأزرق عن مجراه .

ويبدو أن النجاشي ، لظروفه الداخلية ، لم يتمكن من الانتقام لكرامته من سنار ، واستمر العداء والصراع المذهبي ، من جراء المنافسة بين الفرنسيين والجزويت ، وكان اعتقاد الجزويت أن أتيوبيا مجاهم التبشيري ، وكان الفرنسيون يرون أنهم دخلوا الحبشة من قبل ، ومن حقهم القيام بالتبشير منفردين . وأخذ القنصل الفرنسي في القاهرة دى ماليت يتخبط في اتهاماته لمقتل رجال البعثة ، فمرة يقول أن النجاشي هو الذى حرّض سلطان سنار ، على ارتكاب الجريمة ، ومرة أخرى يتهم سلطان سنار ويطلب من باشا سواكن « عمر » ، في كتاب له بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٠٦ م ، أن يعترف بشيخ العبد اللاب في قرى كسلطان فعلى لدولة سنار ، وأن يرسل أحد الاغوات إلى سنار ، لعزل السلطان بادی ، وأن يقطع العلاقات التجارية مع سنار ، وقد بنى ماليت اتهاماته على الأخبار المتناقضة ، التي نقلها إليه بعض الخدم الذين كانوا مع دى رول (٣٩) .

وأخذت حالة التوتر بين الحبشة وسنار ، في الظهور والاختفاء طوال فترات حكم الابطارة من الاحباش ، الذين تولى الحكم ، بعد النجاشي نقلاً هيمنوت واكتفى هؤلاء بارسال غزوات على الحدود السنارية ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى عهد للنجاشي اياسو الثانى (حكم من ١٧٣٠/١٧٥٥ م) ، وكان على سنار السلطان بادی أبو شلوخ (حكم من ١٧٢٥ إلى ١٧٦٢ م) ، فأعد ياسو جيشاً كبيراً لغزو سنار لكنه فشل ، كما سنبينه فيما بعد .

ولاشك في أن هذه الفترة التي برز فيها الصراع ، بين الفرنسيين والجزويت ، في صورة واضحة المعالم ، تتطلب دراسة وافية سوف لا يجد فيها الباحثة عنتاً ، لكثرة الوثائق المتصلة بتاريخها (٤٠) .

(٣٨) نص الخطاب الذى حمله المبعوث الحبشى الى سلطان سنار في كتاب لجران ص ٤٧٠/٤٧٢ أيضاً في كتاب بدج - جزء أول ص . .

(٣٩) وهذه الحادثة وما نقله الخدم عنها وتصرفات ماليت نجد منها صورة لما حدث في مقتل اسماعيل باشا كامل ابن محمد على حرقاً في شندى واتهم الملك نمر استناداً على قول أحد العساكر المحليين . .

(٤٠) بيلوتيكاً جزء أول وثنان ، أيضاً كروفورد ويحتوى على بيلوغرافيا وافية

وتولى بعد بادى الأحمر ، ابنه أونسه ، وكان صاحب لهُو وفساد ، فاتبع هواه كما ذكرت الروايات المحلية ، وقد استدعى ذلك عزله ، ولأسباب لم تعلم بعد ، اجتمعت كلمة أهل الرأى من الفونج وزعماء الدولة ، على اختيار « نول » سلطانا ، بعد أن بقى العرش شاغراً ، من أبريل سنة ١٧١٩ إلى يونيه ١٧٢٠ م . وكان هذا الذى اختاروه ينتمى الى البيت السنارى عن طريق الرحم ، بعد أن كان ينحدر من الصلب سلاطين الأسرة السنارية ، التى حكمت حتى السلطان أونسه . وقد ذكرت الروايات المحلية عن « نول » ، أنه سيد قوم بيت الشمس « الأونساب (٤١) » ، وأنه لم يملك فى الحكم طويلا ، وانتقل الحكم الى ابنه بادى أبو شلوخ ، وهو على حد قول الروايات ، آخر ملوك الصولة والشوكة وقد حكم أكثر من خمسة وثلاثين سنة ، عاونه فى نصفها الأول تقريباً ، وزيراً حكماً اسمه « دوكة » ، وبعد وفاة هذا الوزير ، استقل السلطان بادى بإدارة شؤون الدولة ، وأسرف فى الطغيان وارتكاب الجرائم ، حتى عرف « بالجهمان » وأطلق يد أولاده وبطانته فارتفعت الشكاوى لـكنه تغاضى عن جرائمهم ومفسدهم وأنزل العقاب بمن يطالب بحقه المغتصب . وفى عهد هذا السلطان ، وقعت الحرب الحبشية الثانية - حدثت الحرب الأولى فى عهد السلطان رباط كما أشرنا الى ذلك فى موقعه من قبل .

وترجع أسباب هذه الحرب الثانية الى أكثر من سبب ، ظاهرها الانتقام لمقتل دى رول وبعثته فى عام ١٧٠٥ م ، والتى سبق أن فصلنا أمرها فيما سبق ، لكن الحقيقة التى دفعت الى هذه الحرب بعد تسعة وثلاثين عاماً تقريباً ، هى أن الأحوال الداخلية فى الحبشة قد اضطربت بعد موت النجاشى تقلاهما نوت ، وتنازع العرش من بعده أقارب هذا النجاشى ، وانقسمت البلد معسكرين ، بعضهم يناصر ولى عهده والبعض نادى بملك آخر ، ويبدو أن الصراع المذهبى بين الفرنسيسكان والجزويت ، كان له أثره فى التطاحن الداخلى ، وبالإضافة الى ذلك فإن النجاشى أياسو الثانى قد اهتم ببناء القصور ، وأهمل أمر الرعية مما أثار الأهالى عليه ، وحتى يتخلص من استياء رعاياه وتذمرهم فإنه أعد عدته لغزو السلطنة السنارية .

جاءت الجيوش الحبشية عن طريق حوض نهر الدندر ، وأخذت فى شق طريقها حتى وصلت الى أبواب مدينة سنار ، ورأى السلطان بادى اخلاء المدينة قبل أن تعبر اليها جيوش الأحباش ، لكن الموقف قد تغير بموافقة السلطان على اقتراح تقدم به

(٤١) الأونساب هم بيت الشمس ، ويتحتم على السلطان السنارى أن يتخذ زوجته - السلطنة - من هذا البيت .

الأمير خميس ، وهو من الفور الذين لجأوا إلى سنار ، وكان مقترحه أن يقود أربعة آلاف من الفرسان ، على أن ينقض بهؤلاء على الجيش الحبشي الرئيسي ، من الخلف ورغمما عن أن هذه الخطة قد نقلها ، أحد زعماء القبائل من سكان شرق سنار ، إلى النجاشي الذي هرول لملاقاته ، إلا أن خميس قد استطاع الانقضاض على مؤخرة الجيش الرئيسي ، الذي كان بقيادة الراسي ولد لول وأنزل به هزيمة منكرة ، تشتت بعدها الجيش الحبشي وهرب النجاشي إلى بلاده ، بعد أن غنم الجيش السناري الكثير من المهمات ومنها التاج وأدوات الحكم الأخرى - ومنها ما هو ديني بالغ الأهمية ، ودفع الاحباش مبلغاً كبيراً من المال لاسترجاع هذه الأدوات ، واشترك في هذه الحرب في الجيش السناري الشيخ محمد أبو الكيلك ، الذي أخذ نجمه في الصعود واستطاع فيما بعد تولي منصب المشيخة - الوزارة ، واغتصاب السلطة الفعلية للسلطان

وكانت الموقعة الفاصلة بين سنار والحبشة ، في السابع من ابريل سنة ١٧٤٤ ميلادية في مكان يقال له « الزكيات » - على نهر الدندر وراجع الخريطة رقم ٦

وبعد هذه الحرب وهذا الانتصار ، أرسل السلطان بادی حملة إلى كردفان لقتال المسبغات ، الذين كانوا يسيطرون على الجانب الغربي من (٤٢) ، وقد اختلفت الروايات في أسباب هذا الغزو ، كما اختلفت هذه الروايات في أمر القوات ، التي أرسلت ، فقد جاء في مخطوطه تاريخ سنار أن جيش الفونج خرج بقيادة الوزير ولد تومه (٤٣) ، وانضم إليه الشيخ عبد الله ولد عجيب (مك قرى) ومعه أخوه شمام ومعهم جنودهم ، وتولى القيادة العامة الشيخ عبد الله ، وكان مع الجيش السناري الشيخ محمد أبو الكيلك وتقابل الجيشان - الجيش السناري ومعه جنود قرى - وجيش السلطان هاشم المسبغاوي وحدثت الموقعة الفاصلة في القحيف (٤٤) ، وانتهت بهزيمة منكرة للجيش السناري ومقتل الشيخ عبد الله والوزير ولد تومه ، فاستطاع الشيخ محمد أبو الكيلك أن يعيد تنظيم الجيش السناري ، وأن يذكي الروح المعنوية بينهم ، ونجح في ذلك وهجم على

(٤٢) المسبغات وسلطانها هاشم المسبغاوي كانت تسكن في أطراف كردفان الغربية القريبة من حدود الفور . وتربط بين السلطان هاشم وبين السلطان في دارفور صلة العمومة كما ذكر التونسي في كتابه ص ٧٨ وما بعدها . وحصلت معارك بين هاشم وسلطان الفور تبراب .

(٤٣) جاء في مخطوطه سنار ص ١١ ان ولد تومه هو من أهالي جند توت (بالقرب من شندى) وقد تولى الوزارة بعد الشيخ دوكة .

(٤٤) القحيف مكان في غرب كردفان .

المسبعات وهزمهم (٤٥) ، ولما وصلت أخبار القتال إلى الملك بادی أصدر أمره إلى الشيخ محمد أبو اللكيلك ، بولاية قيادة الجيش ومطاردة المسبعات وإبعاد خطرهم . وتقول رواية العبد اللاب (٤٦) ، التي ترفع بطبيعة الحال من شأن الشيخ عبد الله وأبنائه ، وتهبط بالسلطان السنارى إلى مرتبة أدنى ، مما كان عليه العبد اللاب ، تقول هذه الرواية أن الحرب نشأت أصلاً بين العبد اللاب والمسبعات ، بسبب غزو المسبعات لكردفان وتوغلهم في أراضيها ، التي لم تكن تحت سيطرتهم ، فذهب الشيخ عبد الله ولد عجيب لطردهم ، وقتل الشيخ عبد الله في الموقعة التي نشبت بينهما ، كما قتل معه أخوه شمام ومحمد العجيل ابن شمام ، وان سلطان سنار لما سمع بهذه الهزائم خشى أن يقوم الشيخ مسمار ابن الشيخ عبد الله ولد عجيب بحركة جنونية ، للأخذ بثأر أهله من المسبعات ، وبهذا يدخل السلطان السنارى طرفاً ثالثاً في القتال بجانب العبد اللاب ، تنفيذاً للمعاهدة (٤٧) بين العبد اللاب والفونج - وحدث فعلاً توتر بين ملك العبد اللاب والسلطان السنارى ، تدخل لانهاية الشيخ ادريس الأرباب (٤٨) وأعد سلطان سنار حملة مشتركة بقيادة الشيخ محمد أبو اللكيلك لقتال المسبعات . وذكر جكسن ان الأمير خميس ، الذى كان يقود القوة التي انقضت على مؤخرة جيش الحبشة وسببت هزيمته - كان وراء الحملة إلى كردفان ، بسبب تعطشه للانتقام من المسبعات والفور ، لانهم تعقبوه لقتله ونجا بالتجأ إلى سنار وخميس أصلاً من قواد الفور البارزين .

وفي الوقت الذى كانت فيه الحرب دائرة الرحى في كردفان ، كان السلطان بادی غارقاً في مفاسده ولهو ، وأكثر من النساء ، وعندما بلغ مسلك السلطان حدّاً غير لائق ، قرر الزعماء إرسال الوفود إلى الشيخ محمد أبو اللكيلك في كردفان ، لابلّغه

(٤٥) ذكر جكسن في كتابه سن النار ص ٥١ ان الموقعة التي انتصر فيها الشيخ محمد أبو اللكيلك كانت في مكان له « شمسكاتا » وهي أيضاً في غرب كردفان .
(٤٦) نشرها المستر ١٠١ . بن في مجلة السودان في مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر ص ٥٩ وما بعدها .

(٤٧) لم يصل إلينا ما يؤيد عقد معاهدة بين السلطان والعبد اللاب ، ويحتمل أن يكون المقصود من المعاهدة - الاتفاق الذى تم بموجبه الحلف بين السلطان السنارى - عميرة والشيخ عبد الله جماع .

(٤٨) أنظر مقال المستر ١٠١ . بن في مجلة السودان في مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر ص ٥٩ وما بعدها .

بما وصل اليه الحال في سنار ، من فساد وظلم واخلال بالتقاليد القائمة ، حيث أسند السلطان الوظائف الهامة إلى جال من بطانته ، وترك لهم حرية التصرف دون معقب فاستخفوا بالقيم وبأهل البيوتات . طلب الزعماء من الشيخ محمد أبو اللكيلك العودة إلى سنار لوضع حد لهذا الانحلال ، الذي شمل مختلف مظاهر الحياة ، وقد استجاب الشيخ محمد ، وعاد إلى سنار وبعد مفاوضات عزل السلطان ، الذي خرج منفياً إلى سواكن ، وفي هذا الصدد يقول الرحالة بروس ، ان هذا السلطان قد التجأ بعد عزله إلى الحبشة ، حيث استقبله الراس « سهيل مخائيل » ، الذي وعده بأعادته إلى عرشه ، اذا وافق النجاشي على غزو المملكة السنارية ، وانتقل بادی مع الراس ميخائيل إلى معسكر النجاشي ، حيث قدم بادی فروض الطاعة والتبعية ، بتقبيله الأرض في حضرة النجاشي ، فرحب به وطلب اليه أن يتذرع بالصبر حتى تحين فرصة مناسبة لاعادته إلى عرشه ، وفي الوقت نفسه أقطع النجاشي ولاية « رأس الفيل » ، ولكن بادی قد ذهب ضحية مؤامرة ، دبرها له بعض المهاجرين من سنار ، الذين زينوا له فرصة السفر إلى منطقة حوض نهر العظيرة ، لأعداد جيش من أهالي تلك المنطقة ، والهجوم على سنار لاسترداد عرشه . وقد وقع في الفخ الذي نصب له ، وذلك بعد دخوله السودان ، فان الشيخ ولد حسن حاكم تيوه (بين القضارف ورافد الرهد) قبض عليه وقتله غيلة ، وبخلع هذا السلطان ، ونفيه على هذه الصورة ، انتقلت السلطة الفعلية من يد زعماء السلطنة ، إلى الشيخ محمد الذي تولى الوزارة .

وبعد عزل السلطان ، أقام الشيخ محمد أبو اللكيلك ابن السلطان المخلوع ناصر سلطاناً على سنار ، واحتفظ الشيخ محمد لنفسه بجميع سلطات الملك ، الذي صار رمزاً لاحول له ولا قوة ، وتوقف بقاؤه في كرسي الحكم على رضا الوزير ، وبهذا التغيير في الأوضاع أصيبت نظم الجمهورية التجارية بضريرة قاسمة ، تحولت معها إلى تنظيمات للحكم ، أقرب إلى الاقطاع في صورته الشرقية ، وكان ذلك التحول سبباً مباشراً في تدمير الزعماء في المناطق المتحالفة مع سنار ، وبخاصة بعد أن بدأ الشيخ محمد أبو اللكيلك بالعزل والتعيين وفقاً لرغباته ، وتثبيتاً لسياسته التي ترمى إلى الاحتفاظ بالوزارة في أسرته ، والشيخ محمد أبو اللكيلك هذا كما سبق أن أشرنا ، من جماعة الهمق (التي تحرفت إلى الهمج) ولا نعلم علم اليقين عن ماضيه أكثر من أنه كان مقدماً (قائد جماعة) على الحيلة في الجيش السناري ، الذي حارب النجاشي أياسو في سنة ١٧٤٤ م .

وقد أخذ الشيخ محمد بعد توليه المشيخة ، في العمل على توطيد مركزه ونشر سلطانه ، كما أخذ في تلوس الأسباب لمطاردة منافسيه والتخلص منهم ، بطريقة أو أخرى فكان أن قتل من كبار الأسرة السلطانية ، وصار يولى ويعزل كما شاء له مصلحته الخاصة ، حتى السلطان ناصر نفسه قد امتد اليه العزل ، وتحديد إقامته في حلة البقرة (بضم الباء وسكون القاف وفتح الراء) ، وانتهى الأمر بقتله بعد اتهامه بالتآمر مع جماعة من الفونج على الفتك بالشيخ محمد (٤٩)

ونادى الشيخ محمد أبو الاسكيلك باسما عيل ابن السلطان بادى ، وأخ السلطان ناصر ملكا على سنار ، وأصيبت البلاد في سنوات مشيخة الشيخ محمد الأخيرة بغلاء شديد وزيادة في فيضان النيل ، تسبب عنها التلف وانتشار الأمراض (٥٠) . وبعد وفاة الشيخ محمد ، تولى منصبه الشيخ بادى ولد رجب ابن أخ الشيخ محمد . وقد حاول الفونج التخلص منه ، إلا أن مؤامرتهم انكشفت ، فكانت النتيجة عزل اسماعيل ونفيه الى سواكن ، كما انتقم الشيخ من أعوانه ، وأخذت الفتنة تعمل في الخفاء ، فكان التطاحن الداخلى بين القبائل والزعامات وقتل في هذه الفتنة الشيخ بادى ولد رجب نفسه ، وتولى رجب بن محمد . وفي أثناء غيبته في كردفان ، اشتدت حركة المقاومة والتف المناوون لوزارة الهمق بالسلطان عدلان بن اسماعيل ، الذى خلف والده بعد نفيه ، وقد زين هؤلاء للسلطان أن يضرب ضربته ، في غيبة الشيخ رجب للخلاص من الهمق ، واستنجد السلطان ببعض القبائل المناصرة له لمساعدته في حركته ، ليقضى على الهمق ومعاونيه ، ومن بينهم الشيخ ابراهيم أخ الشيخ رجب ، كما أراد قتل الانقيب (٥١) النعيسان ، الذى هرب الى كردفان عندما تأكد من تدبير السلطان لقتله وبوصوله الى معسكر الشيخ رجب ، دخل عليه وبادره دون أن يحية كما تقضى التقاليد بقوله :

« يؤا جر كم القيوم ، فى حكم اللى قتل الصقر اللى يحوم ، اللى هنا وهناك مين اللى قتل محموم ، فيكم مشى والا برايا أنا أقوم » .

(٤٩) مخطوطة سنار ص ١٣ ب .

(٥٠) مخطوط سنار ص ١٤ .

(٥١) الانقيب هو اللقب المحلى الذى يعرف به الشاعر المحلى الذى يرافق أصحاب الجاه والسلطان يقرض لهم الشعر وينشد لهم آيات المدح والتعريض على الحرب ويدخل السرور على نفس سيده بالغناء والقصص .

وحملت هذه العبارة نبأ مقتل الشيخ ابراهيم أخ الشيخ رجب ، وهو الذى يشير إليه « بالصقر الى يحوم » ، أى الصقر الذى يرتاد ساحة الوغى ، وقوله « الى هنا وهناك » ، مين الى قتل محوم « أى أنتم الذين هنا وهناك أن الصقر قد قتل غيلة » ، وطلب الانتقام لقتله فى قوله « فيكم مشى والا برايا أنا أقوم » أى هل منكم من يثار له ، والا أنا أتولى الأخذ بالثأر » ، وفى هذا القول استنهاض للهمم ، واستفزازها لسرعة العمل للأخذ بالدم .

ولم ينته النعيسان من نعيه ، حتى هب الشيخ رجب فزعا مردداً « أقتل أخى » ونادى إلى بطانته قائلاً « دنجر » ، أى دقوا النحاس (طبول الحرب) إعلاناً للخبر واستمر البكاء والحزن ثمانية أيام . وحزنت النسوة والجوارى أربعين يوماً ، لم ترفع فيها امرأة رأسها ، كما تقضى العادات والتقاليد المحلية ، فى مثل هذه الظروف ، ومنها النوم على الأرض ، وعاد الشيخ رجب بجيوشه إلى سنار ، وحصل قتال مع الجيش الذى أعده السلطان عدلان فى مكان يقال له انطرحنا ، فى الجزيرة ، وكان قتالا شديداً ، انتهى بهزيمة جيش السلطان ، الذى توفى مغموماً مقهوراً ، لما لحق جيشه من خذلان . واندلعت نيران الفتنة ، واشتد أوارها فأكلت اليابس والاخضر ، وانقسمت البلد معسكرات تتطاحن فى عراق مستمر ، وصارت مقاليد الأمور تنتقل من يد إلى يد فى فترات متقاربة ، وأخذ الزعماء ينادى بعضهم بسلطان ، بينما ينادى الفريق الثانى بسلطان ثان ، وهكذا حتى بلغ عدد من تولى فى الفترة من ١٧٨٧ حتى حكم سنار فى منتصف ١٨٢١ م ، أى خلال مايقرب من أربعة وثلاثين عاماً ، تسعة ملوك وهم أوكل الذى ولاه الشيخ ناصر ، ولم يمكث إلا قليلاً ، وخلفه طبل ثم بادی ثم رباط وقد قتل هؤلاء الثلاثة فى الحلفاية (شمال الخرطوم) . فى الحروب الداخلية بين الزعماء ، وجاء بعدهم حسب ربه ثم نوار وقد قتله الشيخ خوفاً من سطوته ، وتولى بعده بادی وكان صغير السن ، وبعد قليل نادى الشيخ كمتور بسلطان آخر اسمه رانقى ، واشتبك الفريقان المتعارضان ، وانتهى القتال بالصلح ، على أن يعزل بادی وأن يبقى رانقى ، وبعد فترة استمرت عاماً واحداً ، كان فيه العرش شاغراً ، أعيد بادی إلى العرش ، وقد حكم بادی حوالى الثمانية والعشرين عاماً ، من مجموع الأربعة وثلاثين عاماً ، التى حكم فيها تسعة ملوك ، كما أشرنا فتكون بذلك المدة التى حكم فيها الثمانية ملوك الآخرين هى ست سنوات تقريباً ، وتنقص من هذه المدة عاماً كان فيه العرش شاغراً ، وبهذا تكون مدة حكم الثمانية ملوك الآخرين خمسة سنوات تقريباً ،

ومن هذا يتبين مدى ما أصاب البلاد من انحلال وتعطيل لمرافق الحياة ، وما ساد من قلق وفزع ، كثرت معه هجرات القبائل ، وبخاصة في المنطقة الوسطى من السودان ، وهي التي تشمل أرض الجزيرة والبطانة (٥٢) . وكانت هذه الحالة المتدهورة ، فرصة سانحة لازدياد نفوذ رجال الدين من الفقهاء ، وسيطرتهم على العامة ، الذين لجأوا إليهم لسؤال الله تعالى ليرفع عنهم الغمة .

وبينما كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ ، تغيرت الأحوال في مصر باختفاء الحكم المملوكي ، وهرب جماعة منهم إلى شمال السودان ، محاولين تثبيت أقدامهم وإقامة حكومة . يسيطرون بها على البلاد فزاد بذلك الظلم والتدهور ، مما دفع الزعماء من مختلف نواحي السودان إلى الهجرة إلى مصر ، ومنهم من سافر إلى الحجاز ، حيث التقوا بمحمد علي (خلاي حرب الوهابيين) وقد طلب هؤلاء منه المعونة لوضع حد للقلاقل والحروب المحلية ، بعد أن توقفت التجارة وتعطلت الحياة الاقتصادية ، وخيم على البلاد شبح الخراب والدمار .

وجاءت المعونة المصرية بعد الانتهاء من حرب الحجاز ، في صورة حملة قادها اسماعيل كامل ابن محمد علي كما سنبينه فيما بعد ، وطويت صفحة من تاريخ السودان ، بتنازل السلطان بادي آخر ملوك سنار ، عن مملكته يوم دخول الحملة إلى عاصمة البلاد ، حيث وقع السلطان الوثيقة ، التي اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثماني ، وتسليمه إدارة البلاد إلى حكم مصر ، الذي امتد إلى السودان في عام ١٨٢٠ / ١٨٢١ ميلادية .

ويجمل بنا قبل أن ننتقل إلى امتداد الحكم المصري إلى السودان ، أن نستعرض تطور الأحوال في السودان ، والعوامل التي قوضت أركان السلطنة السنارية ، وسببت انحلال المملكة .

فالسلطنة قد بدأت سنواتها الأولى ، التي امتدت أكثر من قرن في رعاية التجارة ، التي أقامت على أساسها جهاز الحكم ، ووطدت علاقاتها مع باشوات البحر الأحمر من العثمانيين ، وبقيت الحال قائمة على جانب واحد ، لم تتجاوب معه مشاعر أهل البلاد ،

(٥٢) من هؤلاء المهاجرين من نزل في المنطقة شمالي مدينة أسوان مباشرة (أبو الريش قبلي وبحري) وتقول الروايات المحلية ان جدهم ونس قد جاء إلى أسوان في طريقه للحجاز وفي أسوان وافاه القدر المحتوم وبقي ابنه الذي كان صغيراً حتى بلغ الرشد ثم عاد إلى السودان .

وكانت موارد السلطنة والزعامات الإقليمية المتحالفة مع سنار على أساس تنظيمات «الجمهورية التجارية»، التي كان زعمائها يقومون باحتكار التجارة، في المنتجات المحلية وتصريفها في الأسواق الخارجية، واستيراد الحاجيات الأخرى من خارج البلاد، وبالإضافة إلى ذلك كان زعيم كل إقليم يجمع العشور والضرائب عن يد رجاله، وفق النظام الإقطاعي في الشرق، وكان يدفع جزءاً من ذلك المتحصل إلى زعيم الدار، وهذا بدوره يدفع نصيباً لخزانة السلطان، وكان طبعياً أن تنسرب إلى هذا النظام مساوئ، تخرج به من حدوده المعقولة، إلى إضافة مبالغ للعمال القائمين على الجباية، في صورة أواخر منها «حق الضيافة»، كما كان على المواطن أن يدفع نصيباً من زكاته للفقهاء المحلي، وغير ذلك من الالتزامات الاجتماعية، مما زاد العبء على كاهل القبائل والعشائر، مما صار بمضي الزمن حقاً مكثسباً، بصرف النظر عن ما يصيب البلاد من كساد، وبخاصة بعد أن اشتدت المنافسة بين العثمانيين والفرنجة، وتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح، ونزول الأوروبيين في غرب أفريقيا، وإنشائهم مراكز تجارية، أخذوا منها في توسيع نفوذهم إلى داخل القارة الأفريقية، ولم تقو السلطة على الاحتفاظ بمركزها، لأنه لم يقدر لها أن تتخذ من أساليب الحكم، ما يتمشى مع التطور الطبيعي للأشياء، ولم تعمل على أن تجمع بين مختلف المجموعات القبلية، لتوحد بينهم في مصلحة عامة، كما أنها تركت التقاليد المحلية، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة الأرض بالفرد والزعيم، فلم تربط بينهم إلا وشائج بالغة في الضعف، ومع ما في هذا النظام من فساد عطل التطور، وسبب الركود والجود، فإن اغتصاب الهمم للسلطة، وجعلهم للسلطين رمزاً، لا قيمة لهم إدارة شئون البلاد، قد انتكس بنظام «الجمهورية التجارية»، وأرجع البلاد إلى حكم إقطاعي في أحط درجاته، ومما زاد الأمور تعقيداً وجود الزعامات الدينية المحلية، التي كونت سلطة ثانية في البلاد لها نفوذها، وكان من المنتظر أن تعمل هذه الزعامات لتكوين قوة، لها شأنها في حفظ التوازن، مع سلطة الزعماء والسلطان، إلا أن هذه الزعامات الدينية قد انحرفت فيما بينها، وانعدمت العلاقات الطيبة بين الفقهاء، وعمل هؤلاء على إشاعة روح التعصب والتنافس، وتحول اهتمام الكثير من هؤلاء إلى كسب المال، عن هذا الطريق أو ذاك، وانقسمت القبائل إلى معسكرات، يتطاحن بعضها البعض، وعمل اليأس والقنوط الذي خيم على الحياة اليومية، على انهيار المجتمع وتكونت منه مجموعات مسعورة، تعمل على السلب والنهب، فتركت الأراضي

الزراعية وهجرها القائمون عليها قانعين بالقليل ، والتجأ الشعب الى أصحاب السجاجيد وخلفائهم في قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضرر وجلب للنفعة ، والخير والمثوبة من الله تعالى ، ويكفي دليلاً ما جاء في كتاب الطبقات ، الذي يعطى لنا صورة واضحة عن الانحلال الذي أصاب البلاد وأثر خوارق العادات التي نسبت الى الفقهاء .

وكان من نتيجة اشتداد حالة القلق ، بسبب العدوان بين مختلف المعسكرات ، ان حطت الفاقة والذلة على الشعب ، فانحلت بذلك الروح المعنوية ومركز السلطة ، لاكثر من سبب وفي مقدمة تلك الاسباب : —

أولاً : نظام ولاية العرش والتنافس بين الزوجات من بنات عين الشمس (٥٣) ، وبين الزوجات اللاتي ارتفعن إلى مصاف الزوجية الشرعية لسبب أواخر .

ثانياً : ضعف سياسة الحكم ، وعجزها عن خلق عناصر جديدة ، ومقومات تهدف إلى قيام وحدة قومية ، وحياة اقتصادية ، تغني البلد عن اعتمادها الكلي على التجارة المروية ، ولم تقم في البلد صناعات ألخ .

ثالثاً : فشل الحكومة المتحدة (الجمهورية التجارية) التي مركزها سنار في إنشاء حكومة مركزية قوية الجانب ، وبالتالي فشلت في خلق رجال الصف الأول لتحمل المسؤوليات .

رابعاً : قيام سلطات دينية متعددة ، وغير مرتبطة مع بعضها في القيام بعمل مشترك هدفه الإصلاح .

خامساً : إسراف السلاطين في حياة الترف والملاذات ، وأوضح دليل ما كان من حالة السلطان بادى الأحمر (١٦٩٢ / ١٧١٦ ميلادية) وابنه السلطان أونسه ، الذي تولى الحكم في ١٧١٦ / ١٧١٩ ميلادية كما سبق بيانه .

(٥٣) من التقاليد المرعية أن يتزوج السلطان أعلى الأهل أن تكون زوجته الشرعية الأولى من بيت عرف باسم بيت عين شمس كما جاء في مخطوطه « فينا » ويبدو أن هذا البيت كان في الأونساب التي منها السلطان « نول » وهي لا تقل في مركزها الاجتماعي عن البيت المالك وموطنها أصلاً خور « أنسبا » بالأريتريا الذي أخذت منه اسمها حيث تأثرت بثقافتها بالتقاليد المصرية القديمة التي امتدت وشملت ذلك الجزء من شمال أبوبيا — وبنت عين شمس ترجع إلى العبادة الفرعونية « للشمس » وقد عرف السلطان نول بسيد قوم الشمس كما جاء في مخطوطه تاريخ مدينة سنار لكاتب الشونة .

سادساً : استخدام جماعات من الأقليات ، لتولى تصريف شؤون الدولة الأمر الذى ترتب عليه ابعاد أهل الشورى والخبرة ، وخلق التذمر والقلق .

سابعاً : الابقاء على تقاليد توزيع الاراضى ، فى الزعامات المحلية المختلفة ، وكان هذا العامل الاساسى فى بدء بذور الفتنة والتطاحن .

ثامناً : كان حكم وزراء الهمق حكماً فردياً ، تسنده القوة وهذا النوع من ولاية الحكم يغرس معه بذور الانحلال ، وتنتكس معه الظروف القائمة إلى حالة بدائية .

الترتيب الزمنى لولاية الحكم فى السلطنة السنارية

١ - هذه محاولة تهدف نحو تحقيق الترتيب الزمنى فى السلطنة السنارية ، وقد اعتمدنا فى ذلك على دراسة مقارنة استعرضنا فيها ، مانقله بروس فى عام ١٧٧٢ م عن « سيد القوم » ، وهذا هو أقدم جدول وصل إلينا ، ثم ما كتبه ود ضيف الله ، فى طبقاته قبيل وفاته فى عام ١٨٠٩ ميلادية ، وما كتبه كايو فى رحلته التى نشرت فى عام ١٨٢٦ م ، ومخطوطة كاتب الشونة التى أنهاها فى عام ١٨٣٨ م ، ومنها نسخة محفوظة فى مكتبة فينا وتنتهى فى ١٨٢١ م ، وكتاب تريمو الذى نشر فى ١٨٦٢ م ، وتاريخ شقير طبع ١٩٠٤ م ^(٥٤) ، وقد روجعت المعلومات التى وردت فى هذه المصادر على بعض المستندات ^(٥٥) الخطية ، الصادرة من بعض السلاطين ، وقد حددت هذه المستندات الزمن الذى صدرت فيه ، وهذا يقدم بدوره دليلاً على ان السلطان صاحب الوثيقة كان جالساً على العرش فى ذلك الوقت .

(٥٤) راجع : بروس . رحلة - ود ضيف الله - الطبقات ، كايو - رحلة ، مخطوطه تاريخ سنار بدار الكتب المصرىة بالقاهرة تحت رقم ١٨ م ، تريمو - رحلة ، نعوم شقير - تاريخ السودان طبع القاهرة ١٩٠٤ م

(٥٥) المستندات المشار اليها (وقد نشرت فى ملاحق الكتاب) وهى :

- ١ - كتاب من السلطان محمد بادى عجيب لأهله فى دقله .
 - ٢ - كتاب من السلطان عدلان بن محمد
 - ٣ - وهناك وثيقتان نشرهما أركل (ترجمة انجليزية) فى مجلة السودان فى رسائل الخ
- مجلد ١٥ ص ٢٤٨/٢٥٠

٢ - فاذا رجعنا إلى قوائم السلاطين ، التي وردت في المصادر التي أشرنا إليها آنفاً ، نجد انها قد كتبت بعد انقضاء مدة تقرب من الثلاثة قرون ، فيما يخص بروس ، وأكثر من ثلاثة قرون للمصادر الأخرى ، ولذلك كان طبيعياً أن تكون هنالك اختلافات ، وبخاصة تاريخ سلاطين الصدر الأول للسلطنة ، وقد كان أحمد الحاج أبو علي المعروف بـ كاتب الشونة وصاحب المخطوطة المشهورة باسمه هذا ، أكثر توفيقاً في التنبيه إلى ذلك ، حيث يقول « سنذكر ذلك ان شاء تعالى تفصيلاً وإجمالاً على حسب ما عرض على المسامع من غير ترتيب ، لأنني لم أره مرتباً ، بل حكايات واردة ، ولم تخل من التقديم والتأخير والتبديل والتغيير » (٥٦) .

٣ - وردت سنوات الحكم في مصادرها المحلية بالتاريخ القمري وقد اتخذ كل من بروس وكايو وغيرهما فترات الولاية ، التي أمضاها كل سلطان ، أساساً لتحديد التاريخ ، الذي اعتبره كل منهم بدء حكم البيت السناري ، وقد وصلوا إلى ذلك بأنقاص سنوات كل سلطان من العام الهجري السابق ، لوجودهم في سنار ، وأخذوا طريقهم في ترتيب تنازلي ، حتى وصلوا إلى تحديد بدء ولاية السلطان عميرة في أوائل عام ١٥٠٤ ميلادية ، لبروس وعام ١٤٨٤ م لكايو .

فحسباً ذكره بروس قد بلغت ولاية التسعة عشر سلطاناً ، التي سبقت ولاية اسماعيل بن بادى ، ٢٦٥ عاماً قريبا وهذه تعادل ٢٥٦ عاماً شمسياً (٥٧) ، وحسباً جاء في كايو بلغت ٣٣٥ عاماً قريبا للسلطنة ، من قيامها حتى نهايتها ، وهذه تعادل ٣٢٤ عاماً شمسياً ، وقد أسقط كايو من حسابه ما يزيد عن السنتين والنصف ، التي بقي فيها العرش شاغراً لسبب أواخر من المشاكل الداخلية .

٤ - أخذ بروس وكايو بهذه التقديرات ، وحدد كل منهما التاريخ الذي قامت فيه السلطنة في سنار ، وذلك بأن خصم بروس الـ ٢٦٧ عاماً قريبا من السنة السابقة ، وهي ١٧٦٩ م التي انتهى فيها حكم سلف اسماعيل أي ١٧٦٩ - ٢٦٥ = ١٥٠٤ م ، وقد

(٥٦) مخطوطة تاريخ سنار - دار المكتبة المصرية ١٨ م

(٥٧) كان التاريخ الشمسي قبل نهاية عام ١٥٨٢ م (المعروف بالتاريخ الجولياني) يسبق التاريخ الجديد بعشرة أيام لهذا أعاد البابا غريغوري الثالث عشر تنظيم التاريخ وذلك بأسقاط عشرة أيام من ١٥ أكتوبر ١٥٨٢ م وبذلك بدأ عام ١٥٨٣ م عشرة أيام سابقة لتاريخ بدئه وفق التاريخ الجولياني وكان بدء العام الهجري ٩٩١ في ٢٥ يناير سنة ١٥٨٣ م بدلا من ١٥ يناير سنة ١٥٨٣

فات على بروس ان ال ٢٦٥ عاماً كانت بالحساب القمري ، وقد ربط بروس هذه السنة (١٥٠٤ م) بغزوة الشلك لأرض الجزيرة ، وتأسيسهم للسلطنة السنارية ، بعد محالفتهم مع العرب (٥٨) .

وهذا القول عن غزو الشلك لأرض الجزيرة لا نصيب له من الصحة للأسباب الآتية : -

أولاً : لأن السلطان السنارى الأول كان فى عاصمته فى منطقة الملم على الأقل بعد زيارة داود روبينى فى ١٥٢٢ / ١٥٢٣ م .

ثانياً : ان مملكة علوة كانت قائمة فى صورة ما حتى عام ١٥٠٤ م ، وان نفوذ السلطان عميرة ، قد امتد إلى هذه المنطقة ، قبل ذلك التاريخ كما أوضحناه فى موضعه .

٥ - وقد سار كايو على نفس الطريقة ، التى اتبعها بروس فى تحديده تاريخ قيام السلطنة فى سنار ، وذلك بأن خصم ال ٣٣٥ عاماً قرياً من العام السابق لزيارته لسنار أى ١٨١٩ - ٣٣٥ = ١٤٨٤ م ، أما كاتب الشونة فقد كان أكثر توفيقاً منهما ، حيث ذكر أن السلطان عميرة تولى فى أول القرن العاشر الموافق ١٤٩٤/١٤٩٥ ميلادية ، ويقول فى مخطوطته أول عمارته بسنار أول القرن العاشر بعد التسعمائة ، وملك أربعين سنة فغاية ملكه إلى سنة أربعين بعد التسعمائة ، وهذا يوضح أن عميرة قد أنشأ سنار فى ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) أى بعد ولايته الحكم بعشرة سنوات ، ومن الواضح أنه لم ينتقل إليها نهائياً إلا فى حوالى ١٥٢٥ م ، وقد سبق انتقاله هذا ، امتداد نفوذه إلى حوض النيل الأزرق ، فليس هنالك إذن مجال للشك فى أن عميرة قد أعاد تعمير سنار فى ١٥٠٤ م ، وانتقل إليها بعد ذلك بحوالى العشرين عاماً .

٦ - ونجد فى القائمة أ . المرفقة مع هذا ، بياناً عن فترات ولاية الحكم ، كما جاءت فى مختلف الروايات التى لا تتفق فى بياناتها فى أكثر الحالات ، كما أننا لا نجد فى هذه الروايات تاريخاً محدداً تحديداً دقيقاً ، بالنسبة لليوم والشهر والسنة لولاية الحكم واعتزاله ، لذلك من الصعب الوصول إلى تحديد تاريخى صحيح فالسنوات متداخلة بعضها فى البعض ، غير أن هذه الصعوبات لا تمنعنا من محاولة ترتيب السلاطين ترتيباً زمنياً لأقرب سنة ، وسوف يبقى الحال على ما هو عليه الآن ، حتى يعثر على

(٥٨) أنظر رحلة بروس (بالانكليزية ص ٤٦٤ من الجزء الرابع

وثائق جديدة تلقى ضوءاً ، على فترات حكم بعض السلاطين الذين سقطت أسماءهم من القوائم التي لدينا ، ومن هؤلاء السلطان صابر المشهور بعجيب وابنه السلطان جمره ، اللذين ورد ذكرهما في خطاب السلطان محمد بادى عجيب ، الذى أوضح فيه « ومستوى فى زمنى الآن عشرة سلاطين على المنابر فى دار الدنيا وأنا العاشر » .

٧ — وإذا أخذنا بالقوائم الموجودة واضفنا إليها اسم السلطان صابر المشهور بعجيب والسلطان جمره ابنه ، فإن ذلك يجعل بادى سيد القوم فى مكان يختلف عما هو عليه الآن ، ويبدو لنا والحالة هذه بأن بعضاً من السلاطين الذين وردت أسماءهم فى القوائم ، كانت لرجال تولوا المشيخة واختلطت أسماءهم مع السلاطين ، بسبب مضى زمن طويل قبل جمع هذه المعلومات ، وقد يكون بعض هؤلاء المشايخ (الوزراء) من كانت لهم شخصية قوية ، حجبت السلطان الاصيل ، ومن هؤلاء السلطان عدلان ولد آى صاحب قتال كركوج ، والذى عزل فى الوقت الذى كان فيه موجوداً فى دنقله وكان ذلك فى الفترة التي كانت تعاني فيها السلطنة من الاضطراب الداخلى ، الذى أخذ مظهره فى تمرد الزعماء ، ومنهم الشيخ عجيب المانجلك ، وحدث بعد ذلك التطاحن الذى انقسمت معه البلد معسكرات ، فهذا ينادى بسلطان وهذا يعزل القائم بالامر ، كما حدث فى امر رباط وأوكل وطبل وبادى ورانفى ، الذين حكموا فى أواخر عهد السلطنة .

٨ — ويلاحظ أن الفترة الذهبية للسلطنة قد استمرت ما يقرب من القرنين من الزمن تداول الحكم فيها خمسة عشر سلطاناً ، فيكون معدل السنوات التي قضاهما السلطان الواحد حوالى أربعة عشر عاماً . ونجد أن السلطان عميرة قد حكم أربعين عاماً فى رأى وحوالى الثلاثين فى آراء أخرى وحكم كل من رباط وبادى أبو دقن وبادى الأحمر وبادى أبو شلوخ ما يقرب من ذلك . ولا شك أن هذه المسألة جديرة بالاهتمام ، والبحث عسى أن تظهر بعض المستندات المحلية ، من توثيق الاراضى والخطابات الخ الخ .

٩ — وتبين فى الجداول المرفقة أسماء السلاطين ، وفترات حكمهم بما لدينا من روايات محلية وغيرها ، بعد تحقيقها كما يتبع ذلك الجدول بجدول ، يبين الترتيب الزمنى لولاية الحكم ، فى أقرب حدوده الزمنية .

قائمة - ١ - عن سنوات الحكم كما جاءت في الروايات المختلفة

اسم السلطان	بروس	كايو	كاتب الشونة	تريمو	شقيير
١ (عميرة)	٣٠	٣٢	٤٠	٣٤	٣٠
٢ (عبد القادر)	٨	١٠	١٠	١٠	١٠
٣ (نايل)	١٧	١٢	١٢	١٢	١٢
٤ (عمارة أبوسكيكين)	١١	٨	٨	٨	٨
٥ (دكين)	١٧	١٧	١٥	١٧	١٥
٦ (دوره)	٣	٨	٨	٨	—
٧ (طبل)	٣	٥	٤	٥	١٢
٨ (أونسه)	١٣	١٢	١٢	١٢	١٠
٩ (عبد القادر)	٤	٤	٤	٤	٦
١٠ (عدلان ولد آي)	٥	٥	٣	٥	٧
١١ (بادي سيد القوم)	٦	٧	٧	٧	٣
١٢ (رباط)	٣٠	٢٧	٢٩	٢٧	٢٨
١٣ (بادي أبو دقن)	٣٨	٣٧	٣٦	٣٧	٣٥
١٤ (أونسه)	١٢	١٢	١٢	١٢	١٢
١٥ (بادي الاحمر)	٢٥	٢٧	٢٧	٢٧	٢٦
١٦ (أونسه)	٣	٣	—	٣	٣
١٧ (نول)	٤	٤	٤٨	٤	٦
١٨ (بادي أبو شلوخ)	٣٩	٤٠	٤٠	٣٣	٣٨
١٩ (ناصر)	٨	٨	٨	٣	٧
٢٠ (اسماعيل)	٨	٨	٨	٨	٨
٢١ (عدلان)	١٢	١٢	١١	١٢	١١
٢٢ (رباط)			شهر	١	١
٢٣ (اوكل)	٢	٢	١٦	٢	
٢٤ (طبل)	٢	٢	١	٢	
٢٥ (بادي)	٢	٢	١	٢	٢
٢٦ (حسب ربه)	—	—	١	—	١
٢٧ (نوره (نوار))	١	١	١	١	١
٢٨ (بادي السادس)	٦	٦	٦	٦	٨
٢٩ (رانقي)	٥	٥	٥	٥	٥
العرش شاغر	١	١	١	١	
٣٠ (بادي السادس)	١٥	١٥	١٤	١٥	١٦

جدول (ب)

ولاية الحكم
من الى
مىلادى
مدة الحكم

(١) السلطان عميرة بن عدلان:

ذكرت المصادر المحلية انه قد حكم أربعين عاماً ويقول
كتاب الشونة ان مدة حكمه قد انتهت في عام ٩١٠ هـ
عبد القادر بن عميره

نايل بن عميره
عماره أبو سكيكين
دكين

دورة (لم يذكر اسمه في مخطوطة تاريخ سنار وتاريخ الفونج)
طبل
أونسه
صابر
جمره

لا يعلم على وجه التحقيق ترتيب هؤلاء الولاة وبالتالي
فان مدة حكمهم ما زالت غير معروفة . وقد ورد ذكر
السلطان صابر والسلطان جمرة في خطاب السلطان محمد
بادى عجيب .

عبد القادر بن أونسه

خلع عن العرش والتجأ الى أتيوبيا وطلب من النجاشي
حمايته - أنظر حوليات سيوسنس

٤ ١٦٠٦ ١٦٠٣

عدلان ولد آى

ورد ذكره في المؤلفات المحلية وفي الطبقات وقيل أنه
عزل عن العرش بعد سفره الى دنقله

٥ ١٦١١ ١٦٠٧

١٠ - بادی سید القوم (محمد بادی عجیب)

ورد في خطاب السلطان محمد بادی عجیب أنه
 « العاشر على منابر الدنيا » - ويشير في ذلك إلى ولاية
 البيت السنارى للحكم . وقد يكون هذا الاسم هو الاسم
 الكامل للسلطان بادی أما « سید القوم » فلا تعدو
 عن أنها لقب من القاب التكریم ورفع المكانة

رباط بن بادی

في عهده حدثت حرب اتيوبيا الاولى في عام
 ١٦١٨/١٦١٩ وحضر في مدته الشيخ عبد الرازق
 أبوقرون (توفي ١٦٥٠ م) وغيره من الفقهاء . أنظر
 الطبقات ص ١٤٢ .

بادی أبو دقن ابن رباط

تلميذ الشيخ ادريس محمد الارباب (١٥٠٧ -
 ١٦٥٠ م) وقد عاش ١٤٣ سنة - أنظر الطبقات ص ١٤
 زار السودان في مدته الرحالة التركي أوليا شلي . ولم
 يذكر اسمه . وكانت الزيارة في نوفمبر - ديسمبر سنة
 ١٦٧٢ . وقد ذكر بروس نقلا عن القائمة التي أعطيت
 له في سنار أن بادی قد توفي في ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠ م
 ويحتمل أن يكون قد تولى الحكم بعد عدلان بن محمد
 أنظر الطبقات طبعة صديق ص ٦٠/٦٥ عن علاقة هذا
 السلطان بالشيخ ود الترابي .

عدلان بن محمد

أصدر أمراً لمن يتولى حكم دنقله ليدفع هبات عينيه
 أوضحها في أمره لمسجد الشيخ احمد شنبو وينهى أمره
 هذا بقوله « يامن يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا
 الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد

من الى مدة الحكم

المذكور أنه توصية من السلطان جمره الاموى سنة ألفا وأربع وثمانون (١٦٧٣/١٦٧٤ م) وكتابة التاريخ بهذه الصورة قد تشير إلى أن السلطان جمره قد أصدر أمراً سابقاً في عام ١٠٨٤ هـ (١٦٧٣ م) وأن هذا السلطان عدلان بن محمد أصدر أمره هذا تؤكداً للأمر السابق. ويرجع ترجيحنا لحكم عدلان في هذه الفترة أن السلطنة قد بدأت تفقد نفوذها في المنطقة الشمالية (الشايقية ودنقلة) في أواخر القرن السابع عشر الميلادي فلا بد أن يكون السلطان جمره قد حكم في فترة سابقة من العصر الذهبي «ثانياً» أن خطاب السلطان محمد بادى عجيب الذى يذكر فيه أنه السلطان العاشر كما أوضحنا سابقاً. وقد جاء فيه ما يشير إلى أن السلطان صابر وابنه السلطان جمره قد سبقا بادى محمد عجيب فى الحكم.

وتدخل فترة السلطان عدلان بن محمد فى مدة حكم بادى أبو دقن التى انتهت بوفاة كما ذكرنا سابقاً ويحتمل أن يكون السلطان بادى أبودقن قد اعتزل الحكم فى حوالى ١٦٧١ م كما يحتمل أن يكون قد حكم بعد ١٦٧٤ م وأمر تحقيق هذه النقاط متروك لما يحصل عليه فى المستقبل من وثائق.

أونسه ابن أخ بادى أبودقن (ابن ناصر بن رباط)

جاء فى قائمة بروس أنه قد تولى الحكم بعد والده السلطان بادى أبودقن وبقي فى الحكم حوالى إحدى عشر عاماً وبضعة أشهر.

بادى الاحمر ابن أونسه

حكم خمسة وعشرين عاماً وعزل كما جاء فى قائمة بروس. خرج عن طاعته أهله الفونج ومعهم الشيخ

١٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠ ٦٩

٢٩ ديسمبر يونيه سنة ١٦٨٠ ١٢ ١٦٩٢

أمين أرادب وعينوا ملكا اسمه اوكل لكننه انتصر عليهم.
وصله خطاب من النجاشي تكللاهما يوت بتاريخ
٢١ يناير سنة ١٧٠٦ يطلب منه رعاية البعثة الفرنسية
التي رأسها رامول (الذي قتل في سنار في ٢٥ نوفمبر
سنة ١٧٠٥ م) وفي عهد زار سنار بونسيه ٨/١٦٩٩ م
وكرمب ١٧٠١ م والبعثات التبشيرية ١/١٧٠٢ م
أنظر أيضاً الطبقات (طبعة صديق) ص ٦٠/٦٥ عن
علاقة هذا السلطان بالشيخ ود الترابي.

ابريل
٢٥ ١٧١٦

أونسه بن بادي :

خلف والده وعزل كما ذكره بروس وبغزله انتقل
الحكم إلى خلفه نول الذي يمت إلى البيت السناري من
صلة الحرم.

١٣ ابريل ١٧١٦
سنة ١٧١٩ ٣

ابريل سنة ٧ يونيه
١٧١٩ سنة ١٧٢٠ ١

وقد بقي كرسى العرش شاغراً أكثر من عام

نول بن بادي:

حكم أربعة أعوام

٨ يونيه
١٧٢٠ سنة ١٧٢٥ ٤

بادي أبو شلوح ابن نول :

ذكر آركل في مقاله بمجلة السودان في رسائل ومدونات
مجلد ١٥ ص ٢٤٨/٢٥٠ انه قد وجدت وثيقتان نشرهما
في مقاله المذكور عن توثيق هبة أرض منحها الشيخ
رحمه إلى الشيخ يعقوباني وقد وقع السلطان على هاتين
الوثيقتين اللتين كتبتهما بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٧٢٤
و٢ يونيه سنة ١٧٣٤ م وقد حدثت حرب أتيوبيا
الثانية في عام ١٧٤٤ م في عهده وذكر روس انه قد
عزل عن العرش في ٢٧ مارس سنة ١٧٦٢ وأضاف
إلى ذلك ان هذا السلطان بعد عزله قد ذهب إلى أتيوبيا
وطلب حماية النجاشي وإعادة له عرشه . وقد أقطعه

٢٧ مارس
سنة ١٧٦٢ ٣٣

من الى مدة الحكم

النجاشي ولاية رأس الفيل لكنه قد استدرج إلى كمين
دبره له الشيخ عدلان حاكم حوض العظيمة وقد قبض
عليه الشيخ ولد حسونة حاكم تيوى وقتله غيلة. وذكر
بروس انه قد استقى هذه المعلومات من الشيخ عدلان
نفسه.

٢٧ مارس
١٧٦٢ ٣٦

ابريل سنة

١٧٦٢ ١٧٦٩ ٨

١٧٦٩ ١٧٧٧ ٨

١٧٧٧ ١٧٨٧ ١١

ناصر بن بادى أبو شلوخ :

اسماعيل بن بادى :

عدلان بن اسماعيل :

رباط :

١٧٨٧ ١٧٨٧ ٣٠ يوما

عينه الشيخ الامين والشيخ أبو ريده منافساً لأوكل
قتل في الحلفاية

أوكل :

١٧٨٧ ١٧٨٨ ١٨ شهر آ

عينه الشيخ ناصر

طبل :

١٧٨٨ ١٧٨٩ ١٧ شهر آ

عينه الشيخ ناصر قتل في الحلفاية

بادى الخامس :

١٧٩٠ ١٧٩٠ ١٢ شهر آ

عينه الشيخ ناصر قتل في الحلفاية

حسب ربه :

١٧٩١ ١٧٩١ ١٢ شهر آ

نوره أو نوار :

١٧٩٢ ١٧٩٣/٢ ١ سنة

بادى السادس ابن طبل :

١٧٩٣ ١٧٩٩ ٦ سنوات

رانقى :

١٨٠٠ ١٨٠٤ ٥

١٨٠٤ ١٨٠٥ ١

كلن العرش شاغراً

بادى السادس ابن طبل :

يونيه سنة شهر سنة

تنازل عن السلطنة في وثيقة كتبها في ٢ يونيه

١٨٠٦ ١٨٢١ م ١٤٥٥

سنة ١٨٢١ وسلمها لقائد الحملة المصرية اسماعيل كامل .

جدول (ج)

الترتيب التابعي	الاسم	ولاية الحكم من	السنة الميلادية الى	مدة الحكم يوم شهر سنة
١	عميرة بن عدلان	١٤٩٧	١٥٣٦	٤٠
٢	عبد القادر بن عميرة	١٥٣٧	١٦٠٢	٦٦
٣	نايل بن عميرة			
٤	عمارة أبوسكيكين بن نايل			
٥	دكين			
٦	دوره			
٧	طبل	١٦٠٣	١٦٠٦	٤
٨	أونسه			
٩	صابر المشهور بعجيب	١٦٠٧	١٦١١	٥
١٠	جمره بن صابر			
١١	عبد القادر بن أونسه	١٦١٢	١٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠	٦٩
١٢	عدلان ولد آي			
١٣	بادي سيد القوم (محمد بادي عجيب)			
١٤	رباط			
١٥	بادي أبو دقن			
١٦	عدلان بن محمد	١٩ ديسمبر	سنة ١٦٨٠	١٠
١٧	أونسه ابن أخ بادي أبو دقن (ابن ناصر بن رباط)	٦ يونيه	سنة ١٦٩١	٥
١٨	بادي الاحمر ابن اونسه	٠٠ ابريل	سنة ١٧١٦	١٠
١٩	أونسه بن بادي	٠٠ ابريل	سنة ١٧١٦	٣
٢٠	العرش شاغر	٧ يونيه	سنة ١٧٢٠	١
٢١	نول بن بادي	٨ يونيه	سنة ١٧٢٥	٨

الترتيب المتتابعي	الاسم	ولاية الحكم من	الى السنة الميلادية	مدة الحكم يوم شهر سنة
١٨	بادى أبو شلوخ	١٧٢٥	١٧٦٢	— — ٣٨
١٩	ناصر بن بادی	١٧٦٢	١٧٦٩	— ٩ ٧
٢٠	اسماعيل بن بادی	١٧٦٩	١٧٧٧	— — ٨
٢١	عدلان بن اسماعيل	١٧٧٧	١٧٨٧	— — ١٠
٢٢	رباط	١٧٨٧		٣٠ — —
٢٣	أوكل	١٧٨٧	١٧٨٨	— ٦ ١
٢٤	طبيل	١٧٨٨	١٧٨٩	— ٥ ١
٢٥	بادى الخامس	١٧٩٠	١٧٩٠	— — ١
٢٦	حسب ربه	١٧٩١	١٧٩١	— — ١
٢٧	نوره أو نوار	١٧٩٢	١٧٩٢	— — ١
٢٨	بادى السادس بن طبيل	١٧٩٢	١٧٩٩	— — ٦
٢٩	رانقى	١٨٠٠	١٨٠٤	— — ٥
	العرش شاغر	١٨٠٤	١٨٠٥	— — ١
٣٠	بادى السادس ابن طبيل (اعيد للكرسى)	١٨٠٦	يونيه ١٨٢١	— ٥ ١٤
				٢٢ ٢ ٣٢٥

التنظيمات الادارية والاجتماعية وتقاليدها

في الحلف السنارى

١ - التنظيمات الإدارية والاجتماعية :

قامت زعامة السلطان السنارى فى حوض وادى النيل الاوسط ، كما سبق أن أوضحنا ، على طراز « الجمهورية النجارية » . وأشرنا فى استعراضنا لتطور المجتمع فى البيئة والتقاليد والعادات المحلية وما تركته من أثر فى توجيه هذا الطراز الجديد من الزعامة ، بعد صراع عنيف انتصرت فى نهايته المميزات الموروثة عن أقدم العصور وانطبعت معها تنظيمات الزعامة بالطابع المحلى ، ويبدو هذا واضحاً فى مقومات بناء القرية ، التى تكون الخلية الأولى فى بنية المجتمع السودانى ، ثم ينتقل إلى وحدة أعلى ، وهى المدينة الصغيرة ، ثم إلى ثلاثة وهى المدينة الكبرى ، التى تتجمع فيها التجارة ، وبها سوق الغوافل ، التى تحط رحالها فى هذه المدن الكبرى فى الغدو والرواح .

فالقرية وهى المعروفة محلياً « بالحلة » ، قد تتكون من أسرة واحدة عديد أفرادها ، أو من مجموعة من « قبيلة » ، أو بطون قبائل ، متألقة مع من دخل فى كنفها من السكان المحليين ، ويتولى شئون القرية زعيم يعرف بالشيخ ، وفى بعض الحالات بالآرباب ، إذا كانت له بالبيت الحاكم ويعاون الزعيم أكابر القرية (الأجاويد) ، وقاضى وهو فقيه ، الذى يتولى أيضاً أمر التعليم ، ويساعد الزعيم جماعة ، من أتباعه الذين يعهد إليهم بوظائف الكتابة ، والعشور والمحافظة على الأمن ، ويتأثر هؤلاء فى عددهم ووظائفهم ، بمركز القرية الاقتصادية ، الأمر الذى يختلف بين منطقة وأخرى والقرية تتكون من مجموعة قليلة من المساكن ، وتنتشر عادة المساكن بعيداً عن القرية ، وعلى طول الأراضى الزراعية التى كانت ملكاً للقبيلة ، ويقوم الشيخ بتوزيعها على أفراد قبيلة ، وفق النطاق الذى يراه من ناحية قدرتهم على العمل فى الأرض ، وقد تدخلت فى التوزيع عوامل أخرى ، وقد ذكر كرمب أنه وجد البيوت والأكواخ منتشرة على طول الطريق فى منطقة « دنقله » (٦٠) ، وتقوم المساكن عادة على أطراف الأرض الزراعية ، بعيدة عن مجرى المياه من نهر النيل أو روافده ، ولا يختلف الحال كثيراً من ناحية الأساس التى قامت عليها القرية ، عن حال المدينة الصغيرة أو

(٦٠) رحلة كرمب فى كتاب مملكة الفونج فى سنار لسكر وفورد بالانكليزية ص ٢١٥

الكبيرة ، فالقرية تسيطر على عدد من الحلال ، التي تنتشرها هنا وهناك على أطراف الأراضي الزراعية أو مواطن الوعي ، ويتولى شئونها الشيخ وجماعته الصغيرة من قاضي وعمال ، وتسيطر المدينة على مجموعة من القرى ، ويتولى شئونها مانجل أو ملك ، أما المدينة الكبرى وتكون عادة واقعة على ملتقى طرق القوافل ، وتسيطر على عدد من المدن الصغيرة ، وما يتبعها من قرى وحلال ، ويتولى شئون هذه الوحدة الكبرى ، زعيم الدار ويحمل لقب مانجل وينادى بالآرباب ، وولاية السلطة للشيخ والملك والمانجل وراثية . يتبادلها الزعيم وأقاربه أو من ينتمون إليه .

وتقام في المدن الصغرى والكبرى الأسواق الأسبوعية (يختار يوم معين لكل منطقة ليتناسب مع المصاحبة العامة للسكان لكي يتمكنوا من الانتقال من سوق إلى سوق) ، وفي هذه الأسواق يتبادل الأهالي مختلف منتجاتهم المحلية ، وكان التبادل غالباً عن طريق المقايضة في القرى والمدن الصغرى ، أما في المدن الكبيرة فكانت تستخدم بعض العملات الأسبانية وغيرها .

ويتحصل المانجل أو الملك على نصيبه من الدخوليات ، ومن المسكوس على القوافل التي تختلف قيمتها بين منطقة وأخرى ، ويدفع الزعيم المحلي جزءاً من حصيلته ، العينية والنقدية إلى خزينة الساطان السنارى ، وكانت هنالك ثلاث مراكز جمركية في السودان هامة الأول في دنقله ، والثاني في قرى ، والثالث في تشلجه .

وتتميز العلاقات بين الأهالي والزعيم المحلي بالطابع الدينى ، الذى لا يختلف عما كانت عليه حال القرية في عصور الفراعنة ، التي تركت رواسبها وكيفت نفسها في القالب الجديد ، لتتمشى مع الدعوة الإسلامية ، التي أزال الفوارق الطبقيّة ، وهدمت أركان الاقطاع القديم ، بإشراك الفرد ليبنى نصيباً من تعبته ، ليستمتع بحياة مناسبة رفعت من أغلال العبودية إلى مستوى إنسانى ، وبدأت البلاد في الاتجاه نحو بناء جديد في الاقتصاد والاجتماع .

ونجد الطابع الدينى واضحاً ، كل الوضوح في الطقوس التي تتبع في تقليد ولاية الملك للسلطان ، بصفة خاصة كما سنتعرض له فيما يلي :

٢ - تقاليد الحكم :

تصور لنا طقوس ومراسم ولاية الحكم ، في السلطنة السنارية مدى الارتباط الوثيق بين الماضى البعيد والحاضر ، تصور مدى ما أحرزت التقاليد الموروثة من

انتصار ، في صراعها مع تقاليد العرب والمسلمين ، فإذا رجعنا إلى الماضي البعيد نجد أن الحاكم كانت له شخصيته ، التي استمدت قدسيته من الدين ، وكان عليه قبل أن يباشر سلطانه أن يتدرج في طقوس ومراسيم ، ليتطهر جسده وترتقي به عن مستوى البشر ، وكان له مطلق التصرف في رعيته واستعبادهم ، وإذا أراد أمراً قالوا له « فلتكن مشيئتك » ، واستمرت هذه التقاليد في عهد المسيحية في صورة لم تتأثر بتعاليم الدين الجديد ، وعندما دخل الاسلام السودان ، تفاعل مع هذه التقاليد ونشأت صور جديدة ، لها مظاهرها من الأوضاع القديمة والحضارة الجديدة ، واستطاع الاسلام إذن أن يدخل بعض التعديلات التي لم تغير من طبيعة التقاليد ، فانفلقت النواة وتقسامها الحاكم والفقهاء .

فالسلطان لا يصل إلى كرسي الحكم ، إلا بعد أن يخضع لمراسيم ترفع من شخصيته ، عن مستوى الرعية وتؤهله للقيام بابعائه التقليدية ، ومنها رمى البذور الأولى في موسم الزراعة ، وافتتاحه لدورة الحصاد ، ولهذا ارتباطه بالعقيدة الموروثة ، التي لا تتم أركانها إلا بعد قيام الحاكم بهذه التقاليد ، لضمان الخير والبركة ، التي سوف تجعل المحصول وفيراً لا يتعرض للآفات الزراعية ، أو أى مؤثر آخر يقلل من غلته ، كما كان على السلطان أن يتولى تكريس الزعماء المحليين ، واعطاهم البركة ، قبل ممارسة مهام مراكزهم ، أما الفقيه فعليه أن يؤدي الصلوات للاستسقاء وغير ذلك من التوجه إلى الله تعالى ، لدفع الأذى والضرر والاكثار من الخير والبركات ، كما كان على الفقيه أن يقوم بتكريس من ينتخب للنيابة عنه ، في تولى أمر سجناته في المناطق البعيدة ، عن مركز سجناته الرئيسى .

وليست هذه التقاليد في شطريها ، ما يمارسه السلطان وما يمارسه الفقيه ، إلا صورة مما كانت عليه في العهد الفرعوني ، وهذه التقاليد منتشرة في السودان وفي المناطق المجاورة ونجدها في صورة واضحة في مناطق العزلة في السودان .

ويهمنا قبل أن ننتقل إلى استعراض هذه الطقوس والمراسيم التقليدية ، أن نحاول التعرف على الأسباب التي عملت على الإبقاء على هذه الحضارة في صورة أو أخرى ، طوال هذه العصور ، ومن دراستنا السابقة عن دخول الاسلام السودان ، ظهر لنا أن المجتمع كان في حالة ركود وجمود من أثر الانحلال ، الذى أصابه في الفترات التي سبقت دخول الاسلام ، ولم يمكن للوافدين من العرب والمسلمين ، أن يدخلوا على

المجتمع السوداني ما يعرضه لهزات فكرية عنيفة ، أو تغيير ذى شأن فى مقومات حياته الاقتصادية والاجتماعية ، لأن دخوله كان هادئا ، يحمله التجار والدعاة ، وبعض العلماء الذين صهرهم المجتمع ، وحولهم إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية ، لذلك أهملوا تكوين أجيال ، تحمل من بعدهم رسالتهم الدينية فى صورتها الصحيحة ، وتسربت دعوتهم الدينية فى أسر أبى على كثير من الأوضاع ، التى كانت تعيش فى ظلها القبائل ، وساعد هذا الحال على إيجاد انطباعات جديدة من صور الماضى .

٣ - طقوس وتقاليد انتقال ولاية الحكم

جاء فى مخطوطة تاريخ سنار « فحين يملكون لهم ملكا جديدا يزوجه من نسل تلك المرأة » ، ويسمونها ابنة عين الشمس ، ويحملونها على عنقريب من خشب السرطان (٦١) إلى حوش الجندى ويحبسوه (يحبسونهما) به سبعة أيام ، ثم يخرجوا به (السلطان المنتخب) إلى محل معروف لهم ، فيه عوايد تخرج لهم من الأرض يتفاولون (يتفائلون) بها بخروجها ويتشاورمون (يتشاورمون) ، بعدمها وهى باقية فيهم حتى انتهى ملكهم والله أعلم ، وهذه أول عبارة صريحة تشير إلى طقوس تقليد السلطات فى صورة عامة ، وفى نفس الوقت تكشف لنا عن بقايا العهود القديمة ، التى أخذت تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى وصلت إلينا فى صورها الحاضرة ، وقد سجل ديزنى (٦١) ما شاهده من طقوس ، أتبعته عند تنويع ملك الفونج فى فازوغلى واسمه « حميده رجب بدير » وذلك فى فبراير سنة ١٩٤٤ م - وذكر فى مقاله ان بعض رجال العمدة ، قد أقبلوا وأخذوا من الجندى قطعة من القماش الأبيض ، كان متمنطقا بها ، وظلوا بها الملك لتحجب عنه أشعة الشمس ، حتى لا يتعرض لها ، قبل اتمام التقاليد المرسومة لولاية الحكم ، وبعد ذلك تقدم بعض الرجال متشابكي الأيدي ، لهيموا مقعدا لحمل الملك إلى حوش الجندى ، الذى يبقى فيه حتى المساء ، ومن ثم ينقل إلى منزل خاص منعزل ، يحبس فيه ومعه عذراء (٦٣) تشاركه محبسه ، الذى تصل

(٦١) أنظر مخطوطة تاريخ ص ٤. كاتب المخطوطة احمد ابن الحاج أبو على المشهور بكاتب الشونة كما هو وارد ضمنا فى المتن . والنسخة التى اعتمدنا عليها هى النسخة المحفوظة فى المكتبة الأهلية فى فينا (النمسا) . وهذه العبارة الخاصة بالطقوس لم ترد فى مخطوطة تاريخ سنار المحفوظة بدار الكتب المصرية وهى مكتوبة بقلم يختلف عن نسخة فينا .

(٦٢) مقال ديزنى فى مجلة السودان فى مذكرات ومدونات ص ٣٧ - ٤٢ مجلد ٢٦ تحت

عنوان « تنويع ملك الفونج فى فازوغلى »

(٦٣) يشترط أن تكون العذراء من نسل بيت عين الشمس .

مدته إلى سبعة أيام ، وفي نهاية هذه الفترة قد يختارها زوجة له أو غير ذلك ، ويبقى الحبيسان تحت حراسة الجندي ، لمنح الاتصال الخارجى ، كما لا يسمح لأحد بالبقاء فى المنزل ، إلا لعجوز تقوم بتدليك الحبيسين ، وتطعيمهما بالعطور المختلفة التراكيب أما الغذاء فان الجندى ينقله إليهما ، بعد اعداده فى الخارج ، ويتحتم على الملك أن لا يتعرض خلال فترة الاعتكاف لضوء الشمس ، حيث أن تعرضه للضوء يعد مخالفة للعوائد (٦٤) ، تؤدى إلى حرمانه من العرش والانتقام منه .

وعلى ذلك فان الملك لا يتسلم مقاليد الحكم ، قبل اتمام مراحل ثلاث ، تبدأ بمرحلة الاختيار من بين المرشحين للعرش ، وهم فى غالبية الحالات ، من الصق الاقرباء بالحكم السابق ، الابناء ، الاخوة ، الاعمام ، أبناء ، الأخ ، أبناء العم ، أبناء الأخت ، وأخيراً الأقارب من الرحم ، كما حدث فى اختيار السلطان تول ، ويقوم بعملية الاختيار مجلس من أكابر الدولة ، من أعضاء البيت السنارى ، ويجتمع هذا المجلس عندما يشرف القائم على العرش على الوفاة ، أو يقرر المجلس عزله لسبب أو آخر ، وعندما يتم الاختيار يؤخذ المنتخب إلى محبسه فى حراسة الجندى ، ومعه العذراء كما ذكرنا قبلاً ، وبعد نهاية فترة الاعتكاف التى فصلناها فيما سبق ، يقوم الجندى بمرافقة الحاكم المنتخب من محبسه إلى ساحة التتويج ، التى يجتمع فيها الأمراء وأكابر الدولة والأهالى ، وفى هذه الساحة يقام السكر تحت شجرة كبيرة الظل ، وعند وصوله إليها يقوم الجندى ، بخلع قفطان الحاكم ويخلق شعره ثم يتقدم أكبر رجال الدولة من البيت السنارى ، ومعه قفطان جديد وعباءة ليلبسها الحاكم وتوضع على رأسه الطاقية أم قرين (٦٦) ، ويسلم إليه السيف ، وبعد اتمام ذلك يجلس على السكر ، ويتقدم الوزير وأكابر الدولة والمشائخ وغيرهم لبيعة الحاكم الجديد وتحيته ، وللتحية

(٦٤) العوائد هى ال Taboo - العادات المحرمة .

(٦٥) السكر (Kakar) وهو كرسى الملك - أنظر مقال أركل ص ٢٢٧ بمجلة السودان فى مدونات ومذكرات المجلد الخامس عشر .

(٦٦) الطاقية أم قرين - أو أم قرن . هى إحدى شارات الملك وهى عادة قديمة العهد أنظر مقال كروفورد فى مجلة السودان فى مدونات ومذكرات ص ٣٣٣ / ٣٣٤ المجلد السادس والعشرين .

تقاليدها الخاصة وذلك أن يتمنطق الزعيم بثوبه (٦٧) عندما يتقدم لتأدية التحية، ويقبض كل من الحاكم الجديد والزعيم بكلتا يديه على يد الآخر، وتدق في أثناء ذلك موسيقى تصدر أنغامها من النفخ في القرون، بينما يقوم الفقهاء بقراءة الفاتحة وترتيل الأدعية.

وبعد الانتهاء من قبول مراسيم التهاني، يذهب الحاكم ومعه الجندي وبعض أكابر الدولة إلى مكان معين، ينتظرون فيه خروج عوائد (٦٨) يتفاءلون بخروجها ويتشائمون باختفائها وينتقل هذا الموكب بعد ذلك إلى مجرى النيل، حيث يدخل الحاكم الماء حتى يصل إلى رقبته فيغطس رأسه، وبهذا تنتهي الطقوس والتقاليد ويستكمل الحاكم مراسيم تسلم سلطته الشرعية.

وذكر بروس وكايو (٦٩) أن من عادة السلطان أن يقوم بافتتاح الموسم الزراعي، عند رمي التقاوى، وعند جمع المحصول، وذكر بونسيه أن السلطان في سنار لا يظهر أمام العامة سافر الوجه، بل يلتئم بغطاء من الحرير الملون (٧٠)، ويستخدم هذا النوع من الحجاب، بصفة عامة بين الملوك الزعماء في المنطقة من الحبشة شرقاً إلى نيجيريا غرباً، وهى المنطقة التى يتحتم فيها على الزعيم المنتخب أن يمضى فترة من الزمن، تبلغ الستة أيام، يعتزل فيها الحياة العامة. وقد تختلف مراسيم ولاية الحكم بعض الشيء بين منطقة وأخرى، ومرجع ذلك الاختلاف إلى البيئة المختلفة لكل إقليم.

ففى أتيوبيا نجد أن النجاشى يستكمل تنويجه في المعبد، ومن ثم يخرج في طريقه

(٦٧) الثوب قطعة من القماش الأبيض يلتحف بها الرجال في شكل يختلف عن استعمال النسوة اللاتي يستعملن نوعاً من القماش الملون يعرف بقرن علج، والعادة أن يربط طرفا الثوب حول الوسط عند الدخول على شخصية محترمة سواء كانت دينية أو مدنية - وهذا النوع من اللباس منتشر في الحبشة والسودان يقل تدريجياً كلما بعدت المسافة غرباً (أنظر كتاب برتون ص ٢٧). الثوب عادة يتسكون من عرضين من القماش متلاصقين بالحياكة. وكل نصف منهما يعرف بالشقة (Shuqua).

(٦٨) العوائد كما يبدو كلمة شملت التقاليد المتوارثة في مختلف صورها، وهى في هذا الوضع بالذات يقصد منها انتظار خروج « دابة الأرض » وتحتاج هذه الظاهرة إلى تفسير وإلى تحديد علاقتها مع ماورد في سورة النمل « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تسلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » (آية ٨٢).

(٦٩) أنظر بروس في رحلته جزء ٤ ص ٤٦٦ وكايو جزء ٢ ص ٢٧٧

(٧٠) يونسى في كتاب البحر الأحمر والممالك المجاورة في نهاية القرن السابع عشر الميلادى ص ١٠٤

إلى مخيمه فتعرضه عذارى أكسوم ، اللاتي يقفلن الطريق بجبل من الحرير ، ولا يسمحن له وصحبه بالمرور ، إلا بعد أن يؤكد لهم انه النجاشي لمملكة صهيون ، وهذا الاعتراض نجده في السودان في طريق العريس عند ذهابه لعروسته ، فيمنعه من الوصول إليها بشتى الوسائل حتى يدفع لمن يهداياه وتعرف بـ « الشعقية » ، وفي الرب نجد ان قبيلة الجسكون (٧١) . في نيجريا ، وبطونها المنتشرة في مختلف المناطق ومنها المبوم تتبع تقاليد وطقوس ولاية الحكم تتفق في كلياتها وتفصيلاتها مع ما هو متبع عند سلاطين سنار ، وأنهم يحرمون على الأمير أن يتخطى الماء ، كما انهم لا يسمحون ببقاء أثر قدمي (٧٢) الأمير على الأرض ، لذلك يسير خلفه خادم ، في يده قوام للنسر ليعف بها الأثر ، أولا بأول وتذكرنا هذه بما كان من أمر السامري ، « قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضه من أثر الرسول فنبتتها ، وكذلك سولت لى نفسى » (سورة طه آية ٩٤ و ٩٥) ويعرف الشخص الذى يتولى تهيمته الزعيم المنتخب في قبيلة الجسكون باسم كندشيوخو وهذه أصلها « جندى » شيخ ، والتصحيح ظاهر كنتيجة اللهجة المحلية .

وفي دارفور يبقى السلطان ، الذى تم تعيينه سبعة أيام في منزله ، قبل أن يباشر سلطاته ، وقد خالف هذه العادة السلطان عبد الرحمن (٧٣) (حكم إلى دفور ١٧٨٧ - ١٨٠٢ م) .

أما في مملكة تقلى فان ولاية الحكيم والنزول عنه موكولة ، إلى امرأة تملب بـ « الأرتية » (٧٤) (Artiya) وهى عريقة في حسبها ونسبها ، وهى من صفوة سلالة ملوك

(٧١) الجسكون موضوع كتاب الأستاذ ميك المسمى (مملكة سودانية) وهؤلاء كانوا يسكنون حوض نهر العظيرة وهم إحدى القبائل الكبرى التى هجرت موطنها ، في حوض النيل وفرت إلى غرب أفريقيا (حوض نهر النيجر والسكرتون وسيراليون) وقد ورد ذكر هذه القبيلة في كتاب الخطط للمقرئى باسم ديجون (بورخارد ص ٤٩٨) وذكر في كاترمير « ديجون » ومنهم بقايا قليلة في جنوب سنار ويعرفون باسم « جكون آب جريد » وموضوع هجرة قبائل حوض النيل الأوسط بسبب هجوم النجاشي غير أنه في منتصف القرن الرابع الميلادى جديره بالبحث والتحقيق (٧٢) أنظر كتاب الادارة الأهلية في نيجريا مؤلفته مرجرى برهام ص ١٤٢

(٧٣) أنظر التونسى ٩٦/٦٤
(٧٤) أرتى (Arti) كلمة نوبية معناها السكاكن - صانع المطر ويطلقها البعض على لفظ الجلالة (أنظر قاموس مقارن للنوبية والانجليزىه مؤلفه ج . و. مرى G.W. Muray وكتاب Alkmivist عن اللغة النوبية وتطلق Arti في اللغة السكتريه على الجزيرة Island .

تقلى ، ولهذه الامراة مكانتها الروحية ، ومقامها فى تقلى أعظم من « أيا باسى » كبيرة الميام فى بلاد الفور ، وتقضى تقاليد تقلى أن يكون لها القول الفصل فى ولاية الحسك وعزل القائم عليه ، وهى تحتفظ بأدوات الحسك من تاج ونحاس وسيوف الخ . لكنهما لا تنفرد بأصدار أوامرها ، إلا بعد أن يجتمع كلمة المشايخ المحليين (المسكوك) ، وكشروط متمم لولاية الحكم الذهاب إلى مغارة عميقة ، فى إحدى الجبال تسكنها حية تعرف باسم « حميدة أم كما أبيض » ، ويسألون عن المستقبل ويسمعون صوتاً يخاطبهم بوضوح تام ، عن الحوادث المنتظرة وما يتوقع حدوثه فى عهد الحاكم الجديد ، من رخاء وغلاء وسلام وحرب ، وقد ذكر أوليا شلى فى رحلته انه عند وصوله إلى سفح جبل سنداسى ذبحت سبعة جهال وسبعة خرفان وسبعة ماعز وسبعة ديوك وسبعة ثعابين . . . ، ولوث الجميع أيديهم فى هذا الدم ومسحوها فى الصخرة ، ولما سأل عن سبب ذلك قيل له ان هذا هو الطلسم لفتح باب الغار الذى دخل منه كبار القوم ، وسمعوا صوتاً بالترحيب ، وبعد ذلك أخذ كل منهم فى سؤال الصوت الخفى ، عن مقصده فكانت تأتية الاجابة « مسموعة واضحة باللغة التى يعرفها وهى التركية . والذى يهمنا من هذه القصة ان التقاليد المرعية فى تقلى وهى استشارة الحية لها مصدرها الحبشى . ولا يخفى ان للحية فى تاريخ الحبشة أثر كبير .

مراسيم تقليد المشيخة - للزعيم المحلى

وننتقل إلى المراسيم الخاصة باسناد المشيخة أو المسكوكية (٧٥) ، فقد ذكر نعوم شقير (٧٦) « وكانوا إذا توفى شيخهم اختاروا شيخاً آخر ، وأخذوه إلى ملك سنار فيؤيده كما كان مشايخ العبد اللاب يؤيدون المشايخ والملوك ، الذين هم دونهم وتحت سيادتهم وذلك انه كان إذا مات لهؤلاء ملك ، اجتمع أهل قبيلته واختاروا لهم ماكما يولونه عليهم ، وأتوا به إلى الشيخ ، فيحلق الشيخ رأسه ويلبسه طاقية ذات قرنين ،

(٧٥) مكون مفرداً مك وهو الشيخ المحلى .

(٧٦) يختص السلطان السنارى باجراء التعيينات المختلفة فى قطاعه أما فى المناطق المتحدة مع سنار فالسلطان يوافق على تعيين الشيخ أو الملك من بين المرشحين الذين كانوا عادة من بيت الزعامة . كما أن السلطان يعين القضاة « الشرعيين » أنظر الطبقات ترجمة دشين قاضى العدالة ص ٩٠ والقضاة الآخرين عبد الله العركى ص ١١٢ وعبد الرحمن ابن مشيخ النورى ص ١١٤ وبقدوش ابن سرور ص ٤٤ - ويقوم الشيخ المحلى بتعيين من هم دونه مرتبة دون الرجوع إلى السلطان .

محمشة قطناً ويجلسه على كرسي يسمى بالسككر ، ثم يخاطبه بلقب مك أي « ملك »
ويقول له « مبارك عليك » ، فيقبل الملك يده وتدعو له بخير ، فيأمر الشيخ بضرب
النحاس ، اشهاراً لتأييده ملكاً على أهله ، وعند ذلك يتقدم أهله ، فيسلمون عليه
بالاحترام الذي سلم به على الشيخ ، ويخاطبونه بلقب « أرباب » ، ثم يقولون جعلك
الله مباركا علينا ، ولتعمر البلاد بك ، وتكثر الخيرات على يدك ، فيقول لهم « الله
يعمركم ويخليكم أنا بكم مش بلاكم » .

وذكر كرمب انه قد حضر أثناء زيارته لبلدة قري ، مراسيم تولية شيخ لاحدى
القرى التابعة لشيخ قري ، ويقول ان الشيخ المعين قد أحضر إلى اجتماع في البلدة ،
ليسمع بعض الادعية ، التي يقوم بها الفقهاء ، وبعد ذلك يقدم له الشيخ قميصاً حريراً
وعمامة ويسلمه سيفاً كرمز لولايته سلطاته ، وعند ذلك يتقدم الحاضرون بالنحية
للشيخ الجديد ، وذلك بالانحناء أمامه حتى تلمس جباهم الأرض ما يقرب من الثلاثين
مرة — ويرقص الشيخ الجديد ، شاهراً السيف الذي قلده به في يده ويغنى مادحا
شيخ قري (٧٧)

وفي بلاد المحس في شمال السودان ، والتي كانت تحت حكم الكشاف ، فان تنويج
الشيخ يتم بجلسه على حجر في مكان معين ، وفي بلاد المحس أيضاً نجد ان رجلاً
يحمل عصاه أو سيفاً من الخشب يستقبل به الامام عند باب المسجد ، عند حضوره
لصلوة الجمعة ويسير امام الامام حتى باب المنبر فيسلمه العصاة أو السيف وبهذا
يستكمل الامام صلاحياته ، للامامة ويصعد على المنبر للخطبة ، ولهذا العادة أثر في
صعيد مصر .

مراسيم الاستقبال عند السلاطين

ذكر بونسيه أنه قد ذهب في اليوم التالي ، لوصوله إلى مدينة سنار ، لمقابلة
السلطان في ديوانه الرسمي ، وأوضح المراسيم التي تراعى في مثل هذه المناسبات ، وذلك
بأن يخلع الداخل حذاه عند باب ديوان متسع ، اصطفت على جوانبه جنود من حملة
الرماح ، ويقف الداخل عند حجر ، بالقرب من باب ديوان اعتاد السلطان أن يجلس

(٧٧) أنظر رحلة كرمب في كتاب مملكة الفنج في سنار مؤلفه كروفورد ص ٢٢٢ وما بعدها

فيه ، لمقابلة البعثات الأجنبية ، وبعد أداء التحية وفق العادة المتبعة ، وهي الركوع وتقبيل الأرض ، ينقل الوزير ، الواقف بالقرب من السلطان ، التحية ويحمل رد السلطان عليها ، ويقول بونسيه ان السلطان كان جالساً على سرير فاخر ، ويرتدى معطفاً موشاً بالذهب ، ومتمنطقاً بحزام من قماش ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وحوله عشرون من كبار رجال الدولة .

وبعد أن حمل الوزير تحية السلطان ، قدم بونسيه الهدايا التي أحضرها معه ، وهي عبارة عن مصنوعات زجاجية أوروبية ، وقد أظهر السلطان إعجابه بها ، وبعد حديث تناول الاجابة على الأسئلة التي وجهها إليه ، سأله عن سبب رحلته . واستمرت المقابلة زهاء ساعة من الزمن ، انتهى بعدها الاستقبال وانسحب الزائر ومن معه إلى الخلف ، وأعادوا الركوع وتقبيل الأرض ثلاثاً - وأمر السلطان الحراس بمرافقتهم إلى منزلهم وأرسل إليهم أفداح السمن والعسل والمأكولات الأخرى وعجلين وخروفين .

مراسيم تقليد الخلافة الدينية

يختار الفقيه صاحب السجادة (الطريقة الدينية) كالقادرية وغيرها - من يصلح من تلاميذه بعد أن يستكمل مرحلة العلم ، ليشغل مركز خليفة الفقيه في المكان الذي يختاره ، لئلا يدعوته وتلقين المريدين تعاليم الطريق ، ويتم التعيين لمركز « الخليفة » ، في حفل يقام أمام بيت الفقيه ، يجلس الطالب على كرسي وتلف على رأسه عمامته ، ويطوفون حوله عدة مرات ، قد تكون سبعاً ، ثم يتلوا الفقيه بعض الأدعية ، وبعدها يباركه ويسلمه ركوة وفروة وعكاز وسبحة ، تكون في بعض الحالات مكونة من ألف حبة ، وتذبح الذبائح ، وتقام بعد ذلك الأذكار ، وينشد المداحون وينتهي الحفل ، عادة بعد صلاة العشاء بالدعاء والفتحة .

مراسيم الاستقبال عند الزعيم المحلي

روى كرمب (٧٨) ان الأهالي عندما يزورون الزعيم في « قرى » يتقدمهم رجل يحمل عصا طويلة ، ويتبعه القوم في صف واحد ، يحيي كل منهم الشيخ بقوله « يا ما نجل » أنا فلان ، ويرد عليه الشيخ مكرراً الاسم ، وبعد الانتهاء من المستقبلين يقيم الشيخ عرضاً لجنوده ، يقومون بتمثيل موقعة صورية ، تدق خلالها للطبول ، وتستمر الحال حوالي النصف ساعة ، ينصرف بعدها القوم إلى بيوتهم .

(٧٨) أنظر كتاب مملكة الفونج في سنار مؤلفة كروفورد ص ٢٢٢

تقاليد الاستقبال عند الفقهاء

جاء في كتاب الطبقات (٧٩) .. ان الفقيه عبد الصادق ولد حسيب أرسل إلى الشيخ حسن بالقدوم إليه ، ولما وصل الشيخ إلى حلة الفقيه ، وجده غائبا فانتظره إياما وفي يوم عودته ، علت التهايل والزغاريد ، وذهب الفقيه إلى الحوش (منزله) ولما زالت الشمس ضربت الطبول . وفرشت دكة الديوان ، ثم جاء الفقيه لابسا قميصا عاليا كبيرا وجلس على الدكة وقامت العبيد يحملون العكاكيز (مفردا عكاز) ، للسلام ويقول الواحد منهم « أنا فلان » ويكرر الفقيه الاسم فيرد عليه هذا الفلان « سيدى » ، فلما فرغوا قامت الفقراء فسلبت ، ثم قام أرباب الحاجات فسلبوا وتكلموا وانتهى الاستقبال .

أما فيما يختص بمختلف الوظائف الأخرى ، فى السلطنة وفى الأقاليم المتحالفة ، فاننا لانجد ما يشير إلى ذلك تفصيلا ، من حيث الرواتب التى تدفع للموظفين من كبار رجال الدولة إلى أدنى الدرجات ، وهل هى كانت تدفع وفق مقررات معينة ، أو كانت متروكة لهم لأخذ نصيبهم ، مما يحصلونه من عشور وضرائب الخ . ويبدو فيما يخص الوظائف الرئيسية أن أصحابها كانوا يحصلون على معيشتهم من أرزاق الاقطاعات ، التى تمنح لهم كما هو الحال فى دارفور .

ونجد تنظيمات فى دارفنج (جنوبى سنار إلى الرصيرص) أخذ بعضها فى الاختفاء فى العهد الحديث ، وقد يكون من المفيد أن نسجلها لصالح البحوث المستقبلية .
وهذه التنظيمات هى كالتالى :-

١ - وور AUR :

هذا هو لقب الزعيم المحلى ويقابله « مك » ، المستعمل بين المجموعات فى السودان الأوسط ، ولهذا الزعيم السلطات المدنية والدينية فى منطقته ، وعليه أن يقوم بدور رئيسى فى إقامة الشعائر الدينية .

ويتخذ هذا الزعيم مسكنه فى كوخ يعرف باسم واتل (We - ei - tel) ومعناها « كوخ الشمس » ، ويعتبر هذا الكوخ مركز الشعائر الدينية ، ويحتفظ الزعيم فيه

بمقعد خشبي ، ينتقل عند وفاة الزعيم إلى خلفه ، وهذه الوظيفة وراثية يرثها الابن عن الأب ، ولا يخرج هذا الزعيم إلى الحرب .

وفصل هذا الزعيم في المشاكل التي تعرض عليه . كما أن من واجبه أن يرعى مصلحة منطقته المعيشية ، ويعاونه في ذلك موظفون كما هو موضح بعد .

٢ — سن أي كنج (بضم الكاف) (Sen - i - Kung) :

وصاحب هذا اللقب هو « قائد الحرب » ، ويقابله في سنار « سيد القوم » ، وهو منوط برعاية الأحوال اليومية وترفع إليه الشكاوى للفصل فيها أما المشاكل الهامة فيقدمها إلى الـ وور (Aur) الذي يفصل فيها باستشارة الأجاويد وسيد القوم .
والوظيفة وراثية .

٣ — كاي Kai :

ويقوم هذا بممارسة علاج المرضى بالسحر أو غيره .

٤ — سن أي توك Sen-i-tok :

وهو قائد الماشية ، ولكل حلة (قرية) قائد ماشيتها ، ومن اختصاصه أن يقود الحيوانات إلى موطن الرعي ، عقب انتهاء فصل الأمطار ، وعليه أن يصدر أوامره إلى الرعاة لتغيير موطن الرعي ، عندما تتطلب الظروف ، كما عليه أن يأمر بأقامة الزرائب في المواضع المختارة في موطن الرعي ، والزرائب تقام عادة في شكل دائرة تحيط جوانبها أشجار شوكية .

٥ — سن أي سرم Sen - i - Serm :

وهو نافخ البوق (والبوق - النفير - من قرون الحيوانات) ويتولى « حامل البوق » ولكل قرية عاملها - دعوة السكان للخروج للصيد ، وهو الذي يتصرف فيما يجمعون ، وعليه أن يقوم بدوره « السحري » في عملية الصيد .

٦ — سن أي ساك Sen-i-Sak :

وهذا هو زعيم المريسه (الشراب المحلى) ، ويمارس وظيفته عندما يتقدم إليه شخص بطلب استخدام عدد كبير من العمال ، وفي هذه الحالة يقوم هذا الزعيم بأعداد

المريسة المطلوبة ، ويطلب من المخدم أن يعين مندوبا عن عماله لاستلام المريسة وتوزيعها على رجاله .

والمريسة تستخرج من خمير العيش وتستخدم في بعض المناطق كغذاء رئيسي .

٧ — القطاش Gatash :

وهو الذي يعرف مسالك الجبال والطرق ، ويرشد الغرباء إلى الطريق ، وإذا حدث خلاف بين الأهالي في منطقة الجبال والانقسنه ، فانهم يذهبون إليه في الجبل الذي يسكنه ومعهم خروف لذبحه وإقامة حفل للصالح .

ونجد في هذه المراسيم والطقوس مظاهر بارزة ، تتطلب بحثاً دقيقاً في دراسة مقارنة لمعرفة مصادرها وتطوراتها ، ومن هذه المظاهر حبس السلطان المنتخب لسبعة أيام ، والتزامه بأن يمتنع كلية خلال لك المدة من التعرض لضوء الشمس ، ثم ذهابه إلى المسكان المعين انتظاراً لخروج العوائد ، وأخيراً دخوله الماء وغطسه فيه ، ويشرف على هذه الاجراءات الجندي ، الذي تبدأ مهمته من الساعة التي يتم فيها انتخاب السلطان الجديد ، وهذه المظاهر إن دلت على شيء ، فانها تدل على قدسية شخصية السلطان ، لذلك يتحتم عليه قبل أن يتسلم مقاليد الحكم ، أن يعتزل المجتمع للمدة المعينة تتبعها مباشرة مراسيم تقليده السلطنة ، وليس اعتزاله المجتمع إلا لكي يتطهر ويرتقى ، من مرتبة البشر إلى مصاف أنصاف الآلهة . وأن عملية التديك التي تقوم بها العجوز في فترة الاعتكاف ، ليست إلا مصدراً من مصادر منح السلطان القوة .

وتكشف لنا هذه التقاليد والطقوس ، عن مدى أثر المدنية المصرية القديمة وعباداتها ، وبخاصة عبادة الشمس ، التي نجد طقوسها بارزة في شكل أو آخر ، في حفلات التتويج ، ونجد أيضاً أنه من الضروري ، أن يتزوج السلطان في سنار من بنت عين الشمس ، كما يعرف الزعيم في بعض قبائل نيجريا بابن عين الشمس (٨٠) ، وبدراسة هذه التقاليد والطقوس ، كما يمارسها بقايا الفوننج في فازوغلي (التي ذكره ديزني في مقاله آنف الذكر) ، وما هو متبع في المناطق المجاورة للسودان ، في نفس الزمن الذي سجل فيه ديزني مشاهداته ، ومقارنة ذلك مع ما كانت عليه في العصور القديمة ، يتبين لنا ما أدخل عليها من تعديلات وما أصابها من تطورات ، تناسب

(٨٠) أنظر كتاب دراسات قبلية في شمال نيجريا (بالانكليزية مؤلفه مك ص ٣٥٠/٣٥٦)

مع البيئة المحلية الخاصة ، وما يسترعى الالتفات أن هذه التقاليد والطقوس في مختلف العهود ، التي مرت عليها لم يحدث تغيير في الأسس ، التي قامت عليها أصلا ويرجع ذلك الاستمساك بتلك الأسس إلى طبيعة الحضارة المصرية (٨١) .

والجندى هذا يقوم بدور رئيسى فى مراسيم التتويج ، ويكون عادة من رجال الدين ، فقد جاء فى الطبقات ما قاله الملك عمارة أبو سكيكين للشيخ « ادريس بن محمد الأرباب » أنت فى السابق كنت جندينا ، ثم بقيت جنديا لله ، وحات الملك ان كان ما عافيت أمى ، أردك إلى جنديتك (٨٢) . - وهذا المنصب يقابله فى العصرين الفرعونى والمسيحى ، منصب « الكاهن » الذى يتولى تكريس الزعيم لتسلم مقاليد الحكم .



(٨١) من تلك البقايا التي مازالت باقية :

١ - عادة التخطيب بالحناء ورسم علامة القرص الشمسى فى أسفل الكف .

٢ - تكرار النسوة فى حلقات الرقص كلمة حك (Haqi)

(٨٢) طبقات ود ضيف الله - نشرهما الشيخ ابراهيم صديق ص ٨/٧ والمقصود من « حات الملك » أي قسما بحياة الملك .

UNIVERSITY OF CHICAGO

LIBRARY

الكتاب الثالث

من امتداد الادارة المصرية إلى السودان
إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى

السلطنة السنارية في سنواتها الأخيرة

تميزت السنوات الستة عشر الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي باشتداد الصراع بين إنجلترا وفرنسا ، وبخاصة بعد أن فشلت الدولة الفرنسية في بسط نفوذها القوى في هولندا أمام النشاط البريطاني ، وكان هذا الفشل من أبرز الأسباب التي دفعت فرنسا إلى الانتقال بمسرح الصراع إلى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط ، حيث نزلت الحملة الفرنسية في أرض مصر في عام ١٧٩٨ م ، لأهميتها الاستراتيجية على مركز إنجلترا وعلى خطوط التجارة (١) ، بين الشرق والغرب وداخلية أفريقيا . وقد أحدثت هذه التطورات تغيير نظام الحكم في مصر ، واهتم قائد الحملة نابليون بمحاولة إعادة فتح طريق التجارة ، بين مصر وبين الفجر وسنار ، بعد أن أهملها المماليك ، الذين وجهوا اهتمامهم نحو التجارة عبر البحر الأحمر إلى السويس ، ومنها بطريق البر إلى شاطئ البحر الأبيض ، وتركوا السودان في عزلة اقتصادية تكاد أن تكون تامة ، ولم يكن لبريطانيا أن تهتم بالتنافس والتطاحن ، الذي كان قائماً فيما بين زعماء المماليك بسبب التجارة عبر مصر ، طالما أن ذلك الصراع لا يؤثر على شريان مصالحها في الشرق الأدنى والأقصى ، إلا أن نزول القوات الفرنسية في مصر قد أيقظ اهتمام الدول الأوروبية وبخاصة إنجلترا ، التي كانت تحرص الحرص كله على بقاء هذه المنطقة منطقة الشرق الأوسط - بعيدة عن السيطرة لدولة أو أخرى ، لما يخلق لها ذلك من متاعب ، تتعطل معها مصالحها الاقتصادية ، وعلاقاتها مع الهند وإلى مستعمراتها في أوراء ذلك وبذلت بريطانيا جهودها لخراج الفرنسيين من مصر ، الأمر الذي تم لها في عام ١٨٠١ م ، وبعد خروج الفرنسيين أقام الباب العالي ولاية في مصر ، لم يكتب لهم التوفيق في إدارة البلاد ، حتى انتزعه الشعب المصري ، الذي سلم مقاليد أموره إلى محمد علي ، واستخدم هذا الوالي عدداً من المستشارين الفرنسيين لمساعدته في تنظيماته الجديدة ، كما أنه نشط في مطاردة المماليك والخلع منهم ، لما كانوا يقيمونه من عراقيل ومشاكل لمحمد علي ، وقد امتد نشاط المماليك إلى السودان حيث دخلت إليه بعض الجماعات منهم هرباً من محمد علي .

وكان لهذه التطورات في الشمال أصداءها في الجنوب (السودان) ، حيث أيقظت الوعي ، وأخذ زعماءه يتلمسون الطرق والوسائل للحصول على نجدة مصر ، للخلاص مما حل بهم من تطاحن قبلي وحروب داخلية ، زادت بها تعقيداً هجرة المماليك (٢) إلى البلاد ، ومحاولتهم السيطرة على دنقله ، والانتقال منها تدريجياً نحو الجنوب ، حتى تم لهم الزعامة الكاملة ، كما حاول أولئك المماليك الدخول إلى كردفان وبلاد الفجر ، حيث ذهب محمد بك المنفوخ وعبد الرحمن بك ، واقترنت هذه الجهود من جانب المماليك في مهاجمتهم بالاتصال بالوهابيين ، في الجزيرة العربية عن طريق مندوبهم حسن جوهر الكاشف .

(١) كوبان - السفراء والبعثات السرية - لندن ١٩٥٤ - روز . جزء أول ص ١٦١ .

وكانت خشية مصر أن يتعاون المماليك مع أتيوبيا على قيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الأوسط وتنفذ إلى ساحل البحر الأحمر وتنشئ في هذا الجزء من وادى النيل مشيخات وزعامات تخضع في صورة أو أخرى للمماليك الذين يرتبطون في شكل ما مع دولة أوروبية عن طريق محالفات صداقة وامتيازات تجارية . وكان إلى مصر يرقب تطور الأحوال في جنوب الوادى بعين الحيلة والحذر والعمل على مواجهة ما قد ينتج من تطورات بخاصة بعد رحلة هنرى صولت (٣) في صحبة اللورد فلنشيا في عام ١٧٠٥/١٨٠٦ ورحلته الثانية في ١٨٠٩/١٨١٠ م (وبين ١٨٠٥ و ١٨١٠ م جاءت إلى مصر حملة فريزر التي فشلت) . وقد كان في رحلته الأولى مع اللورد فلنشيا التي أرسلتها الحكومة البريطانية إلى نجاشى أتيوبيا للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة بحرية في أرض الدناكل يمكن استخدامها لغزو مصر إذا قامت قوات فرنسية بتفعل البحر الأبيض المتوسط لاحتلال مصر مرة أخرى أو إذا وقعت مصر تحت نفوذ دولة قوية تخشى انجلترا منافستها . وفي الرحلة الثانية التي كانت أيضاً بأمر الحكومة البريطانية لتوثيق الروابط الدينية المسيحية . وهذه من أولى مراحل التوسع الأوروبى الذى اتخذ بادىء ذى بدء الدين كوسيلة لأهدافه . وقد اهتمت مصر بنشاط هنرى صولت في حوض البحر الأحمر وأتيوبيا الأمر الذى تبولت عنه مكاتبات (٤) . ولم يتوان محمد على في اتخاذ خطوات مضادة لعرقلة الحركات المعادية التي تهدف إلى إقامة قوى منافسة ، تستطيع مناهضة مصر والضغط عليها . وذلك بأرساله وفداً رسمياً إلى السلطان السنارى في عام ١٨١٣ م مطالباً العمل على مقاومة النفوذ المملوكى (٥) كما أرسلت بعثة ثانية إلى غندار بأتيوبيا لنفس الغرض مقاومة للنشاط المملوكى وجاءت إلى مصر كنتيجة للتطورات التي حدثت بتغيير نظام الحكم وزوال السيطرة المملوكية ، وفود من السودان على رأس كل منها زعيم من كبار الشخصيات ومنهم أبو مدين المطالب بعرش دارفور والملك ادريس ود ناصر من البيت السنارى ومعه زعماء من فازوغلى كما جاء الملك نصر الدين أبو حجل زعيم الميرقاب وفي الوقت الذى جاءت فيه هذه الوفود إلى مصر كان الوالى غارقاً في مشاكلة الخاصة بشمال الوادى (مصر) ، غير أن تلك المشاكل لم تحجب عن مصر التيارات

(٢) أنظر مقال الأمير عمر طوسون « نهاية المماليك » في مجلة الحنجع المصرى مجلد ١٥ ص ٢٠٥/١٨٧ - أنظر أيضاً كتاب التونسى « تشجيد الأذهان » .

(٣) شغل هنرى منصب القنصل الانجليزى في مصر ١٨١٥/١٨٢٧ م وكان مهتماً بالآثار الرحلات كما كان وكيلاً لشركة الهند الشرقية وله علاقات مباشرة مع وكلاء هذه الشركة في مخا (الين) ومالطه .

(٤) أنظر أدوار دربو في كتابه بناء امبراطورية محمد على ص ٣٠٤

(٥) قابل الرحالة بورخارد هذه البعثة في شندى (أنظر كتاب ص ٣٠٨)



٢- أبو مـالـيـه - المـطـالـب بـعـرـشـهـمـالـفـور

أبو مدين المطالب
بعرش الفور
(عن بيرون) ↓

↑
عن هوسكن
(نقل)
أبو حنبل
الملك نصر الدين



١- الملك نصر الدين - ملك الجبل - في بيرون

الخفية التي كانت تعمل في مهارة لتثبيت أقدامها في جنوب الوادي كما أشرنا آنفاً . وقد أخذ الوالي في إعداد خطته لتوجيه القوات اللازمة لاعادة الأمن واستتابه في البلاد وذلك بعد أن تجمعت لديه المعلومات الضرورية وأهمها ما جاءت به البعثتان المصريتان من سنار وغندار وما نقله زعماء الوفود السودانية . وقد حانت الفرصة لارسال أولى قواته تحت أمره ابنه اسماعيل كامل بعد الانتهاء من الحرب في الجزيرة العربية . وأرسل الوالي قبيل سفر جنوده المهندس محمد خسرو بك المعروف بالدفتردار لكشف الطريق بين أسوان وحدود نقلة ، التي كانت تحت سيطرة الكشاف ، ولجمع المعلومات عن نشاط المماليك في دار الشايقية وجنوبها (٦) .

قامت الحملة بقيادة اسماعيل كامل أصغر أبناء محمد علي ، وبصحبه جماعة من كبار علماء الدين منهم القاضي محمد الاسيوطي ، والسيد احمد افندي السلاوي مفتي السادة المالكية ، والسيد احمد البقلي مفتي السادة الشافعية ، وكانت مهمة هؤلاء العلماء القيام بارشاد الاهالي وتبصيرهم بأهداف الحملة التي ترمى إلى إرساء أسس جديدة لاعادة الطمأنينة والاستقرار للبلاد ، والتخلص من المماليك . وقد روعي في اختيار هؤلاء العلماء تمثيل المذاهب التي تعتنقها غالبية سكان السودان الشمالي ، فالأكثرية تتبع المذهب المالكي ، وقلة منهم على المذهب الشافعي ، وجماعات أقل على المذهب الحنفي ولم تكن التجريدة في واقع الأمر أكثر من قوة بوليسية أرسلت لاعادة النظام وتوطيد العلاقات بين شطري الوادي بعد أن تعطلت هذه الروابط بسبب قيام حكومة متنافرة من المماليك وقليل منهم من اهتم بأمر الجنوب ، وكانت من نتيجة تلك العزلة كساد الحياة الاقتصادية وتطاحن الزعماء المحليين واشتباكهم في حروب داخلية أكلت الأخضر واليابس ، واشتدت حركة العصابات للسلب والنهب وقطع الطرق وكان لزاماً على مصر أن تعمل على إعادة الاستقرار والأمن وإرجاع الحياة اليومية إلى مجاريها ، بعيدة عن السيطرة الأجنبية التي برزت في صورة محاولة المماليك في السيطرة على ذلك الجزء من وادي النيل ، وفي تلك السيطرة ما فيها من خطر على مصر نفسها .

ولم تجد التجريدة المصرية مقاومة بعد اشتباكها مع الشايقية الذين رفضوا ترك أعمال التعدي وقطع الطرق ، وقد طلب إليهم اسماعيل أن يركنوا إلى الزراعة وحياة

(٦) مقال الأمير عمر طوسون آنف الذكر ص ١٧٨ / ٢٠٥

الاستقرار والعمل على إعادة بناء الحياة اليومية ، وحدث في إحدى المعارك إن وقعت في الأسر ابنة زعيم الشايقية العذراء « مهيبة »^(٧) التي كانت في مقدمة المحاربين من أهلها كما قضت العادات والتقاليد القبلية ، وقد أحسن القائد المصري معاملتها وبالغ في إكرامها باعادتها محملة بالهدايا ، الأمر الذي دفع والدها أن يتوقف عن محاربة من حافظ على شرف ابنته ، وطلب الصلح معه .

وسارت الحملة من دار الشايقية إلى دار الميرقاب ، وفي بربر حضر الملك نمر (مك شندی) وحاشيته ، مرحباً بمقدم الحملة ومعلننا استسلامه وخضوع إقليمه للإدارة المصرية ، فأحسن قائد الحملة معاملته وإكرامه خلال الأيام الثلاث التي قضاهما الملك في معسكر الحملة في بربر ، وعمل هذا الملك بعد عودته إلى منطقته على تأمين طريق الحملة عبر بلاده ، كما أحبط محاولة الملك المساعد الذي أراد أن يجمع رجاله ومن ورائه فلول من الممالك ، لمحاربة الحملة وعرقلة سيرها ، وحاول الملك المساعد أن يستميل إلى جانبه الملك شاويش وفرسانه من الشايقية إلى جانبه إلا أنه لم ينجح في محاولته هذه ، وانضم الملك شاويش ورجاله إلى الحملة ومنح رتبة « السنجق » .

ورافق الملك نمر الحملة المصرية من شندی إلى سنار للاستئناس برأيه ومشورته في المسائل المحلية التي يتطلب حلها مراعاة التقاليد والعادات المحلية^(٨)، وحدث في يوم وصول الحملة إلى سنار عاصمة السلطنة السنارية أن وقع السلطان بادی الوثيقة التي اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثماني وبتسليم إدارة بلاده إلى حكم مصر^(٩) وقد قابل السلطان بادی الحملة المصرية في واد مدني ، معلناً ترحيبه واستسلامه . ومما يجدر ذكره أن وزير السلطنة السنارية لما علم بقيام الحملة المصرية سارع بإرسال خطاب إلى الفقيه إبراهيم الفرضي (بفتح الفاء والراء وكسر الضاد) طالباً منه سؤال الله تعالى ليبطل مجيء الحملة^(١٠) ، وهذه تبين لنا تغلغل المعتقدات في أصحاب السجاجيد .

٢ - الملك نمر والنمر با-ماعيل به محمد علي

لا يهمننا في قليل أو كثير أن نتعرض لمراحل القتال الذي انتهى بامتداد الإرادة

(٧) هذه عادة قديمة - أنظر هامش ٣٢ من الكتاب الثاني .

(٨) كتاب رحلة إلى دنقلة وسنار لجورج انجلش طبع بوستن سنة ١٨٢٢ ص ١٥٨

(٩) الصدر آنف الذكر ص ١٦٩

(١٠) صورة الخطاب في الملحق السابع .

المصرية حتى شملت أجزاء السلطنة السنارية ، وتطهير البلاد من خطر المماليك واستئصال شأفتهم ، لكننا لانريد أن نهمل ذلك الحادث الذى ذهب ضحيته اسماعيل وصحبه فى شندى . وبينما تتفق مختلف الروايات على أن الموت قد حدث بسبب الاختناق فان هذه الروايات تختلف فى عناصرها عن العوامل التى دفعت الى ارتكاب الجريمة . ويبدو أن المعلومات التى تجمعت حينذاك عن ملابسات القضية قد بنيت على بيانات لم يبذل فى تحقيقها أدنى جهد . وما كان لهذه المسألة أن تعالج على هذا النحو الذى ترك أثره العميق فى المجتمع السودانى ، وسواء أكانت هذه الاخبار قد نشرت فى صورتها الخاطئة عن حسن نية أو عكس ذلك ، فان الامر الذى لاشك فيه أنها خلقت جواً من التشكيك فى الادارة المصرية للسودان ، كما أيقظت الشائعات المغرضة وتعطلت مرحلة البناء . وفى هذا التشكيك وما ينجم عنه من بلبلة للأفكار فى السودان وغير



٣ - الملك نمر - ملك شندى

الملك نمر - ملك شندى

السودان مصلحة للبربصين من الفرنجة من أصحاب المطامع السياسية ، التي لم تأخذ في ذلك الوقت صورتها البارزة الواضحة المعالم . ولم يفت هؤلاء الفرنجة استغلال الحادث في صورة أو أخرى كما فعل القنصل الفرنسي في القاهرة ماليت في قضية مقتل دي رول رئيس البعثة الفرنسية الى الحبشة الذي قتل وصحبه في سنار في ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٠٥ م كما سبق أن أوضحنا ظروف ذلك الحادث .

مات اسماعيل بن محمد علي ورجال حاشيته الصغيرة اختناقاً بدخان القش الذي وضع في دار الضيافة التي أعدها الملك نمر (زعيم شندى) لنزول ضيفه وحاشيته وذلك خلال فترة وجودهم في شندى وهم في طريقهم الى مصر بسبب مرض اسماعيل وقد حدث هذا الحريق في ليلة ١٧ صفر سنة ١٢٣٨ هـ (أواخر أكتوبر سنة ١٨٢٢) واتهم الملك نمر والملك المساعد وألقت عليهما المسؤولية عن تدبير المؤامرة والاشتراك في تنفيذها وقال البعض أن الملك نمر هو المسؤول عن الحريق ويقول هؤلاء أن الباشا قد أغلظ في القول تملك نمر وطلب منه أن يقدم له ألفاً من الرقيق في خلال يومين (١١) . وجاءت في رواية لينان دي بلفون (١٢) أن اسماعيل طلب من نمر أن يدفع له ثلاثة آلاف ريال أبو طيره وستة آلاف من الرقيق . ونقل روبنسون (١٣) أن اسماعيل فرض على نمر أن يقدم من المال والمواشي الخيول والجمال والغلال والرقيق ما يزيد قيمته عن العشرين ألفاً من الجنيهات . وتضيف الرواية التي نقلها روبنسون أن الملك نمر أوضح لاسماعيل أن رجال قبيلته لا يملكون شيئاً يساعده على الاستجابة لمطالبه وأنه لذلك عاجز عن تنفيذ ما طلب منه . فما كان الأمير إلا أن ضرب نمر بالشبق وحاول نمر أن يرد الاهانة بالسيف لكن الملك المساعد منعه من ذلك وبعد الاعتذار وعد بتقديم المطلوب في اليوم التالي !! وهو يضم الانتقام لما لحقه من اهانة.

(١١) روبل في كتابه ص ٣٠٠ وما بعدها والمؤلف معروف بكراهيته للمصريين .

(١٢) دوان في السودان المصري ص ٣٨٧ وما بعدها .

(١٣) مقال روبنسون في مجلة السودان في رسائل ومدونات المجلد الثامن ص ١١٨/١٠٥

وقد ذكر لي الأستاذ محمد عبد الرحيم أن السادة موسى ود تركاب وموسى ود تنير وموسى ود حمزة والشيخ محمد الحاج فضل الله صهر الملك نمر وموسى ود هلال قد أخذوا جثمان اسماعيل الى بيت أحدهم واحتفلوا بتشييع جنازته في جمع عظيم ودفنوه عند قبعة حاج فراج أمام ثكنات السوارى بشندى - وذكر لي أيضاً أنه سمع من الأمير اسماعيل احمد بن الخليفة عبد الله التعايشي أنه لما كان في الأسر في دمياط حدثت وفاة أخيه الأمير محمود ونقدم خمسة من أعيان البلد وهم عبد المنعم بك ، واللوزي بك ، وعبد الرازق بك ، الشيخ عبد السلام العلابي ، ومصطفى بك الدرسي ، واحتفلوا بدفن الأمير في موكب كبير سار فيه العلماء والأعيان وكبار البلد وتقبلوا التعزية وأقاموا سرادقا لاستقبال المعزين كان ذلك كما ذكر لي سيادته في ابريل سنة ١٩٠٤ م .

ومما لاشك فيه أن هذه التقديرات خيالية ، لم يراع فيها صاحبها الامكانيات الاقتصادية لمنطقة شندى ، التى لم تكن ، كما ذكر بورخارد ، أكثر من سوق تجارية تتجمع فيها السلع ، وبخاصة الحبوب التى تصل اليها يومياً على ظهر الابل من منطقة النيل الأزرق ، وأوضح هذا الرحالة أن منطقة شندى فقيرة الى حد كبير ، ولم يكن هذا الوضع الاقتصادى لشندى خافياً على اسماعيل ، وأن عملية حسابية بسيطة تكشف لنا عن أن هذه الروايات قد اختلقت ، لتخفى وراءها أسرار الحقيقة الدامغة .

وقد كان اسماعيل حريصاً الحرص كله على أن لا يحصل ما يسبب المتاعب للأهالى من جنوده ، وكان يتودد اليهم بشتى الوسائل ليدخل الطائفة الى قلوبهم ، وذكر انجلش ، الذى رافق الحملة ، ان بعض الخدم والجنود قد سلكوا مسلكاً مخالفاً لما أصدره من أوامر بشأن معاملة الأهالى ، فأنزل بهم العقاب الصارم (١٤) ، ودفع الأهالى تعويضاً عما أخذه منهم أولئك الأفراد ، وكان أن أمر اسماعيل بتخفيض الأموال التى قدرها دفع الله الأرباب وديوان افندى والمعلم حنا الطويل (١٥) .

ويجعل بنا أن نحاول استعراض ظروف الحادث ، وملابساته للكشف عن ما أخفته الروايات عن مسئولية ارتكاب الجريمة .

(١) تتفق الروايات ، فى صورة اجماعية ، على ان المؤامرة قد نفذت بتكديس القش حول المنزل ، الذى أعد لنزول الضيوف ومن ثم أشعلت النار التى أوجدت سحبا كثيفة من الدخان لفترة مستمرة تكفى لاحداث الموت اختناقاً للنازلين فى دار الضيافة ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار إلى نظام تخطيط المساكن فى شندى كما فى غيرها من بلاد السودان نجد أن المنزل قد أحاط به حوش كبير وهذا يتطلب مقادير هائلة جدا من القش يحتاج نقلها وتكديسها - إذا فرضنا جدلا توفر هذه الكميات فى بلد محدود الموارد الزراعية مثل شندى - إلى استخدام الآلاف من العمال والعمال فى مدة تزيد عن الأسابيع ولا يفوتنا أن نذكر ان الزمن الذى حدثت فيه الحريق كان فى نهاية شهر أكتوبر ، وهذا يقع فى نهاية الفترة الفاصلة بين نهاية فصل الخريف (الأمطار) وبدء الشتاء وعند ذلك تتحول الرياح من جنوبية الى شمالية ، ونرجح أن كمية من أشجار السنط كانت فى داخل الحوش ، وفى بعض الحجرات ، وهذه هى التى

(١٤) انجلش فى كتابه حملة دنقلة وسنار ص ١٠٩/١٤٠/١٤٢

(١٥) مخطوطه تاريخ سنار ص ٢٨ - الف

أشعلت فيها النار وأوجدت ستاراً كشيافاً من الدخان تسبب عنه الموت اختناقاً - ومما يسترعى الالتفات ان استخدام مثل هذه الخطة للانتقام من اسماعيل ورجاله لم يكن معروفاً في السودان - ومن هذا يتبين ان مديبر الخطة لم يكن من أهالي البلاد وإذا ربطنا هذه الخطة مع هدفها وهو الانتقام من اسماعيل فإن التهمة تنعجه نحو صاحب المصلحة في ذلك ولم يكن في السودان غير « المماليك » والعلاقة بينهم والعلاقة بينهم ومحمد علي لا تحتاج إلي بيان ، وقد كان من الأسباب الهامة لدخول الحملة المصرية الى السودان مطاردة المماليك وإخراجهم من البلاد قبل تثبيت أقدامهم فيها وإنشاء دولة يتولون ادارتها . وذكر أنجلش ان جماعة من المماليك كانت في شندى وهربت منها إلى منطقة النيل الأبيض بعد أو رفضوا شروط الباشا التي عرضها عليهم في شندى ديوان افندى مبعوث اسماعيل للاستسلام . وفي الوقت هرب فيه المماليك الى منطقة النيل الأبيض أعان الملك نمر ولاءه وخضوعه ، الأمر الذي أغضب الملك المساعد وهو ابن عم الملك نمر ويحكم على الجانب الغربي للنيل تجاه شندى . وكان عدواً لدوداً لنمر لما بينها ثأر كما سنذكره فيما بعد . وحاول المساعد أن يتعاون مع الملك شاويش (زعيم الشايقية الذين فروا أمام الحملة) على عرقلة سير الحملة بشن الغارات عليها وهي في طريقها في منطقة شندى نحو الجزيرة . وقد أفسد هذه الخطة الملك نمر بما أقامه من حراسة على طول الطريق . واستسلم الملك شاويش ورجاله وانضم للحملة في ١٦ شعبان سنة ١٦٣٦ هـ (٢٠ مايو سنة ١٨٢١ م) وبعد أن دخلت الحملة أرض الجزيرة في طريقها إلى سنار عاد المماليك من منطقة النيل الأبيض إلى شندى - وكان الملك نمر في صحبه اسماعيل للاستئناس برأيه في المسائل المحلية التي تتطلب خبرة بالعوادات والتقاليد المحلية - وكانت فرصة غيبته من شندى قد سهلت على المماليك أحكام الخطة وتدابيرها وفي جانبهم الملك المساعد وعلاقته مع الملك نمر - علاقة « ثأر الدم » يطالبه به نمر .

ب) لم تسكن العلاقة في يوم من الأيام على شيء من التفاهم بين الملك نمر والملك المساعد لما كان بينهما من « ثأر » وقد حدثت بينهما قبيل وصول الحملة المصرية بسنوات قتال عرف بحرب « العواليب » وكان الملك نمر قد استنجد بسلطان سنار لرد طغيان المساعد وقبيل وصول النجدة السنارية تخرج مركز نمر إلى الحد الذي جعله يفكر في الحرب والالتجاء إلى المجاذيب في الدامر وفعلاً أخذ في تنفيذ خطته هذه وعند وصوله إلى « جبيل أم علي » اجتمع قادة جيش نمر وتداولوا أمرهم واستقر رأيهم

على الاستعانة بالأنقيب (شاعر الملك) ليثير حماس الملك نمر ويشنيه عن عزمه
والعودة إلى محاربه الملك المساعد خوفاً من عار الحرب ، ودخل الأنقيب على نمر الذي
كان مستلقياً على سريرته وأنشده قائلاً .

متمدد تقول سوتريه (١٦) ورايط لك قلباً ينط الهربا
الميتة ومات التربة (١٧) أفضل من نقيع الغربة (١٨)

وقال أيضاً .

ما شفت أبوك يركب على المتويرى ينتر هنا وحسه في قوز برى (١٩)
أما اركب كاس وقل للخيلى اندى وأما اقعد فكى وود مرتضاك يقرى (٢٠)
خاطب والأنقيب الأرباب إدريس عم الملك نمر منشداً .

إدريس يا عريس أضمرت بالرق إدريس مدفع الباشا إلى ذخيرته تبع
أمرق نحاسك شمس ودق
قدر الله يطيح حتى أن دخل في حق

وكان أن دقت الطبول للحرب وعاد نمر وجيشه واشتبك مع المساعد وأسفرت
المعركة عن انتصار نمر وعودته إلى شندى . الأمر الذى زادت معه الضغائن بين نمر
والمساعد وصار الأخير يتربص الدوائر للشأ من نمر الذى اشتهر بتقواه وخوفه من
الله وبعده عن اللهو والطرب كعادة زعماء القبائل فى ذلك الزمان ، وكان نمر يكره
الحرب والغزو كما جرت العادة بين القبائل .

وقد هرب الملك نمر بعد موت اسماعيل وتحمل المسؤولية لأن التقاليد والعادات
القبلية تجعل من زعيم الدار مسئولاً عما يحدث فى داره من أهله أو من يساكنهم (٢١)

(١٦) سوتريه : جبل أسوتريا الواقع غرب ميناء بور سودان .

(١٧) الميتة ومات التربة : نموت وتجمعنا القبور .

(١٨) أفضل من نقيع القرية : فذلك أفضل من أن نعيش غرباء .

(١٩) المتويرى : تصغير المتورى - وهو الحصان العالى - ومعنى هذا أما رأيت فقد كان أبوك
يركب الخيل العالية التى يسمع صهيلها من قوز برى (قوز برى حلة بعيدة عن شندى) .

(٢٠) الكاس : الحصان العالى - اندى : اهجمى ويعنى هذا الجزء أركب الخيل الأصيل
وقل لها اهجمى وإلا فاقعد كالفقيه ولد مرتضى لتعليم الأولاد القراءة والكتابة .

(٢١) حدث أن على البربر من البطاحين قد قتل الشيخ حامد أبو سن فى عام ١٨١٨م فى بلدة
الصفية وهرب إلى شندى حيث احتفى بالملك نمر الذى رفض تسليمه للشكرية الذين زحفوا على
شندى ورابطوا بالقرب منها لأخذ القاتل عنوة . فتدخل المجاذيب للصالح وفى خلال ذلك هرب
على البربر فسقطت عنه حماية النمر . واقتتلت الشكرية والبطاحين .

وهكذا كان لزاماً على نمر أن يتقبل التبعة ويترك موطنه حتى لا يُلطخ اسمه بالعار
إذا سلم المسؤولين عن الحادث وقت اختيار اخف الضررين وهو الهجرة من بلدة إلى
مكان بعيد عن متناول الحكومة .

مات اسماعيل ورفاقه ، وهرب الملك نمر ورهطه ، وبقي المساعد بعض الوقت ،
يرقب اندلاع الفتنة والثورة الشاملة في البلاد ، حتى تأتى أكلها بالقضاء على الإدارة
المصرية ، فيحقق أحلامه بأن يقيم شخصه زعيماً على دار الجعليين على الأقل . لكن
الدفتردار قد عاجله بزحفه السريع ، نحو شندى والمتممة موطن الفتنة ، وهناك أراد
أن يعالج الأمر بالحكمة إلا أن أحد المتهمين رماه بحربة محاولاً قتله ، غير أنهم لم
تصبه ، فاختلط الأمر وحدثت اشتباكات ذهب ضحيتها الأبرياء . وهرب المساعد
نحو البطانة قبيل وصول الدفتردار إلى شندى ، الذى سار فى مطاردته واشتبك مع
الهاربين إلا أنهم تمكنوا من الفرار نحو الحبشة .

وكان لهذه الفتنة أثرها فى المناطق الأخرى ، فى بربر وفى الجزيرة ، وهجر السكان
وبخاصة فى الجزيرة بلادهم ، واعتصموا بمناطق بعيدة عن متناول الحكومة ، وتعطلت
الزراعة وتوقفت الحياة اليومية ، ولم يكن من الميسور تحصيل الأموال الأميرية ،
وبذلك كانت المهمة شاقة جداً أمام الإدارة الجديدة ، وهى فى أول عهدها للعمل على
إعادة الطمأنينة والاستقرار ، وكان علاج الموقف يتطلب بعض الوقت .

وهذه القضية التاريخية الهامة جدية بالبحث والتحقيق على ضوء ما قد يظهر من
وثائق جديدة (٢٢) .

(٢٢) أنظر روبر

أنظر مجلة السودان فى مدونات ومذكرات .

أنظر الوثائق بالحفوفات بالقصر الجمهورى (عابدين سابقاً) .

- ١ - وثيقة رقم ٢٧١ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ سلخ ربيع الأول سنة ١٢٣٦ هـ
- ٢ - وثيقة تركية رقم ٨٩ محفظة رقم ٨ بتاريخ ٣ ربيع الأول / ١٢٣٨ هـ
- ٣ - وثيقة رقم ٤٠٤ دفتر رقم ١٠ معية بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٣٨ هـ
- ٤ - وثيقة رقم ٥١٢ من الدفتر رقم ١٠ معية بتاريخ ٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٨ هـ
- ٥ - وثيقة رقم ١٣ صفحة / ٤٠ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ رجب / ١٢٣٨ هـ
- ٦ - وثيقة تركية رقم ٢٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٥ رجب رقم ١٢٣٨ هـ
- ٧ - وثيقة رقم ٥ من الدفتر رقم ١٦ معية بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٣٨ هـ
- ٨ - مكاتبة رقم ١٠٦ دفتر / ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٠ شوال سنة ١٢٣٨ هـ
- ٩ - مكاتبة تركية رقم ١٨٩ دفتر رقم ١٤ معية تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩ هـ

٣- تنظيمات الادارة الجديدة :

انتقلت السيادة الشرعية لولاية البلاد السودانية إلى الادارة المصرية في اليوم الثالث عشر من شهر يونيه عام ١٨٢١ م ، وذلك بتنازل السلطان بادي آخر ملوك سنار . وقد شمل امتداد الادارة المصرية جميع الأجزاء التي كانت في حلف مع سنار ، عدا المنطقة التي تكون مثلثاً قاعدته حوض الدندر والرهدي ، شرقي سنار ، وضلعيه ، يمتد على خط يتجه شمال شمالاً شرقياً ليتصل بالحدود الحبشية جنوبى سواكن ، ودخلت في هذا القطاع عطيش (حوض الدندر والرهدي) والقضارف (البطانة) ، ويرجع السبب في ترك هذا المثلث إلى الاعتقاد بأنه مرتبط بالحبشة ، في نوع من العلاقات وقد بقي هذا الاعتقاد الخاطئ حتى أوائل ولاية خورشيد أغا (٢٣) .

وأخذت الادارة الجديدة في وضع الاسس اللازمة لسير العمل ، ويبدو ان الحملة المصرية لم تكن قد أعدت لها باديء ذي بدء خطة مرسومة كاملة التنظيم ، قائمة على دراسات تفصيلية لمختلف المشاكل ، لتواجه تطورات الظروف ولم يكن لمصر أن تفعل أكثر مما فعلت في ذلك الحين ، لان امتداد الإدارة المصرية ليشمل شطرى الوادي كان أول تجربة من نوعها وانها قد أفادت فعلاً من أخطائها - والدليل على ذلك المرسوم الاول الذى الذى أصدره سعيد باشا عند زيارته للسودان (١٨٥٦/١٨٥٧ م) .

وما يدل على أن الحملة لم تكن مزودة بخطة واضحة انها قد تركت الامر في المناطق التي تسلمت ولايتها وهي في طريقها إلى سنار في يد المشايخ المحليين والكشاف

- ١٠- مكتبة تركية رقم ١٩٠ دفتر ١٤/ تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١١- وثيقة رقم ١٩٤ ترجمة دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ١٦ محرم سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٢- مكتبة ٢٥٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٣- مكتبة رقم ١٦٤ سجل رقم ١١ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٤- وثيقة تركية رقم ١٢١ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٥- وثيقة تركية رقم ١١٧ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٦- مكتبة تركية رقم ١٨٥ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٧- مكتبة رقم ٢٧٧ دفتر ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٣٩ هـ
- (٢٣) أنظر ترجمة صورة مجلس المشورة (عقد في ١٢ أغسطس سنة ١٨١٦) في كتاب الحكم المصرى في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٣٣١

والقواسين (القواسين مفردهما قواس) ، وبعض الجنود من المرتزقة (الباشبوزق) في المدن الرئيسية ، وفي هذا ما فيه من تجزئة للمسئولية الادارية ، وبخاصة في بلاد واسعة الأرجاء كالسودان ، لا تربط بينها مواصلات سريعة . وكان من أثر هذه التنظيمات أحياء التقاليد القديمة ، بشأن تحصيل الضرائب مما كان له أسوأ الأثر البعيد المدى كما سنبينه فيما يلي .

١ - التنظيمات الضريبية:

بدأت الحملة بعد تنازل السلطان بادی مباشرة ، بتكوين لجنة من ديوان أفندي والمعلم حنا الطويل بالاشتراك مع الأرباب دفع الله ولد حمد في وضع التنظيمات الضريبية ، وقد فتحت هذه اللجنة دفاتر الخراج وأرسلتها إلى القاهرة قبيل عودة قائد الحملة اسماعيل كامل ، من حملته على المناطق جنوبى سنجه ، وكانت التقديرات التي وصلت إليها هذه اللجنة ، على حد قول المعلم حنا الطويل أمام مجلس المشورة (١٢ أغسطس سنة ١٨٢٦ م) ، وزعناه (المال) على حسب قدرة كل واحد منهم (أهل القرى الخ) وعلى حسب الموجود ، وبيان هذه التقديرات كالآتي : -

كيسه	
١١١٠٠	سنار
٢٩٤	حلفا
٣١٤	العرب بجهة النيل الأبيض
الجملة ١١٧٠٨ أو ٥٨٥٤٠ جنيهاً (الكيسة ٥ جنيهاً) (٢٤)	

وبعد ذلك بعام تقريباً فتحت دفاتر « الفردة » ديسمبر سنة ١٨٢٢ م) وعهد أمر تحصيل هذه للضرائب إلى الجهاز الإدارى المحلى لكل منطقة والذي تكون كما سبق أن أوضحنا من الشيخ والكاشف والقواس والجنود ولم يزود هؤلاء بالعدد الكافى من الكتاب للقيام بعمليات القيد بل ترك الأمر في يد أولئك المحصلين وفي ظل هذا النظام أخذت فيه التقاليد والعادات مكانها حيث كان على دافع الضرائب أن يدفع مبالغ إضافية تشمل حق الضيافة وواجب الشيخ والكاشف وهكذا إلى الحاكم الأعلى ، مما ارتفع بالمتحصل إلى أضعاف مضاعفة .

(٢٤) أنظر ترجمة صورة مجاس المسورة في كتاب الحكم المصرى فى السودان للدكتور محمد

ما للنظام الذى اتبع بشـأن تحصيل المال من البدو وغيرهم من الضاربين فى المناطق الصحراوية فإن مبالغ معينة قد فرضت على زعيم كل قبيلة أو شعبة وروعى فى ذلك التقدير حالتها الاقتصادية بما تملكه من ماشية النخ أو ما تقوم من نشاط فى تجارة الفوافل . وترك للزعيم أن يجمع المال من أفراد قبيلته على طريقته الخاصة فياًخذ من زيد مثلاً مائة قرش ومن عمرو عشرة قروش . ويأخذ الزعيم فى تقديره الفردة أن تكون حصيلته أكثر مما هو مقدر عليه فعلاً لدفعه لخزينة الحكومة . وهذا الفرق بين المتحصل فعلاً وبين المقدّر أصلاً كعجاية على قبيلته يشمل حق الضيافة وحق الكاشف وغيره من رجال الحكومة . وقد ذكر موسى الكاشف أمام مجلس المشورة أن فى مقدمة الأكالين هناك هو السر عسكر ثم الكشاف ويأتى القائمون فى الصف الثانى والمشايخ فى الصف الثالث وكل من يليهم يأكلون (٢٥) ، سواء كانت هذه الأموال الإضافية تصل إلى أولئك أو لم تصل فإنها كانت تجمع فعلاً .

وتطورت التنظيمات الضريبية مع الزمن فشملت نواحى النشاط الاقتصادى المختلفة ومن ذلك العشور على السواقي ، النخيل ، الزراعة وعوائد الأملاك ألخ الخ والويركو على أصحاب الحرف والصناعة والجمارك والتجارة والعقبة على المراكب كما أدخل نظام الالتزام (٢٦) . وهكذا نجد أن النظام الضريبى قد قام على طريقتين الأولى التى استحدثتها الإدارة المصرية والثانى ما أخذته من المتوارث القديم وهذا المزيج من الأسس كان مصدراً لخلق بيئة صالحة لانتشار جرمومة الفساد التى كان لها أبعد الأثر فيما حدث فى السودان من تطورات وبخاصة أن أمر التحصيل للمال قد ترك فى أيدي الزعامات المحلية يعاونها الكشاف وبعض القواسين والجنود من الباشبوزق .

وكانت فى حالات بعض القبائل التى يكثّر فيها التعدى على غيرها بالسلب والنهب أن يعين لها بعض الحياالة والجنود المشاة لحفظ الأمن ، وكان على القبيلة أن تدفع تكاليفهم إما كاملاً أو مناصفة .

(٢٥) نفس المصدر ص ٣٢٥ وكان موسى الكاشف هذا أحد معاونى خورشيد باشا وقد توفي فى جبال الصعيد (أعلى النيل الأزرق) فى سنة ١٨٢٧ م .
(٢٦) أنظر مكتبة محمد على إلى سر عسكر السودان اسماعيل باشا التى يأمره فيها بأن يعطى كردفان لأحد المكوك المحليين نظير جعل معين يدفع سنوياً غير أن الدفتر دار قد عارض هذه الفكرة - أنظر وثيقة رقم ٤٠٤ دفتر رقم ١٠ معينة بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٢٨ هـ ديسمبر سنة ١٨٥٢ ميلادية) ودفتر ١٤ معينة تركى وثيقة ١٣ صفحة ٤ بتاريخ رجب ١٢٢٨ ونفس الدفتر مكتبة ١٠٦ بتاريخ ١٥ شوال ١٢٣٨ هـ .

ونبين فيما يلي مقارنة بين التقديرات الضريبية في مختلف أنواعها كما بدأت في عام ١٨٢١/١٨٢٢ م وما وصلت اليه من عام ١٨٦٩ م حتى عام ١٨٧٩ م ونوضح البيانات عن فترتين منفصلتين أولاهما من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٤ م والثانية من ١٨٧٥ م إلى ١٨٧٩ م وهذه الفترة الأخيرة هي التي كان فيها غوردون باشا حاكما دارا للسودان وأقاليمه . وما يجدر توجيه النظر إليه ان الميزانية كانت تبدأ سنتها المالية من سبتمبر في سنة إلى سبتمبر من العام التالي ، وقد استمر هذا النظام معمولاً به حتى سبتمبر ١٨٧٥ م وتعديلت ميزانية ١٨٧٥/١٨٧٦ م وشملت المدة من سبتمبر سنة ١٨٧٥ حتى ديسمبر ١٨٧٦ م أي ان تلك السنة كانت خمسة عشر شهرا . وصارت السنة المالية بعد ذلك تبدأ من يناير إلى ديسمبر من كل عام .

تقديرات	المتحصل فعلا	جنيه	جنيه
من سبتمبر سنة ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٠	٣٧٨٥٨٤	٣١٥٤٩١	
» » » ١٨٧٠	٣٥٩٦٦١	٢٥٧٣٧٣	
» » » ١٨٧١	٣٥٦٩٩٤	٢٤٠٣٣٩	
» » » ١٨٧٢	٣٦٣٠٠٣	٣٠١٢٢٧	
» » » ١٨٧٣	٣٦٩٣٣٦	٣١٩٢٩٢	
الجملة	١٨٢٧٥٧٨	١٤٢٣٧٢٢	
العجز		٠٣٩٣٨٥٦	

تقديرات	المتحصل فعلا	جنيه	جنيه
سبتمبر ١٨٧٤ إلى سبتمبر ١٨٧٥	٣٧٠٨٦٥	٢٢١٧٦٧	
سبتمبر ١٨٧٥ ديسمبر ١٨٧٦	٤٨٢٩٨٥	٢٦٣٨١٨	
يناير — ديسمبر سنة ١٨٧٧	٣٦٢٧٤٤	٢٧١٨٧٣	
» » ١٨٧٨	٢٩٢٤٩٨	٢٨٣٨٢٢	
» » ١٨٧٩	٤٠٢٥٩٥	٢٨٧٧٠٥	
الجملة	٢٠١٢٥٩٧	١٥٢٨٩٨٥	
العجز		٤٨٣٦١٢	

وكان العجز في الفترة الأولى ٣٩٣٨٥٦ أي بمعدل ٧٩٠٠٠ سنويا
وفي الفترة الثانية ٤٨٣٦١٢ » ٩٧٠٠٠ »

وبلاحظ من الأرقام الخاصة بالفترة الأولى (من سبتمبر ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٤) ان العجز في السنين من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢ قد بلغ حوالى ٢١٩٠٠٠ ج ويرجع ذلك إلى التعديلات التى أدخلت بتخفيض الضرائب لتشجيع الزراعة ، وقد بلغ العجز فى ١٨٨٢ م ١٠٣٠٠٠ ج تقريباً ولا يشمل هذا الرقم المال المخصص فى الميزانية للمعاشات) ، ولذا لا نستطيع تحليل الأرقام ومقارنتها ونترك هذه المسألة لدراسة خاصة تتجمع عناصرها من الوثائق وتحقيق الظروف المحلية عن حالة الفيضان والأمطار وإلى ماغير ذلك من العوامل التى كان لها أثرها فى الاقتصاد القومى .

ولما كانت البلاد تعتمد اعتماداً كلياً على محصولها الزراعى ورعى الماشية والقائمين عليها من الرقيق فإن الميزانية العامة كانت دائماً مصدر متاعب للخزانة المركزية لتغطية العجز .

وبالإضافة إلى عبء الضرائب الذى قد يرتفع فى بعض الحالات إلى أضعاف مضاعفة كما أوضحنا من قبل فقد كان على المواطن العادى أن يدفع جانباً من دخله الخاض إلى الفقيه المحلى الذى يرتبط معه برباط روحى وقد خلقت هذه شعور قلق وبخاصة عندما تقل غلة الأرض أو تنفق الماشية لسبب أو آخر (قلة المطر الموسمية هبوط الفيضان عن مستواه فى بعض السنوات والآفات الزراعية وأمراض الماشية) .

ب - الاعفاءات الضريبية :

وقد أغدقت العطايا والامتيازات على رجال الدين والفقهاء والأعيان وشملت امتيازات الفقهاء القائمين عليها للتعليم الدينى الاعفاء من الضرائب التى تجبى عن الأرض التى يزرعونها (٢٧) غير أن تلك الطمأنينة وذلك العمل على تعمير البلاد وقيام حكومة مركزية تتعامل مع الأفراد فى مختلف البيئات الإقليمية لم يكن الأمر الذى يتقبله المجتمع فى مرحلته التى كان عليها عند امتداد الإدارة المصرية ، فالبلاد كما سبق أن أوضحنا قد وصلت إلى أدنى مراتب التدهور والانحلال وتفرق أهلها إلى مجموعات قبلية يناصب بعضها البعض العداء والبغض وقد فقدوا شعورهم بالحاجة إلى حياة استقرارية تهدف إلى توحيد الصفوف وتكتميلها لتمكين البلاد من السير فى ركب الحضارة والتقدم كما كانت تبغى السياسة التى جاء بها امتداد الحكم المصرى . فالمواطن العادى كان يزرع الأرض ليستنبت منها حاجته من الغلال ولم تكن عليه التزامات

(٢٧) الدكتور عبد العزيز عبد المجيد . كتاب التربية فى السودان جنوباً ص ١٧ .

محددة نحو زعيمه القبلي في الصورة التي فرضتها الادارة الجديدة . وقد أوجد هذا شعوراً خفياً نحو نظام الحكم المستحدث وبخاصة عندما يرى المواطن العادي أن الأعيان وغيرهم قد منحوا إعفاءات وعطايا الأمر الذي ألقى بعبء دفع الضرائب وغيرها على الفرد . وقد كان لهذه الحالة أثرها في المجتمع مما جعل الاستفادة من التنظيمات الجديدة بعيداً عن المساهمة في تثبيت أركان الحياة المستقرة وإرساء قواعدها لتقف أمام العواصف وما كان لها أن تنعم بذلك النوع من الحياة الذي يفسده الحكم والتوسع الأوربي يرقب تطور الأحوال ، وبالإضافة إلى هذه الإعفاءات التي منحت لفريق من أهل المدن فإن هذه الامتيازات قد شملت خلال حكمدارية غوردون بعض القبائل والعشائر مما أذكى روج الحسد والتباغض بين القبائل .

وتوضح فيما يلي الجبايات التي كانت مقررة على المشايخ الضاربين في البادية وذلك قبل عام ١٨٨١م ولو أخذنا بعين الاعتبار عند تقدير مال الحكومة عدد أفراد القبيلة وقدرتهم المالية فيما يملكون من حيوانات وموارد أخرى لوجدنا تفاوتاً كبيراً في تلك التقديرات .

أقل مبلغ جنيه	أعلى مبلغ جنيه		
٤١٠	١٦٣٢٧	البطاحين العشما	مديرية الخرطوم
١٢	٦٨١	القاسماب	بربر
٦٥	١٨٩	الحوارير	دنقلة
١٩	١١٠٢٣	المليكاب	الناكة
١٣١٦	٩٠٢٣	الكواهلة	سنار وفازو غلي رفاعة الهوى
٣٩	٢٠٠٠	أولاد علي	سواكن
		عرب رحل شياخة	مصوع
٦	٣٣٦	حسنين وحسين	علي عامر
٥٥	٨٤٧٢	زيادية	كردفان
٢٥	٣٩٢٠	ترغم	دارا
٠٠	٦٠٠	غير معروف	كبيكيه
١٠٨	٢٥٠٠	بشير	درافور

ج - التنظيمات الادارية :

وعندما اندلعت نيران الفتنة بعد الغدر بإسماعيل وصحبه في شندى وما تلى ذلك

من فرار الأهالي إلى دار عطيش والقضارف وغيرها من المناطق البعيدة عن متناول الحكومة ، صار تحصيل المال مستحيلا . ولهذا فإن مهمة خلفه عثمان بك جركس كانت في غاية من الصعوبة وبقي الحال على هذا المنوال حتى أوائل عهد خورشيد أغا (تولى منصب الحكمدارية من يونيو ١٨٢٦ حتى نهاية عام ١٨٣٨ م) .

وإذا رجعنا إلى إجابة موسى الكاشف أمام مجلس المشورة (٢٨) حيث يقول « أما الحكام الذين كانوا هناك منذ مدة عثمان بك لغاية الآن فلم يبحثوا عن شيء ما ولم يقوموا بأي عمل - فلم تعمّر البلاد وظلت أخذة في الخراب . أعني ذلك أنه عند انفصال أي حاكم وتعيين آخر بدلا منه لم تكن تجري محاسبة بينهما ، ولا كان الحاكم المنفصل يسلم البلاد إلى خلفه - فاذا كان المأمور الذي يأتي يسأل ويفحص أولا طبق أصول الديوان ثم يدخل الأمور تحت ضابط ويربطها بقاعدة فيرجى للبلاد أن تعمّر فاننا نجد في هذا ما يشير في صورة أو أخرى أن الأمور كانت متروكة كلية في يد الشايخ ومعاونيه .

وأضاف موسى الكاشف « ولذلك قد طلب استخدام كتاب فاذا تم هذا التفتيش كما يريد مولانا فإن الكتاب المرسلين إلى تلك الديار سيوزعون على الأعمال التي تحتاج اليهم لاحتياج البلاد إلى أمثالهم لأن الأقاليم ملك فسيح وقد كان علم الكتابة مهملا في العهد القديم - وقد طلبنا الآن كتابا للحاجة الماسة بهم ولضبط أمور الديوان (٢٩) وقد عمل خورشيد أغا على بث روح الطمأنينة والاستقرار لانعاش البلاد بعودة الفارين الذين أمنهم وإزالة مخاوفهم ، وأخذت البلاد تمارس تدريجياً حياتها اليومية في ظل أحوال مستقرة وأمن مستتب، وأدخلت زراعات وصناعات جديدة وأصلحت مساحات واسعة من الأراضي التي كانت مهجورة بسبب فرار أهلها بسبب الفتن ، التي حدثت عند مقتل اسماعيل في شندى ، وانتظمت الحياة الاقتصادية، وبدأ التحسن في مستوى المعيشة ، واكتسب المجتمع حياة ملؤها النشاط ، وكان تطوّر الأحوال المضطرد مثار إعجاب وتقدير الرحالة ، الذين زاروا السودان في تلك الفترة من الزمن . واستمرت السياسة الإصلاحية ، التي بدأها خورشيد أغا ، طوال عهد خلفه أحمد باشا جركس الذي اشتهر في السودان باسم « أحمد باشا أبا أدان » (أبوودان)

(٢٨) دكتور شكرى ص ٣٢٤

(٢٩) نفس المصدر السابق ص ٣٢٤

لضخامة أذنيه ، كما أطلق عليه احمد باشا الجزار وتيزت شخصية أبو ودان بتوطيد العلاقات الودية مع زعماء البلاد كما كان يتبادل معهم قرض الدوييت ومن ذلك ما قاله مادحا الشيخ إدريس (٣٠) .

ادريس وداعة السيدة الزيعلية الأسد المشيته الضولعية
قمر سيفين مالوش تحية يريد يوم الكتال والتمبكية (٣١)

واهتم احمد باشا بالتوسع الزراعى وإنشاء مصانع فى الخندق والمتمة والكاملين وغيرها واستخدم فيها عدداً من العمال ولسبب لم يعلم بعد تمرد هؤلاء وأضربوا عن العمل فى يوم واحد شمل جميع المصانع . وهرب الكثير منهم إلى ديارهم فى الجبال جنوبى كردفان ، يعتقد ان هؤلاء كانوا من الرقيق الذى أدخل لجنسية ، ويرجع هربهم إلى ما كان يلاقيه اخوانهم من زعماء القبائل الذى ألحقوا بخدمتهم لتحصيل المال غير أن هؤلاء قد استخدموهم فى الخدمة البيتية وأغلظوا فى الاساءة اليهم .

وزار السودان فى مدة حكمه محمد على وتفقد أحواله ونظر فى شؤنه لتدعيم حياته الاقتصادية وتحسين موارده .

وتوفى احمد باشا فى سبتمبر عام ١٨٤٣م واختلفت الروايات المحلية فى أمر موته فمنهم من يقول انه قد جنح إلى الاستقلال بالسودان عن مصر ، على أن يكون تابعا للباب العالى مباشرة ويقول البعض ان أحد زعماء السودان عرض على أحمد باشا أمراً أصدره السلطان سليم فى حوالى ١٥٢٠م بأن يكون السودان ولاية تابعة للسلطان العثمانى مباشرة - وان احمد باشا أرسل كتابا إلى الصدر الأعظم فى هذا الشأن - وقد أغضب ذلك محمد على الذى أرسل قوة من مصر بقيادة السنجق « داموس أغا » للقبض عليه . وما بلغ ذلك احمد باشا تناول السم وكانت وفاته بالخرطوم ودفن فى القبة الشرقية .

ويبدو أن هذه الإشاعات كان لها أثرها من حيث إدخال تعديلات على التقسيمات الإدارية فى السودان وعلاقاتها المباشرة مع القاهرة وسببت هذه التغييرات والتعديلات

(٣٠) الشيخ إدريس ود ناصر خال الشيخ عبد الرحمن البدوى الأزهرى ال عيسى .
(٣١) ومعنى هذا « ادريس الذى أودعته السيدة الزيعلية كرامتها . كالأسد فى مشيته القوية - وكأنه قمر سيفين ليست له تحية - يريد اليوم للقتال والتدخين (التباك) النارجيله) فقلت عن الشيخ شمس الدين الحنفى فى وادى مدنى عام ١٩٤٣

اضطراباً في الاداة الإدارية وانعدمت المسؤولية لقيام سلطتين أحدهما الحكمدار أو مدير عموم قبلي السودان . وثانيتهما رجوع حكام الأقاليم في الكثير من شئونهم المالية وغيرها إلى النظارات في القاهرة - وزادت المشاكل تعقيداً بالآزمات السياسية التي قامت بين الباب العالي من جهة وبين عباس الأول من جهة أخرى .

وجاء من بعد أحمد باشا أبوودان «أحمد باشا المنكلي» ولم يبق في السودان إلا فترة قصيرة وتلاه خمسة عشر حاكماً للسودان في وظيفة الحكمدار أو مدير عموم قبلي السودان الخ . وذلك حتى فبراير ١٨٧٧ م عندما تقلد الحكمدارية الجنرال غوردون باشا . وهذا يعني ان خمسة عشر حاكماً قد أمضوا في الحكم ما يقرب من الواحد والثلاثين عاماً أي بمعدل سنتين وشهر تقريباً لكل منهم وأطول فترة وهي خمسة سنوات تقريباً أمضاها جعفر باشا مظهر وستة منهم أمضى كل منهم سنة واحدة تقريباً . وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على ان هذه الفترات لم تسمح بالوقت الكافي لدراسة الأحوال والعمل على علاجها . وهذا أيضاً مما جعل الحكام في السودان يعملون دون سابق خبرة وتجربة كما تتطلبه الإدارة الجديدة من دراية خاصة لتصرف المعاملات اليومية مع الجماعات المتباينة في نطاق سياسة عامة بعيدة المدى تهدف إلى الربط بين مختلف المجموعات النبلية ، الأمر الذي لم يكن موضوع إدارة جهاز حكومي عادي بل هو بالعكس أعمق من ذلك غوراً فهو فترة لا تنقل شعوب قضت القرون العديدة في حالة متأخرة عن ركب الحضارة ، وكان من الضروري العمل على تنسيق الجهود بما يتمشى مع الظروف الواقعية محلياً للأخذ بيدها تدريجياً نحو مستوى رفيع .

لا شك في ان امتداد الإدارة المصرية إلى السودان قد حملت في ركبها أكثر من فكرة ورأي جديد واستخدمت وسائل منظمة للنقل ، وفتحت دور التعليم وأرسل عدد من أهالي البلاد إلى شمال الوادي (مصر لتلقي المعرفة والتدريب على الزراعة وكثير المال المتداول في الأيدي وأخذت الطريقة القديمة طريقة التعامل بالمقايضة في الاختفاء ، ودبت الحياة في المدن والقرى التي بدأت تحتل مكانتها في اقتصاديات البلد لأول مرة بعد ان كانت في عهد السلطنة السنارية تدار على صورة الجمهورية التجارية لمصلحة فئة قليلة ، واكتسب الفرد شخصيته وحرية في التعامل فيما ينتج وشملت سياسة التعمير والإنشاء مختلف مرافق الحياة بمساعدة الفنيين ، الذين أرسلوا من مصر إلى السودان للمساهمة في تقدم البناء والزراعة واستغلال الموارد الطبيعية . كما أرسلت مصر إلى السودان الإعانات المالية والحبوب لتفريج الضائقات التي أصابت البلاد

سنة بعد أخرى لسبب قلة الأمطار الموسمية وتسكاد أن تكون السنوات المجذبة في حلقات دورية في حدود السبع سنوات .

وكانت لزيارتي محمد علي وسعيد للسودان أثير في رفع معنوية الأهالي وبخاصة بعد أن أصدر سعيد في عام ١٨٥٧ م الأربعة مراسيم ، ويعتبر المرسوم الأول الذي وجه إلى المديرين كلائحة تأسيسية لارساء جهاز الادارة في السودان على أسس سليمة يشترك أهالي البلاد في إدارة شئونهم وتقدير الضرائب وغير ذلك عن طريق المجالس المحلية وجمعيات ذات صلاحيات واسعة .

وقد حاول سعيد باشا أن يصلح الاخطاء الادارية باقامة تنظيمات محددة الخطوط يشترك فيها الزعماء والسكان من أهل السودان في صورة مجالس محلية لها دورها البارز في إدارة البلاد (٣٢) إلا أن المشاكل الكثيرة ذات الأهمية البالغة قد عطلت جزئياً وكليا تلك المشروعات الاصلاحية وساعدت على تفاقم الحال واضطرابه فيما بعد السبب استغلالها في إسناد مراكز المسؤولية بطبقة خاصة .

وأخذ الولاة الذين حكموا البلاد في الاهتمام بالمسائل السودانية وارساء قواعد حياة لمجتمع مستقر وبذلت الجهود لترغيب المجموعات الضاربة في البادية لسكنى مواطن الزراعة والافادة من مياه الروافد . ولقد بذل الحكمداريون جهوداً صادقة في سبيل تحقيق ذلك رغم الصعاب التي نجمت عن التغيرات المتتالية في الحكمداريين والتي كان من شأنها أضعاف مقدرة الحكمدار على العمل وتصريف الشئون وفق خبرته المحلية . كما ان هذه التغيرات الكثيرة عرضت الحكمدارين الى الشائعات المغرضة التي ترتبت عليها الاساءة الى الادارة المصرية في السودان . ونذكر من هؤلاء أحمد ممتاز باشا (٣٣) الذي نعتقد أن التاريخ لم ينصفه الانصاف الكامل بما يتفق مع سيرته الحسنة في السودان . بل بالعكس لقد لقي ممتاز أقسى ما يلقيه لإنسان من ظلم أخيه

(٣٢) كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور فؤاد شكرى ص ٢٤٥/٢٥٤

(٣٣) تولى أحمد ممتاز باشا إدارة مديرية عموم قبلى السودان من سنة ١٨٧١ إلى ١٨٧٢ م ودبرت له الشكاوى التي رفعت إلى الخديو ويتحققها ظهر فسادها بعد حبسه في القلعة بالقاهرة زهاء ما يقرب من الشهر وقد مات مغموماً بعد عودته إلى الخرطوم حيث دفن . وأشاع أعداؤه في السودان ومصر من أهل الفساد ما أساء إلى مسمعته - أنظر الملحق الثامن حيث تعرض لترجمة حياة أحمد ممتاز باشا .

الانسان - عمل ممتاز خلال خدمته في السودان على التوسع الزراعى وخاصة القطن وزراعته على نطاق واسع في دلتا خور بركة وفي حوض القاش ونهر العظيرة كما عمل على اصلاح اراضى دنقله وشق القنوات في تلك المنطقة لتوسيع رقعة الارض الصالحة للزراعة وإنشاء بعض الصناعات بما يتناسب والحال في كل اقليم . وفكر في إنشاء الخطوط الحديدية لربط البلاد ومخارجها في الشمال والشرق وتعبيد الطرق وتنظيم المواصلات البرية والمائية والبريد والمواصلات السلكية (٣٤) .

وقد كانت الفرصة مواتية للاستفادة من زراعة القطن في تلك الحقبة من الزمن بسبب الحرب الأمريكية وذهب ممتاز ضحية الدس والكيده من اسماعيل المفتش الذى كان يخشى من تقرب ممتاز من الخديو الذى بدأ في الأخذ بمقترحاته وقد عاون معنى بك الشامى اسماعيل المفتش بتقديم الشكاوى ضد ممتاز (٣٥) وتحريض الأهالى على مثل ذلك .

وقد تأثر مجرى الأمور في السودان بالاحداث التى أملت بمصر خاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ م مما هباً للسياسة البريطانية فرصة الانقلاب من موقف الانتظار ومراقبة تطور الظروف إلى العمل الجدى . ولعبت السياسة الدولية دورها الأمر الذى أفادت منه بريطانيا التى عمل الخديو على إرضائها والاستجابة لمطالبها ، وبخاصة عن الرقيق ، وقد تعين صمويل بيكر لإدارة خط الاستواء للقضاء على النخاسة وقد حارب التجار ونكل بهم وامتدت قسوته إلى الأهلىين فزاد بعمله هذا كراهية الأهالى للحكومة وفقدوا ثقتهم بها وترتب على ذلك ان فقدت الحكومة نفوذها وصارت القبائل تتربص برجال الادارة للفتك بهم ، وهكذا نجح صمويل بيكر في نشر روح التدمير بين الأهلىين الذين صاروا يترقبون الفرص للخلاص من نيرها ، واحتمى الكثيرون منهم بتجار الرقيق الذى أنشأوا محطاتهم كما أسلفنا بعيداً عن سلطان الحكومة . عاد صمويل بيكر إلى بلاده وعين غردون مكانه ليصلح من اخطاء سلفه في أعالى النيل ، وطلب اليه الخديو أن يحرص على الحصول على رضا الأهالى ومحبتهم والابتعاد عما يسبب عداوتهم للحكومة ، وقد حدد الخديو الغرض من تعيين غردون في ثلاث نقاط أولها استتباب الأمن والسلام وثانيهما القضاء على تجارة

(٣٤) أنظر كتاب المواصلات في سودان وادى النيل للشاطر بصلى عبد الجليل

(٣٥) اسماعيل سرهنك باشا . حقائق الأخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٢ - ١٣ هـ

الرقيق وثالثها فتح البلاد الشاسعة للتجارة . ولكن غردون ولو انه نجح في بعض الشيء إلا أنه لم يكن موفقاً في الاجراء الذي اتخذته لوقف نشاط تجار الرقيق ومحاربة هذه التجارة ، ونعني بذلك اعلانه احتكار تجارة العاج لحساب الحكومة (مارس سنة ١٨٧٤) (٣٦) ، حيث نجم ذلك اغلاق النيل الأبيض للملاحة وتعطيل التجارة ، فازداد بذلك تدمير التجار من الحكومة التي سلطت عليهم رجالها وغالبيتهم من الاوروبيين المغامرين وخولت لهم سلطات واسعة لتنفيذ السياسة في نطاق ما حدده الخديو عن مهمة غوردون التي أشرنا إليها سابقاً .

وتتابعت المشاكل وتشابكت أطرافها فنوبار يذهب إلى انجلترا ناصحاً بفرض الحماية البريطانية على مصر لمواجهة التقدم الروسي في البلقان وفي آسيا الصغرى (٣٧) . وألمانيا تقترح على بريطانيا على لسان مستشارها بسمرك مثل ذلك تحقيقاً لأهدافها السياسية نحو روسيا وفرنسا وكان لهذه الجهود أثرها في خلق الارتباك المالية في مصر وتعطيل حركة الانشاء والتعمير التي رسمتها مصر للسودان . وسادت حالة الركود . وجاءت معدات الرقيق في ١٨٧٧ م وتعتبر الصرامة التي اتبعت في تنفيذها في السودان العامل المباشر في تسكين حركات التدمير ضد الحكومة ، ثم استحكمت الازمة المالية واستنفذ اسماعيل جهوده لا تقاذ الموقوف ، ونصحته الدول بالزول عن الحكم فلما رفض سعى الدول لدى الباب العالي لعزله وتم لها ما أرادت ، وبدأت من ثم التطورات التي انتهت في عهد خلفه بالاحتلال البريطاني ، وقد سبقته المذكرة المعروفة بمذكرة غمبتا (المذكرة المشتركة) للاحتفاظ بتوفيق في الحكم « كضمان لتقوم مصر ورفاهيتها » وقد اشتركت في هذه المذكرة فرنسا وانجلترا عندما أحستا بأن الوطنيين المصريين سوف ينادون بخلع توفيق الذي كان مرتعياً في أحضانهما .

* * *

وقد أفاد امتداد الحكم المصري إلى خط الاستواء تقدم الكشف الجغرافي وعلوم الأجناس والنبات والحيوان كما تمكنت الادارة المصرية من وضع يدها على مصادر تجارة الرقيق بعد أن سيطرت على منافذها على البحر الأحمر ومواطنها في الداخل . فقد تنازل الباب العالي لمصر عن مصوع وسواكن (عام ١٨٦٥ م) واستولت

(٣٦) أنظر كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٧٧ / ١٨٩
(٣٧) أنظر أدوارد ديسي في كتابيه انجلترا ومصر ص ١٩ - ٢٠ لندن ١٨٨١ وقصة الخديوية ص ١٦٦ أيضاً محادثات نوبار والسفير الألماني كما أشار إليه لاقتر ص ٢٥٩

مصر على موانئ شاطئ البحر الأحمر الأفريقي . بربره وزيلع وتاجورة واستولت في الداخل على هرر (١٨٧٢ - ١٨٧٥) وفي الغرب تسلمت دارفور (١٨٧٤ م) فأحكمت بذلك الحصار في مخارج تجارة الرقيق . وبقي منفذ جنوبي في منطقة نهر الجوبا ، غير أن الحكومة البريطانية عارضت في امتلاك مصر لتلك الجهة بدعوى أن هذه المنطقة واقعة تحت سيادة سيد برغش سلطان زنجبار (٣٨) ، جرى كل هذا على أطراف البلاد السودانية ، أما في داخلية البلاد فإن الأحوال أخذت في شق طريقها الطبيعي نحو الاستقرار كما أخذ المجتمع في تسكين مقوماته وتوجيهها نحو شعور عام يجمع بين مختلف القبائل ويوحد كلمتها للنشأة أمة سودانية الأمر الذي عملت الإدارة المصرية منذ امتدادها إلى السودان على تحقيقه .

٤ - أناة الحكم ومشكلاتها

حاولت الإدارة المصرية في النيف والثلاثين عاما الأولى من امتداد الحكم المصرى إلى السودان ، أن تقيم جهازاً للحكم ، استمد خطوطه العامة من التنظيمات التي كانت متبعة في شمال الوادى (مصر) مع الأخذ ببعض التقاليد المحلية المتوارثة ، وقد اشركت الزعماء المحليين من مشايخ وغيرهم في تحصيل الجبايات المختلفة في نطاق التنظيمات الجديدة ، وقد نقلت في نفس الوقت السلطات التنفيذية الفعلية التي كان يمارسها هؤلاء الزعماء إلى أيدي الكشاف والمأمورين والقواسين وغيرهم يعاونهم بعض الجنود ، وكان الأخذ بهذا النظام مصدر الخطر على الاستقرار الذي كانت تهدف إليه السياسة المصرية التي امتدت إلى السودان لتطهيره من عناصر الفوضى والاضطراب ، فهي في تطبيقها ذلك النظام إنما قد أغفلت أن تراعى بعين الاعتبار حالة القلق التي كان عليها المجتمع ، الأمر الذي يتطلب العمل التدريجي للأخذ بيد المجتمع حتى يصل إلى مرحلة يتجاوب فيها ويتعاون مع التنظيمات الجديدة .

فالمرحلة كانت مرحلة انتقال حضارى ، تحل فيها حضارة جديدة محل حضارة بائدة ، لا تتمشى مع روح العصر ، وبخاصة أن السودان قد أمضى أكثر من ثلاثة قرون في نطاق السلطنة السنارية والمشايخات المتحالفة معها ، والتي كانت نظمها كما سبق أن أشرنا ، تستمد أسسها من الجمهورية التجارية ، لذلك نجد في واقع الأمر أن

(٣٨) أرسل الخديو اسماعيل حملة من السويس في ١٩ - سبتمبر سنة ١٨٧٥ م إلى مصب نهر الجوبا وذلك لفتح الطريق مع خط الاستواء لمكافحة تجارة الرقيق تنفيذاً لتوصية غوردون .

الاصلاحات التي شملت ترقية الزراعة والتوسع في إعداد المساحات من الارض الصالحة للزراعة وتحسين وسائل الري والاكثر من الغلات وتنوعها وإنشاء صناعات جديدة ، ونشر التعليم في مناهجه التي تختلف اختلافاً كبيراً عما كانت عليه الخلاوى (مفرداً خلوة - الكتاب) التي قصرت جهودها نحو التعليم الديني المنقول ، كما أدخلت الادارة الجديدة تحسينات شملت مختلف نواحي النشاط ، من استئجار الآمن وتسهيل المواصلات وتعميد الطرق ، وقد دفع ذلك بالبلاد كثيراً نحو التقدم ، فان تلك الجهود الانشائية كانت بالنسبة لحالة المجتمع حالة انتقال مفاجيء لم يمهّد له باتاحة الفرصة الكافية من الزمن للتدرج حتى يصل المجتمع إلى المستوى الذي تتكيف معه حالة البلاد وتأخذ الأمور مجراها الطبيعي . وكانت الأحوال تتغير بهذه الفتنة أو ذلك القلق الذي يصور حالة المجتمع النفسية ، ولم يكن رجال الادارة في السودان من ذوى الخبرة فالحمد بهم قريب منذ قيام حكم في مصر له طابعه الجديد بعد أن طويت صفحة الادارة المملوكية - وبعد دراسة المشاكل التي اعترضت سير الحكم خلال فترة زادت عن خمسة وثلاثين عاماً ، أصدر سعيد باشا مراسيمه خلال زيارته للسودان في عام ١٨٥٧م وكان في تلك المراسيم العلاج السريع للقضاء على عناصر التخلف ، وبالرغم من أن هذه الاصلاحات قد جاءت في وقت أخذت فيه المشاكل السياسية بالنسبة لمصر في الازدياد ، فانها أثمرت لحدا ما في إرساء أسس جديدة لاشراك الزعماء والمواطنين إشراكاً فعلياً مباشراً في إدارة أمورهم وتصريفها وفي تحمل المسؤولية ، ولو قدر لتلك الاصلاحات أن تأخذ طريقها نحو التنفيذ في نطاق سياسة تقليدية يرعاها الخائف عن السلاف ، ولم تتعرض للتيارات الأجنبية الخفية ، لكانت نتائجها بلا شك أعمق رسوخاً في المجتمع ، وفي إرساء قواعده على أسس سامية تتمشى مع طبائع الأشياء ، وبالرغم من تلك التيارات الخفية فان الاصلاحات قد أوقدت جذوة الوعي القومي ، الذي سار في اتجاهات متراخية تحركت من الزمن في اتجاهات مختلفة .

١ - مشكلة الرقيق :

وبينما كان المجتمع يعالج مشاكله ليتخلص منها وتستقر أسسه ، إذا به يفاجئ بمشكلة أخرى أشد تنكيباً وأبعد أثراً ، ألا وهي مسألة أبطال « الرقيق » وهي عماد الاقتصاد القومي وحجر الزاوية في بنائه منذ آلاف السنين فقد أخذت بريطانيا في الضغط بطريقة أو أخرى لمنع « النخاسة » ، وتذرعت في خطتها هذه بأن هذه مسألة أنسانية

وصورت الرقيق في الصورة التي اعتاد الأوروبي أو الأمريكي أن يراها وتجول في
خاطره من استخدام أولئك المساكين المثقلين بالأغلال والأصفاد، المسوقين بضرب
السياط التي تلهب ظهورهم ولا يكاد غذاؤهم يكفي لسد رمقهم ، ويعيشون في أمكنة
مظلمة ، وتناست أن الرقيق في الشرق يختلف اختلافاً كلياً في معاملته عن أولئك
المساكين الذين وقعوا في قبضة الأوروبيين والأمريكيين ، وبهذه الطريقة استطاعت
انجلترا أن تستثير مشاعر الغربيين حتى حصلت على توصية الدول في مؤتمر فيينا
في عام ١٨١٥م بالأخذ بمنع النخاسة وتحرير الرقيق .

وكان أن أصدر محمد علي أمره إلى خورشيد أغا حاكم دار السودان (١٨٢٦-١٨٣٧م)
لمنع هذه التجارة ووقف غزوات النهضة الموسمية . وجاء في أحد أوامره « انني لا أريد
تجارة لا تشرفني واني لعلّي استعداد لبذل كل تضحية اذا تطلب الغاء هذه التجارة أية
من تضحيات من جانبي (٣٦) » . ويهدف محمد علي أن لا يلحق العار بشخصه في نظر
جميع الشعوب المتمدينة وبخاصة في نظر الحكومة الانكليزية التي تقوم بينه وبينها
علاقات ود وصداقة ، وقد أخذت مسألة الرقيق في مضاعفاتها حتى صارت مصدراً
شديد الخطر تمخضت عنه الأحداث والفتن في السودان ، فكانت كالمارد الذي خرج
في غفلة من قمقمه .

ويجمل بنا أن نتوقف قليلاً لنعرض تطورات مسألة الرقيق النخاسة وأثرها في
المجال الدولي والمقارنة بين ذلك الوضع مع ما كان عليه في دار الاسلام .

ب — أصول تجارة النخاسة في العصر الحديث :

بدأت تجارة الرقيق في صورتها الواسعة على يد الأوروبيين الذين اتخذوا من
هذه السلعة عنصراً اقتصادياً هاماً يشبع أطماعهم ، وقد أنشأوا البيوتات التجارية
الكبيرة برءوس أموال أوروبية دخلت معها أموال أمريكية في نهاية القرن الثامن عشر
لمزاولة تجارة الرقيق ، وكانت السفن البريطانية تنقل أكثر من خمسين في المائة من
شحنات النخاسة من السواحل الأفريقية إلى المستعمرات ، وكان الرقيق ينقل في
شحنات تتكبدس فيها الأجساد البشرية في العنابر دون أدنى اعتبار لانسانياتهم، ناهيك

(٢٩) أنظر كتاب الحسك المصري في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى من ١٦٣

عن الأمراض التي كانت تفتك بهم خلال الرحلات الطويلة الشاقة ، والتي تستغرق ما يقرب من الستة أسابيع ، يموت خلالها ما يقرب من الربع من العدد المنقول على السفن ، ولم يستيقظ الضمير الانساني وهو في سباته العميق بسبب الأرباح الوفيرة التي كانت تدرها هذه التجارة التي تلقنا في مع القيم الانسانية ، ويبدو أن هذه القيم قد صقلها حب المال وسخرها في ركابه واستطاعت بريطانيا وهي صاحبة المصلحة المادية الكبيرة من هذه التجارة أن تنزع حركة المطالبة بإبطالها ، ولاشك في أن هذا التحول في اتجاه انجلترا وما ترتب عليه من تضحيات مادية لم يكن بالأمر اليسير .

فإذا رجعنا الى تطورات العلاقات الدولية في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر نجد أن ثلاثة عشر ولاية أمريكية قد أعلنت انفصالها عن التاج البريطاني في ٤ يولييه سنة ١٧٧٦م وأخذت في استرداد حريتها في دخول السفن الامريكية في مياه المحيطات بعد أن كانت التجارة البحرية تحتكرها السفن البريطانية في بعض المحيطات .

واستطاعت بريطانيا أن تتولى زعامة الحركة المطالبة بتحرير الرقيق وتحريمه بعد أن أخذت بوادر كراهية هذه التجارة المخالفة للانسانية في بعض الممالك الأوروبية وفي انجلترا بالذات حيث اقترنت هذه الكراهية بالقلق والخوف بسبب تفشى عادة استخدام الرقيق في الاعمال البيتية وقد بلغ عددهم حوالى العشرة آلاف جاء بهم أصحاب المزارع من الانكليز من المستعمرات وكان الخوف من ازدياد استخدام الرقيق في صورة تصبح فيها عادة متوطنة لها خطرها على الانكليز وبخاصة عندما كثر بين الطبقات الكادحة ، والاختلاط في مختلف صورته مع الرقيق يخشى منه أن يفقد الدم الانكليزي نقاءه ، الأمر الذي يؤدي في نظرهم الى انحطاط الحضارة البريطانية ، وتنزع حركة المطالبة بتحرير وتحريم استخدام الرقيق « جر انفيل شارب » الذي استطاع أن يصبغ حركته بالدعوة الانسانية ، وقدمت شكاوى للمحاكم ، وصدر أول أحكامها عن رئيس القضاة « مانسفيلد » الذي قرر أن وجود الرقيق في أراضي انجلترا عمل غير شرعى ، وتلت ذلك أحكام أخرى من محاكم المناطق المختلفة في الجزيرة البريطانية ، إلا أن هذه الأحكام لم يشمل الرقيق الذي كان يستخدم في الزراعة في المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار ، فقد أبقى على هؤلاء حتى يتسنى استغلال الارض بتكاليف رخيصة فيمكن أن تنافس المنتجات الزراعية من قصب وشاي وتبغ الخ ، المنتجات الاجنبية في الاسواق الأوروبية وغيرها . وكانت الأمراض في المناطق الاستوائية لا تسمح للأوروبي بالعمل الشاق في تلك المزارع .

> - تطور مسألة الرقيق :

وأخذت مسألة الرقيق تتطور في صورة أو أخرى حتى صارت أداة من أدوات الاستعمار في صراعه الخفي بين الدول وبخاصة بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا في أفريقية وبين بريطانيا وروسيا في آسيا . وقد أخذ هذا الصراع مظهره في مطالبة بريطانيا بإلغاء الرقيق الذي صورته في صورة ما كان يلاقيه هؤلاء التعساء على أيدي أصحاب المزارع في المستعمرات وبذلك استطاعت بريطانيا أن تكسب الرأي العام إلى جانبها بعد أن أصدرت تشريعات اعتبرت النخاسة عملاً من أعمال القرصنة وذلك في عام ١٨٠٧ م واستطاعت انكلترا أن تحصل على توصيات مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥ م بتحريمه كما ذكرنا من قبل .

ونشطت بريطانيا في مراقبة الشاطئ الغربي لأفريقيا لمنع نقل الرقيق إلى أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة) التي ثارت على انجلترا واستطاعت أن تفوز باستقلالها عن الإمبراطورية البريطانية . ومن ذلك الحين صارت هذه الولايات عنصراً جديداً له خطره في مجال المنافسة التجارية الدولية ، ومن هذا يتبين لنا أن التحول الذي طرأ في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، على مسلك بريطانيا تجاه الرقيق وجعلها تدخل تعديلات جوهرية على علاقاتها الخارجية كما أملته سياستها الأساسية وهي الاحتفاظ بالسيادة البحرية ، الأمر الذي قد دفعها في بعض الأحوال إلى وسائل عنيفة لضعاف منافسيها .

ودفعت بريطانيا تعويضاً مالياً بلغ حوالي العشرين مليوناً من الجنيهات لرعاياها من الإنجليز الذين يستخدمون الرقيق في مزارعهم فيما وراء البحار مقابل تحرير الرقيق (٤٠) ، عملت بريطانيا كل ذلك في عام ١٨٢٩ م لتحرير المستعبدين ، فهل كانت لتلك الجهود نتائج عمالية بحيث اكتسب الرقيق حقوقه الإنسانية وتركت له الحرية في التنقل طلباً للرزق وفق مشيئته وبالأجور التي يتقبلها ، الواقع أن مسألة تحرير الرقيق لم تكن إلا إجراء صورياً ، فقد ألغى الرقيق في المعنى وليس في الروح فقد كانت في مزارع الإنكليز في المستعمرات أكثر من ثمانمائة ألف من الرقيق يعملون في الزراعة في نهاية القرن الثامن عشر وكانت في المزارع الأمريكية أعداد وفيرة من الرقيق . وعلى الرغم من أن مجلس الكونغرس الأمريكي قد أصدر تشريعاً بمنع توريد

(٤٠) مذكرة السيد هنرغوردون (شقيق غوردون باشا) بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٤ م
نقلاً عن كتاب المهديّة والسودان المصري « مؤلفه ونجت ص ٥٥٤ / ٥٥٥

الرقيق إلى الولايات الأمريكية في ١٨٠٧ م على أن يسرى مفعول هذا التشريع ابتداء من أول يناير سنة ١٨٠٨ م فان بريطانيا كانت تهدف إلى تحرير الموجود منه فعلا في المزارع الأمريكية تحت ستار العاطفة الانسانية لحاق متاعب للأمريكان بزيادة تكاليف الانتاج في بلادهم حتى يعجزوا عن منافسة التجارة البريطانية .

د - المنافسة في الصراع الدولي:

وأخذت بريطانيا في مراقبة الشاطئ الغربي لأفريقيا بدعوى منع الرقيق إلى أمريكا ومضايقة السفن الأمريكية لمنعها من الدنو من ذلك الشاطئ . ولكن هذا الاجراء في غرب أفريقيا قد أوجد مجالا للسفن الأمريكية في شرق أفريقيا والخليج الفارسي وتحول إلى هذه المنطقة النشاط التجاري ، كما قامت السفن الفرنسية والاسبانية والبرتغالية في نقل الرقيق ، ورفضت هذه الدول الاذعان الرقابة البريطانية . وأخذ النفوذ الأمريكي في العمل على انتشار تجارته في هذه المنطقة من المحيط الهندي ، وأحست بريطانيا بخطر هذا النفوذ على مصالحها الاستراتيجية في هذه الرقعة ، وبخاصة بعد أن عقدت الولايات المتحدة معاهدة مع السيد سعيد في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٣٣ ، والتي حصلت بموجبها الولايات المتحدة على امتيازات اقتصادية وتسميات للبشرين الأمريكيين واستطاعت بريطانيا بطرقها الخاصة أن تقبض على ناصية الأمر ، وبعد صراع طويل استطاعت بريطانيا من بسط حمايتها على السيد سعيد ومن بعده ابنه وذلك تحت ستار منع الرقيق (٤١) . وتمكنت بذلك انجلترا من إنزال ضربة قوية على التجارة الأمريكية كما يصوره لنا الجدول الآتي : (٤٢)

١ (قبل الحرب الأمريكية الأهلية

سنة ١٨٥٥	سنة ١٨٥٦	سنة ١٨٥٧	سنة ١٨٥٨	سنة ١٨٥٩	
عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن	
٩١٤٢ ٢٨	٧٢١٥ ٢٤	١١٤٨١ ٢٥	٩٩٦٢ ٣٢	١٠٨٩٠ ٣٥	الولايات المتحدة
٤٠٩ ٢	١١٦٧ ٢	٧٧٠ ٣	١١٦٩ ٤	٤٩٣ ١	بريطانيا
٣٩٨٩ ١٥	٦٠٣٨ ٢٠	٥٩٠٧ ٢٣	٧٢٧٠ ٢٦	٤٤٢٨ ١٧	ألمانيا
٥٥٢٣ ١٣	١٠٠٧٩ ٢٢	٨٣١٩ ٢٤	٦١٨٦ ١٨	٣٠٦٦ ١٢	فرنسا
١٨٧٦٣ ٥٨	٢٤٤٩٩ ٦٨	٢٦٤٧٧ ٨٥	٢٤٥٨٤ ٨٠	١٨٨٧٧ ٦٥	الجملة

(٤١) أنظر « الاستثمار والتجارة » بالانجليزية مؤلفه لنا رد ولف ص ٣٢٠ وما بعدها .

(٤٢) أنظر مقال شرق أفريقيا وأمريكا بقلم السير جون جراي في مجلة تنجانيقا في رسائل =

ومدونات (بالانجليزية) عدد ديسمبر ١٩٤٦ ص ٨٦ / ٥٥ .

ب) بعد الحرب الأمريكية الأهلية

سنة ١٨٧٩	سنة ١٨٧٧	سنة ١٨٧١	سنة ١٨٦٦	
عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن	
٥٢٨٣ ١٠	٥٣٥٢ ١٠	٤٢٥٠ ٧	٢٥١٥ ٥	الولايات المتحدة
١٦٢٦٥ ٦٩	٤٢٤٨٧ ٤٨	١٠٤٥٩ ١٧	٦٥٦٨ ١٩	بريطانيا
٥٩٤٠ ١٣	٤٦٥٣ ١٥	٧٤٦٧ ١٧	٥٢٨٢ ١٦	المانيا
١٩٧٥ ٤	٣٢٥٩ ٥	٥٤٥٠ ١١	٢٧٧٢ ١٦	فرنسا
٨٩٤٦٣ ٩٦	٥٥٧٥١ ٧٧	٢٧٦٢٦ ٥٣	١٨١٦٧ ٥٦	جملة

الفترة ١٨٧٩/١٨٦٦

عدد طن

١٩١٠٠٧ ٢٨٢

٧٥٨٠٩ ١٥٣

٪ ٣٩ ٪ ٥١

الفترة ١٨٥٩/١٨٥٥

عدد طن

١١٣٢٠٠ ٣٥٨

٤٠٠٥ ١٢

٪ ٣ ٪ ٥

الجملة العامة

نصيب بريطانيا

النسبة المئوية

هـ - الرقيق في دار الاسلام

أما في دار الاسلام وبخاصة في مصر والسودان فقد كان الرقيق في حال أحسن كثيراً مما كانت عليه حالته في الغرب ومرجع ذلك إلى تعاليم الدين الاسلامي التي أوصت بالمعاملة الطيبة كما شجعت على تحرير الرقيق لما في ذلك ثواب ، وقد ذكر أمير علي ان الرقيق كان شائعاً في الجاهلية وقد تسامح الاسلام بالابقاء المؤقت على هذه العادة ، والقرآن في نفس الوقت والواقع قد عمل على إلغائها (٤٣) تدريجياً وأبطل الاحتفاظ برقيق جديد ، الأمر الذي يتمشى مع رسالة الدين التي قامت أساساً على المساواة والحرية .

وقد ذكرنا من قبل ان المجتمع السوداني ، كما في مناطق أخرى من دار الاسلام ، قد احتفظ بالكثير من العادات والتقاليد القديمة ، وهكذا بقي الرقيق وتغلغل في كيان السودان الاقتصادي ، وصار دعامة النشاط في حياته اليومية ، ومع ذلك فقد استغلت بريطانيا الناحية الانسانية ، التي استندت في أساسها على مسألة الرقيق ، حتى تضغط على محمد علي لمنع الاتجار في الرقيق ، ولتحرير الموجود منه في خدمة الأهالي . وارتكبت بريطانيا من الاجراءات العنيفة الصارمة ، في تنفيذ هذا المنع للنخاسة

(٤٣) أمير علي ٢٦٢

وتحرير الموجود منه في خدمة الأهالي في السودان ، الأمر الذي كان له أعمق الأثر في تطورات الأحوال في وادي النيل .

وأخذت مسألة الرقيق في مصر والسودان في التطور السريع ، وبخاصة ان إنجلترا كانت ترقب بعين الاهتمام ما يجري في حوض النيل ، بعد أن تغلغلت الإدارة المصرية في السودان ، وبدأت في بسط نفوذها على المناطق في أقصى الجنوب ، وكانت بريطانيا تخشى قيام قوة من شأنها أن تخلق خطراً يتعارض مع المصاحبة البريطانية في هذه المنطقة ، فقد حذرت الدول الأوروبية محمد علي من غزو الحبشة ، حتى لا تمتد السيطرة المصرية إلى القرن الأفريقي (المنطقة جنوب الهضبة الحبشية إلى نهر الجوبا) وتطل منه على المحيط الهندي (٤٤) ، وتنقل في ركابها آراء جديدة ، يتطور معها الوعي القومي ، في المناطق الواقعة على المحيط الهندي ، الذي يكون منطقة استراتيجية بالنسبة لانجلترا ، وقد ازداد قلق الدول الأوروبية من التقدم الذي وصلت إليه مصر بعد ظهور الجيش المصري وبحريته في حرب المورة لمساعدة الباب العالي على إخماد ثورة اليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ، وبدأ بعد ذلك التاريخ صراع الدول الأوروبية للتوسع في حوض البحر الأبيض المتوسط في شاطئه الأفريقي ، فأنزلت فرنسا جنودها في الجزائر في عام ١٨٣٠ م ، لتعبيد الطريق لبسط سيطرتها على أفريقيما الصغرى (تونس مراكش والمغرب الأقصى) ، وتكون لها في هذه المنطقة قاعدة ، تخرج منها صوب الجنوب نحو قلب أفريقيا الاستوائية .

و — الرقيق وسيلة للضغط السياسي :

وبالغت الدولتان الانجليزية والفرنسية في التودد إلى مصر ، وذلك بالدور الذي لعبته في المشاكل ، التي قامت بين الباب العالي ومحمد علي في أزمة عام ١٨٣٢ (حرب الشام الأولى) ، من ناحية واشتد الضغط على مصر من ناحية أخرى بشأن الرقيق ، وكان من العسير حقاً أن تقوم مصر بمحاولة تحرير الرقيق في السودان دفعة واحدة بأوامر تفرض على الشعب ، دون أن تعطى الفرصة الكافية للجمع ، ليسكيف نفسه

(٤٤) كتاب السياسة الخارجية في عهد المرستون جزء أول ص ٢٧٦ وقد حدث أن أرسل الخديو اسماعيل حملة إلى مصب نهر الجوبا وذلك لفتح الطريق التجاري بين خط الاستواء والمحيط الهندي ولمكافحة الرقيق عبر هذا الطريق . فعارضت بريطانيا في إرسال هذه الحملة باسم السيد برغش سلطان زنجبار . وكانت بريطانيا تخفي تحت ستار اسم السيد برغش اهتمامها بوقف التوسع المصري على الساحل الأفريقي للمحيط الهندي والسيطرة على الموانئ الاستراتيجية .

مع الزمن لهذا الاجراء ، وأن ترك المشكلة لتحل نفسها بنفسها ، بما يدخل على المجتمع من تغيير في سلوكه اليومي ، نتيجة لما دخل البلاد من تطورات اقتصادية واجتماعية في ركاب الادارة المصرية ، وقد ذكر محمد علي إلى ريتشارد مادن « يعظم سرورى إذا ألغيت الرق لغناء تاما ، ولكن من الواجب على الانسان أن يهيء للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم ، لأن مسألة الرق في هذه البلاد من أشق المسائل وأشدّها صعوبة ، على خلاف الحال في بلادكم ، ذلك أن الناس اعتادوا أن يستخدموا الأرقاء لدرجة أنه إذا امتنع وجود الرقيق بالأسواق ، بادروا بالشكوى على نحو ما فعلوا سابقاً عندما منعت جنودى من تسيير الغزوات لصيد الرقيق في سنار (٤٥)

وكان للتيارات الخفية التي تحركها الدول الاستعمارية ، أثرها في عرقلة جهود مصر لوقف تجارة الرقيق ، التي زادت تعقيداً بدخول عناصر أجنبية ، وذلك بدخول الليفانتينيين والأوروبيين إلى السودان ، وممارستهم لصيد الفيلة وجمع العاج ثم صيد الرقيق ، وأنشأوا الزرائب والمحطات التي اتخذوا منها قواعد لحملاتهم المسلحة لصيد الرقيق ، وقد احتفى هؤلاء الأجانب بالامتيازات الأجنبية التي تستمتع بها دولهم في مصر ، فصارت أعلامهم ترفع على مراكزهم ومحطاتهم ، حتى لا تتدخل السلطات الحكومية في أعمالهم والحد من نشاطهم ، وقد واجهت مصر هذه التطورات بأن طالبت قناصل الدول ذات الشأن ، بأن يرفعوا عن رعاياهم حماية التجار المشتغلين ، بصيد الرقيق وتجارته ، وأن يكون للحكومة المصرية الرقابة القوية على تصدير الأسلحة والذخيرة ، وبهذا تستطيع الحكومة القضاء على هذه التجارة في مواطنها في السودان واضطر التجار الأجانب أمام مطالبة مصر للقناصل بالتدخل ، إلى بيع مؤسساتهم للحكومة التي قامت بالاستيلاء على الزرائب وتعويض أصحابها ، وتبع ذلك امتداد الادارة المصرية نحو الجنوب ، وكان أن رحل بعض التجار من المشتغلين بالرقيق إلى مناطق بعيدة عن سلطان الحكومة ، حيث وحدوا نشاطهم بتكوين قوالبانية (أى شركة) وأنشأوا محطاتهم في مملكة انيورو ، كما سيطر الزبير رحمت على بحر الغزال ومملكة كبيرة ، واتخذوا بلدة «باية» ديم الزبير (٤٦) مركزاً لنشاطه ، وتحالف مع الرزيقات ، ثم اشتبك معهم ومع سلطانه الفور في حروب ، انتهت بضم درافور

(٤٥) كتاب الحكم المصرى في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٦٤

(٤٦) نسبة إلى الزبير النفيعاني وهو غير الزبير رحمت .

إلى إدارة السودان المركزية ، وترجع أسباب حرب الزبير مع الفور الى عوامل اقتصادية بحتة ، وذلك أن الفور كانوا يعتمدون على حوض بحر الغزال ، كمجال حيوى لهم لصيد الرقيق وجمع العاج ، ووجدوا أن سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه تابعاً لهم ، سوف تحرمهم من مصادر تجارتهم الرئيسية ، فكان لامناص من الاشتباك بينهم .

وكانت سيطرة الزبير على تلك المناطق ، قد أوجدت « مجالا حيوياً » خارجاً عن سلطان الحكومة ، فى الجانب الجنوبي الغربى للسودان ، ولم تلبث أن فتحت أبوابها لهجرة المغامرين والتجار من الأقاليم التى تسيطر عليها إدارة السودان ، حيث اشتدت موجة التمسك بالاهالى على يد الموظفين من الأجانب وعملاتهم تنفيذاً لمعاهدة الرقيق ، تنفيذاً صارماً دون أن تراعى فى ذلك مصلحة الاهالى ، الذين يعتمدون اعتماداً كلياً ، بحكم العادات الموروثة ، على خدمة الرقيق ، وكانت هذه الجيوب التى تسيطر عليها الزبير مجالا ، وجد فيه المهاجرون متنفساً لكربتهم ، ولو ترك الامر للزبير أن يعمل وفق طريقته الخاصة ، ولم تقم فى وجهه العرافيل ، ولم تغدر حكومة غوردون بانه لاستطاع الزبير منع تجارة الرقيق ، فى فترة قصيرة فى الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية ، والتوسع الاقتصادى الى المستوى الذى ينتقل فيه الرقيق الى مركز يسترد فيه حريته فى العمل كما يشاء ، وبالأجر الذى يرتضيه ، مادام المال متوفراً لمواجهة ذلك التطور .

ز - الرقيق - فى الدعاية المغرضة

وفى هذا العرض مايبين لنا مدى محاولة مصر للأخذ بيد السودان نحو التقدم والسير فى ركب الحضارة وأنها لم تحاول أن تحد من حرية أهله من ممارسة حقوقهم الطبيعية واشراكهم اشراكاً فعلياً فى إدارة شئون بلادهم . ومرجع ذلك إلى أن مصر لم تكن لها « معتقدات أو رغبات » على الصورة التى تمارسها الدول الاستعمارية . ويتبين لنا مما سبق ذكره أن مصر لم تذهب الى السودان لاستعباد أهله وتسخيرهم لمصلحتها كما جاء فى أقوال الفرنجة عن أهداف امتداد الادارة المصرية الى السودان ، وأننا لاننكر أنه كانت هناك بعض الأخطاء التى بولغ كثيراً فى تصويرها للتأثير على رأى العام الأوروبى . ولاننكر أيضاً أن امتداد ادارة مصر الى السودان كان أول تجارتها بعد أن ذهبت لوضع حد لحالة الفوضى والحروب الأهلية التى اشتد أوارها بين

الزعامات القبلية ، ولكي تمنع من تثبيت أقدام فلول المماليك التي دخلت البلاد للسيطرة عليها ، وكان وراءهم التوسع الأوروبي ، الذي حاول جاهداً مساعدتهم على إقامة حكومة في السودان في صورة ما تتحقق معها مطامعهم .

وبما جاء في أقوال الفرنجة أن مصر ذهبت إلى السودان للحصول على الرقيق وأن الواقع يدحض هذا القول . فان الرقيق وهو كما أوضحنا عميق الأثر في اقتصاديات البلاد كان يدفع ضمن الجبايات المطلوبة للإدارة ، إلا أن تلك الإدارة لم تستخدمهم في مزارعها أو أنها حددت لهم مناطق للإقامة والعمل في داخلها ومنعهم من الانتقال من هذا السيد أو ذاك فهي قد جندتهم في الجيش للخدمة في بلدهم وكانت تعاملهم على قدم المساواة وفق القوانين التي كانت تسرى على غيرهم من رجال الجندية . وبعد انتهاء خدمته كان له الخيار في الذهاب أين شاء وأن يعمل في حرية مطلقة بما يتمشى مع رغباته الخاصة . وفي هذا المسلك الطريق الأمثل نحو إنهاء هذه التجارة تدريجياً في نطاق تطور المجتمع . وانجلترا التي اتخذت من الرقيق أداة من أدوات الاستعمار لتعطيل التقدم في السودان لم تحاول في مفاوضاتها مع وكلاء الامام المهدي التعرض لهذه المسألة ، مسألة أبطال الرقيق - على نفس الطريقة التي انتهجتها للضغط على مصر . كما أن تجارة الرقيق والسبي كانت قائمة في فترة الحركة المهدية ، وطلب كتشنر في مذكرته التي أصدرها بعد إقامة الإدارة الجديدة في ١٨٩٨م بأن لا يتدخل الحكام في أمر الرقيق الذي في خدمة أهله ما لم يطلب منهم الرقيق ذلك .

أما القول بأن مصر ذهبت إلى السودان للحصول على الذهب - فلم يكن من المعقول أن تقوم إدارة جديدة دون أن تبحث في موارد البلاد الطبيعية لاستغلالها - ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كانت تدفع من خزائنها الأموال اللازمة لسد العجز في إيرادات السودان ولو قدر للإدارة المصرية أن تسير على الخطى التي رسمتها بعد تجاربها ولم يتدخل الاستعمار لسكان السودان غيره اليوم حيث كانت قد توفرت له امكانياته الاقتصادية واستغلالها منذ قرابة المائة عام .

وقد أرادت مصر باستخدامها الأجانب في مراكز ذات مسئولية في السودان لتظهر حسن نيتها واستعدادها لإلغاء الرقيق - ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كانت في حاجة إلى إدخال الطمانينة في قلوب الأجانب لما كانت واقعة فيه من مشاكل مالية . إلا أن أولئك الأجانب أساءوا إلى مصر بتصرفاتهم ومسلكتهم الشاذ وهذا مانفر الأهالي وجعلهم ينظرون إلى مصر بعين الشك والريبة ، وصار مصيرهم معلقاً في كف

القدر . فبينما كانت مأمورية صمويل بيكر في خط الاستواء لإدخال الوسائل المشروعة للتجارة ونشر الحضارة والاستقرار في المناطق النائية ، فإنه قد اعتبر مهمته عسكرية لحرب الأهلى والتنكيل بهم ؟ وسلك خلفه غوردون في الجنوب مسلكاً قديكون مختلفاً في وسائله عما كان عليه م ملك بيكر إلا أن النتيجة كانت واحدة من حيث تنفير الأهلى من الحكومة في الخرطوم والقاهرة ، التى اعتبروها مسئولة عن كل الكوارث التى حلت بهم بسبب مكافحة الرقيق .

ح - دخول مسألة الرقيق فى المعاهدات

وكانت الحكومة الانجليزية قد أخذت فى التفاهم مع الباب العالى بشأن الرقيق وقد أصدر السلطان العثمانى تنظيماته بمنع الرقيق الأبيض فى أكتوبر عام ١٨٥٤م والرقيق الاسود فى فبراير سنة ١٨٥٧م وكانت هذه التنظيمات تشمل ضمناً مصر بوصفها أيلة عثمانية ، وأخذت بريطانيا فى محاولاتها مع مصر منذ عام ١٨٧٣م لابرار معاهدة بشأن إلغاء تجارة الرقيق فى مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر وبينما كانت المفاوضات دائرة حول هذه المسألة أصدر الباب العالى دستوره ١٨٧٦م الذى منح جميع الرعايا الحقوق والحريات المتساوية وبعد ذلك بعام أى فى سنة ١٨٧٧م تم الاتفاق على الصياغة النهائية للاتفاق ووقعت عليه الدولتان المصرية والانجليزية فى الاسكندرية فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م .

وهناك مسألتان لها أثرهما فى هذا الموقف، أولهما التنظيمات السلطانية التى صدرت فى عام ١٨٥٨ بشأن الرقيق الأسود وهو يشمل جميع الامبراطورية العثمانية ومنها مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر ، ويبدو أن هذا كان سبباً لمسلك بيكر فى إدارته لخط الاستواء فى السنوات ١٨٦٩/١٨٧٣ وغوردون من ١٨٧٤ / ١٨٧٦م بالإضافة إلى الأوامر التى أصدرها ولاية مصر حتى ذلك الحين والتى كانت تهدف إلى تنظيم الالغاء . والثانية أن الأزمة المالية المصرية قد برزت وجاء ستيفن كيف من رجال الخزانة البريطانية لبحث الحالة المصرية وتقديم تقرير عنها لحكومته . وفى هذه الفترة بالذات ، وبالرغم من الأزمة المالية التى صورت فى صورة بعثت على القلق ، كانت مصر قد شقت طريقها نحو النمو الاقتصادى كما تتضح هذه الحقيقة من ملاحظة الأطراد فى زيادة عدد السكان من عام ١٨٦٣ إلى ١٨٧٥م وزيادة النشاط التجارى فى حركتى الوارد والصادر .

الزيادة	سنة ١٨٧٥	سنة ١٨٦٣	
٦٨٥٠٠٠ نفساً	٥٥١٨٠٠٠	٤٨٣٣٠٠٠	عدد السكان
٣٤١٩٠٠٠ جنهياً	٥٤١٠٠٠٠	١٩٩١٠٠٠	الواردات
٩٣٥٦٠٠٠ جنهياً	١٣٨١٠٠٠٠	٤٤٥٤٠٠٠	الصادرات

ولذا رجعنا إلى معاهدة الرقيق ، التي أبرمت في الاسكندرية في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ ، وإلى الذكريتو الخديوى الصادر في نفس التاريخ ، فاننا نجد أن الاتفاق قد قام على أسس ليس من شأنها أن تؤدي إلى نتيجة إيجابية عملية لالغاء الرقيق إلغاء تدريجياً في خلال الفترة المعينة لالغائه ، وهي سبعة سنوات لمصر واثني عشر سنة في السودان ، حتى تتاح الفرصة للمجتمع في البلدين أن يكيف وضعه بما يتمشى والاتفاق الجديد ، في الفترة التي تحدت لكل من مصر والسودان على التوالى .

وقد صيغت هذه المعاهدة على الشكل الآتى : —

الديباجة — تعبر من أقصى أمانى الدولتين - بريطانيا ومصر - للتعاون في إبطال الرقيق بالكلية .

البند الأول — تتعهد الحكومة المصرية بأن تمنع منعاً كلياً من الآن فصاعداً إدخال الأرقاء وتفرض بأشد العقوبات على المخالفين .

البند الثانى — تعتبر المتعاملين بالمنخاسة أو المشتركين في عملياتها بمنزلة السارقين القتاتلين ويحكم هؤلاء أمام المجالس العسكرية أو المجالس المختصة .

البند الثالث — عن معاملة الرقيق المنزوعين من المتجرين به .

البند الرابع — تمنع مصر بقدر ماتحت يدها من سيطرة ونفوذ غزوات النهاضة وتعامل من يمارس هذه التجارة من القبائل معاملة القتاتلين .

البند الخامس — تصدر الحكومة المصرية أمراً يرفق مع المعاهدة يحدد بمقتضاه منع الرقيق كلية في أرض مصر والسودان من ابتداء تاريخ يعين في الامر . وتوضح العقوبة على من يخالف ذلك .

البند السادس — تسمح مصر للسفن البريطانية باجراء التفتيش في مياه البحر الأحمر على المراكب للبحث عن الرقيق ويبين هذا البند طريقة التصرف في هذه الحالات .

البند السابع — تشير إلى أن العمل بمقتضى هذه المعاهدة يبدأ بعد مضي ثلاثة شهور من توقيعها .

وللمعاهدة ذيل عن إنشاء قلم مخصوص فى كل من محافظتى القاهرة والاسكندرية للتصرف فى حالات الرقيق المختلفة .

معاهدات الرقيق لكسب مقوق

ووقعت الحكومتان المصرية والبريطانية معاهدة ثانية فى السابع من سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن سواحل السومال . واهتمت بريطانيا بأن تحصل فى هذه المعاهدة على تعهد مصر ، بأن لا تعطى أى احتكار ، أو التزام أو ترخيص باعطاء أى قطعة أرض فى الحاضر والمستقبل لأية دولة أجنبية ، وأن لا تأخذ مصر عوائد جمركية تزيد عن الخمسة فى المائة ، وأن تتمتع بريطانيا وتجارها ، بالمعاملة كدولة ممتازة فى جميع البلاد ، التى تمتد إليها سلطة مصر . وأن يكون الحق لانكترا فى تعيين مأمورى قنصليات ، فى جميع الموانئ والجهات ، وأن يتمتع هؤلاء بجميع الامتيازات والمعافاة وسائر المزايا المعطاة ، التى تعطى إلى سائر مأمورى القنصليات التابعين لأى دولة ممتازة ، واشترطت انكترا ان لا يعين فى وظيفة مأمورى القنصليات من أهالى تلك البلاد ، أو البلاد المجاورة لها ، والتزمت مصر فى البند الرابع بمنع تصدير الرقيق ومنع تجارته وقبلت مصر أن يكون للسفن الانكليزية حق مراقبة تجارة الرقيق ، ومنعها وأن تضبط وترسل إلى المجالس المختصة ، السفن التى تتعاطى أو يشتبه فى أنها تتعاطى الرقيق وتحقيقاً لصلاحية هذه المعاهدة من الوجهة القانونية ، وتنفيذها قضت على وجوب أن يعطى السلطان العثمانى ، الذى تتبع له مصر تعهداً رسمياً بأن لا يعطى فى أية صورة إلى أية حكومة أجنبية ، قطعة من سواحل السومال ومن سائر البلاد التى دخلت أو تدخل فى حوزة مصر .

فوضى تنفيذ معاهدة الرقيق

وقد قام غوردون خلال حكمه داريته من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩ م بارتكاب أقسى أنواع التنكيل والتعذيب بالاهالى - قتل وتشريد ومصادرة الممتلكات - بدعوى اقتلاع جذور النخاسة وذلك لتبرير مسلكه التعسفى ، ولذا رجعنا إلى ما ذكره غوردون بقوله « ان بيضة الثورة الحالية (يقصد الحركة المهدية) قد وضعت خلال الأعوام الثلاث التى أتيج لى فيها ان أحكم السودان على مبادئ غير المبادئ التركية (٤٧) (يقصد بالتركية الادارة المصرية ونسبتها إلى الاتراك لم يكن إلا مغالطة وافتراء على واقع الأمر وحقيقته) وبهذا القول قد كشف غوردون عن حقيقة أهدافه التى حققها عن طريق ذلك المسلك الارهابى (٤٨) ، الذى أحدث أثره العميق فى المجتمع المحلى (٤٩) ودفع به الى الثورة فى وجه إدارة البلاد . وفى الحقيقة وواقع الامر ان الفترة من الزمن من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٩ م التى تولى فيها بيكر مديريةية خط الاستواء من ١٨٦٩ / ١٨٧٤ وخلفه غوردون من ١٨٧٤ / ١٨٧٧ م وولاية الاخير لحكمه داريه السودان لم تكن إلا فترة متتابعة نفذت فيها سياسة موحدة الاهداف وإن كانت الأساليب قد اختلفت بعض الشيء . وقد ذكر صمويل بيكر « ان اهتمامى الأول كان لخدمة مصر ، وفى نفس الوقت كان على أن أساعد على نشر نفوذ انجلترا وقد تحمس غوردون لنفس الغرض وضحى بحياته أملاً فى وصول انجلترا إلى الخرطوم (٥٠) . وقد يبدو ان هذا المسلك من بيكر وغوردون كان غريباً بالنسبة لمصر لأنه يتنافى مع أبسط قواعد الواجب الذى يحتم ولاءهما لمصر التى أسندت إليهما مركزيهما للعمل على تقدم البلاد ورفاهية الاهالى . إلا اننا إذا رجعنا إلى روح العصر الذى عاشا فيه وماتركه من انطباعات فى عقليهما نجد تفسيراً لمسلكهما . ويذكر أن زميلهما استأنلى الذى التحق بخدمة الملك ليوبولد فى الكونغو الحرة كان يعتقد ان تلك المنطقة سوف تنتقل إلى الاملاك البريطانية .

ومعاهدة الرقيق التى ذكرناها آنفاً ، التى كانت مصدر القلق والتذمر فى البلاد ، لم تكن واضحة المعالم مما جعل تفسيرها متناقضاً التناقض كله فبينما غوردون

(٤٧) صبرى ص ٨٩ هامش ١

(٤٨) التن ص ٣٥٤ إلى ص ١٤٠

(٤٩) استراشى ص ٢٤٣ .

(٥٠) دو جلاس مرى وسلفا هويت ص ٣٥٣ - نقلا عن مكى عباس ص ٤٢

قد أخذ في تنفيذها بشدة وصرامة في فترة ولايته حكمدارية السودان ١٨٧٧-١٨٧٩ م واستعان بالاوروبيين الذين عينهم في المراكز الرئيسية بدلا من المصريين والسودانيين - وقد عين أربعة عشر موظفاً أوروبياً في شهر يولييه سنة ١٨٧٨ م وأدخل لجهاز الحكم عناصر قد انتقلت به من أداة صالحة ، للأخذ بيد البلاد نحو التقدم إلى أداة استعمارية كما أنه قد غيّر رأيه في مسألة الرقيق في حكمداريته ١٨٨٤/١٨٨٥ م كما سنوضحه في موضعه فيما بعد .

وهكذا نجد ان التنكيل بالأهالي في السودان على يد الموظفين الاجانب وعملاتهم تنفيذاً للمعاهدة لم يكن مبعثه الشعور الانساني نحو الرقيق .

وكان مستحيلاً على الاهلين الذين أرقهم هؤلاء العملاء والوكلاء ، من الاوروبيين والليفانتين في إدارة غوردون ، أثناء حكمداريته (١٨٧٧ - ١٨٧٩ م) ، أن يدركوا أو يصدقوا . ان هذا العنف والقسوة بأنهم يريدون حقاً إلغاء الرقيق وأبطال النخاسة . الامر الذي تعطلت معه الحياة اليومية وساد الذعر والارهاب ، وجاء فيما كتبه غوردون في يولييه ١٨٧٨ م « قبضنا على اثني عشر قافلة رقيق في مدة شهرين » وقال أيضاً « اني أوجه ضربة قاصمة لتجارة الرقيق وقد أقمت ما يشبه الحكومة الارهابية في معاملة هذه التجارة » (٥١) ، كما كان يصدر أحكامه بالاعدام رمياً بالرصاص على من يشتبه فيهم هو وأعوانه بممارسة هذه النخاسة ، ، ويذكر صاحب « غرائب الزمان في فتح السودان » قصة تدل على سوء الظن ، وهذا أضعف التعبيرات ، التي يمكن أن يوصف بها ما كان يدور في ذهن أهل السودان تجاه نشاط الحكومة العنيف ، الذي أوجد بلبلة زاد معها سوء الظن بنوايا الحكومة وأغراضها وقد وصف مؤلف كتاب « غرائب الزمان في فتح السودان » (٥٢) ، الذي أشرنا إليه ، زيارته لإحدى الشون ، التي أعدت في الخرطوم لجمع الرقيق الصادر من النخاسين ، قبل أن تبت الحكومة في مصيرهم ، فقال « فدخلنا وإذا بها (الشون) من صنف الخدم (الرق) ، شيء لا يعد فلما نظرت ذلك اندهشت لكثرتهم » ، قلت للتاجر ما هذا ؟ قال ألم تنظر قلت نعم أنظر (رقا) ، ولكن هذا شيء كثير ، وصدرت الاوامر بأبطال الاتجار فيه ، قال نعم لكن هؤلاء قد صار ضبطهم من التجار ،

(٥١) الن - في كتابه غوردون والسودان ص ١٤٠ .

(٥٢) محمود طلعت في كتابه غرائب الزمان في فتح السودان ص ١٢٧ وما بعدها طبع مطبعة الاسلام بمصر عام ١٣٠٤ هـ (١٨٩٦ م) ومحمود طلعت هذا كان موظفاً في غرب السودان من ١٨٧٥ - ١٨٨٠ م .

وسجنوا في المحل خلاف إثني عشر ألفاً (مرداً) (لفظة أمرد تطلق على من سنه ١٧ إلى ١٦) وأرسلهم الحكمدار (يشير إلى غوردون) ، إلى الهند عن طريق مصوع ، ولا أدري إذا كان يتجر فيهم أو أرسلهم هدية لدولته ، فتتخذهم عساكر بمستعمراتها الواسعة . ولكن الخبر الثاني هو الغريب عن العقل ، وكان ذلك قبل مغادرة غوردون للسودان في عام ١٨٧٩ م بعد أن حكم من ١٨٧٤ / ١٨٧٦ م في خط الاستواء ، ومن ١٨٧٧ / ١٨٧٩ م حكمداراً للسودان يعاونه أوروبيون من مختلف الجنسيات ، في مراكز هامة ، عملت على آثاره الحفاظ وكراهية الحكم المصري .

* * *

غادر غوردون السودان في عام ١٨٧٩ م ، بعد أن حكم البلاد ، كما سبق أن أوضحنا على أسس تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه ، فتعطلت التجارة والزراعة ، وشاع الفساد ، الذي امتد إلى القيم الاخلاقية ، وانحط بها بما يتنافى مع عادات البلاد وتقاليدها ، وسلم أداة الحكم إلى مساعديه من الاوروبيين والمتخلفين الذين أسرف في تعيينهم ، وكثر عدد المتعطلين من الايادي العاملة على الارض والرعى ، بدعوى المدنية والانسانية لتحرير الرقيق ، وقد هيا إرساء قواعد الحكم على هذه الصورة ، التربة الصالحة للتدمير والفتنة ، ودفعها دفعاً قوياً إلى الاستجابة إلى الدعوة التي نادى بها الامام المهدي ، للخروج بالبلاد مما وصلت اليه تحت حكم الاوروبيين ، ومن عاونهم من المختلفين .

مقايير الادارة في يد الاوروبيين

وكانت سلطات الحكم ، وقد تسلم زمامها الاوروبيون والانهازيون ، تنحبط في فوضى وجعل ، وفق حاجاتها اليومية ، وقد ساعدت هذه الحالة ، الارتباك والقلق وتوقف النشاط ، على سرعة انتشار الفتنة ، باجتذاب الانصار من الجماعات المتدمرة ، وكان الغدر بسليمان الزبير ورجاله على يد جسي ، بأمر من غوردون ، خاتمة المطاف ، فتكون بذلك شعور عام ، اكتمسح الجميع وأشد ساعد حركة العصيان ، الذي كان موجهاً أولاً وقبل كل شيء ، إلى الخلاص من الادارة ، التي اضطبغت بالطابع الاوروبي ، الذي انحرف بها عن تقاليدها ، التي عرفتها أهل البلاد ، قبل سنوات العشرة الثامنة عن القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما كانت الادارة وطنية خالصة (مصرية سودانية) وقبل أن يتسرب إلى السودان الاجانب وتقليدهم مراكز رئيسية في إداراته ، وكان لسيطرة النفوذ الاجنبي في مصر أثره ، في تقوية سلطان

هؤلاء الحكام في السودان ، وفي اتخاذهم ما يرونه من إجراءات في حرية مطلقة ، تعطل معها سلطان الحكمداريون الذين خلفوا غوردون ، وذهب ضحيتها الألوف من الأهالي ومن جنود الحكومة ، الذين وضعتهم الظروف السياسية في مصر ، في حالة نفسية متدهورة ، وأسلمت قيادتهم لمن يجهلون التنظيمات العسكرية ، وفنون القتال ، والتدريب على خوض المعارك ، وكان عتاد هؤلاء ومعداتهم وذخيرتهم ، غنيمة باردة ، ساعدت على تطور الحركة وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة ، ونذكر على سبيل المثال من طراز أولئك القادة ، الذين تولوا إدارة معارك دون سابق خبرة ، محمد بك أبو السعود تاجر الرقيق ، الذين عينه غوردون في منصب وكالة المديرية في « غندكرو » في سنة ١٨٧٤ م ، ثم طرده من الخدمة وإعادة ثانية في سنة ١٨٧٧ م مديراً للحسابات في الخزانة العامة في الخرطوم ، وكان أبو السعود في المركز الثاني بعد الحكمدار . وكان فشله ذريعاً وهزيمة منكرة ، عندما أرسله رؤوف باشا إلى الجزيرة « أبا » .

وعندما وصل رؤوف باشا لتولى منصب الحكمدار ، بعد مضي ستة شهور من سفر غوردون سلك مسلك غوردون في تنفيذ منع الرقيق . ولم تكن لهذا الحكمدار القدرة واتساع الأفق ، لمعالجة المشاكل كما كانت تتطلبها الحالة القائمة ، بل عمد إلى تنقيذ أوامر القاهرة التي كانت تهتم ، لظروفها الخاصة ، بتنفيذ هذه المعاهدة في أية صورة من الصور ، املا في اكتساب رضا الأجانب والانجليز ؛ لينخف عنها الضغط ، ولم تعلم انها بعملها هذا إنما قد زادت النار وقوداً وكان في عهد رؤوف باشا هذا ان أخذت الدعوة المهدية مظهرها السافر ، في صورة دعوة إلى الهجرة إلى المكان الذي اتخذته الامام المهدي مستقراً له لنشر دعوته ، وأرسل رؤوف باشا أبو السعود بك إلى الجزيرة « أبا » ومعهم يوسف باشا الشلالى للقبض على صاحب الدعوة وأتباعه ، ولم تكن قيادتهما موحدة بل ترك لكل منهما أن يتصرف كما يشاء دون اعتبار لموقف زميله ، ويبدو أن رؤوف باشا لم يكن يقدر الموقف حق قدره ، فكان نصيب هذه الحملة الفشل ، بسبب جهل أبو السعود والشلالى بالفنون العسكرية ، ولم تكن هنالك خطة مرسومة للحملة ، بل ترك أمرها للظروف ، ولجهود الأفراد من ضباطها ، وذكر ابراهيم باشا فوزى في كتابه أن رؤوف باشا أرسل في أول الأمر الطيب بك مدير فاشوده إلى الجزيرة « أبا » إلا انه على حد قول ابراهيم باشا قد قبل رشوة من

أنصار الامام المهدي ، ولم يفعل شيئاً (٥٣) . وليس هناك من دليل على صحة هـ — هذه الرواية . ويحتمل أن يكون ابراهيم باشا قد نقلها عن الشائعات والمعروف ان ابراهيم باشا قد عاد إلى مصر في ذلك الوقت تقريباً ، وبقي فيها حتى سفره مع غوردون في سنة ١٨٨٤ م وبقي أسيراً حتى نهاية حكم الخليفة عبد الله النعاشي في سبتمبر سنة ١٨٩٨ م .

استدعى رؤوف إلى مصر ، وترك السودان في فبراير من عام ١٨٨٢ م بعد أن سلم مقاليد الحكمدارية إلى « جيجلر باشا » (١٨٧٧ / ١٨٧٩ م) بعد ان كان مفتشاً التلغرافات ، ولم يكن من اليسير على جيجلر أن يدرك أو يقدر مدى خطورة الحركة المهدية « وهو من بيئة تختلف اختلافاً كلياً عن البيئة المحلية السودانية ، وذلك في الدين واللغة والتقاليد ، وبالإضافة إلى ذلك فانه قد عمل زمناً في تنفيذ معاهدة الرقيق على الصورة القاسية التي رسمها غوردون . وبما يجدر ذكره ان جيجلر قد بقي نائباً للحكمداو طوال حكم عبد القادر باشا ، الذي كان متغيباً عن الخرطوم ، لإعادة الامن في أرض الجزيرة . ونجد فيما ذكره أحمد حمدي بك ، رسول الخديو الخاص ، ان جيجلر قد عمل جاهداً على أضعاف مراكز الحاميات المصرية على النيل الأبيض مما عرضها للأخطار (٥٤) .

جاء عبد القادر باشا إلى السودان في مايو سنة ١٨٨٢ ، وقد تعين حكمداراً بالإضافة إلى منصبه كوزير لوزارة السودان (نظارة السودان) وكانت له شخصية القوية وخبرته في معالجة الشؤون الادارية والعسكرية وقد استطاع القضاء على عناصر الفتنة والاضطراب في منطقة جزيرة النيل الأزرق والمنطقة الواقعة شرقي النيل الأبيض ، إلا أن الصفات ، التي استطاعت بما لديها من إمكانيات ضئيلة ، أن تقبض على ناصية الأمن ، لم تجد في مصر من يقدرها ، فيستمع إلى نصيح صاحبها ، بسبب ما كانت تعانيه مصر من أحداث داخلية وخارجية عند قيام الحركة العرابية الوطنية ، وقد وجدت فيها بريطانيا الفرصة المواتية لاحتلال مصر ، متذرة بأكثر من سبب

(٥٣) ابراهيم باشا فوزي في تاريخه السوادان بين يدي غوردون وكتشني جزء أول ص ٧٧ القاهرة صفر ١٣١٩ وقد ذكر الشيخ محمود القبانى في كتابه السودان المصري والانكليزي ص ١٥٤ « ان مدير فشوده قد قبض على الامام المهدي وحاول أنصاره رءونة مائة أردب من القمح فأطلق سراحه .

(٥٤) يوميات رسول الخديو تاريخ ٢٣ و ٢٤ مارس سنة ١٨٨٣ م .

تغطية لسياساتها وخططها بالنسبة لوادى النيل ، وكان لنزول الجيوش الانكليزية في مصر ، وهو المرحلة الاولى التي مهدت لخطوات أوسع ، انطباعاتها في السودان بصفة عامة ، وعلى مركز عبد القادر باشا حلى بصفة خاصة وكان وجوده في السودان ، يدير عملياته لاعادة النظام والاستقرار ، أمراً تضييع معه الفرصة المرتجاة ، وكان عبد القادر باشا يعالج الموقف بما يتمشى مع طبيعة الدعوة المهدية ، وقد مكنته صفاته وكفائته من السيطرة على الموقف ، وهذا لا يتفق بل يعطل الاهداف الاستعمارية في حوض وادى النيل ، وكان من مصلحة تلك السياسة أن تستشرى نيران الفتنة في جنوب الوادى (السودان) لتخلق الوضع الذي يهيء الفرصة لكسب جديد .

عمدت هذه السياسة بوسائلها المختلفة إلى نشر الشائعات المغرضة التي من شأنها أضعاف مركز مصر في السودان ، كما انها عملت على اثارة مخاوف الخديو توفيق من نشاط عبد القادر باشا حكمدار السودان متهمه اياه القيام بتدبير يرمى إلى فصل السودان عن مصر ، وتبعيته المباشرة للباب العالي ، فاستدعا الخديو في صورة توضيح لها مدى خوف توفيق ، الذي كانت ولايته على مصر عرضة للخلع لولا مناصرة الانكاز له ، تحقيقاً لأهدافهم من بقائه في مركز من الضعف ، فبينما كان عبد القادر باشا يعمل وجنوده في جنوب جزيرة النيل الأزرق ، للحد من نشاط بعض ذوى المطامع الشخصية من الوطنيين ، الذين انتهزوا فرصة الدعوى المهدية لتحقيق بعض مطامعهم فالتفت حولهم بعض الجماعات وقاموا بحركة عصيان ، فاذا حسين باشا واصف يصل إلى معسكر عبد القادر باشا ليتسلم منه قيادة قواته ، فتعطلت بذلك خطته لتأديب الخارجين ، وفي نفس الوقت يصل إلى الخرطوم علاء الدين باشا صديق ، والجنرال هكس باشا ، ومعهما رسول الخديو الخاص ، الذي أحيطت مهمته حينذاك بالكتمان الشديد . وقد كشفت الرقائق عن هذه المهمة وحدودها ، فقد كلف الخديو هذا الرسول ضمن ما كلفه به ، إعلان حكمدارية علاء الدين باشا بدلا من عبد القادر باشا حلى ، كذا تعيين الفريق هكس باشا رئيساً لهيئة أركان الحرب للقوات المصرية في السودان ، وإسناد قومنداية القوات إلى سليمان باشا نيازى ، وإبلاغ عبد القادر باشا قرار إلغاء نظارة السودان التي كان يرأسها ، وبانفصاله عن الحكمدارية ، وغادر عبد القادر باشا الخرطوم في ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٣ م في طريقه إلى القاهرة .

وفي اليوم الذي أعلنت فيه حكمدارية علاء الدين وقومندانية القوات إلى

سليمان باشا نيازي صرح هكس باشا لرسول الخديو ان هذه الاجراءات قد تمت بناء على طلبه (٥٥).

وقد حاول رسول الخديو عبثاً إقناع الخديو بأن ما أشيع عن عبد القادر باشا لا نصيب له من الصحة ، بل بالعكس طالب بالابقاء عليه لاتمام ما قد بدأه من أعمال (٥٦). لأن الخديو كان واقعاً تحت نفوذ المستعمر لحوقه من الشعب.

وهكذا أقصى عبد القادر باشا عن الميدان، وانتقلت قيادة القوات إلى سليمان باشا نيازي، بعد أن كانت هذه المسؤوليات من صميم اختصاص الحكمدار ، منذ امتداد الادارة المصرية إلى السودان حتى نهاية حكمدارية عبد القادر باشا، وعلى هذا تجزأت المسؤوليات ، وصار في السودان حاكم إداري وآخر عسكري ، فازدادت الثغرات التي أطلت منها رأس المنازعات والمشاحنات حول الاختصاص . وتمكن هكس من التدخل في كل صغيرة وكبيرة في تحركات القوات (٥٧). وبدأت بسيطرة هكس مرحلة خطيرة في تاريخ الادارة المصرية للسودان ، لأن هكس ومن معه من الضباط البريطانيين الذين جاؤا معه لمعاونته ، قد كونوا شبكة خاصة ، وعمل هكس وزملاؤه بشتى الوسائل على إبعاد المصريين عن العمل في دأرتهم ، حتى لا تنكشف خططهم - واستعان هكس ب مترجم من هيئة المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط (٥٨).

الفساط البريطاني - صمد هكس

ويهمنا في هذا الموقف أن نتعرض للنشاط الذي قام به الانكليز وعملاؤهم بعد أن هيا له غوردون التربة الصالحة خلال حكمداريته ١٨٧٧/١٨٧٩ م ، فقد حدث

(٥٥) يوميات الأميرالاي احمد حمدي رسول الخديو الخاص بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٨٨٣ .

(٥٦) المصدر آنف الذكر بتاريخ ٥ ابريل سنة ١٨٨٣ دكتور صبرى - ص ٩٥

(٥٧) تلغراف ماليت في ٢٨ مايو سنة ١٨٨٥ م الى هكس - شبكه ص (٨٦) .

(٥٨) المترجم المشار اليه هو ادوارد بلديون إيفانس * ولد في عام ١٨٤٣ ومات في سنة ١٨٨٣ م وموطنه شمال مقاطعة ريلز (بانجلترا) وذكر عنه ريتشارد هل في قاموس التراجم ص ١٢١ انه قد اشتغل بالنجارة في مصر وجده لبضعة سنوات قبيل التحاقه بالمخابرات البريطانية خلال الحملة الانجليزية على مصر في عام ١٨٨١ م وانه قد خدم مع هكس كرئيس لخبايراته ومترجمه لاجادته اللغة العربية وقد ألحق هذا المترجم في الجيش المصري برتبة البوزباشى . وكان الضابط الوحيد بين ضباط هكس من الانجليز الذي يستطيع التفاهم باللغة العربية في لهجتها المحلية .

بعد احتلال إنجلترا لمصر في سبتمبر سنة ١٨٨٢م أن أرسل الكولونيل استيوارت في ديسمبر من ذلك العام إلى السودان ، لدراسة شئون البلد في مختلف نواحيها ، وقد دون نتائج مهمته في تقريره المعروف (٥٩) ، والذي ضمنه توصياته ، بما يرى اتخاذه نحو إدارة السودان ، وبما يحذر ذكره أن هذا الضابط كان ضمن قوات الحملة البريطانية التي نزلت مصر ، وقد قام استيوارت باتصالات واسعة في الخرطوم وفي غيرها من المدن ، تحت ستار جميع المعلومات لتقريره ، لاستفزاز الأهالي وتحريضهم على الانشقاق والعصيان في وجه مصر الحكومة الشرعية في البلاد . وبالرغم من أن الخديو توفيق كان يتوقع من استيوارت وهكس وزملائهم من البريطانيين القيام بنشاط لا يتمشى مع مصلحة مصر والسودان ، فإنه لم يكن قادراً على اتخاذ إجراءات مضادة للحد من ذلك النشاط ، نظراً لمركزه الدقيق فيما يختص بعرشه وولايته ، وبالإضافة إلى هذا فإن السيطرة البريطانية كانت قابضة على مرافق البلاد ، وتوجهها على النحو الذي تراه وقد اكتفى توفيق بأن طلب من الحكماء الجدد - ولا حول له ولا قوة بعد انتزاع اختصاصاته العسكرية - أن يراقب حركات استيوارت وهكس ومن يتعاون معهم ، وأن يحيط الخديو علماً بتلك الحركات أولاً بأول (٦٠) . وقد عاون هؤلاء رجال رسميون أمثال جيجلر وغيره من الأوروبيين ومن تعاون معهم من أصحاب المنفعة من الموظفين ، ومن غير الرسميين يبرز اسم الرحالة شوبر (٦١) ، الذي جاء إلى السودان في عام ١٨٨١م ، بعد أن أمضى فترة من الزمن في إنجلترا ، وبقي في السودان حتى عام ١٨٨٢م ، وقد طاف في منطقة النيل الأزرق ودار فنج وبحر الغزال ، ومنطقة أم درمان والنيل الأبيض ، وهي المناطق الأقرب إلى البدائية الصالحة لغرس بذور الأفكار الجديدة ، التي من شأنها إثارة الفتن والتمرد على الحكومة القائمة ، ورسم شوير خرائط عديدة للأقاليم التي زارها . وذكر الشيخ

(٥٩) تقرير الكولونيل استيوارت - وثيقة برلمانية بريطانية مصر رقم ١١ سنة ١٨٨٣ م .

(٦٠) يوميات رسول الخديو .

(٦١) كتاب قاموس التزاجم للسودان الانجليزي لمصرى . مؤلفه ريتشارد هل (بالانجليزية) ص ٢٣٤ ويذكر هل أن هذا الرحالة هولندي الجنسية ، أيضاً كتاب السودان المصري والانكليز لكتاب مجهول وهو مجموعة مقالات نشرت في جريدة الاهرام وطبع منها الجزء الأول في هذا الكتاب - وكان المقالات هو المرحوم الشيخ محمود القباني (المتوفى في أم درمان في أول عام ١٩٥١ م) ص ١٨٤ .

محمود القباني في مقال له «... أعجبنا يوماً وإذا الشوارع مملوءة بأوراق كأوراق
(الدعوة الى) الاعراس مكتوب عليها باللغات العربية والانكليزية والفرنسية ما أتى
«يا أهل السودان عموماً وأهل الخرطوم خصوصاً - قد استولت حكومتنا
البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا الحرية» .

الامضاء

«رجال بريطانيا العظمى»

فارتاعت الحكومة لهذا الحادث وبثت العيون والجواسيس فأمسك خادم بربرى
وهو جرم منزله فوجد فيه نحو خمسة صناديق مشحونة من هذه الأوراق وعليها كلها
ختم بواسطة لندرا ومصر والخرطوم وظهر بعد ذلك أنها وردت بطريق البريد وعليها
عنوان سائح انكليزى اسمه مستر شوبر كان نازلاً في بستان خارج المدينة لأحد
الوطنيين وكان منزل الخادم المشار إليه بجوار منزلنا .

ولدى استنطاقه أجاب بأن ٥٠ صندوقاً كملك الصناديق وردت في البريد باسم
سيده فأرسل منها أربعين صندوقاً إلى جميع جهات السودان وسمى هذه الجهات
والأشخاص الذين أرسلت معهم وإليهم . فاستدعت الحكومة السائح لاستجوابه
فما نعه قنصل الانكليز فسكتت واستكانت (٦٢) .

ويضيف الشيخ محمود أن جماعة من السياح والبريطانيين كانوا يتصلون بالاهالى
وبخاصة في الخرطوم ويتحدثون اليهم عن عطف بريطانيا على السودانيين وأن جلالة
الملسكة (فكتوريا) حزينة لما أصاب البلاد من البلاء ولذا سعت جلالتها في فصل
بلادكم عن حكومة الجناب الخديوى (٦٣) وهذا القول هو ما ذكره غوردون
عند وصوله الخرطوم في ١٨٨٤ م . وأقام هؤلاء الدعاة شبكة واسعة في أطراف البلاد
يعضدهم كثير من المأجورين وأخذوا يطوفون في أنحاء البلاد، ويوزعون منشورات
جاء في واحد منها «ان حكومة جلالة السلطان عبد الحميد لم تعد قادرة على القيام
بنفقات حربها مع الروسية، وقد باعت قسماً من أملاكها التابعة لمصر وهو السودان
المصرى لحكومة جلالة الملسكة فكتوريا، وتقاضت عن ذلك ٢٥٠ مليوناً من
الجنهات وشروط البيع أن السودانيين ليسوا من أحرار المسلمين، بل هم زنوج أرقاء

(٦٢) بنصه من المصدر نفسه ص ١٨٢/١٨٤ (السودان المصرى والانجليز)

(٦٣) المصدر السابق ص ٢٨١ .

تأخذهم الحكومة الانكليزية وتبيعهم في أوروبا والهند وغيرهما من بلاد البيض ، حتى إذا أمسكتهم حكومة انكلترا جميعاً وأنفذت فيهم ما تشاء وخلت بقاعهم من بني جلدتهم أرجعت الأرض إلى حكومة جلالة السلطان ، أما حكومة جلالة المملكة فتعرض على أن السودانيين ليسوا بأحرار ولا مسلمين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلها - لشاهدوا بأعينهم هل القوم حقيقة كما تقول حكومة الاستانة ، التي يعدونها قدوتهم دينياً وسياسياً أم الحقيقة أن ذلك ناشئ عن حيف الأتراك وبغضهم للجنس العربي الذي منه السودانيون والأمل وطيد أن لا يكون هذا القول صحيحاً ، وهو رأى حكومة انكلترا . والواضح في هذا المنشور وما فيه من مغالطات يصور لنا أساليب الدعاية التي تعمل على بذر بذور الفرقة والفتنة واثارة الخواطر وإظهار الدولة العثمانية « سلطانها خليفة المسلمين » في صورة تحط من مركزها بين أهل السودان .

أخذ هكس في إعداد حملته استعداداً للزحف على كردفان ، واستطاع الخلاص من سليمان باشا نيازي ، الذي كان يعارضه في خطته ، وصار علاء الدين باشا القائد العام اسماً ، وانتهى الحل والعتد إلى يد هكس ، وبدأ في إرسال قواته إلى الدويم بعد اليوم الثاني من سبتمبر سنة ١٨٨٣م الذي انتهى فيه الاستعراض الكبير في أم درمان وسار الجيش من الدويم في جو من النفكك وعدم الانسجام (٦٤) . وتضارب الآراء وانقسام القواد ، فكانت النكبة في شيكان في الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، وقصة هذه الحملة مازالت في حاجة إلى التحقيق ، من حيث أسباب الهزيمة المنكرة ، التي ذهبت ضحيتها الحملة بأكملها ، ومن ضمن رجالها عدد كبير من الضباط المصريين والأجانب ومن بينهم علاء الدين وحسين مظهر . وقد أمدت هذه الكارثة الحركة المهديّة بعتاد كبير وسلاح وفير ، الأمر الذي دخلت معه الحركة المهديّة في مرحلة جديدة ، وبما يجدر ذكره أنه بينما كانت قوات المهديّة تتجمع حول منطقة الأبيض كانت هنالك قوتان على الأقل ، على درجة ما من القوة ، إحداها في دارفور التي على رأسها سلاتين والثانية في بحر الغزال يتولى إدارتها لبتون بك ، وكان في ظهير لبتون بك أمين باشا (جورج شنتزر الألماني) مدير خط الاستواء ، وقد يكون لهذه القوات شأنها ، في تحسين الموقف وتخفيف حدته ، لو أن تنسبتم قد تم في صورة من الصور تتضافر فيه تلك القوات يزحفها من الغرب والجنوب نحو الأبيض لتعاونه على تخفيف الضغط الذي تلقته الحملة التي قامت من الدويم . وقد كانت وسائل الاتصال مع دارفور

(٦٤) مذكرات عباس بك . نشرها القائم مقام عبد الرحمن زكي في مجلة الجمعية التاريخية بمصر .

ممكنة عن طريق الصحراء من دنقله ، كما كان فى الامكان الاتصال ببحر الغزال عن النيل . وكانت الحالة فى هاتين المديريتين - حسبما ورد فى تقارير - رسول الخديو ، على مايرام ، ولا يعلم السر فى بقاء مديريهما فى موقف المتفرج . وجدير بالعناية أن تحقق هذه القضية لأنها لاتعنى إلا أحد أمرين ، أما تفكك القيادة العامة وعدم التماسق فى الخطط - وهذا أمر مسلم به ، أو تم ذلك عن عمد لحاجة فى نفس يعقوب - وقد ذكر رسول الخديو أن أسرار الحملة وتحركاتها كانت تتسرب إلى رجل الشارع ، واتهم الرسول ماركو بولو بك بذلك (٦٥) ، وذكر الرسول أيضاً أن وكيل قنصلاتو انجلترا فى الخرطوم - جورجى اسطنبولية كان فى الأبيض يعمل فى معسكر الامام المهدي .

وقد سلم سلاتين مديريته للمهدية فى ديسمبر سنة ١٨٨٣ م أى بعد شهر تقريباً من هزيمة شيكان ، وسلم لبتون بحر الغزال فى ٢٨ إبريل سنة ١٨٨٤ م وبقي أمين فى خط الاستواء يصارع الفتن والقلقل حتى خر صريعاً فى شباك الاستعمار .

وقد زادت هذه الأحداث أهل السودان إيماناً بانهم قد صاروا أمام حرب شنها عليهم الفرنجة ، الذين احتلوا مصر .

وبعد هذه النهاية المحزنة لحملة هكس ، وما ترتب عليها من اخطار ، تنبه الضمير البريطانى ، كما هى عادته بعد أن يطمئن إلى مغنم كسبه ، فى محاولة تبرئة ذمته من مسؤوليات هذه المغامرة ، وأرادوا القاء تبعثها على عاتق مصر وحدها ، وهى التى كانت مقيدة بتنفيذ توصيات السياسة البريطانية ، ولم تكن مصر فى مركز يسمح لها باختيار ماهو فى مصلحتها هى ، والحكومة البريطانية التى تقول بانها لم تكن مسئولة عن تعيين هكس فى خدمة مصر ، هى أيضاً التى طلبت منه أن يحيطها علماً أولاً بأول عن تطورات الموقف فى السودان ، وتكرر هذا الطلب من ماليت عن طريق الكولونيل استيوارت ، الذى كان يعمل كضابط اتصال مع هكس ، وهكذا حافظت انجلترا على القول بعدم مسئوليتها وبأنها لا تهتم بشئون السودان ، الذى يخص أمره مصر وحدها فقط ، جرياً على سياستها التقليدية فى اخفاء أهدافها .

(٦٥) يوميات احمد حمدى بك بتاريخ ٢٩ إبريل سنة ١٨٨٣ م .

النمير سياسة الأحمر

أوضحنا فيما سبق ما تميزت به الفترة التي جاءت بعد الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢ م ، من أحداث متتابعة ، عجلت بمصير السودان ، فبينما كان هكس في طريقه من الدويم إلى الأبيض كان القنصل البريطاني العام الجديد في مصر — السير افلين بارنج قد بدأ محادثاته مع شريف باشا عن مسألة السودان ، واشتملت خطته ترك دارفور وإقامة حكومة محلية ، ثانياً تعيين لجنة مكونة من ثلاثة أشخاص أحدهم أوروبي لإدخال تعديلات على الإدارة ، ثالثاً بناء خط حديدي — وفي نفس الوقت بدأت مناورة المفاوضات بشأن تخفيض عدد القوات البريطانية في مصر ، ولم تكن كل هذه المناورات أكثر من أسباب لكسب الوقت وتحويل التفكير إلى طريق آخر ، والدليل على ذلك أن كل هذه المناورات صارت أثراً بعد عين بعد السابع عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٣ م الوقت الذي بدأ فيه بارنج يشعر باحتمال هزيمة هكس الذي لم يسمع عنه شيئاً بعد ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٣ م .

وبعد أن تحققت هزيمة هكس كان لزاماً التوصية بإخلاء السودان حرصاً على أمن مصر وطمأنينتها — على حد التعبير البريطاني — وكانت مصر حينذاك في حالة مالية لا تسمح لها بإرسال حملة أخرى للسودان ولم يكن من المستطاع الحصول على قوة هندية أو إنجليزية ، كما أنه لم يكن من مصلحة مصر ، في نظر الانجليز ، أن تطلب مساعدة عسكرية من الباب العالي ، إذن فملتوقف المباحثات الخاصة بتخفيض الجنود البريطانيين المحتلين لمصر ، وعلى مصر أيضاً أن تقبل النصيحة بترك السودان إلى حدود معينة . حقاً أن السياسة المرتبة لها منطقها الغريب .

وتحولت الاتجاهات إلى بناء سكة حديد من البحر الأحمر إلى بربر ، وأرسلت قوة من الجندرمة المصرية إلى سواكن لفتح الطريق إلى بربر .

وتقدم شريف باشا في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م بمذكرة إلى بارنج يعارض فيها ترك السودان بحجة أن الخديو لا يملك بمقتضى فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ حق التنازل عن أى جزء من أراضيه ، وذكر أنه حتى ولو أن مصر كانت مطلقة اليد للتصرف في أمر السودان فإن تركه سوف تكون له أسوأ العواقب ، وأوضح أن مصر في ذلك الوقت كانت مسيطرة على الموقف في جميع أنحاء السودان فيما عدا كردفان ، ولم يكن خبر استسلام سلاتين قد وصل بعد ، وأشاد شريف بما قامت

به مصر من امتداد للمدينة إلى السودان حتى منطقة البحيرات . وقال أنه مازال أمام مصر من الواجبات نحو السودان وتعميره وفتحها للتجارة والكشف العلى ، وأضاف أنه لا ينكر أن مجهودا قد قامت به مصر للحد من نشاط النخاسة — ولم تغن كل هذه الحقائق الدامغة لتتخلى بريطانيا عن موقفها بصدد تنفيذ نصيحته بالترك أو الاخلاء بالمعنى المقصود من الكلمتين استعملتا وهما (Abandonment) و (Evacuation) ولكل من هاتين الكلمتين تفسيرها الخاص . وهو مطاط يمكن تأويله إلى الغرض المقصود ولم يكن اختيار هذين اللفظين إلا لتفادى الكثير من المشا كل التي قد تثار وتواجه بريطانيا مسؤولية ما وبخاصة أن وضع بريطانيا في مصر كان شائكا للعداء الذى كان قائما بينها وفرنسا وروسيا ، وكان من نتيجة اصرار بريطانيا استقالة شريف باشا ، فى وثيقة سجل فيها موقفه ، وجاء بعده نوبار باشا ، الذى قبل تنفيذ النصيحة ، وقد عرض ايفاد عبد القادر باشا حلى إلى السودان ، ليشرف على سحب الحاميات المصرية ، وقال نوبار فى هذا الصدد أن القيادة العليا لن يسلم زمامها إلى يد أفضل من يد عبد القادر باشا حلى . الذى يعرف عن السودان مالا يعرفه غيره ، فضلا عن أنه ضابط شجاع وكفء ، واستطاعت الحكومة البريطانية أن تتخلص مرة أخرى من عبد القادر باشا بأن طلبت من الحكومة المصرية كشرط أساسى أن تصدر أولا بيانا تعلن فيه عزمها على الترك (٦٦) . وبما لاشك فيه أن اصدار مثل ذلك البيان سوف يقيم الصعاب فى تنفيذ هذه الخطة ، كما أنه يعرض القوات المنسحبة إلى أخطار جسيمة ، ويتعرض المدنيون إلى النهب والسلب والفوضى . ولهذا رفض عبد القادر باشا هذه المهمة .

وقد حدث فى الوقت الذى كانت تتبادل فيه المذكرات مع مصر ، ان طلبت الوزارة البريطانية من غوردون العودة من بروكسل ، للقيام ببعض المحادثات ، وكان غوردون قد ارتبط مع الملك ليوبولد الثانى للعمل فى الكونغو الحرة التى يتولى سيادتها ذلك الملك .

تنفيذ سياسة الانحلال

وكتب غوردون بعد مقابلته للوزراء خطاباً إلى بارنس (Barnes) جاء فيه « تقابلت مع ولسلي ، الذي دخل على الوزراء وتحدث معهم ، ثم عاد إلى وقال « ان حكومة جلالة الملكة تريد أن يكون واضحاً لك انها تحتم اخلاء السودان ، لأنها لا تضمن قيام حكومة المستقبل ، فهل لك أن تذهب للقيام بهذه المهمة ؟ فأجبت . نعم . فقال لي أدخل معي لمقابلة الوزراء ، الذين سألوني « هل أوضح لك ولسلي رأينا ، فقلت نعم ، انه قال لي انكم سوف لا تضمنون حكومة المستقبل ، وانكم تطلبون السفر لاجراء عملية الاخلاء ، فأمنوا على هذا القول وانتهى الحديث (٦٧) وكانت الملكة فيكتوريا مهتمة كل الاهتمام بمسألة السودان وقد ذكرت في خطاب لها إلى السير افلن وود أن ارسال غوردون كان يجب ارساله قبل الآن بكثير .

وقد سبق للورد ولسلي أن أوضح لغوردون أن الحكومة البريطانية لا تمنع في خدمته في الكونغو الحرة حسب اتفاقه مع الملك ليوبولد الثاني ، الا ان لأمته عليه حقاً أن يؤديه أولاً قبل الذهاب إلى الكونغو — وهو السفر إلى السودان ، وبعد انتهاء مأموريته عليه أن يذهب إلى الكونغو الحرة .

وحاول غوردون الاستعانة بالزبير باشا ، إلا أن هذا الطلب قد رفضته الحكومة البريطانية ، لاكثر من سبب ، منها خشيتها أن ينتقم الزبير من غوردون لدم ابنه سليمان وبخاصة بعد أن صرح الزبير في مقابلة له مع غوردون في القاهرة بحضور السير بارنج أنه يعتبر غوردون مسؤولاً عن دم ابنه وان ثأر الدم ما زال قائماً بينهما وسوف يكون انتقام الزبير من غوردون مضميعة للخطة البريطانية . ويؤيد هذا ما جاء في مذكرات الماجور جنرال الاونورايل منتيج ستورت ورتلي أن الزبير باشا قابل غوردون . في القاهرة في يناير سنة ١٨٨٤ في منزل القنصل البريطاني العام بحضور السير بارنج والسير افلن وود وجيرالد بورتال وصاحب المذكرات ، وقال لغوردون أن ابني قد قتل رمياً بالرصاص بأمر محكمة عسكرية مستندة في حكمها إلى خطاب كتب مني (الزبير باشا) للحض على الثورة ، وطالب غوردون بأن يقدم هذه الوثيقة . وفعلاً أرسل كاتب المذكرات إلى وزارة الحربية المصرية لاحتضار

(٦٧) نفس المصدر ٣٤٥

(٦٨) التى ٣٤٤

اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت بأختامها منذ ١٨٧٩م — أى أنها لم تفض أختامها لحوالى خمسة سنوات وبالبحث لم يعثر على الوثيقة التى أشار إليها ، وقال غوردون أن الامر كان مأساة وأن العدل انحرف عن مجراه . . . وانى سوف أعمل مايمكن للترضية ، ويبدو أن الحاح غوردون لذهاب الزبير إلى السودان كان لهذا الغرض — (المذكرات المشار إليها قد نشرت فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات الجزء الرابع والثلاثين ص ٣٩/٤٠) .

جاء غوردون إلى مصر فى يناير سنة ١٨٨٤م ، بعد أن كانت نيته السفر مباشرة إلى سواكن عن طريق البحر الأحمر ، وسافر إلى السودان فى نفس الشهر ، ولا ننسى أنه كان قد ارتبط بخدمة ليوبولد فى الكونغو الحرة ، وندبته دولته لتنفيذ سياسة الترك فى سرعة ، التى قدر لها غوردون شهرين تقريباً يذهب بعدها إلى الكونغو الحرة ، كما ذكر فى خطابه لاخته ، وكانت خطط غوردون لتنفيذ السياسة التى رسمتها له حكومته متضاربة فى كيفية القيام بهذه المهمة ، مهمة الترك ، وتكوين مشيخات وسلطنات صغيرة ، يربط بينها حلفاً فى صورة ما (٦٩) — ولا نعتقد أن مثل هذه المشيخات والسلطنات يترك أمرها لها فيما بينها دون أن تدخل فى تحالف معه باسم الحكومة البريطانية ، تدخل فيه هذه المجموعات فى حماية تلك الدولة ويسيطر عليها غوردون بعد انتقاله إلى بحر الغزال ، إلا أن موته فى الخرطوم قد قلب خطته رأساً على عقب وعطلها بعض الوقت .

استهتر غوردون بالقوة التى وصل إليها الامام المهدي أو تجاهلها ، وقد كتب ، وهو فى طريقه ، فى كرسكو بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٨٤م ، «أن الأشياء قد زادت المبالغة ، وانى لا أخاف من تقدم المهدي ، فإننى بعون الله سوف أصل معه إلى حل ، فالمهدي هو ابن أخت الخبير الذى خدم معى سابقاً . .

وأعلن غوردون فى بربر رداً على الأسئلة التى وجهت إليه من أعيان المدينة بشأن معاهدة الرقيق لسنة ١٨٧٧م ، ومدى سريان نصوصها على السودان فى وضعه الجديد ، قال أنها لا تسرى على السودان ، بسبب أن السودان قد صار منفصلاً عن مصر ، وأصدر بياناً رسمياً فى هذا الشأن ، وطلب غوردون من الامام المهدي أن يكون سلطاناً على كردفان ، كما كان راغباً فى اقامة سلاطين آخرين هنا وهناك فى

مناطق السودان القبلية ، وينسحب بعدها إلى حوض بحر الغزال ، وتتحول تجارة السودان إلى أوغندا ومنها إلى ساحل المحيط الهندي وتنقطع عروبتة .

وكانت التعليمات التي أعطيت مكتوبة إلى غوردون قبل مبارحته لندن كالآتي :
« ترغب حكومة جلالة الملكة أن تذهبوا حالا إلى سواكن (٧٠) ، لكتابة تقرير للحكومة البريطانية عن الحالة العسكرية في السودان ، وعن الوسائل التي يستحسن اتخاذها لسلامة الحاميات المصرية ، التي تحتل مراكزها في تلك البلاد ، كذا لسلامة الرعايا الأوروبيين الموجودين في الخرطوم .

« وعليك أيضاً أن تبحث وتقدم تقريراً عن الطريقة الممكنة للاخلاء من داخلية البلاد ، أيضاً عن الوسائل التي يمكن اتباعها لسلامة موانئ البحر الأحمر ، وإدارتها بواسطة مصر لإدارة حسنة .

« وفي صدد هذا الموضوع ، عليك أن تهتم اهتماماً خاصاً عن أنجع الوسائل لمنع التجريض الذي يخشى منه من جانب تجار النخاسة ، بسبب حركة التمرد (المهدية) وسحب السلطنة المصرية من البلاد .

« وسوف تكون خاضعاً لتعليمات معتمد جلالة الملكة وقنصلها العام في مصر ، الذي عن طريقه ترسل تقاريرك لحكومة جلالة الملكة محتومة بالشمع الأحمر .
« وعليك أن تعلم أنه قد خول لك — وتكلف بالقيام بآية مأموريات أخرى ، كما ترى الحكومة المصرية ، والتي يجب أن ترسل إليك عن طريق السير افلن بارنج ، وسوف يسافر في رفقتك الكولونيل استيوارت ، الذي سوف يساعدك على إنجاز المهام التي توكل إليك .

« وبعد وصولك إلى مصر ، عليك أن تتصل بالسير افلن بارنج ، الذي سوف يحدد موعداً لمقابلتك ، لبحث معك مسألة سفرك إلى سواكن مباشرة ، أو أنك تذهب بنفسك أو يذهب معك الكولونيل استيوارت إلى الخرطوم عن طريق النيل .
ومما لاشك فيه أن هذه التعليمات التي كتبها أصلاً اللورد جرانفيل (٧١) قد صيغت

(٧٠) تعدلت لفظة سواكن لتقرأ مصر وذلك في الكتاب الأزرق — ورنام ص ٢٧٨
(٧١) ذكر التن ص ٣٤٠ — ان اللورد مورلي قد ذكر خطأ في كتابه عن ترجمة حياة غلادستون ان هذه التعليمات قد وضع صيغتها غوردون . والأصل مازال محفوظاً بخط جرانفيل .

في حنق ومهارة ، وذلك لابعاد المسؤولية فيما يختص بالاخلاء أو الترك ، عن عاتق الحكومة البريطانية ، وقد قال غلادستون رئيس الوزراء انه أى الحكومة البريطانية لا تلتزم بأية مسؤولية ، وكان أن أعدت الحكومة المصرية فرمان الخاص بمأمورية غوردون ، كطلب المعتمد البريطاني ، الذي كان صاحب الأمر والنهى الفعلى في مصر ، وان رفض تنفيذ ما يشير به من نصيحة — كما تواضع في تسميتها — معناه ترك كرسى الحكم .

وفي الوقت الذي كان فيه غوردون يقطع صحراء العظمور ، بين كرسكو وأبو حمد في طريقه إلى الخرطوم التي وصلها في صبيحة يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م كانت قوات فالنتين بيكر باشا ، وقوامها من الجندرمة المصرية ، قد أصيبت بهزيمة منكرة في موقعة التيب في شرق السودان . وبما لا شك فيه ان هذه الهزيمة قد كان لها أثرها المباشر على مركز غوردون ومأموريته إلى السودان . كما أنها أذكت الشعور المحلى العام ، ولا يخفى ان الشعور العام في البلد قد تزايدت كراهيته لحكامه من الأجانب ، بسبب ما أصابهم على يد هؤلاء من عسف وظلم منذ ولايتهم للنصاب الرئيسية في حكمدارية غوردون ١٨٧٧ / ١٨٧٩ . وقد وجد الأهالي في التزام المتابعة التي منيت بها قوات الحكومة فرصة ذهبية للخلاص من نيرها بعد أن ضاعت هيبتها وقوتها وصارت من الضعف بمكان ، وكان طبيعياً والحالة هذه أن يتعاون السكان مع الامام المهدي في حركته ، التي كانت قد وصلت إلى مرحلة المقاومة بالسلاح ، وذلك بعد سقوط الأبيض .

ونجد فيما ذكره جراهام (Graham) الذي رافق غوردون في رحلته الأخيرة حتى كرسكو ، ان غوردون كان يتصرف تصرفات متناقضة ، الأمر الذي جعل جراهام يتخيل انه في صحبة رجل قد حكم عليه بالموت ، فهو تارة يتحدث عن الأماكن المقدسة ، وأخرى عن جوز الهند ، ثم ينتقل الى مشروعاته المستقبلية في السودان ، وبخاصة عن خطته لتسليم مديرتي خط الاستواء وبحر الغزال إلى الملك ليوبولد الثاني ، وعن ذهابه إلى تلك المنطقة لادارتها باسم ملك الكونغو الحرة ليوبولد (٧٢)

ولم يكن مستغرباً وحالته هذه التي وصفها جراهام ، أن يتحدث إلى أعيان مدينة بربر عن مأموريته ، وانفصال السودان عن مصر ، ورأيه في الرقيق ، وتعطيل الاتفاقية

التي أبرمت في عام ١٨٧٧ م بالنسبة للسودان، فهو بهذا التصرف الذي تنقصه الكياسة قد شجع عناصر الفوضى، وزاد العراقيل في طريقه، على عكس ما كان ينتظر من مؤازرة الأهالي له وتبين لنا هذه التصرفات مدى الخطأ الذي ارتكبه غوردون ودفع ثمنه غالباً، غوردون كان يؤمن من قرارة نفسه بضرورة انتهاء زعامة مصر للسودان كما ذكر اضيفه لورنس اليفانت (Lawarnee Oliphant) (٧٣) الذي زاره في منزله في سفح جبل السكرمل.

أمر غوردون بعد وصوله إلى الخرطوم بهدم الحصون، التي عززها عبد القادر باشا حلى حول الخرطوم، كما أمر بحرق السجلات الحكومية، وحمل غوردون معه إلى الخرطوم من الريالات القشلي ما بلغت قيمته المائتي ألف جنيه، وقد ضربت هذه الريالات خصيصاً في تريستا (إيطاليا) (٧٤) وهي تحمل صورة (ماريا تريزا) وهي من العملات المتداولة في السودان وأثيوبيا منذ زمن بعيد. ويبدو أن هذه العملة كان مقدراً لها أن تحل محل العملة المصرية المتداولة قانوناً في السودان.

وقد أثارت تصرفات غوردون بشأن الرقيق موجة من الدهشة في الصحف البريطانية التي أرسلت عدداً من البرقيات إلى غوردون تستفسر منه عن حقيقة موقفه وقد أجاب غوردون في برقيته بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٨٨٤ م أنه سوف لا يقوم بتنفيذ المعاهدة في عام ١٨٨٩ م وأنه إذا نظر إلى ما قرره حكومة جلالة الملكة بشأن مصير السودان (الاخلاء والفصل عن مصر) فإن المعاهدة لا تحتاج إلى إيضاح وأضاف بقوله «ان المسألة هي أحد أمرين، الرقيق الموجود في حيازة أصحابه أو اصطياده من موطنه وفي رأيي ان معاهدة ١٨٧٧ م سوف لا تنفذ في القاهرة فيما يختص بالرقيق الموجود تحت يد أصحابه» وعلق السير هنري غوردون على ذلك في ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٤ كالآتي «ان المعاهدة تشير إلى الاحتفاظ بالرقيق الموجود ولا تشمل إضافة رقيق جديد، وقد اعتبر الرقيق في بريطانيا في عام ١٨٠٧ م كعمل من أعمال القرصنة، إلا ان الرقيق لم يسترد حريته إلا في عام ١٨٣٩ م بعد أن دفعت الحكومة البريطانية تعويضاً لأصحابه بلغ حوالى العشرين مليوناً من الجنيهات اعتبرت مصر في ١٨٧٧ م إدخال الرقيق جريمة عقابها الموت وان بيع الرقيق جريمة

(٧٣) بينى ٢٢٠ - الن ص ٣٧.

(٧٤) مذكرات الماجور جنرال دنتيج ستوارت ورتلى - في مجلة السودان رسائل ومدونات

مجلد ٣٤ ص ٤١.

عقابها الموت وان بيع الرقيق من شخص إلى آخر ينتهى في مصر في ١٢ أغسطس من سنة ١٨٨٤ وفي السودان في عام ١٨٨٩ م ومن هذا يتبين ان الرقيق سوف يبقى على هذا الحال على أن لا يباع بل يجب أن يستمر في خدمة أصحابه . فالرقيق « مال » وإذا حرر الرقيق دون أن يدفع عنه تعويض لأصحابه ، وقد دفعت إنجلترا تعويضاً أربابها ، فان ذلك يكون نوعاً من النهب والسلب . لهذا فانه طبقاً للقوانين القائمة يحق لأصحاب الرقيق في السودان أن يتعاملوا فيما يملكون منه حتى عام ١٨٨٩ وهذا ما قاله غوردون لأهل السودان عندما أعلن انه لم يأت إلى السودان لنقض القانون ومصادرة أملاكهم (٧٥).

فصل سياسة الامم

وحاول أن يعالج الموقف ليخرج من ورطته ، ولم يمض عليه في الخرطوم إلا أيام قليلة ، وذلك بأن طلب من بارنج السماح للزبير بالسفر إلى السودان ليخلفه في منصبه ، ويذهب هو إلى الكونغو ، وأرسل بارنج إلى جرانفيل بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م للموافقة على عودة الزبير، على أن يمنح نيدشان القديسين ميخائيل وجورج الذى يخول حامله لقب سير وعضو في الامبراطورية البريطانية من درجة فارس ، وأن يعطى له مبلغ من المال ليستعين به في تدبير شئون ولايته الجديدة المستقلة عن مصر ، كما يمنح إعانة سنوية مقدارها خمسون ألفاً من الجنيهات ، وأن يستمر دفع هذه الاعانة لمدة خمسة سنوات على أن يتوقف صرف هذه الاعانة السنوية على مدى سلوكه في إدارته الجديدة ولم توافق الحكومة البريطانية على هذا الطلب ، لالآن الزبير كان تاجراً للرقيق، الامر الذى سوف تثيره المعارضة البرلمانية الانجليزية وجماعات منع الرقيق ، ولكن لحشيتها من صلابة عوده وعدم انقياده لتنفيذ السياسة البريطانية ، التى كانت تهدف من ولايته إقامة سركا أخرى في السودان ، لتنتقل تدريجياً إلى أملاك الناج البريطانى فالزبير قد لاقى منذ حضوره إلى مصر مختلف وسائل الاضطهاد والنفي، وما كان ذلك إلا لصره في قالب جديد لخدمتها ، غير أنه لم يتأثر بكل ذلك ، واحتفظ باستمساكه بمبادئه وتقاليده ، فحق لوادى النيل أن يفخر ببطلوته .

(٧٥) كتاب المهديّة في السودان لمؤلفه رجبينالد ونجت باشا ص ٥٥٤/٥٥٥ بالانكليزية .

وكان طبيعياً والأمور تسير على هذا النحو أن يشتد الحصار على الخرطوم . الذى بدأ فى الثالث عشر من مارس سنة ١٨٨٤م ، وأن تتعطل المواصلات وتسقط المدن الواحدة تلو الأخرى ، وأن يبدأ الامام المهدي فى الزحف صوب الخرطوم ، بعد أن بسط سيطرته على كردفان ودارفور وبحر الغزال ، فأمن بذلك ظهره وجناحه الأيسر ، وفى الأسبوع الأخير من يونيه أرسل الدراويش جيوسي كوتسى الإيطالى ، الذى وقع فى الأسر بعد سقوط بربر ، يحمل رسالة إلى غوردون للتسليم ، التى رفضها ، وكان غوردون ينتظر وصول الحملة البريطانية لانقاذ الخرطوم ، وبعد أن ساءت الأحوال وطال الانتظار بارحت الحملة مصر فى طريقها إلى الخرطوم ، وفى خلال تلك الفترة أرسل الدراويش جيوسي كوتسى مرة أخرى إلى غوردون للتسليم فرفض الطلب ، كما طلب الامام المهدي من سلاتين^(٧٦) الذى كان أسيراً أيضاً فى معسكر الدراويش ليكتب إلى غوردون للتسليم حقناً للدماء وحفظاً على حياته ، غير أنه لم يرد على هذه الرسالة واكتفى بأن أوضح فى يومياته بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤م « ليس لدى ما أكتبه من ملاحظات على رسالة سلاتين ، ولا أعلم ما هى الدوافع وراء هذه الخطوة منه بالكتابة إلى ، وعلى أى حال إذا كان (سلاتين) سيخرج من أسره ، فأننى سوف آخذه معى إلى الكونغو ، لكنه يحتاج إلى بعض التطهير^(٧٧) » ، والتطهير المشار اليه فى رأينا من ناحية اعتناق سلاتين للإسلام . وقد أبدى غوردون فى أكثر من موضع اعتبار من ترك مسيحيته وصار مسلماً كمنبوذ لا يجوز التعامل معه وغوردون كما هو معروف ، يمثل طبقة مسيحية أرسطقراطية ، التى تميز بها عصر الماسكة فيكتوريا .

انقراض عهد انقاذ غوردون

وقد أرسل قائد الحملة اللورد ولسلى كتاباً إلى غوردون تاريخه ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤م جاء فيه « . . . وأفضل أن تنتهى المسألة سلمياً ، وذلك بمساحة محمد احمد فيما مضى وجعله سلطاناً مستقلاً على كردفان ، ويكون الملك له ولأولاده من بعده ، وبتأسيس

(٧٦) سلاتين ص ٣١٩ وما بعدها - كان جيوسي كوتسى المشار اليه وكيل غوردون الشخصى فى بربر كما كان قنصل إنجلترا فى تلك المدينة وقد تسمى بعد اسلامه محمد يوسف وهو إيطالى ولد ١٨٤٣ وتوفى ١٩٢٣ - راجع ترجمته فى هل ص ١٠٧
(٧٧) ورثام ص ٣١١

حكومة وطنية في الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلاً عن مصر، وحكمه وراثي، فيملك دنقلة وبربر والخرطوم وتعود أنت إلى انكلترا (٧٨) وقد أسقط ولسلي درافور وسنار وبحر الغزل ، وخط الاستواء وشرق السودان . وقد يكون الاهمال معتقراً لولا أن اللورد ولسلي كان مطلعاً على دخائل السياسة العليا البريطانية وخططها نحو السودان ، إن لم يكن أحد صانعيها، وقد قام بدور هام عندما طلب إلى غوردون السفر إلى السودان ، كما أوضحنا من قبل .

قامت الحملة من كورتى في الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٨٤م في فرقتين إحداهما بقيادة السير هربرت استيوارت عبر صحراء البيوضة ، والثانية بقيادة الجنرال أرل عن طريق النيل إلى أبو حمد وبربر ، والغرض من الحملة الثانية حماية جناح الحملة الأولى واسترداد بربر لتأمين المواصلات .

وبعد أن وصلت الحملة الأولى إلى آبار الجسكدول في الثاني من يناير سنة ١٨٨٥م ترك قوة صغيرة مكونة من ٤٢٢ صف وعساكر ، وعاد إلى كورتى في نفس اليوم ووصلها في ظهر اليوم الخامس من يناير ، وبارحها ثانية في اليوم الثامن من يناير ووصل الجسكدول بكامل قوته في صباح اليوم الثاني عشر وفي اليوم السابع عشر اشتبك مع الدراويش في معركة أبو طليح « شمالي المتمة وبالرغم من أن هذه الحملة قد حازت نصراً على الدراويش فان القوة البريطانية قد لاقت مصاعب كثيرة كادت أن تودي بجميع الحملة ، وذلك أن بعض الأسلحة والمدافع قد أصابها العطل أثناء القتال إلى الحد الذي تمكنت معه قوات الدراويش الكثيرة العدد من الوصول إلى قلب الحملة ، ولو لم تتدارك الموقف سرية نزلت إلى الميدان في الوقت المناسب لكانت النتيجة فناء الحملة تماماً كما حدث في شرق السودان . ولا يخفى أن هذه الحملة البريطانية كانت أول تجربة في حرب صحراوية ، بعيدة عن البحر بأكثر من ألف ميل وفي ظروف قاسية . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الحملة قد أضاعت حوالى العشرة أيام بين الذهاب والإياب .

ولأسباب لم تعرف بعد على وجه التحديد ، ويعتقد أنها بسبب مقاومة فرنسا لانجلترا في الميدان الدولي ، أن أرسل الخديو توفيق تلغرافاً إلى غوردون في نوفمبر سنة ١٨٨٤م جاء فيه « نحيطك علماً بأنه قد حدثت تطورات كبيرة منذ أن أوصت الحكومة البريطانية باخلاء السودان وانقطاع المواصلات معكم وأيضاً

(٧٨) نعوم شقير جزء ٣ ص ٢٧٤ .

صار من الضروري إدخال تعديلات على فرمان الذى أصدر إليكم ، ولهذا تبقى
سلطاتكم كمدبر للسودان الذى يشتمل على الخرطوم وسنار وبربر فى حدودها
الحالية (٧٩) .

وذكر نصحي باشا فى « جرنال الحوادث » الذى سجل فيه يومياته خلال الفترة
التي أمضاها فى منطقة شندى لمقابلة القوات البريطانية ، وذلك عن حوادث يوم الأحد
٢٤ ربيع أول (١١ يناير سنة ١٨٨٥ م) ما يأتى :

وفيوم (فى يوم) الأحد الموافق ٢٤ منه فى الساعة ستة و ١٥ دقيقة ورد لنا
جواب من الفقيه مصطفى أمير شنبات الغرب المجاورة للخرطوم المحضر يومين تاريخه
بالبر الغربى مقابلا لجزيرة نهرى الموجودين نحن بها مع ادمية (امرأة من الرقيق)
وهذه صورته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الولي الكبير والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد فمن
عبد ربه احمد المصطفى ابن الفقيه الامين إلى سعادة لوا قومندان وابورات السفرية
محمد نصحي باشا أما بعد لا يخفاكم إبلاغ السلام منا وإلينا ولكن نعلمكم أنه لـكل
أجل كتاب ولكل مملكة حد وزوال ودولة التورك (الترك) هذه كانوا أخذوها
من ناس غيرهم ومثبوت أن ملكهم يزولوا (يزيله) المهدي عليه السلام فمن حاربه
هلك ومن تبعه سلم ومن الجملة أن الانجليز أخذوا الملك من الخديوى وسيروه جسم
بلا روح واستلموا مصر ونحن وأنتم اخوان فى الدين ولا يجوز لكم أن تعصبوا
الكفر على المسلمين ولا طاقة لكم بذلك إلا أن تهلكوا أنفسكم على غير دين الله
فطالع جواب خشم الموس بيمك تجد حقيقة ما هو كائن فى الخرطوم فاقنع .

ولا سبيل إلى وصول الانجليز إليكم فان سلمتم فلحكم مالنا وعليكم ما علينا
ورحاكم (أرحامكم) وجناكم (أولادكم) ومالككم محرمة علينا فان سلمت فأنت
وأولادك ومالك فى ذمتي أن ضاعت لكم ابرة تدفع لكم من بيت المال وعليك
وعلى كافة الضباط الذين معك امان الله ورسوله ومهديه وان تعدى عليكم أحداً

(٧٩) ونجت مقال حصار الخرطوم وسقوطها مجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ١٣

(أحد) فيصير ما يصير عليه كالمناشير الصادرة من الامام وان صمتم فسوف ترون ما يحل بكم فشأنكم ولكن كررت لكم يا أيها الباشا أنت ومن معك وأموالك وأولادك في ذمتي فان كنت لم تعرفني فسأل اخوانك الذين معك يفهموك وفاء معهم واني رجل أشفق على العبد الغريب كالقريب والناس كلهم اخوان في الدين ولا عدم (عدو) لي إلا الكافر فاحضر مسلماً مرحباً بمن معك ولا بأس عليك ولا ضرر إلا هذا الحرب والسلام (٨٠).

حاشية

ثم وبا حضرة الباشا ان هذا الجواب ورد علينا امبارح في اثني (أثناء) العشاء من البقعة الشريفة والاخوان عرفونا ان الغوردون يوم الخميس الماضي أول أمس (٨٠) أرسل جواب إلى سيد الجميع الامام عليه السلام، يقول له يا سيدي أعطيك عشرين ألف جنيه ودعني أتوجه بلدي، واترك لك الخرطوم، فخر له الإمام عليه السلام على ذات الجواب يقول « احضر بمالك واحقن دماء المسلمين، ولا حاجة لنا بجنيهاك (٨١). وقد جاء هذا القول الخاص برغبة غوردون ترك الخرطوم وتسليمها للإمام المهدي نظير عشرين ألف من الجنيهات يفدى بها نفسه ليخرج من البلد، قد جاء من جانب واحد، وليس لدينا ما يؤيده أو ينفيه، والمعروف أن حصار الخرطوم كان قد دخل في مرحلته النهائية بالعزلة التامة وقلة المواد الغذائية.

واننا لا نعلم الدوافع التي جعلت الإمام المهدي يرفض استلام الخرطوم دون حرب عندما عرض عليه غوردون ذلك في خطابه المشار إليه آنفاً، في الوقت الذي وصلت إليه أخبار الحملة الانجليزية من دنقله واشتباكها مع الدراويش في موقعة « أبو طليح ». وكان لانتصار هذه القوة على جموع الدراويش السكثيرة العدد أثرها في معسكر الإمام المهدي، الذي عقد مجلساً من الأمراء ليتخذ قراره في البقاء على حصار الخرطوم أو الهجرة إلى كردفان. وقد طلب أحد الأمراء ضرورة الاسراع في احتلال الخرطوم حتى تضيق الفرصة على حملة الانقاذ، وكان الهجوم على المدينة

(٨٠) يوم الخميس المشار اليه يوافق الثامن من يناير سنة ١٨٨٥ م.

(٨١) جورنال الحوادث الذي كتبه نصحي باناسا. صورة شمسية مودعة بمكتبه معمد الدراسات السودانية - كلية الآداب جامعة القاهرة. جاء في مقال ونجت عن حصار وسقوط الخرطوم مجلة السودان في رسائل ومدونات جزء ١٣ ص ٨٠ ما يفيد ان الباخرة اسماعيلية كانت ممددة على تمام الاستعداد منذ الفجر (من يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م) لركوب غوردون وهربه.

وسقوطها ومقتل غوردون وعشرات الآلاف من أهلها، وذلك في صبيحة اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ م. وضاعت الفرصة على حملة الانقاذ التي عادت أدراجها وبقيت بعض الوقت في دنقلة، حيث اتخذتها مركزاً لها.

وقد تأثر موقف الحملة بالأحداث السياسية الدولية بسبب نشاط فرنسا وروسيا المعادى لسياسة إنجلترا، وقد كان مقدراً أن تقام حكومة في تلك المنطقة يتولى إدارتها ضباط من الانجليز، كما أن اللورد ولسلي قائد الحملة قد أرسل تلغرافاً إلى الوزارة البريطانية بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٨٥ جاء فيه: «... أحيطوا اللورد جرانفيل علماً بأنني لأستطيع الانتظار وقتاً أطول، وأرى من واجبي أن أصدر اعلاناً بوصفي حاكم السودان العام، وفي حالة عدم وصول الرد على هذا الاخطار حتى اليوم الرابع عشر من مارس، سوف أصدر هذا الاعلان في حدود سلطاتي» (٨٢). ومن الطبيعي أن يكون اعلانه بتنصيب نفسه مقاليد الحاكم العام للسودان باسم حكومته «إنجلترا»، لا باسم مصر، وذلك لأن إنجلترا وهي الدولة التي تحتل مصر حينذاك وتهيمن على شئونها قد عطأت سفر الأمير حسن (٨٣) أخ توفيق إلى دنقلة، ليتفقد الحاملة ولتدعيم ساطة الادارة المصرية. ويبدو من صيغة تلغراف ولسلي انه مزودا بالتعليمات اللازمة لمواجهة مختلف التطورات السياسية، وهي في مجموعها تهدف نحو فصل السودان وعزله عن شمال الوادي وربطه بطريقة أو أخرى مع المناطق الواقعة تحت النفوذ البريطاني في خط الاستواء، غير أن المشاكل الدولية واشتداد الصراع بين المعسكرين المتنافسين إنجلترا وفرنسا قد حال دون تنفيذ تلك السياسة وجعل بريطانيا تلمس طرق ووسائل أخرى في هذا السبيل. فنجدها في عام ١٨٨٥ م تثير مسألة الجلاء عن مصر بعد الانتهاء من مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ م ويذهب درمند ولف للمفاوضة مع الباب العالي، ويسافر المندوب البريطاني بصحبة المندوب العثماني مختار باشا إلى مصر، وكل هذا كسباً للوقت ومراقبة التطورات الدولية وبخاصة بعد سقوط الخرطوم وانسحاب القوات إلى وادي حلفا، وقد ترك

(٨٢) جوين جزء ثات ص ١١٤

(٨٣) مذكرات الماجور جنرال منتيج استوارت ورتلي - مجلة السودان في رسائل ومدونات

بند ٣٤ ص ١٧٢ .

انسحاب القوات من دنقلة إلى وادي حلفا المنطقة بين الشلال الثالث وادي حلفا ،
التي كانت جزءاً من النوبة منذ قرون عديدة قبل قيام الكشاف العثمانيين بحكمها في
أعقاب فتح السلطان سليم لمصر .

وفي الوقت الذي كان فيه درمندOLF يتأهب للسفر من إنجلترا إلى الآستانة
طلب من ولفرد سكاون بلنت أن يجمعه مع السيد جمال الدين الأفغاني ، وكان
اهتمام ولف في حديثه مع السيد مركزاً في استطلاع رأيه فيما إذا كان من المستطاع
الحصول على اعتراف الدراويش بخلافة السلطان العثماني كما أنه أوضح للسيد اهتمام
بريطانيا بمسألة احلال السلام مع السودانين وقيام حكومة مستقلة في دنقلة تدخل في
اتفاق مع الباب العالي (٨٤) ، وربما كان هذا المنصب ، منصب سلطان دنقلة ، هو
الذي أرادت الوزارة البريطانية اسناده إلى السيد جمال الدين الأفغاني ، الذي رفض
العرض بسبب أن بريطانيا لا تملك حق التصرف في أرض ليست من أملاكها .

وفي أغسطس من تلك السنة كانت بريطانيا تتفاوض عن طريق وكلائها غير
الرسميين ومنهم ولفرد سكاون بلنت للوصول مع الدراويش في مفاوضات على
أساس نقاط ثمان ، وكان طبيعياً أن تنتهي المفاوضات بالاعتراف بالدولة الجديدة
بعد قيامها على الصورة الشككية التي أرادتها بريطانيا . وكانت هذه النقاط الثمان هي :

- ١ (إخلاء سبيل الأسرى .
- ٢ (تأمين القبائل التي اشتركت في القتال ضد الحركة المهديّة .
- ٣ (انسحاب القوات المصرية والانجليزية إلى وادي حلفا وسواكن .
- ٤ (إخلاء سواكن ومصوع وتسليمها للباب العالي .
- ٥ (الاعتراف بالإمام المهدي بالسيادة داخل حدوده .
- ٦ (انشاء علاقات سياسية مع إنجلترا .
- ٧ (حرية التجارة .
- ٨ (الوصول إلى اتفاق لتحديد تحارة الرقيق اذا كان ذلك ممكناً (٨٥) .

وقد صيغت هذه الأسس لتجعل من السودان محمية بريطانية ، فالبنء الثالث
يقترح انسحاب القوات الى وادي حلفا وسواكن والبنء الرابع يسلم سواكن

(٨٤) بلنت - ص ٤٧٤ / ٤٧٦

(٨٥) نفس المصدر ص ٥٩٦ / ٥٩٧ ملخص خطاب سرى من بلنت الى غلادستون.

ومصوغ للباب العالى ولم يذكر شيئاً عن وجود القوات الانكليزية فى سواكن
بعد انتقالها للباب العالى . والبند الخامس يعترف بالسيادة للدراويش داخل الحدود
— أى أن العلاقات الخارجية سوف تكون بيد الغير ، وذلك الغير هو انجلترا
كما جاء فى البند السادس .

وعطلت بريطانيا الأمر العالى الذى أصدرته مصر فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٥
الى بيكر باشا فى شأن حفظ خط المواصلات بين بربر وسواكن وجاء فى هذا الأمر
ما يأتى «... وسينضم اليكم أورط سودانيون تحت قومندانة الزبير باشا الذى
لكم الرياسة عليه مباشرة فلا شك فى أنه يسهل عليكم اجتناء ثمرات ما للباشا
الموحى اليه على القبائل من النفوذ المشهور» (٨٦)

تفاوض درمند ولف بعد وصوله الاستانة مع الباب العالى لعقد معاهدة لتنظيم
المسألة المصرية والوصول الى حل بشأن الجلاء البريطانى عن مصر ، ولم يكن هذا
الاتجاه من بريطانيا نحو مشكلات حوض وادى النيل إلا امتداداً للسياسة التى كان
على بريطانيا الأخذ بها بعد الصلاحيات التى تمت فى مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ م ،
وقد تم الوصول الى اتفاق تمهيدى ثم التوقيع عليه فى اليوم الرابع والعشرين من
أكتوبر سنة ١٨٨٥ م ، من كل من محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية عن الباب
العالى ، والسرهنرى درمند ولف عن بريطانيا وصارت هذه الاتفاقية نافذة المفعول
بعد ذلك مباشرة ، وقد جاءت هذه الاتفاقية فى سبع مواد بعد الديباجة ، وتحققت
معه المرحلة الاولى للسياسة الانكليزية وذلك بحصولها على اعتراف الباب العالى —
وهو صاحب السيادة على مصر والاقاليم التابعة لها — حينذاك — بشرعية احتلال
بريطانيا لمصر وأشارت فى الوقت ذاته بطرف خفى الى مسألة السودان .

وتعين بموجب هذه الاتفاقية مندوبين ساميين للسفر الى مصر للتعاون مع
الخدوي بشأن اعادة تنظيم الجيش المصرى ، ولمصلحة حالة السودان ، واجراء مباحثات
لتسوية المسائل المصرية بعامة ، وقد جاء المندوبان الساميان الى مصر وقدم كل من
مختار باشا المندوب السامى العثمانى والسر درمند ولف المندوب السامى البريطانى ،
تقريره الى حكومته (٨٧) . وبدأت بعد ذلك مفاوضات بين تركيا وبريطانيا لوضع

(٨٦) قاموس الادارة والقضاء — فليب جلال المجلد الثانى ص ٣٠٦

(٨٧) الوثائق الفرنسية المصرية عام ١٨٨٤/١٨٩٣ — ص ٤٣/٧١

صيغة الاتفاق النهائي ، الذي تم في سبع مواد بعد الديباجة ومعه بروتوكولين وملحق ،
تم التوقيع عليها في الاستانة في الثاني والعشرين من مايو سنة ١٨٨٧ م من محمد كامل
باشا الصدر الأعظم ومحمد سعيد باشا وزير الخارجية عن تركيا والسر درمند ولف
عن بريطانيا .

وقد فقدت هذه الاتفاقية النهائية صلاحيتها بسبب توقف الباب العالي عن
التصديق عليها ، وفقاً لما جاء في المادة السابعة ، تحت ضغط فرنسا وروسيا اللتان
هددتا باحتلال فرنسا للشام وروسيا لأرمينيا . وفي الحقيقة وواقع الأمر أن بريطانيا
لم تخسر شيئاً بسبب التوقف عن التصديق على هذه الاتفاقية ، وقد ذكر كرومر
في كتابه مصر الحديثة في هذا الصدد ما يأتي : « انه بالرغم من فشل هذه الاتفاقية في
تحقيق أهدافها فإن الحكومة البريطانية قد صارت في مركز دبلوماسي ، عند نهاية هذه
المفاوضات ، أحسن مما كانت عليه عند بدئها ، فقد تحقّق لها الحصول على اعتراف
الباب العثماني بشرعية احتلال مصر ، كما انه قد برزت معها مسألة السودان في كيان
خاص يحتاج الى مصالحة .

وقد أشارت المادة الرابعة من الاتفاقية النهائية الى الوضع في السودان وما فيه
من ثورة تهدد أمن مصر الداخلي ، وأن هذا الوضع يتطلب اجراءات استثنائية
للمحافظة على الحدود الجنوبية — عند وادي حلفا — خوفاً من تسرب الدراويش
الى شمالي تلك المنطقة ، وأخذت بريطانيا على عاتقها مسؤولية القيام بهذه الاجراءات
للمحافظة على الحدود إلى أن يحين الوقت الذي يتكون فيه الجيش المصري الجديد
ويتم جلاء القوات البريطانية عن مصر .

وإذا قارنا ما جاء في الاتفاقيتين التمهيدية في عام ١٨٨٥ والنهائية في عام ١٨٨٧ م
مع ما جاء في العرض البريطاني الذي قدمته المندوب المهدية والذي أشرنا اليه من قبل
ليكون أساساً للمفاوضات بينهما ، نجد أن بريطانيا كانت تهدف أولاً الى تثبيت شرعية
وجودها في مصر ، ثانياً الدخول في مفاوضات مع الدراويش بشأن تسوية الموقف
على أساس التقاط الثمن التي سبق ايضاها . ولو كان قد قدر لهذه الاتفاقية النهائية
النفوذ لاستطاعت بريطانيا أن تواجه فرنسا وروسيا في مركز أقوى ، وأن هذا
الفشل الجزئي جعل بريطانيا تعمل على تهدئة الحالة الدولية وأخذت في معالجة
الموقف بعقد المؤتمرات الدولية ، واشتد الصراع بين فرنسا وانجلترا في السنوات
العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي كما سنبينه في القسم التالي .

وقد يكون أول ما نغنى به ، بعد أن أوضحنا فيما سبق الدور الذى لعبته تلك الحركة من تطور فى مركز البلاد ، أن تتوفر على دراسة هذه الدعوة بالقدر الذى يتطلبه موضوع البحث ، الذى يتلخص فى تقصى الاسباب والعوامل الأساسية التى دفعت الى ما وصل اليه المجتمع فى الثلاثين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم تكن تلك الاسباب والعوامل مجتمعة لإظهاره اجتماعية تشابكت أطرافها وقد استجمعت عناصرها من الحياة اليومية وتقاليدها الموروثة عن أقدم العصور . ولم تكن حالة المجتمع المحلى فى الثمانين عاما التى تلت نهاية السلطنة السنارية إلا امتداداً لحياة المجتمع فى ماضيه القريب والبعيد ، متأثراً بما دخل البلاد من نظم وارااء مستحدثة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ويشمل موضوع البحث . الظروف التى مهدت لقيام الحركة ثم ماهية الحركة وما دخل على طبيعتها من تطورات انتقلت بها من مرحلة الى مرحلة مع ترجمة الحياة زعيمها وخلايفته وينتهى البحث بدراسة عن مركز البلاد فى الصراع الدولى الذى اشتد فى الأعوام العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى وامتد لأربع سنوات من أول القرن العشرين حيث استطاعت الدول من تصفية مشاكلها .

١ - الدعوة المهدية وظروفها

لقد أوضحنا أن السودان قد أخذ فى الاستقرار نوعاً ما فى نهاية الخمسين عاما الأولى من امتداد الادارة المصرية إلى البلاد ، كما أوضحنا الظروف الدولية التى أخذت فى التدخل فى شئون حوض النيل متذرة بهذا السبب أو ذاك ، ومنذ ذلك الحين بدأت نقطة التحول فى تاريخ السودان . فقد جاء الى خط الاستواء صمويل بيكر باشا فى ١٨٦٩م وتولى إدارته باسم الادارة المصرية ، وخلفه غوردون باشا من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧م ثم تسلم غوردون حكمة الادارة السودانية وأقاليمه من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩م وكانت السياسة التى اتبعها بيكر وغوردون أثرها العميق فى الانتقال باداة الحكم ، من طريقها الذى كان يتمشى مع حياة البلاد والاخذ بيدها الى التدرج فى مضمار التقدم ، الى ما كان على العكس من ذلك . فانتسكت حالة البلد ورجعت القهقري وبرزت مقومات المجتمع وتقاليده التى قد كانت فى طريقها الى الاختفاء أمام ما أقامته الادارة المصرية فى السنوات الخمسين الأولى من

أعمالها في السودان . فالسياسة التي اتبعها غوردون وبخاصة بعد أن أسرف في تعيين الأجانب من مختلف الجنسيات في المراكز الرئيسية . وقد عمل هؤلاء وهم يجهلون أو يتجاهلون الأوضاع المحلية وما تتطلبه من صفات خاصة لمعالجة مشاكلها ، على التنكيل بالسكان وتجاوزوا الحدود في تنفيذ القوانين الصارمة الخاصة بالرقيق ، بالرغم عما جاء في اتفاقية الرقيق بشأن تصفية هذه المشكلة ، كما تدخل هؤلاء بالعبث بالتقاليد والقيم الاخلاقية بدعوى نشر الحرية ، كما عملوا أيضاً على تقويض الاسس الاقتصادية الامر الذي تعطلت معه الحياة اليومية ، وأحدث فجوة عميقة الغور في المجتمع الذي تميز بطابعه الديني الصارم ، ولم يكن من الهين الانتقال به فجأة من حال إلى حال وفي سرعة لا تتمشى مع طبيعة الأشياء ، وقد كان من اليسير على الأهالي أن يتقبلوا اسناد مقاليدهم إلى جماعات من غير المسلمين لو أخلص هؤلاء في رعاية مرافق الشعب والمحافظة على تقاليده ، متساهلين لا يتدخلون في المشاعر الدينية والحياة اليومية . فقد سبق أن تولى مديرية الخرطوم أراكيل بك وتذمر بعض الزعماء من ولاية نصراني ، فقال لهم إذا كان تعييني لا يرضيكم فأنا أترك البلاد ، فأعجب الزعماء بشجاعته واطمأنوا لاتجاهته وبقي في مركزه مرموقاً بالحب والاحترام ، غير أن الحال يختلف بتعيين غوردون الذي تميز بطابعه المسيحي المتزمت ، شأنه في ذلك شأن معاصريه في العصر الفكتوري ، الذي تأثر برواسب ماضي بلاده ، وكان غوردون ومعاونوه من الأجانب لهم نظرهم الخاصة في معاملة الأهالي الذين كانوا يرون انهم في مستوى دون مستوى الأوروبي ، وان للأوروبي رسالة يتحتم على السكان قبولها ، فاندفعوا في تشديد صرامتهم اندفاعاً كانت من نتيجته خلق روح التذمر ، وتوالى الأحداث في مختلف صورها وألوانها مما زاد في حالة القلق التي جعلت السكان يتطلعون إلى من يخلصهم من محنتهم التي امتدت إلى الدين كما تعطلت معها الحياة اليومية ، ولم تكن الحرية التي أرادها غوردون وأعوانه نشرها إلا تمهيداً لخروج المجتمع عن قيمه الدينية ، ليتقبل التبشير بالمسيحية عندما تتمكن المدينة الأوروبية من تثبيت أقدامها والسيطرة على مصير البلد . ويقدم لنا الحديث الذي دار بين غوردون والمطران دكتور تمبل على اتجاه غوردون نحو التبشير ، فقد تكلم غوردون مع المطران عند مقابلتهما في اكستر عن مسألة التبشير والصعوبات التي تواجهها بسبب عدم السماح بتعدد الزوجات وسأل المطران عما اذا كانت الديانة المسيحية تصرح للمسلمين الذين يتركون دينهم ويعتقدوا النصرانية بالاحتفاظ بعدد

من الزوجات يبلغ ثلاث بدلا من أربع يجيزها الاسلام ، وكان رد المطران بأن القوانين الكنسية لا تسمح بهذا التجاوز (٨٨) .

وقد بلغت حالة القلق مرحلة حاسمة عندما انتهى غوردون حكمه اريته في ١٨٧٩م بمقتل سليمان الزبير ورجاله بعد أن قبلوا عرض غوردون لتسليم واستسلموا فعلا الى جسي باشا ، الذي أعدمهم رمياً بالرصاص في دم بارد تنفيذاً لأمر غوردون ، الذي بنى حكمه على سند لم يستطع أن يقدمه الي الزبير باشا عند مقابلتهما في مصر كما أوضحنا من قبل ، ولكن غوردون قد استطاع التخلص من سليمان حتى لا تعطل السياسة التي رسمها ، وهكذا تجمعت الزوبعة من عناصرها المحلية ، وزادت عليها نهاية الحركة الوطنية في مصر وتشريد زعمائها عرابي ورفاقه .

وكان لزاما أن يخرج الزعيم من بين صفوف الشعب لقيادة الحركة كما كان لزاما أن يكون لذلك الزعيم مقامه الديني ، الذي يعد بثواب الجنة . ومقام الشهداء الأبرار الذين جاهدوا في سبيل نصره الدين ، وقد وجد الشعب ذلك الزعيم في شخص فقيهه أخذ قسطاً من العلوم الدينية ، تجاوزت مشاعره مع إحساس الأهلين ، وكان ذلك الزعيم هو الامام محمد احمد الذي تغلبت عليه حياة الزهد والتصوف والاعتكاف وكان مقصد أصحاب الشكاوى والمظلومين ليشفي جراحتهم ، فداع صيته بين الشعب القلق المتذمر بسبب الخلاف الذي قام بينه وبين شيخه الشيخ محمد شريف نور الدائم وبما يجدر ذكره أن الامام المهدي قد صرح لشيخه المذكور في عام ١٨٧٨م بأنه المهدي المنتظر ، فجاء إليه تاجر ، اتهم بتجارة الرقيق أو في تجارة مشروعة وأهلب جسده بالسياط وصودرت أمواله ، ومواطن عادي ، ألقيت على كاهله أعباء أموال الحكومة التي وزعت توزيعاً غير عادل بسبب الاعفاءات التي منحها غوردون لبعض الجماعات على حساب المجموعة من السكان . وأوصدت أبواب العدالة في وجه أصحاب الشكاوى ، ووجد الأهلون في هذا الفقيه متنفساً لكربتهم ولتحقيق الانتقام والخذ بالتأثر لما أصابهم على يد غوردون ومن ظاهره في إدارته ، وقد اعتبر كل من تعاون مع غوردون خارجاً عن الدين وجبت محاربته ، وهذه الحالة تصور لنا مدى الأثر الذي تركه الظلم في النفوس وهكذا أخرج الشعب الامام المهدي إلى العمل بعد أن

تهيأت الظروف المواتية لذلك . وبطبيعة الحال لم يسبق الامام المهدي الاحداث ويوجهها تحقيقاً لرسالته ، والحقيقة وواقع الامر ان الاحداث هي التي وجهته وخلقت منه زعامته .

وكانت الدعوة ، التي ظهرت في الثوب الديني التقليدي الذي يتمشى مع طبيعة البيئة المحلية ، قد تسلبها الزعيم المرتقب ، وليس لنا في هذا الموضوع أن نناقش الفكرة فكرة المهدي من ناحيتها الدينية الباطنية ، فهذه الفكرة قديمة ترجع إلى أقدم العصور ، وقد دخلت هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي ، وأخذت في الظهور ، بين الفينة والفينة ، متكيفة بالظروف المحيطة بها ، وكانت ركناً أساسياً في الشيعة ، قامت عليها فكرة الامام المخفي «أو المكتوم» وقد عرف هذا الامام «بالمهدي» ليمشى في ذلك مع التكليف الذي حض عليه الاسلام بالدعوة إلى اتباع الدين ، التي تقوم على بناء مجتمع سليم راسخ القواعد ، يؤدي رسالته في الحياة على الوجه الذي حددته الرسالة الاسلامية . وقد حض الدين قادة الرأي من العلماء وغيرهم بأن فرض عليهم القيام بهذا الواجب حيث جاء في الكتاب الكريم «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون» (آل عمران) .

ومن هذا يتضح لنا ان دعوة الامام المهدي في السودان لم تكن إلا استجابة لمشاعر الأهلين التي انطبعت بما تركه حكم الأوربيين من أثر سيء ، وكان لتلك المشاعر انعكاساتها التي تمثلت في شخصية الامام المهدي وطبيعته الدينية . فالتفوا حوله وتناصروه وبخاصة في المناطق الواقعة في دار غرب والنيل الأزرق وهي المناطق التي كانت تعتمد اعتماداً كلياً في اقتصادياتها على الرقيق في القيام على الأرض والرعي والخدمة البيتية الخ الخ . ولم يكن من السهل معالجة الرقيق دون أن تعطى للمجتمع الفرصة الكافية لتعديل نظمه . وقد طاف الامام المهدي البلاد من أقصاها إلى أقصاها ولمس ما اختلج في قلوب الأهلين من روح التذمر واليأس على يد أولئك الفرنجة ، ومن عاونهم من الوصوليين ، ومن هؤلاء من وصل إلى رتب عسكرية عالية بحكم الوظائف الادارية التي أوكلت إليهم ، وكان لهذا الخليط العجيب أثره في أضعاف الجهاز الإداري وتسرب الفساد إلى صميمه ، مما جعله عاجزاً عن القيام بواجباته من المحافظة على أمن البلاد ورفاهيتها ، فتهيأت بذلك الفرصة المناسبة ليعلن الامام المهدي رسالته لمحاربة الادارة الأوروبية ، وما كان للحركة المهدية أن تسلك طريق

العنف لولا الظروف السيئة التي جعلت مقاليد الحكم في يد الفرنج ، مما جعلها تنحرف عن طريقها الديني إلى العنف والقتال . ولو كانت في البلاد إدارة تقدر الظروف المحلية وتهدف في أعمالها إلى خدمة الشعب لكان لها أن تستنفذ أهدافها في طريق سلمي ، والدليل على ذلك قائم فيما سبق أن ذكرناه عن الفترتين اللتين كانت فيها تقاليد الحكم في يد السلطة السنارية وفي الخمسين عاما الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان .

وقصة الحركة المهدية في السودان التي نادى بها الإمام محمد أحمد في حاجة قوية لدراستها دراسة عميقة لما لها من صلة بالمجتمع الاسلامي بصفة عامة وبالسودان بصفة خاصة . فهذه الحركة لها طابعها الخاص ولها ظروفها المحلية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند معالجتها . وما زالت تنقصنا الوثائق المحلية الاصلية لتحقيقها تحقيقاً علمياً سليماً وتنقيتها من الشوائب التي قد لحقت بها من أقلام الكتاب من الاوروبيين ، الذين عملوا على تصوير تلك الحركة بما كان يدور في أفكارهم التي لم تكن في حالة من الاحوال تعبر صادقة عن الحال . وقد أضفى هؤلاء الكتاب على هذه الحركة من خيالهم الامر الذي ترك أثره في أذهان الكثيرين بأنها كانت قطيعة بين شطري الوادي ، وهذا لم يكن له وجود في تفكير الإمام المهدي ، بل بالعكس كان يهدف نحو تحرير دار الاسلام من النفوذ الأوروبي (٨٩) والتعاون بين المسلمين . وهناك وثائق كثيرة مبعثرة هنا وهناك (٩٠) . ونعتقد ان الوقت قد حان لجمعها لتكون في متناول الباحثين ، ليتمكنوا من كتابة تاريخ صحيح له ماله وعليه ما عليه ، وللإفادة من ذلك في معالجة مشكلاتنا الكثيرة ، فالمنشورات التي أصدرها الإمام المهدي لم تجمع

(٨٩) جاء في جورنال الحوادث الذي كتبه اللواء محمد نصحي باشا عندما كان في شندى في انتظار حملة أنقذ غوردون ، ما يأتي في حوادث الخميس ١١ محرم سنة ١٣٠٢ هـ « ... فلا يليق بأيمانكم أن تجعلوا أمامكم الفردون الكافر الذي لا شبهة في كفره وأنتم مغروين به ، ومنتظرون المدد من الانجليز ، وهم أعداء الله ورسوله وأعداء المؤمنين مع علمكم ببعدهم عنكم ... ويا حضرة الباشا وعشير الضباط والعساكر ان كنتم الجميع من بر مصر فتذكروا عدوان الانجليز اليكم وما جرا لعرابي معهم وتملكهم على بلادكم وأراضيكم وخراجكم ... » هذه قد وردت ضمن الكتاب الذي وجهه امراء المهديّة الذين كانوا في منطقة شندى إلى اللواء محمد نصحي باشا .

(٩٠) دائرة المعارف الاسلامية طبعة سنة ١٩٥٣ - الكراسة الأولى - ترجمة الخليفة عبد الله التعايشي بقلم هلسون الذي أوضح أن توجد حوالى الخمسمائة والألفين من الوثائق الخاصة بالمهدية والتي وضعت عليها إدارة السودان يدها بعد موقعة أم درمان .

بعد في صورة كاملة مرتبة ترتيباً زمنياً وتعمل لها قوائم موضوعية ، توضح لنا مراحل تطور طبيعة الرسالة والظروف التي أحاطت بكل حالة ، وهذه سوف تترجم لنا في صورة واضحة الأحداث والملاسات .

والإمام المهدي كما هو معروف لم يعمر طويلاً بعد وصوله إلى الخرطوم واتخاذ أم درمان مركزاً لإدارة أعماله ، فلم تتح له الفرصة الكاملة لارساء قواعد جديدة لرسالته ، وانتقلت ولاية الدعوة من بعده إلى يد الخليفة عبد الله التعايشي الذي واجه أكثر من مشكلة اقتنصت كل جهوده ونشاطه لمعالجتها ، ولا يفوتنا أن نذكر أن الحركة المهدية قد أثارت حفاظ الكشيرين من رجال القبائل وغيرهم ، وقد لعب بعض هؤلاء دوراً هاماً في أذكاء الفتنة والدسائس كما عملوا على توسيع شقة الخلاف بين الخليفة عبد الله وأقارب المهدي . وفي الواقع ان هذه الدسائس لم تكن إلا مظهرأ من مظاهر الصراع الخفي بين المهدية والكارهين لتنظيماتها ، التي حرمتهم الكثير مما كانوا يزاولونه من نشاط .

وهناك مسألة العلاقات الخارجية ، فقد كانت بريطانيا كما ذكر بلنت في كتابه « غوردون في الخرطوم » (٩١) ، كانت مهتمة بهذه القضية على طريقتيها التقليدية لاكتساب الوقت ومراقبة الحال وتطوراته عن كשב بما تستجمعه من معلومات من مبعوثي المهدية ، وقد بدأت المفاوضات فعلاً عن طريق السيد جمال الدين الأفغاني وان شروطاً قد عرضت لتكون أساساً للمفاوضات للوصول إلى اتفاق على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه ، وكانت هنالك علاقات بين النجاشي منليك - أمبراطور إثيوبيا والخليفة عبد الله وكانت وراء إثيوبيا فرنسا كما سنتعرض له في القسم الثاني. كما ان ملك الأنبيورو قد أرسل بعثة إلى السودان (٩٢) عندما وصلت إليه أخبار انتصارات زعيم البلاد على الرجل الأبيض (الانجليز) وكان هدف هذه البعثة الحصول على مساعدة ذلك الزعيم لطرد الانكليز من أوغندا ، وقد حجز هذه البعثة عامل الخليفة عربي دفع الله في الرجاف وكانت الحال في السودان قد قاربت نهايتها.

(٩١) بلنت ص ٥٩٦

(٩٢) تقرير الخبائر السودانية رقم ٩٦ - دتقلا عن مجلة أوغندا مجلد ١٩ مارس سنة

٩٤ / ١٩٥٥

الامام المهدي

اختلفت الرواية في تاريخ مولده (٩٢) ، فنعموم شقيق يقول انه قد ولد بجزيرة « لب » (في دنقلة) في عام ١٨٤٢ م وذكر ابراهيم فوزي ولد المهدي في عام ١٨٣٤ م بجزيرة الحناق ، وفي قول يؤيده السيد عبد الرحمن المهدي ان الامام المهدي قد ولد في الاسبوع الثاني من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤ م وينتمي الى بيت الولي نجم الدين (المدفون في القاهرة) وقد خرج من هذه الاسرة أكثر من فقيهه اشتهروا بالعلم والولاية أضرحتهم ما زالت قائمة وبخاصة في أسوان وبلاد النوبة السفلى وتعرف الشعبة التي ينتمي اليها بالعون اللاب نسبة الي « عون الله » وهو الابن المباشر لنجم الدين - ويسكن هؤلاء في شمال النوبة السفلى وفي أسوان ولا يعلم على وجه التحديد الظروف التي دفعت هؤلاء الى الانتشار جنوباً ، وفي أي الفترات ، وكان والد الامام المهدي يشتغل بالنجارة في صناعة المراكب والسواقي ، وقد أنجب خمسة أبناء منهم اثني واحدة وأربعة ذكور اشتغل ثلاثة منهم في صناعة المراكب أما رابعهم فهو « محمد احمد » فقد ذهب الى الكتاب وحفظ القرآن ودرس الفقه والتوحيد والتصوف في خلوة (كتاب) الفقيه الهاشمي بالقرب من كرري (شمال أم درمان) ثم انتقل الى خلوة الشيخ محمد الشنقيطي ثم الى خلوة الشيخ الامين الصويلح بمسيد (مسجد) ود عيسى ، ثم الى خلوة الشيخ الامير ، وذهب بعد ذلك الى الفقيه الشيخ محمد الضكير (استبدله المهدي بالخير) في الغبش (في بربر) نخرط فيما بعد في سلك تلاميذ الشيخ محمد شريف نور الدايم في عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ / ١٨٦١) ، وبقي حواراً (تلميذاً) لهذا الشيخ ما يقرب من العشرين عاماً .

فقد جاء في قصيدة نظمها الشيخ محمد شريف نور الدايم ما يلي :-
لقد جاء في عام زع (٩٣) لموضع على جبل السلطان (٩٤) في شاطئ البحر

(٩٢) قال الامام المهدي في نسبه الآتي :

محمد المهدي بن عبد الله بن عبد الله بن فحل بن عبد الولي بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف ابن علي بن احمد بن علي بن حسب النبي بن صبير بن النصر بن عبد الكريم بن حنين بن عون الله ابن نجم الدين (المدفون في القاهرة) بن عثمان بن موسى بن ابي العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب ابن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن عبد الباقي بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط ابن الامام علي بن أبي طالب .

(٩٣) عام زع بحساب الأبجدية ٧٧ (١٢) هـ (١٨٦٠ / ١٨٦١) م

(٩٤) جبل السلطان شمالي كرري - أم درمان .

يروم الصراط المستقيم على يدي فبايعته عهداً على النهي والامر
فقام على نهج الهداية مخلصاً وقد لازم الاذكار في السر والظهر
الى أن يقول :

وكان لدينا عيشة صدقاتنا وخادمنا عشرين عاماً من العمر
الى الخمس والتسعين (٩٥) أدركه القضاء على ماضى في سابق العلم بالشر
بصحبة شيطان من الجن ايس وشيطان انس وافقاه على الضر
وقال :

فقال أنا المهدي فقامت له استقم فهذا مقام في الطريق لمن يدرى
وخادعنى بالقول كالمهد ابنكم ومحسوبكم في الحب في عالم الذر
فقم بي لنصر الدين نقتل من عصا فأنت لك الكرسى ولى دول الغير (٩٦)

* * *

وقد أكد الشيخ محمد شريف مقرر الدائم لنعوم شقير في عام ١٨٩٨ م (بعد
فتح أم درمان) ان سبب العداء بينه ومحمد احمد مرجعه الى أن قد نهاه عن دعوته
بالمهدية وقد أنكر أنصار المهدي هذا القول كما ذكر شقير ويقولون ان أصل العداء
هو انصراف الناس عن محمد شريف وميائهم الى محمد احمد بالعميدة والاتباع ويبدو
ان القول بأن سبب الخلاف بينهما بسبب الأفراح التي أقامها الشيخ محمد شريف
بمناسبة ختان أولاد والرقص والموسيقى يحتاج إلى دليل . وسواء كان هذا أو ذاك
فان الشيخ القرشي من مشايخ السمانية (٩٨) المناوئين للشيخ محمد شريف ، قد اجتذب محمد
احمد اليه وأكرم وفادته ، واشاع ان محمد احمد قد انفصل عن شيخه الذي خالف
الشريعة والسنة ، لما بين الشيخين من جفاء .

ومما تقدم ذكره نجد ان فكرة الدعوى المهدية ، قد راودت محمد احمد في عام
١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) وتميزت هذه السنة بالذات بمكاشفة صاحب الدعوة لشيخه
محمد شريف نور الدائم بأنه المهدي ، وقد نهاه شيخه عن ذلك ، كما تميزت بقيام

(٩٥) عا ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م .

(٩٦) أنظر القصيدة بأكملها في نعوم شقير جزء ثالث ص ١١٦ / ١١٧

(٩٧) أنظر المصدر السابق ص ١١٨ .

(٩٨) مؤسسها الشيخ الطيب ود البصير وكانت بينه وبين الشيخ محمد شريف مودة مفقودة .

الفقيه إدريس ومعه جماعة من أنصاره باعلان العصيان على الحكومة ، التي أرسلت باخرة حربية فتسكت به وشتت رجاله وقتل الفقيه في القراصة (على النيل الأبيض جنوبي الخرطوم) ثم أرسل غوردون لأخته بما يفيد ان السودان قد بدأ يتهيأ للخلاص من الحكومة واسترداد حريته - وغوردون كما معلوم كان حاكماً عاماً للسودان من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ م . وان الخطة التي سار عليها في حكمته في تلك الفترة قد هيأت التربة الصالحة لظهور الدعوة الإصلاحية وقد ذكر الشيخ محمد شريف في قصيدته آنفة الذكر ان الامام المهدي طلب من شيخه المعونة لنصرة الدين وعرض على شيخه أن يكون له الكرسی الرئاسة) ويقوم هو بالعمل - ومن هنا بدأ جانب من الصراع الذي أشرنا اليه من قبل .

وإذا رجعنا إلى الكتاب الاول ، كما أجمعت الروايات المحلية ، والذي وزعه الامام سرّاً بين أصحابه والاختصاص من رجال القبائل والفقهاء ، نجد انه قد صرح بدعواه بالمهدية وطلب إليهم الهجرة والانضمام اليه في حركته الإصلاحية الدينية ، ومبايعته على الجهاد في سبيل ذلك وكان ذلك الكتاب في التاسع والعشرين من يونيو من عام ١٨٨١ م أي بعد ثلاثة أعوام تقريباً من أول حديث له مع شيخه عن مهديته أما هذه الدعوة فقد أخذت مظهرها العلني بعد لقائه بالسيد عبد الله التعايشي الذي قال له يا سيدي أنا عبد بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة ، وقد سمعت بصلاحك في دار الغرب فحُثت لأخذ الطريقة عنك ، وكان لي أب صالح من أهل الكشف وقد قال قبل وفاته انك ستقابل المهدي وتكون وزيره ، وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته ، فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها ، فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله (٩٩) ، فالحركة المهدية بدأت في أولى مراحلها كظاهرة اجتماعية تحكم فيها الطابع المحلي للمجتمع ، إلا أن هذه الحركة قد تأثرت بالأحوال السياسية العامة وبمجرى الأحداث في السودان وما أصاب الأهالي من تنكيل وصرامة في تنفيذ القوانين والطلبية (تسخير الأهالي للقيام بأعمال لسداد مال المالى وإلى ما غير ذلك) .

رأى الامام المهدي من نفسه القيام بدعوته الإصلاحية واشتبك مع شيخه في نزاع في هذا الصدد وانفصل عنه في ذلك العام . وذهب إلى الشيخ القرشي ود الزين

(٩٩) نعوم شقير تاريخ السودان ج ٣٠ ص ١٣٠ وما بعدها .

وهو من المشايخ لطريقة السمانية أيضاً . وقد توفي هذا الشيخ بعد زمن وجيز من زيارة الإمام المهدي له . وخرج الإمام في طوافه في البلاد السودانية ، وكان لما رآه من تدهور بالغ الاثر في نفسه ما اهتزت معه مشاعره ولما عاد لبناء قبة شيخه الشيخ للقرشي تقابل مع السيد عبد الله التعايشي كما أشرنا من قبل ، واختار الإمام الجزيرة « أبا » التي اتخذ فيها غاراً للعبادة مركزاً لدعوته الجديدة ويرجع اختياره لهذه الجزيرة الى موقعها بالنسبة لغرب السودان (كردفان) وفيها الموطن الصالح لنشر دعوته لأن هذه كانت بيئة بدائية وأصاب المجتمع فيها الكثير من المحن بسبب النخاسة وما إقترن بها من تنكيل واضطهاد وإرهاب الأهلين .

وقد بدأ الإمام المهدي رسالته بوصفه « مهدي رسول الله » ثم صار « المهدي المنتظر » ثم انتهى إلى « إمام الزمان » وجاء بعد وفاته آدم محمد البرقاوي في عام ١٨٨٧ وادعى انه « نبي الله عيسى » وظهر من بعده « النبي عيسى » في دار تامة في عام ١٨٩٥ م وتأتى مرتبة نبي الله عيسى بعد ظهور المهدي المنتظر .

وكانت أولى الهزائم الحكومة في الجزيرة « أبا » نقطة تحول في الحركة المهدية فقد ترك الجزيرة إلى مهجره في جبل قدير (جنوبي شرقي كردفان) واتخذ من هذه المنطقة مركزاً لإدارة حركته . وهي الملجأ الطبيعي لبسط نفوذه ونشر دعوته وهناك التف حول المناوون للحكومة .

وبقي الإمام المهدي في منطقة جبل قدير فترة من الزمن يرتب فيها شئون رسالته، ويرسل الدعاة إلى مختلف المناطق والأقاليم ، كما كان يرقب نشاط الحكومة المركزية التي كان في غاية من الضعف والخور بسبب تطور الأحداث في مصر والتي انتهت بالحركة العرابية ونزول الانجليز في البلاد وصار ضغطها على رجال الحكومة في مصر أمراً واجب التنفيذ وكانت الإدارة في السودان لا تقدر الموقف وخطورته وصارت تعالجه في صورة أن دلت على شيء فانها تدل على جهل فاضح فكانت ترسل التجريدات دون أن تعني بدراسة تفصيلية لما قد تواجهه تلك الحملات من صعوبات ووضع الخطط الكفيلة بمواجهة تلك الصعوبات فكان طبيعياً أن ينتهي أمر تلك الحملات إلى الفناء .

وعمل الإمام المهدي بعد توطيد سيطرته في تلك المنطقة على تنظيم الجيوب المعادية لحركته في داخل نطاق هذه المنطقة وهي جبل الجراداة الذي رفض أهله قبول الدعوة في أول الأمر ، ثم باره والطيارة وغيرها من المراكز التي كانت فيها

حاميات مصرية ، والدلنج التي كانت فيها محطة تبشيرية مسيحية واتجه بعد ذلك صوب الأبيض التي استولى عليها بعد قتال مرير في ١٧ يناير سنة ١٨٨٣ م . كما انه راسل السيد محمد المهدي السنوسي ليقبل دعوة و ليشغل كرسي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وطلب منه الحضور إلى السودان أو القيام في جهته والغارة على مصر . وقد أرسل السنوسي رسولا من قبله ليستطلع جلية الأمر وعاد الرسول بعد مقابلة الامام المهدي في الأبيض . ولم تسمع شيئاً بعد ذلك عن علاقته مع السنوسي . كما ان الامام قد أرسل إلى السلطان راجح فضل الله (١٠٠) طالباً منه العودة من بلاد الغرب إلى السودان . وحدثت مشاكل داخلية بين كبار رجال المعسكر المهدي منها ما حصل مع ود المنة وغيره من الزعماء المحليين ومقتلهم . وقد اختلفت الرواية في أسباب مقتل ود المنة فابراهيم فوزي يقول ان الامام والخليفة عبد الله قد خشيا من مطامعه فتخلصا منه بتدبير قتله (١٠١) وفي قول مندوب الخديو توفيق الأمير الای احمد بك حمدي ، ان ود المنة قد أغار على القافلة التي كانت محملة بغنائم الأبيض والتي كانت في طريقها إلى جبل قدير (١٠٢) لأنه وجد أن الامام المهدي لم يعطه نصيباً منها .

وأخذ الامام المهدي في إعداد جيوشه استعداداً لمواجهة ما قد ترسله الحكومة من قوات لقتال ، واشتبك مع هكس في موقعة شيكان التي هزمت فيها الحملة وفنيت عن آخرها ، وبعدها استسلم سلاتين مدير دارفور وفي أوائل عام ١٨٨٤ م استسلم لبتن مدير بحر الغزال ، وأرسل قوة لمناوشة أمين باشا في خط الاستواء ، وبعد أن استتب له الأمر في كردفان ودارفور وبحر الغزال ، وبعد ما اطمأن من ناحية خط الاستواء أعد حملته إلى الخرطوم . وقد انتقلت الحركة المهدية بعد سقوط الخرطوم إلى نهاية المرحلة الأولى وبداء مرحلة جديدة ، وهي مرحلة تأسيس جهاز للإدارة . وكما سبق أن أشرنا أن التنظيمات التي فرضها الامام المهدي لارساء قواعد رسالته ، قد أثارت حفاظ بعض زعماء القبائل وغيرهم ، ودخل بذلك في صراع خفي لم تشتد وطأته إلا بعد انتقال الامام المهدي إلى الرفيق الأعلى ، وتسلم الخليفة النعاشي الأمر الرسالة ، فبدأت الغيرة والحسد كمظهر من مظاهر الصراع الخفي ، تشير الفتن

(١٠٠) جاء السلطان راجح فعلا غير انه رجع بعد وصوله الى حدود دارفور عندما سمع بوفاة الامام المهدي .

(١٠١) فوزي جزء ثان ص ١٦٥ .

(١٠٢) يوميلت الأمير الای احمد بك حمدي .

والشكوك ، وانقسمت الصفوف واشتد الكرب والجهاعات وتفشت الأمراض ، وصار الخليفة يواجه كل يوم مشاكل جديدة ، اختفى معها الهدوء والاستقرار ، فاستعان الخليفة بأهله من البقارة وقد زاد هذا الاجراء الامور تعقيداً وكثرت الفلاقل ، وبدأت خيوط الاستعمار في العمل ، وانجلترا كمانت تخشى لإنهياراً مفاجئاً لسيطرة الخليفة قبل أن تستعد مصر - على حد قول السياسة البريطانية لاعادة الأمن والنظام في السودان ، وكانت هنالك أيضاً أتيوبيا تحاول التحالف مع الخليفة ومن ورائها فرنسا ، وهدف هذا التحالف مقاومة تقدم الانجائز نحو حوض النيل الاعلى وأرسلت فرنسا حملاتها المتتابعة إلى حوض بحر الغزال لاحتلاله والاتصال بالخليفة وحكومته في تحالف يربطه بفرنسا . وكانت انجلترا ترقب هذا النشاط الفرنسى الأتيوبى الذى زادت خطورته على مصالحها بعد هزيمة الطليان في عدوة . وقد حطمت هذه الهزيمة الجناح الذى أقامته انجلترا من الطليان في شرق السودان وشمال أتيوبيا ، فصار الطريق معبداً أمام فرنسا وحلفائها للتوغل في حوض النيل الاعلى وفى أتيوبيا ولتحقيق هدفها في إقامة حائط يشق أفريقيا الوسطى من المحيط الاطلسى إلى البحر الاحمر يعترض الخطة البريطانية التى كانت تريد امتداد سيطرتها من الجنوب إلى حوض وادى النيل - فأُسْرِعَتْ بأرسال الحملة المصرية إلى السودان وادى النيل بإسم مصر ، وانتهى القرن التاسع عشر الميلادى بإنهيار سيطرة الخليفة وذهابه وقيام حكومة إدارية من نوع آخر ، وقد شهدت السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر نهاية صراع طويل مرير بين فرنسا وانجلترا كما سنبينه في القسم التالى .

THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY

LIBRARY

LIBRARY

مركز السودان والصراع الدولي
في
حوض وادي النيل

أوضحنا في أكثر من موضع فيما سبق مركز حوض النيل في الاستراتيجية الدولية وصراع الدول الاستعمارية لتنفرد إحداها بالسيطرة على هذا الجزء من القارة الافريقية ، الذي كان وثيق الصلات بين الشرق والغرب بعمامة وبين أقاليم البحر الأبيض المتوسط بخاصة ، وترجع تلك العلاقات إلى أقدم العصور التاريخية . وبيمننا في دراستنا هذه أن نتعرف على مراحل التطور في الصراع بين الدول واتجاهها نحو القارة الافريقية ، فقد بدأ الصراع مرحلته الأولى في القرون الست التي سبقت القرن التاسع عشر الميلادي مستمداً جذوره من الحروب الصليبية والتطور الزراعي وما تبع ذلك من نمو الدول الأوروبية وتقدم الصناعات . وقد تميز التوسع الأوروبي بالطابع الذي اخفى بين جنباته العوامل الاقتصادية لانتزاع الاحتكار التجاري من يد الممالك في مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ، وهما حلقة الاتصال بين الشرق والغرب .

اتجه الأوروبيون من الفرنسيين والدومنيكان خلال القرن الثالث عشر الميلادي صوب افريقيا الصغرى «تونس والجزائر ومراكش» حيث تسامح المسلمون القائمون على الأمر وأذنوا لهم بتأسيس مراكز للتبشير . وكان ذلك والحروب الصليبية تدور رحاها في شرق البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أن هذه الجماعات التبشيرية قد جاءت إلى هذه الديار وتحق وراءها أغراضاً سياسية أكثر منها تبشيرية . والغالب على الظن أنهم كانوا يعنون في الابقاء على القطيعة والفرقة بين مسلمي هذه المنطقة وبين مسلمي شرق البحر الأبيض المتوسط حتى لا تتشكل القوى لمقاومة السيطرة الأوروبية التي حمل لواءها الباباوات .

وجاءت في أعقاب المبشرين جماعات من التجار الأوروبيين من المسيحيين واليهود واشتغلوا في تجارة الذهب والعاج وغيرها من السلع التي تنقلها القوافل عبر الصحراء إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط في أفريقيا الصغرى . ويصور لنا تسامح المسلمين لونا من الفرقة المذهبية والاجتماعية التي جعلت المجموعات الاسلامية في الجانب الغربي من أفريقيا في عزلة عن مجريات الأحداث في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الأوضاع العميقة الجذور في المجتمع الاسلامي جذيرة بالبحث والتحقيق . فالدين الاسلامي لم يكن في حال من الاحوال مسئولاً عن هذه الأوضاع لكنها هي

الطبيعة البشرية في مقوماتها القبلية التي لم تتأثر بالروح الاسلامية التي تدعو إلى الوحدة المتناسكة .

وتوالت بعد دخول المبشرين والتجار البعثات المتلاحقة للكشف عن ساحل أفريقيا الغربي لغرض تحويل التجارة بعيداً عن الشرق الأوسط (شرق البحر الأبيض المتوسط) وللوصول إلى أتيوبيا الدولة المسيحية التي ترامت أخبارها إلى أوروبا . وكانت المسيحية الأوروبية تهدف من وراء وصولها إلى أتيوبيا إلى توطيد العلاقات لعقد محالفات دينية مسيحية لمحاربة الممالك المسلمين في مصر والدولة العثمانية فيما بعد (١) .

وقد أصاب النشاط الكشف في أفريقيا جمود نسبي خلال القرن الثامن عشر الميلادي بسبب منافسات الأوروبيين في السباق للسيطرة على الأراضي الأمريكية لاستغلالها في الزراعة . واشتد الطلب على الأيدي العاملة للقيام بالزراعة في الممتلكات الجديدة عبر المحيط الأطلسي ، وقامت على الشاطئ الغربي لأفريقيا سلسلة من المحطات لصيد الرقيق وتصديره وقد بلغت هذه التجارة الشائنة ذروتها في ذلك القرن وبدأت بعض الدول الأوروبية تشعر بوخز الضمير ، ومن ورائه العوامل السياسية كما أوضحناه من قبل .

وشهد القرن التاسع عشر الميلادي تطوراً في الاتجاهات نحو التوسع تحت ضغط التقدم الصناعي والاقتصادي ، وتدفق الأموال الأوروبية ، وبرزت عناصر جديدة في الحقلين الاقتصادي والسياسي ، فالسلطة كانت وقفساً على طبقة الأشراف والنبلاء ودخلت مع تقدم الصناعة طبقة من العامة ارتفعت بترائها ، كنتيجة لنشاطها الصناعي إلى مستوى اضطرت معها حكوماتها لكي تفسح المجال أمام المجدين من الطبقة الجديدة للدخول في سلك الوظائف العامة الكبرى ، التي كانوا محرومين منها في الماضي ، كما أنها سهلت لهم الوصول إلى مراتب النبلاء والأشراف . ونجد هذا الاتجاه بارزاً في بريطانيا .

وقد تأثر التوسع الأوروبي إلى حد كبير في طبيعته وفي سيكولوجيته بما ورثته كل من الدول الأوروبية عن ماضيها القريب والبعيد ، وبما اكتسبته في تطاحناتها مع

(١) راجع ص ١٢ وما بعدها من الكتاب الأول من هذه الدراسة .

منافسها خلال القرون التي سبقت القرن الثامن عشر ونجد أثر الكنيسة واضحاً في المراحل الأولى من التوسع الذي قام بالتمهيد له نفر من رجال الدين والمغامرين الذين اتخذوا من الدين ستاراً لهم ، وقد تبلورت الأفكار فيما بعد واصطبغت بالحاجة الاقتصادية التي اكتسبتها من التوسع الصناعي وظهور طبقة جديدة من أصحاب الثراء متأثرة في ذلك بعوامل ثلاث هامة ظهرت بين الدول الأوروبية وهي «أولاً» التطور الصناعي واستخدام البخار والكهرباء ، ثانياً ظهور القوميات والملوكيات ، ثالثاً إشراك الشعوب في الحكم - الديمقراطية . وقد تطورت هذه العناصر بالاضعاف القديمة ، فأخرجت الأمم من تعريفها الضيق ، الذي كانت تراعي فيه مصلحة النبلاء والاشراف وغيرهم من أصحاب الاقطاع إلى المجال الدولي ، واستخدمت الوسائل العنصرية في استثمار الأرض وغلاتها وأخذت التقاليد القديمة في الزراعة في الاختفاء ، وأخذ النشاط الصناعي في الازدياد .

وقد كانت بداية مراحل الصراع الحديث بنشاط بريطانيا لمقاومة الروح الثورية التي نشرتها فرنسا في الفارتين الأوروبية والأمريكية الأمر الذي سبب متاعب لتلك الدولة ، فكان أن عملت على تبديد أحلام فرنسا في بسط نفوذها في الأراضي الواطئة (٢) فاتجهت فرنسا إلى الشرق الأوسط لتضرب إنجلترا ضربة قوية بتهديد مواصلاتها التجارية مع الشرق وكانت الخطة التي جاءت الحملة الفرنسية لتنفيذها تتلخص في احتلال مصر ، شق قناة بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، لبسط سيطرة فرنسا على حوض البحر الأحمر وجعله خالصاً للملاحة الفرنسية ، واستطاعت إنجلترا بقوة أسطولها البحري ووسائلها الدبلوماسية إخراج الفرنسيين من مصر بعد احتلالها بما يقرب من الثلاث سنوات ، وهكذا استطاعت إنجلترا أن تبديد أحلام فرنسا مرة أخرى .

ومن الجدير بالملاحظة أن فرنسا قد نزلت في أرض مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وخرجت منها في السنة الأولى من القرن التاسع عشر، وظهرت فرنسا في مثل التاريخ من نهاية القرن التاسع عشر في حوض النيل الأعلى وخرجت منه أيضاً بعد ذلك بثلاث سنوات تقريباً وذلك عندما خرجت حملة مارشان في نهاية القرن التاسع عشر وحملة تونكوود خرجت من شامبي في السنة الأولى من القرن

(٢) كوبان - السفراء والبعثات السرية يقدم لنا دراسة عن الوسائل والأساليب التي اتبعتها إنجلترا في صراعها الخفي لوقف النفوذ الفرنسي .

العشرين . وقد طويت صفحة هذا الصراع بين إنجلترا وفرنسا في حوض النيل والذي استمر أكثر من قرن من الزمان ، بالوافق الودي الذي تم توقيععه في عام ١٩٠٤ وقد أعلنت إنجلترا في هذا الوفاق أنها لا تنوى إدخال أى تعديل على الوضع السياسى لمصر ، وأعلنت فرنسا من جانبها « أن تتوقف عن نشاطها بمطالبة إنجلترا لتحديد فترة احتلالها لمصر » .

وكان الصراع في خلال القرن التاسع عشر بين إنجلترا وفرنسا حلقة متشابهة الاطراف والنزعات مرتبطة بعضها ببعض بالرغم من اختلاف المظاهر بعض الشيء متأثرة في ذلك بالظروف الخاصة وانقسمت الدول الأوروبية معسكرات يناهض بعضها البعض ، وقد تزعمت إنجلترا كتلة من هذه الدول لمحاربة فرنسا التى قادت معسكراً ثانياً ، وانتقلت بين هذين المعسكرين هذه الدولة أو تلك حسباً أملتة سياستها الخاصة لتحقيق أمانها مستغلة في ذلك العداء المستحكم بين الدولتين الكبيرتين ، وكانت فرنسا تحاول جاهدة أضعاف إنجلترا والتفوق عليها في جميع الميادين السياسية والاقتصادية . وكانت إنجلترا بدورها تعمل على الحد من انتشار الأفكار الثورية الجديدة التى نادى بها فرنسا والتي سببت لها متاعب كثيرة وبخاصة في أمريكا ، كما سبق أن أشرنا .

وقد أثار احتلال فرنسا لمصر مخاوف بريطانيا بالنسبة إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الذى يجرى فيه شريان مواصلاتها مع الشرق القريب والبعيد وكانت إنجلترا في خشية من عودة الفرنسيين إلى مصر ثانية ، كما كانت في خوف من أن تعتمد فرنسا إلى قفل البحر الأبيض المتوسط في وجه الاسطول الانجليزى بحكم موقعها عليه وبسلطانها على إيطاليا ، لذلك نجد أن بريطانيا قد أخذت في فتح طريق لها إلى وادى النيل من ساحل البحر الأحمر بعيداً عن متناول الاسطول الفرنسى ، فجاءت عن هذا الطريق بثلاث أورط هندية تحت قيادة السير دافيد بيرد الذى نزل في القصير ومنها إلى النيل وسافرت بالمراكب إلى رشيد التى وصلتها في نهاية أغسطس سنة ١٨٠١ م ، ويتبين لنا مدى خوف إنجلترا من عودة فرنسا إلى مصر أنها قد بقيت في أرض مصر لاكثر من عام بعد خروج الفرنسيين وتوقيع معاهدة أميان في ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ م التى لم تسكن إلا هدنة مؤقتة بين الدولتين ، فالحرب قد نشبت فعلاً بينهما في ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ م وبالرغم من المشاكل التى كانت تواجهها إنجلترا في أوروبا بسبب تسكتل الدول ضدها بزعمامة نابليون الذى أصدر قرار برلين بتحريم التجارة بين دول أوروبا

الخاضعة لنفوذ فرنسا وبين إنجلترا سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ،
فإن إنجلترا لم تغفل الوضع في حوض النيل وكانت تستعد لمواجهة ما قد يحدث فيه
من تطورات بتدخل الفرنسيين ومن ذلك أنها أرسلت بعثة إلى أتيوبيا برئاسة اللورد
فلتشيا ومعه هنري صولت القنصل الانجليزي في مصر ، للاتفاق مع النجاشي على منح
قواعد حربية في أرض الدناكل لاستخدامها لنزول الجنود البريطانية الهندية إذا
دعت الظروف إلى ذلك في حالة عودة الفرنسيين إلى مصر ، وجاءت هذه الفترة
حملة فريزر لمساعدة المهاليك ضد سلطة الباب العالي وكان عملها هذا مناقضاً لما جاء
في معاهدة أميان بشأن إعادة مصر لسلطة الباب العالي . وقد باءت هذه الحملة بالفشل .

وبعد حوالي الستين عاماً من خروج فرنسا من مصر عرض نابليون الثالث على
إنجلترا مقترحه بشأن تقسيم شمال أفريقيا على أن تكون مصر من نصيب إنجلترا ،
غير أن اللورد بالمريستون رئيس وزراء بريطانيا حينذاك رفض هذا العرض ورجع
هذا الرفض أنه قد وجد أن بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية هو خير ضمان لمصالحهم
ثانياً أنها (أي إنجلترا) لم ترداعياً في ذلك الحين لتحمل أعباء مالية بسبب بسط
حكمها على مصر ، وهناك نقطة هامة أخرى كان لها أثرها وهي أن الفكرة
الاستعمارية في ذلك الحين لم تكن قد تبلورت بعد وكانت بريطانيا في موقف المترقب
الحذر حتى تتجلى مطاعم غيرها من الدول ، لكنها لم تكن لتغفم عن نشاط
فرنسا وغيرها في هذه المنطقة ، واتخذت من الاحتياطات ما تواجه به التطورات
الدولية بعد افتتاح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ م الأمر الذي ازدادت معه أهمية
مصر في الاستراتيجية البريطانية ، لذلك نجد أن حملة نابيير على أتيوبيا في ١٨٦٧ /
١٨٦٨ م لم تكن في واقع الأمر إلا تجربة قامت به قوات عسكرية للأفادة من
نتائجها في حالة العودة لاستخدام هذا الشاطئ لغزو مصر إذ جاء إليها الفرنسيون .

وجاءت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا بعد أن اتخذت إنجلترا موقفاً سلبياً
من تطورات الأحداث التي انتهت بإعلان فرنسا الحرب على ألمانيا ، وكان من مصلحة
إنجلترا أن تدخل فرنسا في عراق يبعدها عن الميدان الدولي لفترة من الزمن ، قد
تطول أو تقصر ، وقد تركت هذه الحرب تنمداً في الفنون العسكرية وللصناعة ، فزاد
القلق بين دول أوروبا التي اهتمت بتأمين سلامتها بالدخول في محالفات ، التي تلتهم
عادة بالحرب بين المعسكرين المتنافرين ، وقد أبعدت الهزيمة التي حلت بفرنسا ، هذه
الدولة من ميدان الصراع مع إنجلترا لفترة بلغت ما يقرب من العشرين عاماً أخذت

في خلالها المنتجات الصناعية في الازدياد ، كما أخذت رؤوس الأموال الأوروبية في التدفق خارج مواطنها للاستثمار بطريقة أو أخرى وللحصول على المواد الخام الضرورية للصناعات ، وعملت الدول الأوروبية على حماية منتجاتها . الأمر الذي كانت من نتائجه عزل الجزائر البريطانية وحرمانها من أسواق القارة الأوروبية . واتجهت أنظار الدول صوب النوسع في أفريقيا لفتح أسواق جديدة لتصريف المنتجات وللحصول على المواد الأولية اللازمة للصانع ، وكانت فرنسا قد أخذت في استعادة قوتها بعد هزيمتها في الحرب السبعينية ، واتجهت بدورها نحو أفريقيا لإنشاء فرنسا الجديدة « كما حاولت ألمانيا أن تؤسس في هذه القارة « ألمانيا الجديدة » أما روسيا فقد كان اهتمامها موجهاً إلى آسيا ، وأن كل ما قامت به من نشاط في أسيويا كان مساندة منها لفرنسا في صراعها لضعاف مركز بريطانيا . وإذا نظرنا إلى خريطة أفريقيا نجد صورة واضحة للتسابق بين بريطانيا وفرنسا بصفة خاصة فشاطيء أفريقيا الغربي يكاد أن يكون سلسلة من المستعمرات التي تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا ، فهذه فرنسية وجارتها بريطانيا ثم فرنسية وبريطانية وهكذا وتقوم في خلف هذا الشاطيء الصحراء الكبرى وتسيطر عليها فرنسا .

٢ — تطور الصراع بين الدول :

شهدت النيف والستون عاما الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى تطورات خطيرة في اتجاهات الأوروبية بعامة وفرنسا وانجلترا بخاصة ، وقد سارت هذه الاتجاهات قدماً مع التقدم الزراعى والصناعى ، الذى كان له أثره في نظم الحكم ، كما كان لهذا التقدم انطباعاته الى شكلت أهداف الدول ، وقد خضعت تلك الأهداف بادی ذی بدء لتحقيق مطالب أصحاب السلطان ورجال المال وكان هؤلاء قلة تتحكم في موارد الدول وتدخل في محالفات ، انقسمت معها أوروبا معسكرات جمع كل منها أصحاب المصلحة المتقاربة ، وبالرغم من أن الدوافع التي حركت هؤلاء لبسط سيطرتهم كانت عاطفية غايتها تحقيق النفع لتلك الطبقة ولاظهار قوة هيبتها وتفوقها على منافسيها في الميدان الدولى ، فإن أولئك نفر من أصحاب السلطان ورجال المال كانوا يهدفون نحو تأمين طرق الملاحة البحرية وسلامة محطات تموينها وكان طبيعياً والحالة هذه أن يحدث الاصطدام بين الدول بسبب التسابق للسيطرة على الأماكن الاستراتيجية التي تتحكم في طرق الملاحة وموارد الخامات . ولم تشترك الشعوب مع

طبقة السلطان والمال في أهدافها لأن حالة الشعوب في ذلك الحين لم تكن قد بلغت الدرجة التي شعرت معها بالحاجة إلى أسواق جديدة لتصرف المنتجات المتزايدة، وللحصول على المواد الخام بأسعار تمكنها من المحافظة على أسواقها ومستوى صناعاتها أمام منافسة غيرها من الدول. ولهذا بقي التنافس في الفترة الأولى من القرن التاسع عشر قائماً بين أصحاب السلطان والمال في مختلف الدول وقد كانت وراء هذا التنافس العاطفة الشخصية ومطامعها المشوبة بالحسد والغيرة وحب الظهور بالقوة والنفوذ، وقد بدأ التنافس بين الدولتين اللتين تصدرتا التنافس وهما إنجلترا وفرنسا في حوض البحر الأبيض المتوسط وشواطئ غرب أفريقيا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يتطور هذا التنافس إلى المرحلة التي أضفت عليه المظهر الاقتصادي إلا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي، عندما أخذت الشعوب في المساهمة في هذه الاتجاهات عن طريق أموالها التي دفعت بها إلى خارج بلادها لاستثمارها والهجرة وإلى ما غير ذلك.

وقد أخفى المظهر الاقتصادي بين طياته أكثر من عنصر انتقلت من جيل إلى جيل مع رواسب الماضي، وكانت الدعوة إلى التبشير من أبرز العناصر التي تخلفت عن العصور الماضية، والتي استمد منها التوسع الإقليمي قوته، وسار التبشير جنباً إلى جنب مع العنصر الاقتصادي وصار كل منهما متمماً للآخر في تحقيق مطامع الدول التي أخذت في الازدياد إلى درجة أصيبت معها الدول بحالات من الصرع أفندتها قيمها الإنسانية.

وقد تميز مسلك كل من فرنسا وإنجلترا بطابع المجتمع في كل من البلدين، فالإنكليزي يؤمن بطبيعته، عن وعي وعن غريزة، بمصلحته في البحار وغايته في أن يحتفظ بقوة بحرية تتفوق على غيرها مهما كان الثمن على حساب الغير، ولم يكن للإنكليزي أصدقاء أبداً أو أعداء أبداً بل كانت البداية لمصلحته أولاً وقبل كل شيء فهو يقاوم غيره بكافة الوسائل الدبلوماسية أو بالحرب إذا اضطره الأمر للاحتفاظ بتوازن القوة البحرية، وقد اكتسب الإنكليزي من عراكة الطويل في البحار بالكثير من الصفات ما عاونته في المشاكل الاقتصادية وكان لجموده وبرود طبيعته الأثر الأول في مغالبة الشدائد.

أما الفرنسي فقد تأثر بالحروب الطويلة التي خاض غمارها ضد النبلاء والاقطاع والكنيسة وقد جعله كل ذلك سريع العاطفية، تصدر قراراته دون تمحيص ودون أن

يدخل في حسابه المكسب أو الخسارة كما يفعل الانكليزي شأنه في ذلك شأن شعوب البحر الأبيض المتوسط ، لذلك قد أفادت بريطانيا من أخطائه وصبرت عليه حتى يستنفذ طاقته فتغلب عليه ، والبريطاني بطبيعته تطوري والفرنسي ثوري .

وكان لمصر نصيبها الذي أسهمت به في الصراع بين الدولتين ، فقد كانت قاعدة المحور الذي دار حوله التطاحن لاكثر من قرن من الزمان ، وحاولت بريطانيا أن تستقطع من مصر أجزاءها الجنوبية باتهامها إياها بأنها ترغب في التوسع واستغلال الغير ، والحقيقة وواقع الأمر ينفيان هذا الاتهام نفياً قاطعاً . فصر في تاريخها القديم والحديث لم تحاول استعماراً كما عمل الأوروبي على تحقيقه ، لأن الشعب المصري بطبيعته لا يميل إلى ذلك ولم يشترك الشعب في عهوده المختلفة إلا قليلاً في الحروب التي شنها حكامه الذين استخدموا المرتزقة من الجند الأجانب ، وحتى في اشتراكه في بعض الحروب التي دفعت إليها ظروف القاهرة فإنه قد أعطى البلد الذي وصل إليه كامل حقوقه وعمل جاهداً لرفع مستواه في مختلف أوجه نشاط الحياة .

* * *

انتقل التسابق بين الدولتين بعد خروج فرنسا من مصر إلى شمال وغرب أفريقيا وصارت تنتقل المناورات والمداورات من نقطة إلى نقطة وكلها تهدف إلى منع إنجلترا من تثبيت أقدامها أو بسط نفوذها في صورة أو أخرى على حوض وادي النيل ، وكانت إنجلترا تعمل بدورها على تحطيم الخطط الفرنسية ويتبين لنا من الجدول المرفق مع هذا نشاط الدولتين في هذا المضمار ونرجو أن نستطيع الفارئ عنراً في تكرار ما سبق أن تعرضنا له بالفرد الذي يتطلبه البحث استكمالاً لعناصر الموضوع .

وبينما نجد ان بريطانيا كانت تحاول تصفية مشاكلها مع فرنسا بعد خروجها من مصر بعقد معاهدة اميان التي تعهدت فيها بريطانيا فيما تعهدت به من إعادة ممتلكات للدول ، بعدم احداث تغيير في وضع مصر وعلاقاتها بالباب العالي ، فانها - أي بريطانيا - كانت تخشى قيام فرنسا بغزو مصر مرة ثانية - لذا أرسلت حملة فريزر في سنة ١٨٠٧ م لمناصرة المماليك وإعادة سلطاتها على مصر والارتباط معهم بمعاهدة ، وقد فشلت هذه الحملة - وبعد ذلك أرسلت إنجلترا بعثة إلى الحبشة من اللورد فلنشيا وهنري صولت للحصول على قواعد في أرض الدناكل لنزول قواتها للزحف على مصر إذا قامت فرنسا منفردة أو مع بعض الدول المناصرة لها ، على قفل البحر الأبيض

المتوسط في وجه بريطانيا ، وعقدت بريطانيا معاهدة ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ م مع فرنسا اعادت بموجبها فرنسا ممتلكاتها ومؤسساتها ومصانعها في غرب أفريقيا ، ولم يمض طويل وقت حتى نزلت فرنسا في الجزائر في عام ١٨٢٠ م . وتنتقل من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى أتيوبيا لعقد معاهدة صداقة وتجارة في سنة ١٨٤٢ م مع يوحنا نجاشي شوا في أعقاب معاهدة ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤١ التي عقدتها بريطانيا مع النجاشي وقد جددت بريطانيا هذه المعاهدة في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ ارتبط فيها النجاشي وخلفاؤه من بعده بصداقة بريطانيا .

واتجهت بعد ذلك قوى التسابق بين إنجلترا وفرنسا إلى شرق أفريقيا وجزيرة مدغشقر ، فبريطانيا كانت تهدف نحو منع فرنسا من تلك المنطقة وأصدرت في عام ١٨٦١ م قراراً بتحكيمها في الخلاف بين ابني السلطان سعيد الذي كان يحكم زنبار من مسقط (في جنوب شرق الجزيرة العربية) وذلك بتقسيم المملكة قسمين ، وكان الجزء الأفريقي ويشمل زنبار من نصيب السلطان مجيد وتولى الابن الثاني للسلطان سعيد الجانب الآسيوي في مسقط ، وفي ١٠ مارس سنة ١٨٦٢ أعلنت فرنسا وإنجلترا اتفاقهما على المحافظة على استقلال كل من مسقط وزنبار وتركت بريطانيا مدغشقر لفرنسا وتبع ذلك ظهور النشاط الفرنسي عند مدخل البحر الأحمر حيث عقدت هذه الدولة معاهدة مع زعماء الدناكل في ١١ مارس سنة ١٨٦٢ م تخلى بموجبها هؤلاء الزعماء عن منطقة «أوبوك» وهذا حصلت فرنسا على نقطة أمامية لها خطرها على مدخل البحر الأحمر يبدأ منها الحزام الأفريقي الذي يمتد من شاطئ البحر الأحمر ويشمل منطقة حوض بحر الغزال وينتهي عند المحيط الأطلسي وكانت فرنسا تهدف من إقامة هذا الحزام ليكون حاجزاً أمام التوسع البريطاني شمالاً إلى حوض النيل وهكذا كانت لفرنسا نقطتان استراتيجيتان أحدهما في البحر الأبيض المتوسط بعد احتلالها للجزائر والثانية عند مدخل البحر الأحمر في «أوبوك» .

وبعد ذلك يسنوات قليلة حدث أن احتجز النجاشي تيودور بعض الرعايا البريطانيين في محبسه فأرسلت الحكومة البريطانية حملة الجنرال روبرت نايبير في ١٨٦٧ م لانقاذ هؤلاء الرعايا ، وبما يسترعى الالتفات ان هذه الحملة قد غادرت البلاد إلى أتيوبية بعد انتصارها على النجاشي الذي انتحر أثر هزيمته ، ولم تحاول أن تحصل على مغنم كما أنها لم تفرض عقوبات بل تركت الزعماء المحليين يتطاحنون حول العرش الأمر الذي استمر حتى ١٨٧٢ م عندما استطاع يوحنا حاكم التيجري أن يعلن نفسه نجاشياً ،

وفي الواقع ان بريطانيا قد اكتسبت هدفين من خروجها على هذه الصورة من أتيويا
أولا أنها تركت البلاد في حالة من الفوضى فصارت نخباً لصيد المغامرين ، وثانياً أنها
كانت تخشى أن تفرض عقوبات أو التزامات على دولة مسيحية ، وتركت الأمر
للزمن ، ولا ننسى ان بريطانيا قد اكتسبت خبرة حربية قد تفيدها اذا ما جاء
الفرنسيون الى مصر مرة أخرى . وجاءت إيطاليا إلى حوض البحر الأحمر ولم تكن
لها حينذاك في ذلك مصلحة فحصلت على منطقة عصب ، وذلك في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٩ م
أي قبيل افتتاح قناة السويس بأيام قليلة ، وقد كان لافتتاح هذه القناة أثرها البالغ
في انعكاساته على الصراع الدولي ، وأخذت بعد ذلك إيطاليا في تثبيت أقدامها في
منطقة عصب ، وعادت بريطانيا إلى سياستها التقليدية التي اكتسبتها من خبرتها الطويلة
فهي بينما تظهر عدم الاهتمام بمنطقة ما وتسعى جاهدة لمنح هذه المنطقة استقلالاً
تعتزف به هي ومنافستها فرنسا أو غيرها ، وتدخل في اتفاقات دولية بشأن الحدود ،
وانها بنشاطها هذا إنما ترمي إلى الاحتفاظ بهذه المنطقة في حمي القانون الدولي ، وترك
المسألة بعض الزمن فتبتاعها لقمة سائغة كما حدث في قضيتي زنبار ومصر ، فقد
أوضحنا من قبل مسألة التحكيم في تقسيم سلطنة السيد سعيد ومعاهدة إنجلترا
وفرنسا في ١٨٦٢ م أما في مصر فقد عقدت اتفاقاً في ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن
ساحل السومال ، وأصدر الباب العالي فرماناً في ٢ أغسطس سنة ١٨٧٩ بعدم السماح
لمصر بالتنازل عن أي جزء من الأراضي التابعة لها ولم يكن كل ذلك إلا توطئة
للسيطرة على تلك الأجزاء بعد أن أجبرت مصر على الانسحاب من منطقة ساحل
البحر الأحمر في ١٨٨٤ م .

وفي الفترة التي سبقت انسحاب مصر من البحر الأحمر ازداد النشاط الإيطالي
الذي بدأ في عام ١٨٦٩ م فاستوأت شركة روباتينو الإيطالية على رهيطه والجزائر
الساحلية . ولم يكن دخول إيطاليا إلى هذه المنطقة إلا إيداناً بدخول قوى تستطيع
بريطانيا استغلالها لمصلحتها في المحافظة على ذلك الجناح الخطير الأهمية بالنسبة لحوض
النيل الأوسط والأعلى .

وأخذ الصراع يسير في خطى سريعة من عام ١٨٨٠ م الذي أصدرت فرنسا في
نهايته إعلاناً (بتاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٠ م) أوضحت فيه حدود منطقة أوبوك ،
وتبع ذلك احتلال فرنسا لتونس في سنة ١٨٨١ م بموجب معاهدة « قصر سعيد » ،
وكانت هذه المعاهدة من الناحية الواقعية اقتراب الخطر الفرنسي على مصر عن طريق

الساحل الأفريقي فلم تكن تفصل بينهما - مصر وتونس - إلا مسافة قصيرة نسبياً كما كان لفرنسا أن تتحكم على الطريق البحري ، وقد شعرت بريطانيا بالخطر الذي يهدد مصالحها التي كانت تدعيها لنفسها في حوض وادي النيل ، والتي كانت تسعى جاهدة نحو تحقيقها . وتبع ذلك احتلال مصر في ١٨٨٢ م ، وعملت إنجلترا بطرقها الخاصة ، التي ستعرض لها فيما بعد لنشيت أقدامها في منطقة وادي النيل ، واشتد لذلك الصراع بين الدولتين واستطاعت فرنسا كسب الجولات الأولى في الصراع وكان ذلك نتيجة لدخول ألمانيا في الميدان وما حدث بينهما وبين إنجلترا من جفوة ، فتكونت كتلة لتحد من المطامع البريطانية في هذا الجانب من أفريقيا .

وبدأت رقعة النضال تضيق شيئاً فشيئاً حتى انكمشت حول منطقة حوض وادي النيل والمنطقتين شمال وجنوب أتيوبيا وساحل البحر الأحمر الأفريقي ومنطقة أوغندا ، وهذه جميعها تكون وحدة وادي النيل التي امتدت إليها الإدارة المصرية وفتحت أبوابها للمدنية والتجارة . واتخذت القوات التي اشتركت في الصراع قواعد لها في الأراضي المجاورة ، عملت منها كل من الدولتين المتنافرتين للوصول قبل الأخرى إلى حوض النيل الأعلى ووضع يدها عليه . وتنقسم المناطق التي اتخذ الصراع فيها مراكز زحفه ، ثلاث قواعد أساسية وهي :-

- ١ - المنطقة الشمالية . حوض وادي النيل الأدنى والأوسط .
 - ٢ - المنطقة الشرقية . أتيوبيا والقرن الأفريقي وأوغندا وكينيا من الشرق والجنوب الشرقي .
 - ٣ - المنطقة الغربية . الأملاك الفرنسية والكونغو من الغرب والجنوب الغربي .
- وظاهرت إيطاليا وشركات شرق أفريقيا البريطانية والكونغو الحرة السياسية البريطانية بينما عملت في جانب فرنسا كل من أتيوبيا وروسيا وترددت ألمانيا وبلجيكا بين المعسكرين .

ولم يكن هنالك من مفر بعد أن اشتد النشاط أن تلتقي الدولتان المتنافرتان وجهاً لوجه لتصفية موقفهما الذي بلغ ذروة أزمتيه في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي . التي سبقها نشاط كل الدولتين لتدعيم قواعدها في المراكز الخلفية المتنازع عليها كما عملت كل منهما على تأمين موقفها من الناحية الدبلوماسية .

المنطقة الشمالية :

لعل أوضح ما تميزت به هذه الرقعة انها كانت الهدف الأول الذى اختارته فرنسا لاحتلاله فى سنة ١٧٩٨ م لتتخذ منها مركزاً تبسط منه سيطرتها على الطرق الملاحية فى البحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، وتفرض سلطانها على الطرق البرية ، كما اتخذت من هذه المنطقة قاعدة لنشاط شحناتها السرية للعمـل فى الشرق الأدنى والاقصى على أثاره الفتن والقلاقل وكان مقصدها من كل ذلك ازعاج منافستها انجلترا فى طرق مواصلاتها ونفوذها ، ويرجع اختيار الفرنسيين للسيطرة على مصر إلى وضعها الاقليمي من ناحية المناخ وسهولة مواصلاتها الداخلية ومواردها الزراعية ، وسيطرتها على ساحلى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط الشرقى .

وقد نبت فى هذه المنطقة الغرس الأول الذى انفلقت عنه المسألة الشرقية - مصر - وحوض البحر الأبيض المتوسط ، وحول هذه المنطقة اشتد الصراع بين الدولتين الأمر الذى استمر أكثر من مائة عام وامتد ميدانه واتسع حتى شمل جميع أفريقيا شمال خط الاستواء ، وشمل فى نهايته رقعة واسعة جنوبى ذلك الخط مباشرة .

ولم يكن لبريطانيا أن تتقبل هذه الضربة القاصمة لما كانت تدعيه لنفسها من مصالح فى هذا الجزء من شمال شرق أفريقيا ، دون أن تلتقم من غريمتها . فالاسطول الانكليزى قد تعقب السفن الفرنسية التى لم تكن وجهتها معروفة فى بادىء الأمر ، وجامت القطع الانكليزية بقيادة نلسن وهاجمت المراكب الفرنسية بعد أن ألقت مراسيها فى مياه خليج أبو قير وأنزل بها خسارة فادحة وكان ذلك بعد اسبوع تقريباً من نزول الحملة الفرنسية فى مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وأخذت بعد ذلك البحرية الانكليزية فى فرض حصارها على الشاطئ المصرى لمنع وصول الامدادات من فرنسا ونشطت فى نفس الوقت لدى الباب العالى لعقد حلف تتعاون بموجبه الدولتان على إخراج الفرنسيين من مصر ، وكانت روسيا تسعى لدى الباب العالى لنفس الغرض ، وتم فعلاً الوصول إلى اتفاق بين روسيا وتركيا فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ م وتلاه ترقيع الحلف التركى والبرطانى فى يناير سنة ١٧٩٩ م .

ومما يسترعى الالتفات ان الحلف العثمانى البريطانى قد ألزم تركيا بتقديم جيش مائة ألف من الجنود تشترك معه جميع القطع الحربية البحرية العثمانية فى حرب الفرنسيين ، وتعهدت بريطانيا بالاحتفاظ بعدد مناسب من قطع أسطولها فى شرق

البحر الأبيض المتوسط، وأن لا تضع إنجلترا سلاحها إلا بعد تأمين أجزاء الامبراطورية العثمانية ، وهكذا استطاعت بريطانيا أن تقذف بالجيش العثماني وببحريته في الصف الاول للقتال فيتملقى بذلك الضربة الاولى ، وتبقى في الصفوف الخلفية إلى أن يضعف الطرفان فرنسا وتركيا ، ويتبين لنا هدف بريطانيا من هذا الاتجاه بما أصاب الحملة التركية التي نزلت في أبو قير في يولييه سنة ١٧٩٩ م من هزيمة منكرة ، وقد كان مع هذه القوة السير سيدني سميث في سفينته تيجره (الدجله) واضطرت الحملة التركية إلى مغادرة المياه المصرية ، ومما تجدر الإشارة اليه أنه بينما كانت أهداف روسيا وإنجلترا هي طرد الفرنسيين من مصر فانهما لم يوقعا حلفا ثلاثيا - روسيا - إنجلترا وتركيا - بل عقدت كل من الدولتين حلفا منفصلا مع الدولة العثمانية . ويبدو أن السبب في ذلك ترجع إلى تفادي اصطدام مصالح الدولتين وإلى ان ارتباط إنجلترا في حلف مشترك فيه دولة أوروبية من شأنه أن يحد من أغراضها ، وقد أوضحها وزير الحربية البريطانية حينذاك في قوله « ان امتلاك أية قوة مستقلة لمصر سوف يكون ظرفاً سيئاً بالنسبة لمصالح إنجلترا » (١) .

وأخذت القوات العثمانية تشق طريقها إلى مصر حتى وصلت العريش وفي خلال ذلك كانت المفاوضات جارية لجلاء الفرنسيين عن مصر وتم الوصول إلى الاتفاق الذي عرف « باتفاق العريش » . لكن إنجلترا قد تباطأت في إعلان موافقتها على هذا الاتفاق خوفاً من عودة الجيش الفرنسي ، بعد الجلاء عن مصر ، إلى فرنسا فيزيد من قوة فرنسا . وجاءت قوة بريطانيا بحرية وأخرى من الهند عن طريق القصير إلى قنا ومنها عن طريق النيل إلى رشيد و بقيت القوات التركية والانجليزية في أرض مصر بعد خروج الفرنسيين في سنة ١٨٠١ ولجأت إنجلترا إلى وسائلها للبقاء في مصر ، غير ان الدول الأوروبية ومنها مندوب روسيا في مؤتمر اميان أصرت على انسحاب إنجلترا في مصر وإعادتها لسلطان الباب العالي ووجدت إنجلترا نفسها مضطرة إلى ترك البلاد لتطور الاحوال في القارة الأوروبية . كما أنها وجدت إن المماليك وهم عملاءها قد اتصلوا بالفرنسيين ، وبالرغم من مشاكل إنجلترا في حربها مع فرنسا في أوروبا فانها كانت تخشى ظهور الفرنسيين على أرض مصر ثانية ، لذلك أصلحت ما بينها وبين زعماء المماليك لتتدرع بهم كوسيلة للتدخل في شئون مصر

وغزوها ، وفعلاً أرسلت حملة فريزر في سنة ١٨٠٧ لمساعدة الممالك ولتفويض سلطة الباب العالي غير ان هذه الخطة قد فشلت وانسحبت الحملة . وأرسلت اللورد فلنشيا وهنرى صولت إلى النجاشي للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة عسكرية في أرض الدتاكل تستخدمها الجنود البريطانية الهندية لغزو وادى النيل إذا دعت الضرورة لذلك .

واتجهت بعد ذلك بريطانيا إلى سياستها التقليدية بالتدخل تدريجياً في شئون مصر حتى تكتسب مع مضي الزمن حقوقاً تنتقل بها من مرحلة إلى مرحلة حتى تصل مرتبة استخدام تلك الحقوق كوسيلة للضغط السياسى الذى يتبعه استخدام القوة العسكرية وكانت مسألة الرقيق من أولى الادوات التى استخدمتها للضغط على مصر وبخاصة بعد أن حصلت على فرمانات الباب العالي ، وموافقة مؤتمر فيينا على التوصية بإلغاء النخاسة ، وأخذت الظروف تتطور من صورة إلى أخرى حتى انتهت ، كما سبق أن أوضحناها بنزول القوات البريطانية في مصر في سنة ١٨٨٢م

وقد بدأت مع هذا الاحتلال مرحلة جديدة في العلاقات البريطانية المصرية بعامة وبالسودان بخاصة ، فاستغلت الأزمة المالية بالاضافة إلى قواتها المحتلة للسيطرة على جهاز إدارة البلاد وملحقاتها وصارت كلمتها هى العليا الواجبة التنفيذ . وكان الموقف المالى حجة تذرعت بها لمنع مصر من عملياتها في السودان لاعادة الأحوال إلى مجاريها الطبيعية ، كما أن ذلك الموقف بعد أن هيأت له ظروفه في السودان بعد هزيمة هكس جعلها تنفذ الخطوة التالية وهى إخلاء السودان على يد غوردون ، وانسحاب حملة الانقاذ بعد سقوط الخرطوم (٤) ، أعلنت أنها غير مسئولة عن إنقاذ القوات المصرية الموجودة حينذاك في دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وشرق السودان (٥) ، وقد ذكر لوجارد إن الاطلاع على كتاب عشرة أعوام مع المهدي ، والمقال الذى كتب في المجلة الاهلية في فبراير سنة ١٨٩٣ يجعل القارئ يشعر بالعار بسبب الدور الخطير الذى لعبناه في تاريخ أفريقيا وذلك بإخلاء السودان وما ترتب على ذلك من إراقة الدماء (٦).

(٤) وافقت الملكة فكتوريا بتاريخ ١٨ أبريل سنة ١٨٨٥م على انسحاب القوات البريطانية من السودان مع الاحتفاظ بحق حرية العمل في المستقبل . جوين ص ١١٨

(٥) التّن ص ٣٥٧

(٦) لوجارد جزء ٢ ص ٥٧٢

وأخذت الأحوال تزداد سوءاً بالنسبة لمصر في عام ١٨٨٤م عندما بدأت بريطانيا في تنفيذ سياستها الرامية إلى اقتطاع أجزاء وادي النيل ، ففي يونيو من عام ١٨٨٤م عقدت معاهدة مع أتيوبيا باسم بريطانيا ومصر ، وقد وقعها النجاشي ، واليرير ادميرال السير وليم هيوت قائد الوحدات البريطانية في الهند الشرقية نيابة عن حكومة جلالة الملكة ، وميسون بك حاكم مصوع نيابة عن مصر . وتسلمت أتيوبيا بموجب هذه المعاهدة منطقة البوغوص وجميع ما بها من المبان والمهمات والأسلحة التي ترك بعد انسحاب القوات المصرية من كسلا وأماديب وسنهيت ، وجاء في المادة الرابعة من هذه المعاهدة إعطاء الحق للنجاشي في تعيين مطران الكنيسة الأثيوبية وهي في ذلك قد سلبت حق البطريرك المصري تمهيداً لفصل الكنيسة الأثيوبية عن أمها السكرازة المرقسية ، وجاء في المادة السادسة أن جلالة النجاشي قد وافق على أن يقدم شكواه عن ما يحدث من خلاف مع خديو مصر وذلك بعد توقيع المعاهدة ، إلى الحكومة البريطانية لتسويتها . وهذه صورة من محاولات إنجلترا لتنفيذ خططها وتعزيز مركزها في حوض وادي النيل ، الأمر الذي كانت تعارضه وتقاومه روسيا وفرنسا بكل قوة في الميدان الدولي . وقد أضعف هذا النشاط موقف بريطانيا وخشيت معه أن تتطور المسألة في غير مصلحتها وبخاصة في السودان حيث أخذ مركز غوردون في التدهور وتحقق فشله في مهمته وازداد خوفها أن ينتقل الزمام إلى يد أجنبية - فرنسا - لذلك عمدت بريطانيا إلى وسائلها الدبلوماسية لتقوية موقفها في مصر والسودان ، وكان أن عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥م للنظر في الشؤون الأفريقية ، ووصلت الدول إلى اتفاق على الأسس التي يقوم عليها بسط السلطان على المناطق الأفريقية وما تجب مراعاته في مختلف الشؤون وشملت قرارات هذا المؤتمر ضمن ما اشتملت عليه عن التجارة والملاحة الخ الخ ، النواة التي قامت عليها النظرية التي تفسر « الاحتلال الفعلي » فقد جاء في التصريح الخاص بالشروط الأساسية الواجب مراعاتها لتحقيق شرعية احتلال أية دولة لمنطقة ما على الساحل الأفريقي . حيث جاء في المادة الرابعة والثلاثين أن « أية دولة تستولي من الآن فصاعداً على أرض من ساحل القارة الأفريقية من غير ممتلكاتها عند توقيع المعاهدة ، والتي لا يملكها أحد ، فإنه يتحتم على تلك الدولة ، أو الدولة التي تبسط حمايتها ، أن يتبع احتلالها أو بسط حمايتها إعلان الدول الموقعة على قرارات المؤتمر تعلنها فيه بما وضعت يدها عليه - امتلاكاً أو حماية - وبذلك يتسنى بموجب هذا الاخطار للدولة ذات الشأن والمصلحة

أن تطالب بحقوقها إذا كانت لها حقوق ، ولما كان هذا النص قد ترك مسألة مصر دون تسوية فإن بريطانيا لجأت بعد انتهاء المؤتمر بفترة وجيزة إلى مفاوضة الباب العالي على أساس ما كر ظاهره بحث مسألة الجلاء عن مصر ، وباطنه الحصول على اعتراف من الباب العالي بشرعية الاحتلال وقد عقد فعلا الاتفاق الأول في عام ١٨٨٥ م ، كما خرجت بموجب هذا الاتفاق مسألة السودان بجعلها مادة تبحث مصالحاتها ، وجاءت بعد هذه الاتفاقية المعاهدة النهائية بعد قيام المندوبين الساميين العثماني والبريطاني لبحث المسألة ، وذلك في عام ١٨٨٧ م ولم تنفذ تلك المعاهدة ، كما سبق أن أوضحنا لتدخل فرنسا وروسيا. ولم تكن هذه المعاهدة في الواقع إلا امتداداً للاتفاق الأول الذي تم في سنة ١٨٨٥ م .

وعلى هذه الأسس نسجت السياسة البريطانية خيوطها حول وادي النيل لفصل شماله عن جنوبه ، وحاولت أن تجعل منه « أرضاً مباحاً » وتعطلت بسبب هذا الاجراء التجارة وصار السودان في شبه عزلة تامة عن العالم الخارجي . الأمر الذي جعل رجال الأعمال من البريطانيين يطالبون بفتح التعامل التجاري مع السودان ورفع الحصار الذي فرضته وزارة الحرية المصرية التي صار السودان تابعاً لها وفق الأمر الخديوي العالي بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ م وظلت شؤنه من اختصاص هذه الوزارة حتى السنوات الأولى من القرن العشرين . وحاول رجال المال من الانجليز تأسيس شركة بريطانية لاحتكار تجارة السودان ومركزها سواكن على غرار شركة شركة شرق أفريقيا وغيرها من الشركات البريطانية التي تقوم بالتمهيد لضم البلد الذي تحتكر تجارته إلى أملاك الدولة ، غير أن الباب العالي ومصر قد عارضتا في هذا الاحتكار ، ولم تكن الظروف الدولية بالنسبة لمركز السودان لتسمح بهذا الامتياز .

ولما كانت بريطانيا تواجه المشاكل التي تثيرها فرنسا وروسيا وغيرها منفردة ، فقد جاءت بإيطاليا وسهلت لها احتلال مصوع التي اتخذت منها قاعدة للتوسع في داخلية المنطقة وهدفها من ذلك أن تقوم إيطاليا بحماية القطاع الممتد على ساحل البحر الأحمر الأفريقي الذي يتكون منه جناح حركاتها في حوض النيل . وعملت فرنسا جاهدة لتوطيد قواعدها في مدخل البحر الأحمر وبخاصة بعد أن نقلت إنجلترا ميناء عدن ومنعت السفن الحربية الفرنسية من أخذ حاجتها من الفحم في عام ١٨٨٣ م عندئذ كانت مشتبكة في حربها مع الصين فسببت لها المتاعب وفي عام ١٨٨٧ أنشأت ميناء جيبيوتي وأعدته إعداداً كاملاً ليستقبل البواخر وحاولت بريطانيا الحد من

التوسع الفرنسي في هذه المنطقة فعقدت معها معاهدة ١٨٨٨م التي تشير بوجه خاص الى هرر والتي سنتعرض لها فيما بعد .

ازداد نشاط الطليان في القطاع الشرقي بعد توقيع معاهدة أوتشيبالي في سنة ١٨٨٩ والذي يهمننا من نشاطها أنها كانت تهدف الى احتلال كسلا الأمر الذي تضايقت معه إنجلترا وعارضته معارضة شديدة لخوفها من أن يقوم الطليان بإقامة خزانات على روافد المياه - القاش والعطبرة الذي يتصل بالنيل وبعد مفاوضات دامت ما يقرب من العامين توصلت بريطانيا وإيطاليا من الوصول الى اتفاق اعترفت فيه إيطاليا بحق مصر في أعالي النيل بما فيه كسلا ، وبعد أن تم التوقيع على المعاهدة في ١٥ ابريل سنة ١٨٩١م ، وافقت بريطانيا - لا مصر - على احتلال إيطاليا لهذه المنطقة اذا دعت الضرورات العسكرية مع الاحتفاظ بحق مصر . ولم يكن استخدامها لحق مصر في هذه المعاهدة أو غيرها للمحافظة على حقوق مصر لمصر فعلا بل بالعكس لم يكن ذلك إلا وسيلة لابعاد المنافسين في عقود دولية وتستولى هي على تلك الحقوق عندما تحين الفرصة المناسبة وكل ما يهيم بريطانيا الحصول على توثيق منعاً للشا كل الدولية .

واشتد النشاط الفرنسي وشعرت بريطانيا بخطورة الموقف وما ينتظر من تطورات لذا أمرت سردار الجيش المصري كتشنر باشا دون سابق علم الحكومة المصرية بالاستعداد لقيام الحملة إلى السودان لاعادة الحياة إلى طبيعتها ، وسارعت بفتح الاعتمادات اللازمة للحملة بعد أن رفض المندوبان الفرنسي والروسي في صندوق الدين الموافقة على المصروفات . وكانت هذه الاعتمادات سلفة لحساب مصر ، وقد زودت إنجلترا كتشنر باشا بتعليماتها السرية التي لم يسمح له بفض أختامها إلا بعد وصوله الخرطوم والاستيلاء على أم درمان . وكانت هذه التعليمات تتضمن ما يتبع بعد سقوط أم درمان من تسليم القيادة والسفر إلى أعالي النيل لتحقيق وجود الحملة الفرنسية التي قادها مارشان وخطاره بمغادرة البلاد باسم مصر . وذكر لوجارد بصدد حقوق مصر :

« لقد تركت مصر السودان بناء على أمر بريطانيا ، وكان من المعتقد أنها قد تنازلت عن جميع حقوقها على هذه الرقعة من الأرض ، غير أن تصريحاً حديثاً من تيجران باشا جاء فيها « أن مصر تحتفظ بكامل حقوقها على جميع المناطق التي كونت جزءاً من مديرية خط الاستواء المصرية واستمر لوجارد يقول « ان هذا القول الذي ألقى كالقنبلة لا يمكن قبوله إذا نظرنا إلى ما قاله المستر هاردنج بالنيابة عن الحكومة المصرية

« إن مصر لا تتحمل أية مسؤولية بشأن الأهالي في تلك المديرية التي تركتها مصر أي من وادي حلفا وجنوبها ، وأنها تقبل فقط المسؤولية من الأشخاص الذين ولدوا شمال تلك المحطة (حلفا) ، ويضيف لوجارد « وبتطبيق نظرية الاحتلال الفعلي ، فان مصر ليست لها حقوق على السودان الجنوبي بسبب أن أقرب نقطة تسيطر عليها (تقيم فيها الأمن ، تباشر فيها رعاية الأهالي ، وتحافظ على ممتلكات الأجانب تبعد بحوالى الألفين ميل رقد بقيت على ذلك خلاء السنوات التسع الماضية (٧) » .

وأرسلت بريطانيا بعثة تحت رئاسة رنل رود لعقد معاهدة مع النجاشي . وقد فشلت هذه البعثة في مسعاها لتحويل النجاشي عن صداقته للفرنسيين ، وصار أمراً لا مفر منه أن تلتقي فرنسا وإنجلترا وجها لوجه في أعلى النيل ، ولما كانت فرنسا لم تعترف بمركز إنجلترا في حوض النيل وظلت تقاومه ما يقرب من المائة عام ، وأن زحفها على منطقة بحر الغزال واحتلال مارشان لفاشودة وتونكوود لشامي كان يهدف الى ابطال حجة إنجلترا في ادعاءاتها باحتلال مصر لتحقيق أحلامها في ربط مصر مع السكاب وشرق أفريقيا من جهة ومع غرب أفريقيا وشركة النيجر البريطانية من جهة أخرى على حد قول الجنرال مانجان (٨) لذلك أسرع بريطانيا بإرسال الحملة المصرية بقيادة ككتشنر باشا سردارها ، ولم تشترك القوات البريطانية في المرحلة الأولى من أعمال الحملة .

وننتقل الآن إلى النشاط في القاعدتين الشرقية والغربية والتي برز منها الصراع في صورته السافرة على أرض فاشودة .

(٧) لوجارو جزء ٢ ٥٧١/٥٧٢

تصريح تيجران باشا في مطبوعات البرلمان البريطاني ٧٣٠ بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٨٩٢ ، وتصريح هاردنج بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ م .

(٨) لاقر ص ٥٣٨

• المنطقة الشرقية :

تنقسم هذه المنطقة ، بالنسبة لموضوع البحث ، ثلاث أقسام ، أولها أتيوبيا - الهضبة الحبشية الخالصة ، ثانيهما القرن الأفريقي وهو الجزء الذى يطل على خليج عدن وشاطئ المحيط الهندى - بحر الزنج - الواقع جنوبى خليج عدن حتى مصب نهر الجوبا وثالثها شرق أفريقيا وكينيا وأوغنده وقد كانت مصر تسيطر على الجانب الأكبر من هذه المنطقة فيما عدا أتيوبيا، التى تحتل مركزاً ممتازاً بين جاراتها، التقت فيها الهجرات من جنوبى غرب آسيا والمجموعات الأفريقية من مختلف مناطقها الدانية والقاصية ، كما امتدت إليها المدنية المصرية منذ فجر التاريخ ، وتأثرت بتطور الحياة فى شمل - الودى - مصر - فى مختلف العصور ، وقد ازدادت أهمية أتيوبيا فى استراتيجية حوض وادى النيل بعد افتتاح قناة السويس الأمر الذى أدخل هذه القارة الأفريقية فى نطاق السياسة الدولية ، وجعلها عنصراً له خطورته فى اعتبارات الجغرافية السياسية (الجيوبولوتكس) لهذا الجزء من شمال شرقى أفريقيا ، وبينما تمتاز هذه المنطقة فى مجموعها بوجود منابع النيل وروافده فى أراضيها فان أتيوبيا - الهضبة الحبشية - تسيطر على الجانب الأكبر من موارد المياه التى تمد نهر النيل بالماء والطمى ، فمنها يخرج السوبات والنيل الأزرق برافديه الدندر والرهذ ، والعطبرة وتلتقى هذه بمجرى النيل الرئيسى ، كما يخرج منها القاش وخور بركة وهما لا يتصلان بالنيل إلا أن لهما أهمية فى اقتصاديات شرق السودان - فى زراعته ومياهه الجوفية بخاصة فى البطانة وبالإضافة إلى ذلك فان أتيوبيا تطل ، وهى فى وضعها الإقليمى الطبيعى ، على الجانب الجنوبى الغربى لحوض البحر الأحمر ، وتمتد سيطرتها على الساحل الأفريقى لخليج عدن وبحر الزنج - من المحيط الهندى - إلى نقطة عند مصب نهر الجوبا ، فهى بذلك تتحكم على جزء كبير من الطريق الملاحي عبر البحر الأحمر وعلى مدخله الجنوبى - بوغاز باب المندب وخليج عدن - ويشكل هذا الوضع الإقليمى على منافذ التجارة ، العنصر الحساس فى السياسة الدولية بعد أن صار حوض البحر الأحمر ممراً تجارياً بحرياً بعد افتتاح قناة السويس ، وقد أكسبت هذه المميزات الإقليمية الساحلية نشاطاً بحرياً اشتغل به الاتيوبيون فى الأزمنة الماضية ، وكان لهذه السيطرة ولهذا النشاط أثرهما فى توجيه السياسة الأوروبية ، فبالرغم من أنها دولة مسيحية كانت الدول المسيحية فى الغرب تسعى إليها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لتوثيق عرى الروابط وللتعاون على حرب المسلمين كما سبق أن أشرنا فى الكتاب الأول ، فان السياسة

الدولية الحديثة التي تؤمن بمصلحتها الاقتصادية وبرسالتها لنشر المدنية بين الشعوب الأخرى غير الأوروبية، قد تعاملت مع أتيوبياء على أساس أنها دولة شرقية متخلفة يجب أن تخضع كغيرها لرسالة الأوروبي فتقبل ما يسمح لها به من مدنيته في نطاق مصلحة الأوروبي وأقامت هذه الدول مناطق على طول ساحلها خضعت لسيطرتها فعزلت بذلك أتيوبياء عن حوض البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، وقد تقاسمت هذه المناطق إيطاليا وفرنسا وبريطانيا - الارتيريا - السومال الفرنسي - السومال البريطاني والسومال الإيطالي، وصارت تجارتها الخارجية لا تمر إلا عبر هذا الحاجز وبخاصة المنطقة الفرنسية التي يخرج منها خط السكة الحديد جيبوتي - أديس أبابا، ويبدو أن هذا الحاجز قد أقيم أساساً ليقدم مصلحة هذه الدول في مسألة الرقيق ومنع استيراد الأسلحة والذخائر التي قد تتسرب في كميات كبيرة إلى المناطق الأفريقية الأخرى فتخلق قلقاً للمستعمرين، وبالإضافة إلى ذلك فإن الدول تهدف إلى حرمان أتيوبياء من السيطرة على ساحلها حتى لا تتجدد لها أبحارها البحرية ولكي تحافظ على اقتصاديات في مستوى بدائي هزيل، ولحرمانها من استغلال مواردها المعدنية الغنية.

• ارتباط أتيوبياء بحوض النيل :

وقد اتصلت أتيوبياء، في مختلف أوضاعها الإقليمية، بتطورات الحوادث في حوض النيل ويهمنا في بحثنا هذا التعرض لهذه التطورات التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، وقد أشرنا في الكتاب الأول إلى العلاقات في الفترة من الزمن التي سبقت القرن الثامن عشر، فقد اتجهت إليها السياسة البريطانية لتتخذ منها قاعدة تتحرك منها قواتها العسكرية لغزو مصر إذا عادت فرنسا لاحتلالها بعد خروجها منها في سنة ١٨٠١م وجاءت إليها حملة نابيير قبيل افتتاح قناة السويس وخرجت منها بعد إخلاء سبيل البريطانيين الذين احتجزهم النجاشي تيودوروس في سجنه كما سبق أن أوضحنا، هذا من ناحية بريطانيا في خططها لمقاومة النفوذ الفرنسي ومن ناحية أخرى بدأت الدول بما فيها بريطانيا في محاولاتها في تثبيت أقدامها في حوض الصراع وذلك بالحصول على معاهدات ووثائق من الزعماء المحليين يكسبون بموجبها ملكية لبعض هذه الأقاليم التي أخذت رقعتها في الاتساع شيئاً فشيئاً، ولم تكن هذه المعاهدات والوثائق لقاء ثمن معقول، بل بالعكس كانت تارة عن طريق التخويف وطوراً نظير هدايا زهيدة القيمة من قماش وخمر، وقد فرضت هذه

المعاهدات فرضاً على الزعماء المحليين سواء رضى هؤلاء أو لم يقبلوا وكانت مافي يد
الأوروبيين من وثائق هو الحجة التي يلتزم بها الزعماء لفرض الحماية والدخول بلادهم ضمن
مناطق النفوذ ، والامتيازات ، وقبول النصيحة . وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم
السياسية والاجتماعية في تلك المنطقة كما في غيرها من المناطق الأفريقية لتخضعها لخدمة
الاستعمارية ، رمع الأسف فإن هذا المسلك لا يعدو عن كونه سرقة منظمة استعمارات
في الحصول عليها وسائل قانونية زائفة في أحط درجات التدليس والتزوير .

وقد اتخذت منها كل من فرنسا وبريطانيا قواعد لنشاطهما نحو وادي النيل ، كما
كان لآتيوبيا نفسها دور هام في الصراع بين الدولتين المتنافستين وقد حاولت أن
توطد علاقاتها مع زعماء المهدي وبخاصة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر
الميلادي عندما اشتد الصراع ودخل في مرحلته الفاصلة . ويهمننا أن نتعرف على
الوضع في هذه المنطقة في الفترة التي سبقت الحركة المهدي وعلى تطور العلاقات
والأحداث التي تسببت في انسحاب مصر من شاطئ البحر الأحمر والمناطق التي كانت
تسيطر عليها الإدارة المصرية .

تقسيم المناطق المصرية في موضح البحر الأحمر :

النشاط البريطاني :

امتدت إدارة مصر على ساحل البحر الأحمر حتى رأس غورد فواي وذلك في
السنوات ١٨٧٢/١٨٧٤م واحتلت هرر في سنة ١٨٧٥ ، وأرسلت حملة الجوبا في
سنة ١٨٧٥م ، ودخلت مصر في حرب مع آتيوبيا في عامي ١٨٧٥ و ١٨٧٦م انتهت
بهزيمة ساحقة للقوات المصرية التي دخلت البلاد من أكثر من جهة تحت قيادة ضباط
من الفرنج ، فقد كان الخديو وتأييده انجلترا يتعقب منافذ تجارة الرقيق لإرضاء للدول
الأوروبية ، وقد دفعه إلى هذا المسلك رغبته في الحصول على معاونة تلك الدول في
أزمته المالية ، وبما يؤسف له أنه تقبل نصيحة مستشاريه من الفرنج وأسقط مصلحة
بلده من حسابه ، وفاته أن المطامع الاستعمارية كانت تخفي وراء تأييدها له في توسعه
خطة ترمي إلى استنزاف آخر قطرة من دم مصر لتصبح عاجزة يشغل كاهلها الدين
فيسهل على الدول وبخاصة إنجلترا أن تستولي على المناطق التي تديرها مصر ، وقد
اتخذت هذه الدولة من الخديو مشعلا أنار لها الطريق ومهده لدخولها واحترق بعد

أن استنفذ طاقته واحترق فكان خلعته عن عرش مصر . وجاء الاحتلال البريطاني لمصر في سنة ١٨٨٢ وكانت من نتائجه أن أجبرت مصر على الانسحاب من شاطئ البحر الأحمر الأفريقي واستولت بريطانيا على النقاط الاستراتيجية وأعلنت حمايتها على ساحل السومال وميناء زيلع ، وبما يجدر ذكره أن بريطانيا قد مهدت لهذا باتفاقية ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بين مصر وبريطانيا ، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد فقدت صلاحيتها لأن الباب العالي لم يصدق عليها طبقاً للمادة الخامسة فإن بريطانيا اتخذت منها حجراً في بناء سياستها .

واشتد النشاط الفرنسي في منطقة أوبوك التي أخذت في الاتساع حتى تكونت منها مستعمرة السومال الفرنسي ، وخشيت بريطانيا من أن يكون هدف فرنسا بسط سيطرتها في صورة ما على هرر ، وبخاصة بعد أن أنشأت فرنسا ميناء جيبوتي التي افتتحت في عام ١٨٨٧م وتقع هذا الميناء في خليج تاجورة الذي تخرج منه القوافل إلى هرر ، وبعد مفاوضات توصلت الدولتان إلى أن ألزمت كل منهما بعدم القيام بمحاولة ضم هرر أو بسط الحماية عليها ، كما أوضحت الدولتان في إعلانيهما أنهما لا يتنازلا عن حقهما في معارضة أية محاولة من جانب حكومة أخرى لامتلاك هرر أو المطالبة بأي حق عليها ، وكان ذلك في الخطابين اللذين تبادلهما السفير الفرنسي في لندن المسيو وادنجتون واللورد سالسبري بوصفه وزير الخارجية البريطانية في ٢٠ و ٢١ فبراير سنة ١٨٨٨ على التوالي ، كما أن الوزير البريطاني قد أخطر السفير الفرنسي بكتابه بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٨ أنه قد أكد للسفير العثماني بأن الحكومة البريطانية لا تتدخل لافي الماضي ولا في المستقبل في حقوق السلطان المشروعة ، ويأمل الوزير البريطاني أن تكون الجمهورية الفرنسية في نفس الوضع (٩) . وقد فهمت فرنسا هذا البند على صورة تختلف عما كان يحول في ذهن رجال السياسة البريطانيين ، الذين اغفلوا نشر الوثيقتين حتى عام ١٨٩٤م حتى لا تعرقل مساعي إيطاليا في بسط نفوذها على أتيوبيا وكانت إيطاليا التي احتلت مصوع في ٣ فبراير سنة ١٨٨٥م بمساندة من بريطانيا قد أخذت في التوسع في الداخل . وعقدت معاهدة أوتشمال في ٢ مايو سنة ١٨٨٩م ، وحاولت أن تفسر البند السابع عشر بما يفيد أن النجاحي قد وافق على أن تتولى إيطاليا المسائل الأتيوبية الخارجية وكان معنى ذلك أن أتيوبيا قد صارت محمية إيطالية ،

(٩) هرستل جزء ٢ ص ٧٢٦/٧٢٨ ، ولف ص ١٦٧ وما بعدها .

ونظراً لأهمية هذه النقطة لما نتج عنها من تطور في الأوضاع نذكر فيما يلي الاختلاف في تفسير هذا البند ، كما جاء في النصين الأمهرى والايطالى :

النص الأمهرى : البند ١٧ — سوف يكون لجلالة ملك ملوك أتيوبيا الحرية في أن يستعين بالحكومة الايطالية في أية مفاوضات مع الحكومات الأخرى .

النص الايطالى : البند ١٧ — سوف يكون لجلالة ملك ملوك أتيوبيا ملزماً بأن يستعين بالحكومة الايطالية ...

أو « أن جلالة ملك ملوك أتيوبيا يوافق على أن يستعين ... »

وقد أخطرت إيطاليا الدول الأوروبية بصورة من هذه المعاهدة في نصها الايطالى لإثبات حقوقها على أتيوبيا طبقاً لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ م وحاولت فرنسا استغلال الموقف لتسوية مشاكها مع إيطاليا في تونس بتنازل إيطاليا عن تلك المطالب نظير اعتراف فرنسا بمعاهدة ١٨٨٩ ، غير أن المفاوضات لم تنجح ، فبادرت فرنسا بعد نشر إيطاليا للكتاب الاخضر الذى احتوى على معاهدة ١٨٨٩ م وذلك في عام ١٨٩٠ م ، بتحذير النجاشى بمضمون البند ١٧ كما جاء في النص الايطالى فبادر النجاشى باخطار الدول بعدم اعترافه بالتفسير الايطالى الخاطىء والذى لا يتفق مع النص الأمهرى — وهو الذى يرجع اليه في حالات الاختلاف ، وكان هذا الاخطار في فبراير سنة ١٨٩١ م . وأخذت العلاقات بين البلدين في التدهور الذى انتهى الى اعداد إيطاليا حملة لغزو الحبشة لاختضاعها بالقوة لغبول التفسير الايطالى . وقد منيت القوات الايطالية بهزيمة منكرة في موقعة عدوة في مارس سنة ١٨٩٦ م الأمر الذى أزعج بريطانيا ، لأن انهيار إيطاليا في هذا الجانب من حوض النيل معناه ترك الباب مفتوحاً أمام فرنسا ، وعقدت إيطاليا مع أتيوبيا في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ اعترفت فيها باستقلال أتيوبيا . وكانت إيطاليا بعد هذه الهزيمة تفكر في إخلاء الأرتيريا وانتهز هذه الفرصة الملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة وأرسل وكلاءه إلى روما لمفاوضة الحكومة الايطالية للوصول إلى عقد اتفاق تبقى بموجب مصوص في يد الطليان وتنتقل الأرتيريا ومناطق النفوذ الايطالية الموضحة في معاهدة ١٨٩١ التى عقدت بين إيطاليا وانجلترا ، إلى شركة الكونغو للاستعمار والاستثمار على أن يكون دخل هذه المنطقة مناصفة بين الدولتين إيطاليا والكونغو الحرة . وقد رفضت إيطاليا هذا المشروع .

وكانت إيطاليا قد عقدت معاهدة ثانية مع النجاشي بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ م منحت إيطاليا بموجبها قرضاً قدره أربعة ملايين ليرة للنجاشي بضمان إيراد جمارك هرر وقد سقط هذا الدين وفق البند الثاني من معاهدة ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ م الذي أشار بإلغاء معاهدة ٢ مايو سنة ١٨٨٩ م التي كانت معاهدة أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ م تكملة لها كما نص البند الثالث من معاهدة أكتوبر .

ويبدو أن إيطاليا بعد توقيعها معاهدة أوتشيان في سنة ١٨٨٩ م كانت تهتم بالحصول على تأييد بريطانيا التي كانت بدورها تخشى من امتداد الحماية الإيطالية على أتيوبيا إلى السودان وبخاصة منطقة كسلا التي كانت إيطاليا تطمع في امتلاكها ، وكانت بريطانيا تخشى أيضاً أن يطالب النجاشي بضم القسم المتاخم لحدوده من السودان إلى بلاده لذلك دخلت إنجلترا في مفاوضات مع إيطاليا لتحديد موقفها بالنسبة لحوض النيل وقد توصلت الدولتان إلى عقد بروتوكولين بتاريخ ٢٤ مارس و ١٥ أبريل على التوالي توضحت فيهما منطقة نفوذ إيطاليا وهي تبدأ من مصب نهر الجوبا وتمتد إلى الجزء الأعلى من حوض النيل الأزرق ويمتد الخط شمالاً شرقياً وينحرف من جنوبي كسلا إلى رأس كسار على البحر الأحمر ولم تدخل في المنطقة النفوذ هذه كسلا والجزء من نهر العطبرة وسمحت بريطانيا لإيطاليا باحتلال كسلا إذا ما دعت الضرورة العسكرية إلى ذلك على أن لا تقوم إيطاليا بأى عمل على روافد المياه من شأنه أن يتدخل في مياه النيل لمصر وأوضحت بريطانيا حق مصر في استرداد هذه المنطقة (منطقة كسلا إذا ما احتلتها إيطاليا) عندما تحين الفرصة لمصر .

العلاقات بين أتيوبيا وإيطاليا والمهريّة :

كانت لمصر في أوائل عام ١٨٨٥ م قوات عسكرية على الحدود الاثيوبية السودانية في محطى القلابات والجيرة وقد اتفقت الحكومة البريطانية مع النجاشي يوحنا على انسحاب هذه القوات وعودتها إلى مصر عن طريق أتيوبيا بسبب أن طريق النيل كان في قبضة الدراويش ، وقد أخلت هذه القوات مراكزها في الأيام الأخيرة من شهر فبراير سنة ١٨٨٥ م بعد أن تركت أسلحتها وذخائرها ومهماتهما كما نص الاتفاق الذي تم بين النجاشي والأميرال هيوت و ماسون بك ، ولم تمض إلا بضعة أيام من انسحابها حتى دخلت القلابات الحملة التي أرسلها الإمام المهدي لاحتلال القلابات تحت

أمرة عاملة محمد ود الأرباب . وما تجدر الإشارة إليه أن الإيطاليين قد احتلوا مصوع في اليوم الثالث من فبراير سنة ١٨٨٥م وأخذوا بعد ذلك في التوسع في داخلية المنطقة ، ولم يكن بجيء الإيطاليين إلى مصوع ، التي كانت تديرها مصر ، إلا بتحريض من إنجلترا التي أرادت أن تتخذ من الطليان درعا لها لمقاومة المهديّة من ناحية والنشاط الفرنسي في أتيوبيا من ناحية أخرى مستغلة في ذلك ما بين الفرنسيين والطليان من منافسة في تونس ، واستطاعت بريطانيا بمساعيها هذا أن تصيب عصفورين ، إيطاليا وفرنسا ، بحجر واحد ، فهي تعلم بمطامع الطليان في المنطقة الساحلية إلى كسلا وتعلم أن فرنسا تحاول بسط نفوذها على أتيوبيا ، فأيطاليا ستقاوم تقدم الفرنسيين كما ستكون شوكة في جنب المهديّة ، وتعمل في الجانب الاتيوبي على جعل هذه البلاد منطقة نفوذ لها ، وبدخول الدولتين في صراع في هذه المنطقة من أفريقيا يتهيأ لبريطانيا بعض الوقت لتواجه مشاكها الأخرى ، وتستكمل عدتها .

وقد ترك نزول الطليان في مصوع أثره السيء في نفس النجاشي يوحنا الذي أخذت مخاوفه وشكوكه في الازدياد ، فقد كان النجاشي يأمل في ضم مصوع إلى سلطانه ، وجد في تسليم إنجلترا لإيطاليا باحتلال مصوع مخالفة للاتفاق الذي عقده مع الأميرال هيوت ، كما وجد أن الطليان قد أخذوا في معاونة منافسه منليك حاكم شوا وتزويده بالأسلحة ، وبينما كان النجاشي قلقاً بسبب التعاون بين منليك والطليان ، كانت هنالك قلاقل في حدوده الغربية عند القلابات . فقد حدث أن طلبت أتيوبيا من عامل المهديّة تسليم قاطع طريق يدعى الحاج على الذي التجأ إلى القلابات ، فلم يجبه العامل ، فأعد جيشاً بقيادة الرأس عدار الذي هجم على القلابات فأحرقها وقتل عاملها محمد ود الأرباب ، وعين الخليفة عبد الله يونس الديكيم عاملاً جديداً وزوده بجيش كبير ، كما أرسل إلى النجاشي كتاباً يدعو فيه إلى الاستجابة للدعوة المهديّة ، ولما لم يجبه شرع يونس في إرسال الغزوات إلى داخل البلاد الاتيوبية (١٠) فأحدثت الأضرار والخسارة في المال والأرواح وفي أماكن العبادة مما دفع النجاشي إلى إعداد جيش لغزو القلابات ، وأخذ الرأس عدار في تجهيز القوات وأرسل الخليفة حمدان أبو عنجه في جيش كبير إلى القلابات استعداداً لمواجهة تطورات الموقف ، وحمل أبو عنجه

(١٠) أرشيف السكرتير الإداري بالسودان - المهديّة - ملف ١٢ - من الخليفة عبد الله إلى منليك رداً على رسالة شفوية لتلاحق مجلة السودان في وسائل ومدونات مجلد ٣٥ عدد ١ ص ٦٥.

كتاباً ثانياً من الخليفة إلى النجاشي يدعو فيه إلى الطاعة ولما لم يجبه دخل أبو عنجه الأراضى الأتيوبية ، وأرسل النجاشي خطاباً إلى أبو عنجه يدعو فيه إلى الصلح وذلك في ديسمبر سنة ١٨٨٨ وكان رد أبو عنجه قاسى الألقاظ ، أغضب النجاشي إلى الحد الذى دفعه إلى أخذ العدة لحرب الدراويش بالرغم من مشغوليته بسبب نشاط الطليان في الشمال . ووصلت الجيوش الأتيوبية إلى القلايات في ٩ مارس سنة ١٨٨٩ م واشتبك الفريقان في موقعة انتصر فيها الأتيوبيون في أول الأمر ، إلا أن الانتصار قد انقلب هزيمة كبرى عندما أصيب النجاشي يوحنا بجراح مميتة ، وانتهز الطليان موت يوحنا وساعدوا منليك لتولى العرش وعقدوا معه معاهدة أوتشيانى التى سبق الحديث عنها ، وانتقل النشاط السياسى إلى داخل أتيوبيا وسقطت بريطانيا وإيطاليا اتفاقات ٢٤ مارس و ١٥ إبريل سنة ١٨٩١ و ٥ مايو سنة ١٨٩٤ الخاصة بمناطق النفوذ التى وضعت أتيوبيا بما فيها هرر فى دائرة النفوذ الايطالى .

وكان الخلاف بين أتيوبيا وإيطاليا بشأن تفسير المادة السابعة عشر من معاهدة أوتشيانى وما تبعها من استعداد الفريقين ، وحاول النجاشي منليك تحت ضغط الزحف الإيطالى الاتصال بالخليفة عبد الله التعايشى للوصول إلى اتفاق على عمل مشترك لمقاومة النفوذ الأوروبى ، وقد كان رد الخليفة مقتضياً وفى حذر (١١) . وقد بقيت المسألة معلقة إلى نهاية معركة عدوه وانتصار النجاشي ، الذى كتب للخليفة مبدياً رغبته فى التفاهم ، وقد رد عليه الخليفة طالباً منه كعربون للصدادة التى يريدونها أن يطرد جميع الأوربيين من السياح والتجار الموجودين فى أتيوبيا وبالرغم من أن النجاشي لم يقبل هذا العرض فإن العلاقات بينهما قد تحسنت وفى منتصف عام ١٨٩٧ أبدى الخليفة استعداداه للتعاون فى حدود معينة ، وعمل للنجاشي على إحاطة الخليفة عبد الله علماً بتحركات القوات الأتيوبية فى المنطقة المتاخمة للحدود بينهما ، لمنع ما قد يحصل من حوادث بسبب أواخر ولا يعلم ما تم بصدد مطالب النجاشي الإقليمية فى السودان التى أوضحها فى كتابه إلى الدول الأوروبية فى إبريل سنة ١٨٩١ م والذى جاء فيه بأن الحدود الفعلية لبلادهم من ناحية الغرب والجنوب تبدأ من كركوج (على النيل الأزرق جنوبى سنار) وتنتهى عند نقطة التقاء نهر السوبات مع النيل الرئيسى ، ويسير خط

(١١) المصدر آف الذكر جواب منليك الى الخليفة بتاريخ ١٥ إبريل سنة ١٨٩٦ ورد الخليفة بتاريخ ١١ يونيه سنة ١٨٩٦ مجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ٣٥ عدد ١ ص ٩٥

الحدود محاذيا لمجرى السوباط حتى يصل إلى بحيرة سامبورا (رودلف) وجاء في هذا الاعلان ما يفيد بعزم النجاشي على اعادة حدود أتيوبيا الى أوضاعها القديمة وهي في ذلك تمتد حتى الخرطوم ، وقد وعدت الحكومة الفرنسية بتعصيد النجاشي في مطالبه الإقليمية لإعادة حدوده إلى الوضع الذي زعمه . وأن إرسال النجاشي لهذا الاعلان يتمشى مع الصلاحيات التي قررها مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ بشأن إثبات «حق التملك الفعلي» ، وقد أرسل النجاشي حملتين إلى النيل الأبيض للعمل مع مارشان كما سنوضحه فيما بعد ، كما أرسل حملة أخرى صوب النيل الأزرق .

المعارف بين أتيوبيا وفرنسا :

أوضحنا من قبل الدور الذي لعبته فرنسا في تحذير النجاشي بما جاء في تفسير إيطاليا للبند السابع عشر من معاهدة أوتشيلي ، واستعدادها لتأييد النجاشي في مطالبه الإقليمية ، ويرجع نشاطها هذا الى رغبتها في انشاء علاقات صداقة تربط بينها والخليفة عبد الله الامر الذي كانت تهدف اليه لنجاح حملة مارشان ، وقد حاول النجاشي في عام ١٨٩٥ م فتح باب المفاوضات مع فرنسا لاقامة علاقات سياسية وتجارية على دعائم أقوى مما كانت عليه في معاهدة سنة ١٨٤٣ م التي عقدت بين لويس فيليب وملك شوا ، الا أن فرنسا قد أبدت تحفظاً بسبب حالة التوتر التي كانت قائمة بين منليك والظليان قبيل موقعة عدوة ، وبعد أن انجلي الموقف بانتصار أتيوبيا واستردادها لحقوقها أبدى الرئيس الفرنسي فيليكس فور استعداداً للدخول في المفاوضات لعقد المعاهدة المشار اليها ، وتكونت فعلاً بعثة دبلوماسية فرنسية للسفر الى أديس أبابا وتعين لاجارد رئيساً لها ، وقد وصلت هذه البعثة الى أوبوك في ديسمبر سنة ١٨٩٦ م . وأرسل وزير المستعمرات الفرنسي اندر ليون بعثة أخرى تولى أمرها بونفالي - بونشان لاعداد حملة من أديس أبابا الى النيل الأبيض ، لتقوم بمعاونة حملة مارشان واعدادها ، وقد طلب ليون من لاجارد أن يتعاون مع هذه الحملة لضمان نجاح مارشان ، غير ان لاجارد كانت له شخصية من طراز خاص ، فقد تجاهل وجود هذه البعثة وحاول ان يعد بنفسه حملة أخرى لتسبق الحملة التي أرسلها وزير المستعمرات ، وكان لمسلك لاجارد أثره في فشل هذه الحملة في بلوغ الغرض الذي كونت من أجله ، وحاول لاجارد من ناحية أخرى تحريض النجاشي للقيام باحتلال فعلي لمناطق النيل الأبيض التي أوضحها في إعلانه للدول في ١٨٩١ م

وقد لاقى النجاشي الأمرين من السياسة الغربية وخداعها ، لذا أراد أن يتفادي ما قد يقوم في المستقبل من عقبات لو أرسلت حملة فرنسية خالصة فأعد حملة أتيوبية صحبها بونشان الفرنسي ورجال بعثته عدا بولفالي الذي عاد إلى بلاده ومعهم المغامر الروسي ارتامنوف وقد وصلت الحملة إلى السوابط في ديسمبر سنة ١٨٩٧ م عند نقطة تبعد حوالي مائة ميل جنوبي فاشودة ، ولم تستطع الانتظار بسبب قلة الأغذية والمتاع الأخرى وعادت أدراجها إلى أديس أبابا ، وأرسلت حملة ثانية وصلت إلى النيل الأبيض في ٢٣ يونيو سنة ١٨٩٨ م وعادت أدراجها قبل وصول حملة مارشان إلى فاشوده بأسابيع قليلة .

ويبدو أن النجاشي كان يشعر بالتزامه بمعاونة فرنسا في تحقيق أهدافها السياسية في حوض النيل الأعلى ، ففي ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ وقع النجاشي اتفاقية سرية مع لاجارد ممثل فرنسا بخصوص السيطرة على حوض النيل الأبيض التي صدق رئيس الجمهورية الفرنسية على هذه الاتفاقية في ٢٤ مايو سنة ١٨٩٧ ومما يجدر ذكره أن هذه الاتفاقية قد تم توقيعها في نفس اليوم الذي تم التوقيع فيه على الاتفاقية الفرنسية الأتيوبية بشأن مسألة الحدود بين المنطقة الساحلية الفرنسية وبين أتيوبيا ويخيل لي أن هذه الاتفاقية لم تكن إلا ستاراً لإخفاء الاتفاقية السرية .

وقد جاء في البند الأول من الاتفاقية السرية تعهد فرنسا بتأييد النجاشي بقدر المستطاع ليتمكن من المحافظة على سيطرته على الضفة النيل ، وجاء في هذا البند أيضاً « أنه بينما يتمكن النجاشي من تثبيت سيطرته على الضفة اليمنى للنيل الأبيض في المنطقة جنوب خط عرض شمال ١٤ فإنه يعاون بقدر الطاقة معتمدى الحكومة الفرنسية - الموجودين في المنطقة الواقعة على الضفة اليسرى للنيل الأبيض بين خطي عرض شمال ١٤ و ٣٠ و جاء في البند الثاني الاتفاق على رفع العلم الفرنسي على الشاطئ الأيسر كما يرفع النجاشي علمه على الشاطئ الأيمن ، وجاء في البند الثالث . ما يمنع الفرنسيين من احتلال أى منطقة من شرق النيل الأبيض ، وأنه لا يحق لهم أن يدخلوا تلك المنطقة إلا إذا دعت الضرورة فقط (١٢) .

وقد ذكر السيد محمد عثمان الحاج خالد في أقواله أمام ضابط المخابرات للقوات المصرية الإنجليزية رذلك بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م . أن مندوبين قد وصلوا

(١٢) نص الاتفاقية السرية في كتاب الوثائق الدبلوماسية الفرنسية جزء ١٣ ص ٢٧٨ / ٩ كما ذكره سافندر في مقاله عن الأمير سليمان ابن أنجر عبد الله .

إلى الخليفة يحملان خطابات من النجاشي. وكان أحد الرسولين يدعى السيد محمد الطيب وهو من مسلمي الجبرته ويعمل في خدمة النجاشي. وثانيهما رسول الخليفة الخاص ويدعى السيد محمد البشري، وأوضح السيد محمد عثمان أن السيد محمد الطيب قد أحضر إلى الخليفة علماً صغيراً مكوناً من ثلاثة ألوان وذكر أن هذا العلم قد تسلم إليه في أديس أبابا بحضور القنصل الفرنسي لاجارد وطلب منه منليك أن يبلغ الخليفة أنه في حالة تقدم الانجليز لمحاربته فعليه أن يرفع هذا العلم لوقف تقدمهم كما طلب إليه أن يرفع العلم إذا جاءت قوة فرنسية إلى بلاده فأنها سوف لا تسبب له ضرراً، وقد رفض الخليفة بشدة أن يتقبل حماية دولة أوروبية (١٢). ومن هذا يتضح أن المعاهدة التي قيل أنها قد عقدت بين النجاشي والخليفة لا تقوم على أساس (١٤)

ومما لا شك فيه أن النفوذ الفرنسي كان قوياً في أديس أبابا في السنوات القليلة من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي. وقد استطاعت أن تعرقل مساعي بعثة رنل رود - ونجت باشا التي ذهبت إلى أديس أبابا في مايو سنة ١٨٩٧ في محاولة لاقتناع النجاشي لتخطيط الحدود الاثيوبية السودانية ولتطلب من النجاشي سحب مطالبه بالمنطقة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض وقد رفض منليك لاستجابة لمقترحات البعثة، وقد قنعت البعثة بالحصول على وعد من النجاشي يمنع إرسال الأسلحة إلى الدراويش (١٥) وكانت فرنسا متهمة بامدادهم بالأسلحة. وقد طلبت البعثة تأجيل بحث هذه المسائل إلى ما بعد فتح أم درمان وهي تضم في نفسها أنه يمكن استخدام قطع نيلية قوية على النيل الأبيض وسوف يكون لها أثرها في تثبيت حقوق مصر وبريطانيا (١٦).

(١٢) نقلا عن مقال ساندرسن عن الأمير سليمان ابن انجر عبد الله - مجلة السودان في رسائل ومدونات مجلد ٣٥ جزء أول ص ٥٩ / ٦٠

(١٤) اشار الى المعاهدة عبد الله حسين في ص ٢٥١

(١٥) مذكرة ونجت وكلاينج المرفقة مع كتاب رود إلى سالسبري - أوراق دار المحفوظات العامة البريطانية - وزارة الخارجية / ١ / ٣٢ نقلا عن مقال ساندرسن مجلة السودان رسائل ومدونات مجلد ٣٥ جزء أول ص ٦٤ .

(١٦) نفس المصدر آنف الذكر ويلاحظ هنا أن بريطانيا قد أوضحت أن لها حقوقاً .

النشاط الروسي في أتيوبيا :

اشتهد نشاط الروس في أتيوبيا في صورة واضحة منذ يناير سنة ١٨٩٥ م وذلك لشدة أزر فرنسا في الصراع بينها وبين إنجلترا ، وقد اتخذ النشاط الروسي مظاهر غايتها الاهتمام بالمسائل الجغرافية والدينية ، وجاء إلى أديس أبابا مغامر روسي يدعى ليونتييف في أوائل عام ١٨٩٥ م ومعه هدايا غالية للنجاشي ، ورد النجاشي على ذلك بإرسال بعثة إلى القيصر الروسي لتقديم التحية . وعاد ليونتييف إلى أديس أبابا في نهاية العام ويعتقد أنه قد قاد المدفعية الأتيوبية في موقعة حدوده . وأصدر النجاشي أمره بتعيين ليونتييف هذا حاكما لمديريات خط الاستواء الأتيوبية ومعه البرنس هنري دي أورليانس الفرنسي كمساعد له .

وحاول الضابط الروسي أشاكوف أن يربط بين الكنيسة الأتيوبية وبين الكنيسة المسكوفية . وكان هنالك روسي آخر يدعى بولا توفيك ومعه عدد من القوزاق وبعض الفرنسيين وقد رافقوا حملة الراس ولد جيورجيوس .

وقد أخذ النشاط الروسي في الخمود بعد انتهاء الصراع الفرنسي البريطاني وما كان له أن يستمر وليست لروسيا مطامع في هذه المنطقة أكثر من معاونة صديقتها فرنسا ضد إنجلترا .

النشاط البلجيكي في أتيوبيا :

أوضحنا فيما سبق محاولة الملك ليوبولد الثاني الاستيلاء على الأرتيريا عدامصوع التي تترك للطميان ، وعلى منطقة نفوذ إيطاليا التي تشمل أتيوبيا وإدارة هذه المنطقة بشركة الكونغو للاستعمار والاستثمار وقد فشلت المفاوضات بعد أن تمت صياغة الاتفاقية وكان ذلك في نهاية عام ١٨٩٦ م . وجاء في عام ١٨٩٧ م البرنس هنري دي أورليانس لإنشاء شركة رأس مالها ١٨٠٠٠٠٠ فرنك لأغراض التعمير وقد كان ليوبولد الثاني مهتما بالاهتمام كله بهذه الشركة التي كانت مؤسسة بلجيكية وبالرغم من أن هذا المشروع لم يقدر له النجاح فإنه يعطينا صورة من النشاط البلجيكي الذي يهدف إلى ربط الكونغو مع أتيوبيا وبالتالي مع البحر الأحمر .

شرق أفريقيا ، كينيا ، أوغندا :

يختلف هذا الجزء الثالث من المنطقة الشرقية في أكثر من ناحية ، فبينما نجد أن سكان القسمين الأول والثاني - أتيوبيا والقرن الأفريقي - يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالمنطقة الأولى ، التي تشمل حوض النيل في شطريه مصر والسودان ، في الحضارة والمدنية على درجاتها المختلفة نسبياً ، فإن هذا القسم الثالث تسكنه أقلية لها ماض حضارى ، وأن غالبية سكانه من مجموعات من الأفريقيين الذين تفاوتت درجات أفريقيتهم ، وهم في صورة عامة يعتمدون اعتماداً أساسياً على الزراعة والرعى ، لذلك قد وجد فيهم الأوروبي بحالاً لم يصطدم فيه بتقاليد ووراثات قديمة تناصبه العداء بين الفينة والفينة ، كما أن الأوروبي قد استطاع استغلال ضعف هؤلاء في السيطرة عليهم وتسخيرهم لخدمته في الزراعة وموارد الثروة المعدنية ، مخالفاً في ذلك تلك الأسطورة الكبرى التي ادعى الأوروبي أنه قد جاء لتحقيقها وفي مقدمة ذلك خرافة الرقيق ، والعمل على رفاهية السكان المحليين ، وترويضهم على قبول رسالة المدنية الأوروبية ، وهذه هي الأسس التي اتفقت الدول على مراعاتها في قرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ م وبروكسل عام ١٨٩٠ م . فالرقيق قد اتخذ وسيلة لامتلاك أراضي الوطنيين ، وأن استيلاء الأوروبي على أرض الوطنى التي هي عماد حياته ، معناه أن يكون الوطنى مستعبداً اقتصادياً يسعى لخدمة الاجنبى لقاء فئات العيش الذى يتركه له ، وأصدر المستعمر الاوروبى القوانين والتشريعات الخاصة باستخدام الاهالى كل فى مطلقته وتحرم عليه الانتقال من سيد إلى سيد ، وينقل الوطنى من مكان إلى مكان للخدمة فى المناجم والمصانع ويفرض عليه أن يعيش فى الحدود التى ترسم له ، فأجوره غاية من الغبن ، معيشته ومسكنه من أحط الدركات ، وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم الاجتماعية المحلية وهدم الاسرة ، ولم تختلف دولة عن أخرى من الأسس التى قامت عليها تنظيمات العمل والتي لم يقصد منها أصلاً إلا منع المنافسة بين المزارعين الاوروبيين لتخفيض التكاليف فى الانتاج . ولو ترك أمر العمل لحرية الوطنى لكان التنافس والهجرات من منطقة إلى أخرى بل من ولاية إلى أخرى وفى هذا ما فيه من سبل يجتمع فيها الوطنيون فى حرية يتشاورون ومن هنا تبدأ مرحلة التطلع إلى المزيد وهذا ما يخشاه الاوروبى ، ويعمل على منعه ولو إلى حين . وقد تجاوزت بعض الدول - إن لم تكن كلها - فى صورة أو أخرى - القيم الانسانية فى معاملتها للأهلين وتسخيرهم للعمل الآلى تحت ظروف قاسية - من تغذية سيئة وحرمان من

العلاج فتفشيت بينهم الأمراض المختلفة، وزادت على ذلك بالقتل والتعذيب لا أقل
الاسباب، كما حدث على نطاق واسع في الكونغو الحرة، الأمر الذي أثار فضائحه
الرأى العام الأوروبي، وتصور لنا القسوة التي مارسها الأوروبي بين الشعوب التي
جاء لتمدينها ورفاهيتها الا كذبوبة الكبرى التي قامت عليها رسالته التي اتخذها معبراً
لتحقيق سيادته التي تهدف نحو الحصول على مغنم مادية اختص بها لنفسه فقط وجعل
من الوطنى منبوذاً لا يرتقى إلى مستوى الأوروبي، وبالرغم من ضالة الجهود التي
بذلها المبشرون لتعليم الوطنى إذا قورنت بما يصرف على الأوروبيين المستوطنين في
البلاد الافريقية، والتي رسمت منهاجها لخدمة الحكومات، فان ذلك قد دفع بالوطنى الى
اليقظة بعد أن أخذت الصدمة النفسية التي تركها في نفسيته دخول الرجل الأبيض
الذى اعتقد فيه في بادى الأمر أنه الرجل المختار الذى جاء لرعايته.

* * *

وقد بدأ الصراع في مرحلته الاولى بين الأوروبيين والمجموعات من العرب الى
استوطنت ساحل أفريقيا الشرق - بحر الزنج - وكانت فيها سلطنة زنجبار (برالنج)
واشتد بعد ذلك التطاحن بين انجلترا وألمانيا وعمل وكلاء البلدين على الحصول على
معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين في البلاد بطريقة أو أخرى، وتأسست الشركات
التجارية البريطانية والألمانية، وجاءت البعثات التبشيرية، وكل يعمل في ميدانه الخاص
لتحقيق هدف موحد هو بسط السيطرة، فرجال الشركات قد حصلوا على امتيازات
لإنشاء المزارع واستغلال المناجم وفرض تنظيمات لخدمة مصالحهم، وأخذوا ينفذون
رويداً رويداً حتى أتموا تقويض الزعامات المحلية وتحطيم المجتمع كما تم لهم اغتصاب
السيادة، والسيادة في نظر الأوروبي معناها تعطيل جميع الأجهزة القائمة وتسخيرها
على الوجه الذى تراه - دون اعتبار للقيم الانسانية والاخلاقية - وبالرغم من أن
حكومتى بريطانيا وألمانيا لم تظهر اهتماماً بنشاط وكلاء كل منها في بادى الأمر فان عدم
الاهتمام هذا قد انقلب بعد وقت قصير الى حماس شديد أقرب صورة الى الصرع،
ولم يكن ذلك التعفف إلا مرحلة رياضة الفسك والزاى العام، وامتدت سيطرة الدولة
الدولة وحمايتها أوسياستها في سرعة فائقة على الممتلكات التي حصل عليها أولئك
الأفراد الذين لم يكن نشاطهم موضع اهتمام دولتهم.

واشتد السياق في التوسع بين الدولتين، فألمانيا كانت تحاول أن يمتد سلطانها
على منابع النيل والاقاليم المجاورة، وأن تقيم حزاماً يبدأ من الشاطئ الافريقى على

المحيط الهندي وينتهي في الجانب الغربي المطل على المحيط الأطلسي ، وكانت هذه الاطماع صورة لما كانت تفكر فيه فرنسا . ويبدو أن ألمانيا لم تكن في مركز يسمح بالمبادأة بالعداء لانكلترا لأنها كانت تعتقد أن بريطانيا سوف تعاونها في تثبيت أقدامها في القارة الأفريقية نظير المساعدة التي قدمتها ألمانيا لانكلترا في المشاكل الدولية وفي مقدمتها مسألة احتلال مصر .

وقد توغل المغامر الألماني كارل بيتزر إلى حوض النيل الأعلى طمعاً في وضع يده على خط الاستواء الذي كان يحكمه باسم مصر أمين باشا (ادوارد شنيتزر الألماني) . وكانت انجلترا قد دبرت حملة لإنقاذ أمين باشا لخراجته من مديريته ، وجعلها أرضاً مباحاً ، بينما كانت وارده المحلية تكفيه للاحتفاظ بولايته التي شملت رقعة واسعة من الارض ضمنها المادى ، والاتوكا والاشولى والمورى والمكراكة الجزء الشمالى من الانبورو ، وتنتهى حدودها الجنوبية في نقطة شمالى بحيرة فكتوريا ، ويتاخمها من الشمال مديرية بحر الغزال .

وقد أسهم في حملة الانقاذ ولجنتها أباطرة الاستعمار ، الفرسان الثلاثة ليوبولد الثانى ملك البلجيكي وصاحب الكونغو الحرة، ووليم ماكينون مدير الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا، وهنرى استانلى الرحالة المعروف، الذى عمل في الكونغو لحساب ليوبولد الثانى ، وكان يعتقد ان الكونغو الحرة سوف تنزعها بريطانيا في يوم ما تضمها إلى أملاكها الأفريقية . وقد جمع استانلى لهذه الرحلة ١١٥٠٠ جنياً وحصل من مصر على ١٠٠٠٠ جنيه فصارته جملة المبلغ ٢١٥٠٠ جنياً وتزودت الحملة بخطابات من مصر إلى عاملها أمين باشا ، وكانت لجنة الانقاذ ورجالها الثلاثة ينظرون إلى مغنم كبير يعوض لهم المبالغ التي صرفوها ، فقد كان لدى أمين باشا حوالى الخمسة والسبعين طناً من سن الفيل في محطة وادلاى ، قدر ثمنها بحوالى الستين ألفاً من الجنيهات .

وأخذ المستعمرون بعد خروج أمين باشا قوة واقتداراً ثم مقتله على يد جماعة من الكسنين ، على تقسيم أراضى المديرية فيما بينهم . ولم يكن من اليسير على المستعمر أن يستبقى الاوضاع التي عملت الادارة المصرية على انشائها لتقدم البلاد ورفع المستوى المعيشى فقد حملت شعلة العلم والمدنية دون شرط أو قيد لجنس أو لون كما فعل الأوروبي ، كما انها أدخلت زراعة البيضاء والقطن والأزر والخضراوات واستوردت

أشجار الفاكهة من الهند وغيرها لزراعتها لمصلحة الأهالى لأنه لم تكن حينذاك وسائل للنقل سريعة لتصديرها إلى الخارج وشجعت الادارة المصرية على غزل الدمور من القطن المحلى . وقد عمل الأوروبي على مطاردة العرب والتنكيل بهم واضهاد الزعماء المحايين الذين فتحوا بلادهم للتجار من العرب ، وأنزلوهم عن سلطانهم ورفعوا من سار في ركابهم ، وحتى تيبوت (حامد بن محمد من كبار تجار زنجبار) الذى استعان بنفوذه الفرنجة فى الكونغو والأوغنده لم ينج من محاولة الغدر به ، كما اضطهد سليم بك مطر الضابط المصرى وأجبر على السفر وهو فى حالة المرض الشديد (١٧) وغيرهما كثير ، ولم تكن النهم التى وجهت إليهم ومنها الخيانة ، ولم تكن هنالك خيانة فى معناها الصحيح بل أنهم كانوا يمثلون الرسالة الاسلامية التى تقض مضاجع الاستعمار (١٨) ، واستخدم المستعمر الجنود من السودانيين الذين كانوا فى خدمة الجيش المصرى وبقوا فى خط الاستواء ، لإخضاع النبال وأساء المستعمر إليهم بعد أن وصل إلى أغراضه فكان تمردهم .

وقامت على الساحل الأفريقى ، أفريقيا الشرقية البريطانية وأفريقيا الشرقية الألمانية وذلك فى مناطق النفوذ التى تقاسمتها الدولتان بمقتضى اتفاقيتى أكتوبر/نوفمبر سنة ١٨٨٦ وأول يوليه سنة ١٨٩٠ م . وحاول وليم مكينون مدير الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا عقد معاهدة مع الملك ليوبولد الثانى بوصفه صاحب السيادة على الكونغو الحرة وقد تم الوصول إلى صيغتها النهائية فى ٢٤ مايو سنة ١٨٩٠ م إلا أن الحكومة البريطانية لم توافق عليها وبقيت معلقة حتى عام ١٨٩٤ م الذى اتفقت فيه الحكومتان الانجليزية والكونغوية الحرة على عقد معاهدة استمدت خطوطها العريضة من معاهدة ماكينون ليوبولد كما ساذينه فى القسم التالى من البحث الخاص بالمنطقة الغربية .

وكانت بريطانيا مهتمة بإقامه حاجز حول حوض النيل الأعلى فى حدوده الجنوبية ليكون سداً أمام منافسيها وبخاصة فرنسا التى كانت انجلترا تخشى وصولها إلى حوض

(١٧) مات فى الطريق فى منتصف ليلة ١٦ أغسطس ١٨٩٣ م . وقد اثنى عليه لوجارد ثناء عاطراً واتهم مكيدونالد بعدم فهمه للرجل - لوجارد جزء ٢ ص ٤٨٨ / ٤٧٩ .
(١٨) جون . المرجون ملتر فى مقاله عن تيبوت بمجلة أوغنده مجلد ١٩ جزء أول مارس ١٩٥٥ .

النيل وتثبيت أقدامها فتنقل بذلك المشكلة المصرية في حوض النيل إلى المجال الدولي ولفرنسا فيه الكثير من المناصرين . وفي الوقت الذي كانت فيه إنجلترا تعالج المشاكل عن الطريق الدبلوماسي كانت تعد عدتها لتقوية أسطولها البحري للساعة الفاصلة بينها وبين فرنسا ومناصريها من روسيا وألمانيا وقد كفت الدولة الأخيرة عن مساندة إنجلترا بعد أن خاب أملها فيها .

وكان نصيب هذا القسم الثالث من المنطقة الشرقية قاصراً على حماية ذلك المدخل الجنوبي الشرقي إلى حوض النيل الأعلى وخرجت حملات مكدونالد واستن الخ .

المنطقة الغربية :

جاء الفرنسيون ووكلاء ليوبولد إلى منطقتي خط الاستواء وبحر الغزال وازداد نشاط وكلاهما في التسعة العاشرة من القرن الماضي ، وبدأ المزحف لبسط السيطرة عن الطريق الذي سلكته الدول في الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين وكان ذلك المسلك هو الطابع الذي تميزت به العشرين عاما الأخيرة من القرن الماضي التي اشتد فيها التطاحن وبخاصة في العشرة سنوات الأخيرة . فقد كانت الكونغو الحرة دولة اعترفت بها الدول وهي وإن كانت قد سدت فراغا في الحزام الذي كانت تعمل بريطانيا على إقامته حول حوض النيل الأعلى كما أشرنا من قبل ، فان الجانب الشمالي الغربي من هذا القطاع قد بقي في حاجة إلى تدعيمه وربطه مع بقية الحلقة التي بدأت بايطاليا على ساحل البحر الأحمر وأثيوبيا ، وإنجلترا في شرق أفريقيا والكونغو الحرة في الجنوب ومنطقة نفوذ ألمانيا شرقي بحيرة تشاد . وكانت لفرنسا منطقة نفوذها بموجب إعلان فرنسا وبريطانيا بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٠م الذي تحددت فيه هذه المنطقة في الصحراء الكبرى وحدود منطقة النفوذ البريطاني بين النيجر وبحيرة تشاد ، واعترفت بريطانيا في إعلانها بحماية فرنسا على مدغشقر .

وكانت منطقة النفوذ الألمانية التي أشرنا إليها قد تم الوصول إليها بين الدولتين في الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٨٩٣م . ومما جاء في البند الرابع من هذه الاتفاقية « أن النفوذ الألماني لا يمتد بعد حوض نهر شارى وأن دارفور وكردفان وبحر الغزال سوف لا تدخل في نطاق النفوذ الألماني حتى ولو كان أحد روافد نهر شارى يخرج من هذه المناطق . غير أن طمأنينة إنجلترا بعد أن أتمت حزامها حول حوض النيل الأعلى قد انقلبت، إلى قلق وذعر عندما تنازلت ألمانيا عن منطقة نفوذها هذه إلى فرنسا وذلك

بالاتفاق الفرنسي الألماني بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٩٤م ، الذي حصلت منه فرنسا على منفذ إلى حوض النيل الأعلى فسارعت بريطانيا إلى عقد معاهدة مع الكونغو الحرة بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ لمنع توغل الفرنسيين ودخولهم إلى حوض بحر الغزال ، وبموجب هذا الاتفاق أعطت إلى ليوبولد الثاني مدى حياته منطقة اللادو (غرب النيل وبحر الجبل شرق خط طول ٣٠) وتبدأ جنوباً من بحيرة البرت إلى فاشوده شمالاً كما أعطت ليوبولد الثاني وخلفائه من بعده المنطقة الواقعة ما بين خطي طول ٢٥ و ٣٠ وتحد شمالاً بخط عرض شمالاً ١٠ ، ومنحت الكونغو إنجلترا ممراً عرضه خمسة وعشرين كيلو متراً بين بحيرة تنجانيقا وبحيرة البرت أدوارد وقد لقي هذا الاتفاق معارضة شديدة من ألمانيا في احتجاجها وتهديدات فرنسا مما اضطر معه ليوبولد على تغيير موقفه ، وقد عقد اتفاقية مع فرنسا بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ أوضح فيها الحدود بين ولايته في الكونغو الحرة وبين مستعمرة الكونغو الفرنسية ، وقد التزم ليوبولد الثاني في المادة الرابعة من هذه الاتفاقية بتنازله عن احتلال أى جزء أو مزاوله أى نشاط سياسى فى المستقبل فى منطقة حوض بحر الغزال داخل الحدود التى أوصحتها الاتفاقية (١٩) .

وكانت فرنسا فى نفس الوقت قد استعدت لارسال حملتها لاحتلال محطة فاشودة التى وقع عليها الاختيار بالنسبة لموقعها الاستراتيجى الخطير على مجرى النيل الرئيسى بعد خروجه من حوض بحر الغزال والتقائه بالسوبات وجاءت الحملة الفرنسية إلى هذه المحطة فى يولييه سنة ١٨٩٨ ، ووصلت بعدها حملة صغيرة استقرت فى شامبي ولم يكن قائدها يعلم شيئاً عن تحركات مارشان قائد حملة فاشودة . وقد سبق وأوضحنا الفشل الذى أصاب الحملة التى أرسلت عن طريق أتيوبيا ، وبقي مارشان فى فاشودة إلى أن جاءه كقشتر قائد حملة السودان وطلب منه الخروج من المحطة بوصفها بلدة سودانية تابعة للسودان الذى استعادته مصر . وبعد مشاورات سياسية بين إنجلترا وفرنسا أخطرت فرنسا إلى إخلاء فاشودة والانسحاب من تلك المنطقة ويرجع هذا التقهقر من جانب إلى ضعف أسطولها البحرى بالنسبة للأسطول البريطانى الذى استكمل عدته وصار على استعداد لمواجهة التطورات . وخرج مارشان من فاشودة فى عام ١٨٩٩ وعاد إلى بلاده عن طريق أتيوبيا وبقيت حملة شامبي التى قادها الضابط تنكودك وقوامها حوالى الثلاثين من الجنود السنغاليين ، وقد وصلت إلى شامبي فى ٢٠ مارس

(١٩) هرسلت ص ٥٦٩ / ٥٧٠ نص الاتفاقية .

سنة ١٨٩٩ (٢٠) بقيت في محطتها حتى تسلمت أوامر الحكومة الفرنسية
بالانسحاب .

وهكذا انتهت مرحلة الصراع البريطاني الفرنسي الذي استمر أكثر من مائة عام
في هذا الجزء من القارة الأوروبية ، وقد اتخذ خلالها مظاهر مختلفة وانتقل من مكان
إلى مكان ، وتصورت لنا هذه الأحداث السياسية الأساليب والوسائل التي اتبعتها بريطانيا في
معالجة مشاكها في صبر وجلد غير عابئة باللطمات وما أصابها من فشل في أكثر من موقف .
انسحبت فرنسا من حوض النيل بعد هذا العراك الطويل الذي كانت تهدف من
ورائه مضايقة إنجلترا وإخراج مسألة احتلالها لمصر إلى الحقل الدولي ، الأمر الذي
يزعج إنجلترا الأزعاج كله ، وقد بقيت بعد إخلاء الفرنسيين لفاشودة مشاكل كثيرة
بين فرنسا وبريطانيا وبين أتيوبيا وبريطانيا لما كانت تدعيه الأخيرة لنفسها من حقوق
في حوض وادي النيل . أما عن فرنسا فقد عقدت معها الاتفاق الودي في عام ١٩٠٤م
الذي التزمت الدولتان في مادته الأولى : أن بريطانيا تعلن أنها ليست لها فيه في تعديل
مركز مصر السياسي ، وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لا نوى اتخاذ أي إجراء من
شأنه عرقلة أعمال بريطانيا في مصر وذلك بطلب تحديد مدة احتلال إنجلترا لمصر .
وشملت المواد الأخرى تبادل المنافع الخ الخ (٢١) ، وبدأت الدولتان صفحة جديدة
في التعاون في الميدان الدولي . أما أتيوبيا ومطالبها في حوض النيل الأبيض وغيره
من مناطق السودان فقد تحددت في معاهدات عقدت في هذا الشأن . وخسر السودان
جزءاً كبيراً من أراضيه الجنوبية والغربية والجنوبية الشرقية ، التي انتزعتها بريطانيا
وضمتها إلى الاقطار المجاورة وفي مقدمتها الكونغو البلجيكية وأوغنده ، كما فقدت
أسطورة الرقيق قيمتها كأداة للضغط السياسي . وبقيت مشكلتان وهما التبشير والاستعمار

* * *

هذه كلمة موجزة عن الصراع في حوض وادي النيل بين الدولتين وما تخلف عنه
من مشاكل كثيرة وبخاصة بعد أن افردت بريطانيا بفرض سياستها وسيطرتها ،
تحققت معها بداية مرحلة جديدة أساسها اتفاقية سنة ١٨٩٩م ، وهذه تتطلب دراسة
أكثر عمقاً وتفصيلاً لتحقيق العناصر الخفية . ونرجوا مخلصين أن تستوى هذه
الدراسة من يتوفر عليها .

(٢٠) مقال البريجادير جنرل قبيج - قطع السدود ، مجلة السودان في رسائل ومدونات مجلد
عدد ص ٨ وما بعدها .

(٢١) هرسلت ص ٨٢٠ / ٨٢٢ .

جدول مختصر عن النشاط الدولي

نزلت القوات الفرنسية أرض مصر.	١٧٩٨
توقيع اتفاقية العريش بشأن جلاء الفرنسيين عن مصر	١٨٠٠ ٢٤ يناير
جلاء للقوات الفرنسية عن مصر.	١٨٠١ سبتمبر
معاهدة اميان بين إنجلترا فرنسا واسبانيا وهولنده الخ.	١٨٠٢ ٢٧ مارس
جلاء القوات البريطانية عن مصر.	١٨٠٣ مارس
محمد علي واليا على مصر.	١٨٠٥
نزول حملة فريزر أرض مصر.	١٨٠٧ ١٧ مارس
خروج حملة فريزر من مصر بعد هزيمتها.	١٤ سبتمبر
حرب الوهابيين - مصر في جزيرة العرب.	١٨١١ / ١٨١٩
بورخارد في رحلته إلى النوبة	١٨١٢ / ١٨١٤
مؤتمر فيينا الذي اقترح على الدول منع الرقيق.	١٨١٥
امتداد الادارة المصرية إلى السودان.	١٨٢٠ / ١٨٢١
وصل لبنان دى بلقون إلى أعلى النيل.	١٨٢٧
وصل الكاشف ابراهيم إلى ما وراء الخط العاشر عرض شمالا	١٨٢٨ / ١٨٣١
اتفاقية بين فرنسا والجزائر - احتلال الجزائر.	١٨٣٠ ٥ يوليه
معاهدة بين فرنسا وتونس.	٨ أغسطس
زار روبل أتيوبيا.	١٨٣١ / ١٨٣٣
أعلنت بريطانيا تحرير الرقيق.	١٨٣٣ / ١٨٣٤
حرب بين الأمير عبد القادر الجزائري والفرنسيين.	١٨٣٣ / ١٨٣٧
اعتراف الأمير عبد القادر بالسيادة الفرنسية.	١٨٣٧ ٣٠ مايو
دفعت بريطانيا تعويضاً للمزارعين الانجليز عن الرقيق.	١٨٣٨
حملة سليم قبودان لكشف أعلى النيل.	١٨٣٩
اتفاقية بين بريطانيا والدول بشأن مصر.	١٨٤٠ ١٥ يوليه
وثيقة بيع جزيرة موسى في خليج تاجوره لبريطانيا.	١٩ أغسطس
وثيقة بيع جزيرة باب في خليج تاجوره لبريطانيا.	٢٧ أغسطس
معاهدة تنازل بموجبها السيد محمد حاكم زيلع عن جزيرة	٣ سبتمبر
اوباد القريبة من زيلع لبريطانيا.	

فرمانات تركية عن حدود مصر ، (لمحمد علي باشا) .	١٨٤١ ١٣ فبراير
معاهدة بين بريطانيا وحاكم شوا (أتيوبيا) .	١٦ نوفمبر
أخطرت فرنسا الدول باحتلالها للجزائر .	١٨٤٢ ٢٨ يناير
معاهدة تجارية وصداقة بين ملك شوا وفرنسا .	١٨٤٣
معاهدة بين بريطانيا وأتيوبيا .	١٨٤٩ ٣ نوفمبر
لفنجستون في حوض الزمبيزي :	١٨٤٩
بارت وزميله في رحلة من طرابلس إلى النيجر .	١٨٤٩ / ١٨٥٣
اخترق لفنجستون أفريقيا من الزمبيزي إلى لوانده .	١٨٥٣ / ١٨٥٦
صراع بين إنجلترا والولايات الأمريكية بسبب التجارة في شرق أفريقيا وخليج العجم .	١٨٥٥ / ١٨٥٩
ريتشارد بيرتون وسبليك يكتشفان بحيرة تنجانيقا وفكتوريا نيانزا .	١٨٥٨ / ١٨٥٩
رحلة لفنجستون الثالثة في أفريقيا .	١٨٥٨ / ١٨٦١
معاهدة تجارية بين سردينيا وأتيوبيا .	١٨٥٩ ١٠ فبراير
سبليك وجرانت - سافرا عبر أوغندة إلى غندوكرو ، قابلا السير صمويل بيكر في سنة ١٨٦٣ .	١٨٦٠ / ١٨٦٣
بيكر يكشف بحيرة البرت .	١٨٦٣ / ١٨٦٤
تحكيم بريطانيا بشأن استقلال كل من مسقط وزنبار .	١٨٦١ ٢ أبريل
اعلان كل من فرنسا وإنجلترا عن استقلال زنبار .	١٨٦٢ ١٠ مارس
تنازل زعماء الدناكل عن أبوك بفرنسا	١٨٦٢ ١١ مارس
فرمان تركي عن مصوع وسواكن .	١٨٦٥ مايو
لفنجستون في تنجانيقا .	١٨٦٦ / ١٨٧١
شفينفورت . سافر من الخرطوم إلى نيام نيام وكشفه لنهر أويل .	١٨٦٦ / ١٨٧١

صمويل بيكر في خدمة مصر . حاكما على المناطق الجنوبية من السودان .	١٨٦٩ / ١٨٧٣
افتتاح قناة السويس .	١٨٦٩ ١٧ نوفمبر
اتفاقية عن بيع عصب لإيطاليا .	١٨٦٩ ١٥ نوفمبر
	١٨٧٠ ١١ مارس
كشف ناخيتجال منطقة بحيرة تشاد .	١٨٧٠
ستانلي يبحث عن لفنجستون لانقاده	١٨٧١
ستانلي في الكونغو بالنيابة عن ليوبولد الثاني .	١٨٧٤ / ١٨٧٧
غوردون في خط الاستواء بدلا من صمويل بيكر .	١٨٧٤ / ١٨٧٦
دي برازا الفرنسي في حوض الكونغو الأدنى .	١٨٧٥
تأسيس الجمعية الدولية لكشف أفريقيا .	١٨٧٦
اتفاقية بين مصر وبريطانيا بشأن ساحل السومال .	١٨٧٧ ٧ سبتمبر
غوردون حكامداراً لعموم السودان .	١٨٧٧ / ١٨٧٩
فرمان تركي لا يسمح لمصر بالتنازل عن أى جزء من ساحل السومال لاية دولة أجنبية ، فرمان تولية الخديو توفيق .	١٨٧٩ ٢ أغسطس
اتفاقية بين سلطان رهيفة وشركة روباتينو الإيطالية يتنازل فيها عن جزائر أم البشار ورأس الرمل ودرماشيه .	١٨٧٩ ٣٠ ديسمبر
اتفاقية بين سلطان رهيفة يتنازل فيها عن للشاطئ والجزائر في خليج عصب بين رأس لومه ورأس سنتيار .	١٨٨٠ ١٥ مارس
اتفاقية حماية إيطالية على رهيفة .	١٨٨٠ ٢٠ سبتمبر
إعلان من فرنسا عن حدود أبوك .	٢٥ ديسمبر
معاهدة احتلال فرنسا لتونس .	١٨٨١ ١٢ مايو
ذكريتو مصرى بشأن شرق السودان ويشمل مديريات التناكه ، ومحافظتي سواكن ومصوع ، وسنبت والقلابات ، وتوابعها بما فيهم قبيلة الضباينة .	٣٠ نوفمبر

١٨٨٢ ١٠ مارس إتفاقية بين الحكومة الإيطالية وشركة روباتينو انتقلت بموجبها أملاك الشركة إلى الحكومة .

١١ يوليو بريطانيا تضرب الاسكندرية .

موقعة التل الكبير ، واحتلال مصر .

١٨٨٣ ١٥ مارس معاهدة بين إيطاليا وسليمان عصب بشأن عصب صدق عليها ملك شوا بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٣ .

١٢ مارس معاهدة بين إيطاليا وشوا عن الحدود .

١٨٨٤ ٢٢ أبريل اعتراف الولايات المتحدة بالكونغو الحرة :

٢٣/٢٤ أبريل فرنسا والكونغو تتفقان على حق فرنسا في الاستيلاء على الكونغو في حالة إخلاله .

١٨٨٤ ٣ يونيو معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا ومصر بشأن منطقة البوغوص والمسائل المتفرعة واعتراف النجاشي بحق بريطانيا في الفصل في المشاكل بينه وبين مصر بعد هذا التاريخ ، وحق النجاشي في تعيين المطران لكرسي الحبشة .

٢١ سبتمبر معاهدة بين فرنسا وسليمان تاجوره حامد بن محمد يتنازل عن قبة خراب ، وتعهد السلطان بأن لا يدخل في معاهدات مع الدول الأجنبية قبل الحصول على موافقة حاكم ابوك الفرنسي ، وفي هذه المعاهدة مخالفة لما جاء في المادتين السادسة والسابعة من معاهدة ١٨٤٠ بين السلطان وبريطانيا .

١٨٨٤ ١٥ نوفمبر مؤتمر برلين للمسائل الأفريقية .

١٨٨٥ ٢٦ فبراير

١٨ أكتوبر إقرار تنازل عن قبة خراب لفرنسا .

٨ نوفمبر اعتراف ألمانيا بالكونغو الحرة .

١٤ ديسمبر إقرار تنازل لفرنسا من اديلاي إلى امبادو .

١٦ ديسمبر اعتراف بريطانيا بالكونغو الحرة .

١٦ ديسمبر اتفاقية بين بريطانيا والكونغو الجرة بشأن الاختصاص القنصلي وغيره .

١٩ ديسمبر اعتراف إيطاليا بالكونغو الحرة .

٢٧ ديسمبر اعتراف هولنده بالكونغو الحرة .

نوفمبر-ديسمبر معاهدات بين جمعية شرق أفريقيا الألمانية مع الزعماء المحليين

معاهدات بين بلجيكا والزعماء المحليين في أعلى نهر الكونغو . ١٨٨٢ / ١٨٨٥

عودة غوردون لاخلاء السودان . ١٨٨٤ / ١٨٨٥

٢ يناير معاهدة بين فرنسا وزعماء العيسى في الصومال - حماية .

٧ يناير اعتراف اسبانيا بالكونغو الحرة .

٢٦ يناير سقوط الخرطوم في يد الدراويش ومقتل غوردون .

٣ فبراير احتلال إيطاليا لمصوغ .

٥ فبراير اعتراف فرنسا بالكونغو الحرة .

٥ فبراير اتفاقية بين فرنسا والكونغو الحرة بشأن المحطات الخاصة

والممتلكات .

٥ فبراير اعتراف روسيا بالكونغو الحرة .

١٠ اعتراف السويد والنرويج بالكونغو الحرة .

١٨٨٥ ١١ فبراير اعلان فرنسا حمايتها على المنطقة من رأس على إلى قبة خراب

١٤ فبراير اعتراف البرتغال بالكونغو الحرة

٢٣ فبراير اعلان بلجيكا اعترافها بالكونغو الحرة

٢٣ اعتراف الدانمارك بالكونغو الحرة

٢٧ وثيقة الشركة الاستعمارية الألمانية .

٢٦ مارس معاهدة فرنسا بحمايتها على ساحل الصومال

١ أغسطس اعلان من البلجيكي عن تأسيس الكونغو الحرة ، تولى سيادتها

ليوبولد الثاني .

٢٤ أكتوبر اتفاقية بين الباب العالي وبريطانيا بشأن الجلاء عن مصر الخ

- ١٨٨٦ } ٢٩ أكتوبر
 اتفاقية بين بريطانيا وألمانيا عن حدود زنجبار .
 ١٨٨٦/١٨٨٤
 معاهدات بين بريطانيا وزعماء ساحل السومال - حماية
 ١٨٨٧ مارس
 معاهدة بين بريطانيا وألمانيا - مناطق النفوذ في شرق أفريقيا .
 ٢٢-٢٩ أبريل
 مذكرات بين الكونغو وفرنسا بشأن حق الاستيلاء .
 ٢٩ أبريل
 بروتوكول بين فرنسا والكونغو عن الاوبانجي .
 ٢٤ مايو
 امتيازات الشركة البريطانية لشرق أفريقيا في زنجبار
 ٢٤-٣١ مايو
 مذكرات بين بريطانيا وإيطاليا بتحديد مناطق النفوذ من
 رأس كسار على البحر الأحمر .
 ٧ يوليه
 اتفاق بين إيطاليا وزعماء الدناكل عن أوسه .
 ٢٠ يوليه
 إعلان بريطانيا حمايتها على ساحل السومال من رأس جيبوتي
 إلى بندر زيادة .
 يوليه
 اتفاق بين ألمانيا وبريطانيا بشأن عدم ضم أية ممتلكات تقع
 تقع خلف حدود مناطق النفوذ في شرق أفريقيا .
 ١٨٨٧ ٢٠ أكتوبر
 اتفاقية تحالف بين إيطاليا وشوا .
 ١٨٨٨ ٢-٩ فبراير
 اتفاق بين بريطانيا وفرنسا عن خليج ناجوره وهرر الخ الخ
 ٩ ديسمبر
 معاهدة بسيادة إيطاليا على الدناكل
 ١٨٨٩ ٢ مايو
 معاهدة أوتشالي بين أتوبيا وإيطاليا
 ٢ أغسطس
 وصية الملك ليوبولد الثاني بانتقال حقوق سيادته على الكونغو
 الحرة إلى البلجيك وذلك في حالة وفاته .
 ٣١ أغسطس
 اتفاق عن حكر للشركة البريطانية في شرق أفريقيا في زنجبار .
 أول أكتوبر
 اتفاقية بشأن قرض من إيطاليا لآتيوبيا بضمان جمارك هرر
 ١٨٩٠ ٢٤ مايو
 اتفاقية ماكنون وليوبولد التي لم توافق عليها بريطانيا
 ١٤ يونيه
 اتفاق بريطانيا وزنجبار - الحماية البريطانية .
 ١ يوليه
 اتفاق بريطانيا وألمانيا بخصوص مناطق النفوذ

٢ يوليه	قرار بروكسل بشأن الرقيق .
٤ نوفمبر	إخطار بريطانيا للدول عن حمايتها لزنجبار
١٨٨٤/١٨٩٠	مذكرات بشأن محميات ألمانيا في شرق أفريقيا
١٨٩١ ٥ مارس	اتفاق بين زنجبار وشركة أفريقيا الشرقية البريطانية بشأن موانئ بنادر
٢٤ مارس	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن منطقة النفوذ الإيطالية من الجوبا إلى النيل الأزرق .
١٠ أبريل	أرسل النجاشي خطاباً دورياً إلى الدول الأوروبية يعلن عن مطالبته بجميع حدوده القديمة على النيل إلى بحيرة رودلف .
١٥ أبريل	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بخصوص منطقة النفوذ الإيطالية من رأس كسار إلى النيل الأزرق .
٢٠ أغسطس	أعلنت الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا عزمها على إخلاء أوغنده
١٨٩٢ ٢٢ مارس	فرمان سلطاني بولاية عباس موضحاً فيه حدود مصر .
٣٠ مارس	اتفاق لوجارد مع ملك أوغنده
٢٢ يونيه	إخطار بريطانيا بوضع محميتها زنجبار في نطاق مواد التجارة الحرة التي وردت في قرارات برلين .
١٨٩٣ ١٢ أغسطس	معاهدة بين زنجبار وإيطاليا بشأن بنادر
٢٩ مايو	معاهدة مؤقتة بين بورتال وملك أوغنده لسد الفراغ بانسحاب الشركة البريطانية .
١٥ نوفمبر	اتفاق بين إنجلترا وألمانيا عن مناطق النفوذ في غرب أفريقيا
١٥ مارس	اتفاقية بين فرنسا وألمانيا تنازلت لفرنسا عن جزء من منطقة نفوذ ألمانيا سنة ١٨٩٣ الموضحة باتفاق إنجلترا
١٨٩٤ ٥ مايو	بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن شرق أفريقيا وهرر
١٢ مايو	اتفاقية بين بريطانيا والكونغو بشأن مناطق النفوذ وحوض بحر الغزال واللاذو .
٢٢ يونيه	إخطار بسحب البند الثالث من اتفاقية ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بين بريطانيا والكونغو .

- ١٤ أغسطس اتفاقية بين فرنسا والكونغو عن الحدود .
- ٢٧ أغسطس اتفاق كولفيل وملك اوغنده
- ١٨٩٥ ٥ فبراير اتفاق بين فرنسا والبلجيك بشأن الشفعة في أملاك الحكومة الحرة .
- ٢٥ يونيو }
٧ يوليو } اتفاق مصر وإيطاليا بشأن الحدود بين خور بركة والبحر الأحمر
- ١٤ ديسمبر اتفاق بين بريطانيا وزنبار بخصوص الادارة البريطانية على الساحل والجزائر فيما عدا زنبار وبمبا .
- ١٨٩٦ ١ مارس واقعة عدوه التي هزمت فيها إيطاليا .
- ٢٦ أكتوبر معاهدة بين إيطاليا وأثيوبيا اعترفت فيها إيطاليا باستقلال أثيوبيا .
- ١٨٩٧ ٢٠ مارس اتفاقية بين فرنسا وأثيوبيا بشأن الحدود بين أثيوبيا والمنطقة الساحلية الفرنسية .
- ٢٠ مارس اتفاقية بين فرنسا وأثيوبيا (سرية) بخصوص امتداد نفوذ الدولتين إلى حوض النيل الأبيض .
- ١٨٩٧ ١٤ مايو تبادل مذكرات بين بريطانيا وأثيوبيا بشأن معاملة السوماليين الذين يقبلون الرعوية الاثيوبية .
- ١٨٩٧ ٣٠ أغسطس مذكرة بين بريطانيا وأثيوبيا بتوثيق معاهدة ١٤ مايو سنة ١٨٩٧ .
- ٢٥ ديسمبر إقرار تنازل من إيطاليا لمصر عن قلعة كسلا
- ١٨٩٨ ٧ ديسمبر اتفاقية بين مصر وإيطاليا بخصوص ضرائب الرعي المطلوبة لادارة أرتيريا .
- ٧ ديسمبر اتفاق بين مصر وإيطاليا بشأن الحدود الشمالية لأرتيريا
- ١٨٩٩ ١٩ يناير اتفاقية السودان ثم اتفاقية ضم حلفا وسواكن للسودان
- ٢١ مارس اعلان متمم للاتفاقية التي عقدت بين بريطانيا وفرنسا في ١٤ يونيو سنة ١٨٩٨ عن مناطق النفوذ .

« الملاحق والوثائق »

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

الملحق الأول

وثيقة الفقيه محمد أبو دليق^(١)

بيان حامد بن صالح الدليقي قد توضح أفكار الزمان . والزمان وارثاً لكل مكان سنة ست مائة واثنين وسبعين من هجرة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام أن من أهل الشروق الألسنة العربية ١٣ طائفة نزلت بدار ديمس وما من أبحار النيل أربع هلالية واثنان من بني مخزوم واثنان من كنانة وواحدة خزرجية من بني النجار واثنان من بني أمية واثنان من بنو هاشم ففترقوا من الأياتم إلى تونس العلامة بعد فتوح الاسلامي النوراني بالقسمة السهمية وقسمة هلاله لأجل المساعي من شبكة كمار إلى تونس العلامة وكنانة وبنو مخزوم من جبل أودون إلى جبال الذهب برور وبحار وبني أمية على شاطئ البحرين الفشتين مابين أتبره وبربر وما بين مرج البحرين الأبيض والأسود والعباسية من حجر العسل إلى جبل أبو نقاير مشرقاً وغرباً وبعضاً منهما مع الخزرجية من ملواد إلى البحيرة (بالقطر المصري) .

ثم بعد ذلك أولاد سرار سمار وسمرة وسميرة الهاشمية مع أعمامهم كامل واحد ولهمها من القوم أول ما نزلوا من الشرق استقروا ليماني الكاسنجر وعمهم حاسن مع أهله نزلوا بأم غيره بمعاظم جديدة نحو بربر وقد انتقلنا برور الغرب إلى بحر الغزال استغرقنا فيه أربعة خلفات ومنه انتقلنا إلى وادي مقدم من جبرة إلى أم طوب وقد ورثنا فيه خلفتان وكلت الديار من مشاهي المساعي قد توجهوا هنا أولاد محمد أبو دليق عبد الله وعلي وصالح إلى شرق هوات سلمى في سرور شهر رجب سنة ١٠٠٠ ينقضي ثلاثة أعوام ووسمهم على الإبل والبقر والغنم على اليمين نار فوق الأذن مطرق وشاهد وانتقل منه سالم بن معارف إلى الصعيد هو وأولاده حكار وسليمان فاختلفوا مع الجمع ومدرروكون في السجل وانتقلوا النقارة إلى كويمات النوق (دنفلة) دار منها سبعة وعشرين^(٢) خلفنا فيها خلفه واحدة ومحمد وارث الدين أبو دليق وماسمي

(١) نقلت هذه الوثيقة عن مخطوطة محتفظ بها الشيخ يس أحمد أبو دليق بواد مدني . ويكتب الاسم أيضاً أبو « دليق » ومصغرها « دليق » = الخرقة البالية .

(٢) دار منها سبعة وعشرين . يقصد دار منها سبعة وعشرين درجة التي للمسجد = وبشير بذلك إلى أن دار كويمات النوق التي هي دنفلة هي نهاية ما تتمنى الجماعة من امتلاكها في الدنيا .

أبو دليق كان بالتعليم قد حصل عراؤه بالمساجد والزمن وأحل لاميسرة بيد أبيه
صلاح الاراية الاسلام الوارثها (٣) من جده عبد الله ابن العباس المنقسمة إليه من
التسعة رايات المؤيدات بالنصرة - أنشأها صلى الله عليه وسلم بعد دخوله المدينة
اثنان لآخواله أولاد عم آمنة بنت عبد الله ابن جابر الاوسى وأخيه عامر وواحدة
لشقيقه جابر بن عبد الله الخزرجى وواحدة لصديقه أبي بكر وواحدة لسيدنا عمر
وواحدة لسيدنا عثمان وواحدة لسيدنا علي وواحدة لعمه حمزة وواحدة لعبد الله ابن
العباس . ثم أن صلاح لما هم (٤) من عراء ولده كساه الراية وأمه باباجها وحفظها
تكون ورثة لصاحب المقام وجرادة لمن يقدم بدينه إلى محلنا فبذلك تأثر اسم شاهر
بالدليق . ثم نبين لك أولاد محمد وارث الدين ستة ضريس وكروم وعلي وناصر
وعوض الله وحامد وأولاد ضريس شرق جبل أبونعوق وكروم وعلي ناصر الاشقة
هما بالتوقد وعوض الله وحامد فارقوا أهلهم في النوق إلى دار الغرب بمليط
(دارفور) وأولاد كروم سليم وسال وعاید وأما ناصر وأولاده أربعة صالح
وصبح الله وسجاد وأمين وان صالح بن ناصر امه كنزیه وفارق النقارة وقارن
الموالكة (٥) في وادی عريس وله ولدين واحد صبح الله وأخيه حامد وصبح الله
وولده حمد تنير ولد كوكو وكوكو ولد عبید الله ولد الضو وحامد وأخيه ولد صالح
وصالح ولد الطيب والطيب ولد محمد ومحمد ولد الحسين والحسين ولد صالح فاختلفوا
مع الموالكة ومدروكين بالسجل ثم أن الوسم على الابل أربعة وجوه نار الدليق
أولاد ضريس ومن معه القلادة على الشمال والطوق على الورك اليمين وأولاد الملك
ناصر القلادة على اليمين والخرار على الشمال عميد كغنز وأولاد كروم والقلادة على
الشمال والخرار على اليمين والسامع وأولاد ادريس ولد عاید سكنوا وادی القعب (٦)
باللقية بالشايط وتم تبين أهل الله من الدليقاب على وابن أخيه عبد الله بالهواد (٧)
وحامد بمقرات واحمد أبودليق لشرق جبل ابنعوف (ابن عوف) الملقب بقادی
أمه زوافى بنت حسن القناوى الحسن حيدر وسليمان المعقور بن احمد بدارفور

(٣) الوارثها = التي ورثها

(٤) لما هم = عندما خالجه الهموم

(٥) الموالكة = الهواوير

(٦) القعب = شمال دقله .

(٧) الهواد = شرق أبودليق بالبطانة .

رئيساً بها وسالة^(٨) بالارتل وصالح بجرادة وارقو والشيخ ابراهيم بأرض مصر
وعبد الكريم بالين ثم نبين لكم الوارثون . قد انتقلت من النوق إلى وادي مريخ
جزيرة قشاب^(٩) استقرنا بها صاحب السجادة حامد بن صالح ابن عابد بن كروم
بين محمد أبو دليق إلى صلاح بن ساجد الملقب بدير بن سوان بن شرع الدين ابن
أبو مرخة بن سعد الدين بن سمار ابن كروم بن حمد الحجازي بن قضاة بن الرفع
ابن مصرف بن سقف بن أمان بن حرقان بن كوثر بن موسى بن ابراهيم بن سعد الدين
ابن عبد الله الفضل بن عبد الله بن العباس ثم النبي صلى الله عليه وسلم .

بيان حامد بن صالح الدليقي والله أعلم بالصواب يا غفار اغفر ذنبي بالله .

(تعليق)

آثرنا نشر هذه الوثيقة بكاملها إتماماً للفائدة . فهي تبين لنا صورة من صور
الحياة بعد دخول العرب في هجرتهم إلى بلاد السودان وقد جاءت ترجمة حياة الشيخ
أبو دليق في كتاب الطبقات والوثيقة مكتوبة بحبر العمارة الأسود القاتم اللون على
ورق المعروف باسمه « أبو شباك » الذي يستعمل في كتابة الوثائق .

(٨) سالة = ينطق بفتح السين واللام والتاء .

(٩) قشاب = المعروفة باسم قوشاني . أو غوشاني في دنقله .

الملحق الثانى

وثيقة عن حفريات أثرية فى حوض خور برکه بالارتيريا^(١)

كتبها كارلو كوتى روسيتى^(٢)

قام الضابط الايطالى لويجى تالاموتى^(٣) برحلة تفقيشية فى حوض خور برکه - فى المنطقة بين بلدة أغوردات إلى ملتقى هذا الخور برافده (Ambacta) وكان ذلك فى شهر يونيه من عام ١٩٠٢ الميلادى - وقد لاحظ هذا الضابط أن بعض المواقع لها قيمة أثرية من شأنها أن تساعد على توضيح تاريخ الارتيريا والمناطق المجاورة من أتيوبيا والسودان . وقد بعث إلى هذا الضابط بمذكراته عن هذه المواقع لتحقيقها وأرى من المفيد أن أنشر ماوصلت إليه من نتائج للحفريات التى قمت بها فى هذه المنطقة التى لم يكشف عنها من قبل .

مقابر الفونج :

هناك مجموعات من البنايات الصغيرة الحجم منتشرة على طول السهل الواقع فى واد الرافد (Lacreb.) وتمتد على خور برکه فى اتجاه شمالى حتى تقترب من ميناء سواكن . وتعرف هذه البنايات بمقابر الفونج الذين أسسوا ملكا فى سنار فى القرن الخامس عشر الميلادى والتى امتدت حدودها جنوبا وشرقا حتى شارفت على البحر الأحمر .

وهذه البنايات صغيرة مربعة فى حجمها ولا يعرف هذا النوع من فن البناء فى هذه المنطقة فى الوقت الحاضر . ويتكون البناء من أحجار كبيرة منتظمة الشكل الخارجى معقودة فوق بعضها متماسكة بطبقة طينية بين الأحجار . وهناك أحجار طويلة متشابهة الأطراف تربط بين الأجزاء العليا للبناء وتقوم على هذه الأحجار دقة ،

(١) روسيتى مقال ١٩٠٣ ص ١٣٤ - ١٥٠

(٢) أنظر مقال الدكتور مراد كامل عن ترجمة حياة روسيتى (٢٥) إبريل سنة ١٨٧٢ -

٢١ أغسطس سنة ١٩٤٩) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١١ جزء ١ ص ١٥١/١٥٨

(٣) كان موظفاً بالإدارة الإيطالية لارتيريا .

من الحجر والطين . وفي البناية نافذة صغيرة في كل من الجوانب الأربع وتقع في منتصف المسافة من سطح الأرض لاعلى البناء . وتطل على السهل المحيط بها وأرضية البناء في كل الحالات أعلى من مستوى السهل .

وقد قمت بفتح إحدى هذه البنايات المنتشرة في أعداد قليلة منعزلة أو في مجموعات كبيرة . وكانت تلك البناية التي نبشت من المجموعة القائمة في وادي لنقيب (Langeb) بين تأميمات وآبار إداردى . وقد وجدت على عمق خمسين سنتيمتر من سطح الأرض بقايا عظام بشرية تحول هيكلها إلى مسحوق أبيض اللون . ولم أعر على أوعية أو كتابات في داخل المدفن وأضيف على ما تقدم ذكره أن عدداً كبيراً من هذه البنايات موجود من « دور طه » .

ويقال أن الفونج قد أصيبوا بهزيمة منكرة كما تذكر الرواية التي يتناقلها الأهالي أن الجماعة المعروفة بالقدين Al Gheden ترجع في أصلها إلى الفونج التي هاجرت بعد الموقعة الفاصلة .

* * *

هذا هو التقرير الذى نشره الاستاذ روسيني عن هذه الحفريات ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى ما كتبه مادجان مساعد جيولوجى إدارة السودان الذى زار منطقة البحر الأحمر شمالى بورسودان فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ وإلى تعليق كروفرت على هذا المقال والذى حاول فيه أن يحدد تاريخ تلك المباني وقد أنهى كروفوت تعليقه بأنه « يرتبط باطمئنان بين هذه القباب وبين الجماعات من البشا المستعربين الذين اتصلوا عن طريق القوافل بين بلدة قوص أو أسوان وعيذاب فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . » أنظر مجلة السودان فى مدونات ورسائل (S.N. & R.) الجزء الخامس ص ٧٨ / ٨٢ مقال Madigan C.J. عن وصف الحصون شمالى بورسودان .

ومما لاجدال فيه أن هذه المسألة تتطلب المزيد من البحث الذى يتحتم قيامه فى منطقة البحر الأحمر من حوض خور بركة وعلى طول طرق القوافل عبر الصحراء الشرقية . وهذه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مملكة البلى الإسلامية وحروبها التى انتهت باضعاف هذه المملكة وتفرق أصلها إلى مجموعات صغيرة امتصتها قبائل أخرى كما ذكره لوبو وكتاب فتوح الحبشة الذى نشره رينيه باسيه . وكتاب قبائل البجا الذى كتبه بول (Pavl, A.) سنة ١٩٥٤ .

الملحق الثالث

ملخص تاريخ أريحي^(١)

أول من أسس المدينة المذكورة هو حجازي ولد معين وذلك في عام ٨٨٠ (هجريه)
ثم من بعد المدينة المذكورة أسست مدينة سنار بواسطة الملك عمارة دنقس وذلك
بمعيونة (معاونه) الشيخ عبد الله جماع جد العبد لاب ثم بعد انتظام وتعمير مدينة
أريحي فاول شيخ تعين للمدينة المذكورة الشيخ نور محمد ولد رحيمه في عام ٩١٣ هـ
وقتل في غزوة محمود ولد كوينه حينما غزا الجعليين خرب ادريس ود ملك الجعليين
حينما عصى ملك سنار . وتعين بعده شيخاً لأريحي ابنه محمد نور وتعين بعده ابنه
الشيخ شنبول محمد ولد نور الذي جمع بين المشيخة ووزارة ملك سنار بادى ود رجب
وكان ذلك قبل خروج الملك بادى لحرب الشكرية الذين خرجوا عن الطاعة وعين
الوزير شنبول ود محمد نور لخدمة العريان جهة الداخلة الشلال ثم لما رجع الملك بادى
من حرب الشكرية باتنيرة^(٢) واستقراره برفاعه^(٣) وكان من عادة ملوك سنار
يعملون عروضات ويرحون بالخييل أمام الملك وكان أول من رجح بالحصان أحد
إخوانه أبناء عمه محمد ناجي وعادة أهل الخيل يقفون على بعد من الملك والمذكور
(محمد ناجي) طلق الحصان حتى قرب من الملك وعلا الغبار على رأس الملك بادى
فامتأ قلبه غيظاً منه وأمر أن يضرب بالسياط لإساءته الأدب فلما ألقى على الأرض
لم يثبت للضرب وعظم ذلك على إخوانه لعدم صبره وتجلده لأن عادة أهل السودان
التجلد والصبر على المسكاره وكانوا اخوان الرجل المضروب استأذنوا من الملك
ليحملوه إلى سنار للمعالجة فاذن لهم بحمله وكان الملك بادى قبل قيامه لحرب الشكرية
عزل الشيخ الأمين مسمار والشيخ احمد على ولد هيفه شيخ السكاتير والمذكور من

(١) هذه المخطوطة من الأصل الذي يحتفظ بيت ولد شنبول بالسلمية (بين ولد مدني والحصيصا
على النيل الأزرق) وقد تفضل بالاشراف على نقلها الأستاذ يوسف أحيمر بسكك حديد
السودات .

(٢) حوض العظيرة أو الأتيرة .

(٣) رفاعه تقع شرق النيل الأزرق بالقرب من الحصيصا .

كبار أهل الطواقي (٤) وكان أولاد عم الرجل المضروب تعصبوا (٥) واضمروا على قتل الملك هم وعشيرتهم وبعضاً من الطواقي كالشيخ أمين مسمار والشيخ أحمد علي هيفه وحلفوا على قتل الملك بادي ثم ان اخوان المضروب كانوا تحت قبضة الملك فصار كلا منهم يستأذن الملك للتوجه إلى سنار من رفاة لأجل مناظرة أخوهم (أخيهم المضروب) حتى تكاملوا بسنار جميعهم وقويت شوكتهم وسعوا في كيفية حرب الملك بادي . وكان الوزير إذ ذاك شنبول ود محمد نور الذي كان خليفة الملك على سنار لأجل خدمة العربان بالداخلية . فتوجهوا إليه وقتلوه وشاع الخبر إلى الملك برفاعه وقام الملك بادي من حينه بالجيش وتوجه لسنار للحرب معهم فلما وصل إليهم قابلوهم واصطففت الصفوف ثم أتى الملك أمر ابنه دوس (٦) أن يفتتح معهم الحرب فنازلهم وبعد قليل ولي منهم هارباً ثم بعد ما هرب ابنه دوس تقدم الملك بنفسه للحرب فبرز الشيخ الأمين مسمار من مشايخ طاقية العبدلاب (٧) فضرب الأمين مسمار الملك بادي بالسيف على رقبتة ففقطع وريده ثم ان الضربة قد أذت الملك بادي وأما الملك بادي عاقب الشيخ الأمين مسمار بالضرب بالحقة ستة ضربات بالسيف فلم تؤثر فيه ضربة واحدة ثم أن الملك لما أحس بالآلم وعرف أنه هالك أمر أولاد عمه بأن يقتلوه بسيوفهم لأجل ما يقولوا (٨) قتله الشيخ الأمين مسمار وهو عار عليه وقد كان ضربه بسيوفهم وقتل على هذه الكيفية . ثم بعد قتل الشيخ شنبول ود محمد نور تعين ابنه الشيخ مدني ود شنبول في أربجي أعظم مشيخة وكانت أيامه في معظم عمارة أربجي وفي أيامه كان أحد الفقراء المشاهير الفقيه محمد علقم ثم أن الفقيه نفسه توجه إلى ملك سنار وفي ذلك الوقت كان ملك سنار محمد ولد ناصر وبعد وصوله إليه والوقوف بين يديه طلب من الملك جاهاً إلى حلتة (٩) بمعنى خدمة جميع البلد تعطى إليه لأن عادة ملوك السودان يعطون الفقهاء في ذاك الزمن الأعشار وقد مضى له بأعشار حلتة وصار يخدم حلتة بنفسه خاصة وبدون أمر

(٤) طواقي مفردتها طاقية وهي غطاء الرأس الرسمي إشارة الحكم وتعرف بالطاقية أم قرين (قرن) أنظر صفحة ١٢٣ .

(٥) تعصبوا = جمعوا أهل عصبيتهم .

(٦) دوس = تنطق بضم الدال وفتح السين - والكلمة أصلاً ترجع إلى المصرية القديمة

(٧) مشايخ طاقية العبدلاب = أي مشايخ مانجليكية العبدلاب .

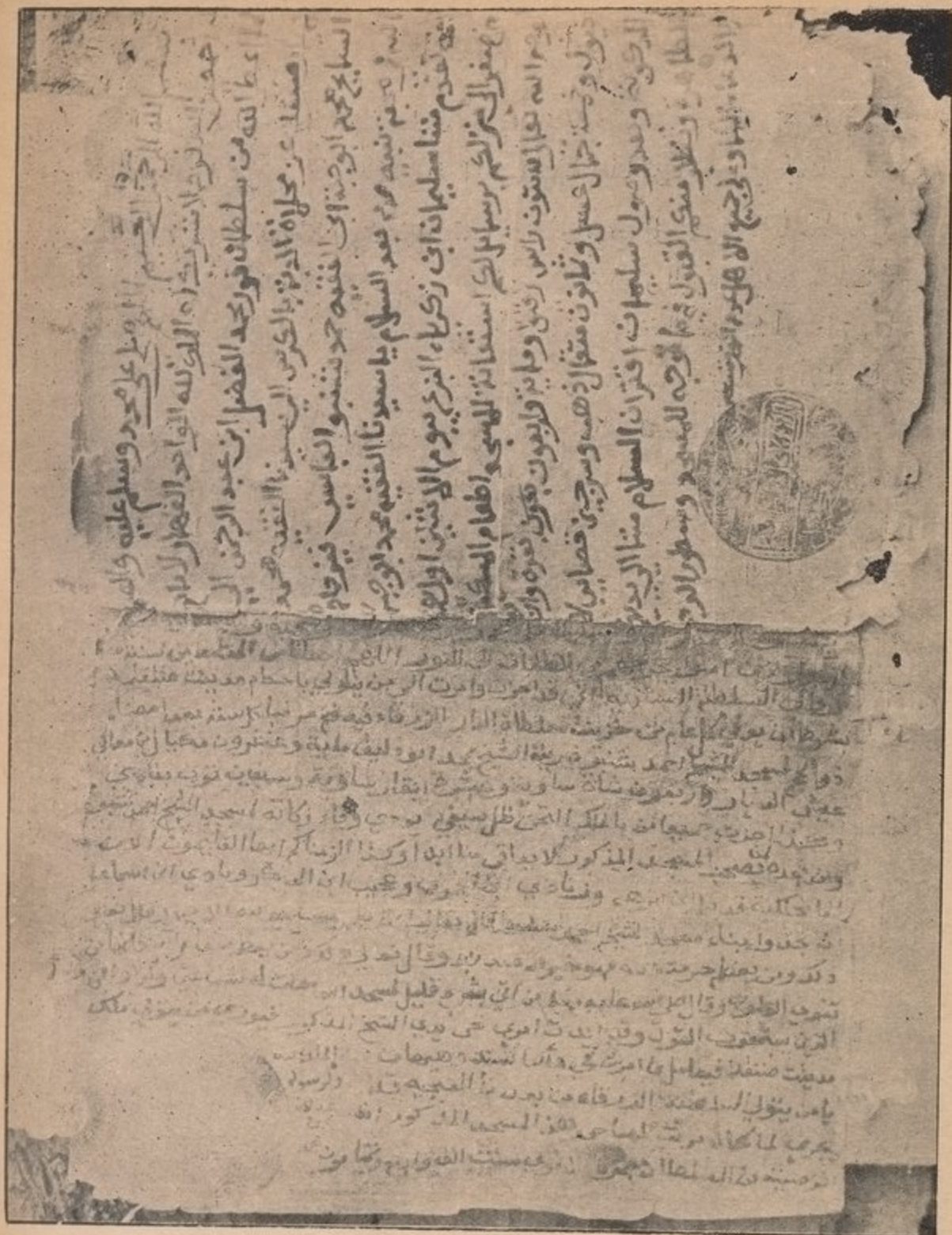
(٨) لأجل ما يقولوا = حتى لا يقولوا .

(٩) حلة = قرية .

الشيخ مدني وبعد ما أمضى له الملك لم تكن للشيخ مدني ود شنبول سلطة عليه ولا على
 أهل الحلة التي بها الفقيه ود علقم وبهذا السبب الشيخ مدني شيخ أربجي قتل الفقيه
 ولد علقم وجميع أهل الحلة التي كانت تخدم الفقيه ود علقم فلما سمع ملك سنار بذلك
 غضب غضباً شديداً وعزل الشيخ مدني ود شنبول عن سياحة أربجي وعين بدله
 لأربجي محمد ود النو من دناقلة أربجي وأهلها القدام وكان من أهل الغناء المشهورين
 بأربجي وكان بعد ما عزل الشيخ شنبول توجه هو (١٠) وجميع جيشه إلى جبال العطيش
 وأقام هناك مدة سبعة سنوات والشيخ محمد النو الذي عين بدله مقبلاً بأربجي وبعد
 حضور الشيخ مدني من جبال العطيش بسنار هو وأخواته وجميع الجيوش والعوائل
 والعشيرة التي معه قاصدين جهة السامية ليكونوا بها فلما سمع الشيخ محمد النو أن الشيخ
 مدني شنبول أخذ معه الخواص من أولاد عمه وتوجه بهم إلى سنار لمقابلة الملك
 ليطلب رضاه فلما سمع الشيخ ود النو أن الشيخ مدني ود شنبول شيخ أربجي المعزول
 سابقاً توجه لسنار خشي منه أن يتفق مع الملك ويرجع شيخاً على أربجي ثانياً وأن
 الشيخ المذكور محمد ود النو أخذ خيولاً وعبيداً وجوارياً وذهباً كثيراً ليعطيه
 للملك لبقائه على سياحة أربجي فلما قرب من سنار قابله الشيخ مدني الذي كان يخافه
 خارجاً من سنار بعد أخذه الأذن من الملك ثم إن الشيخ مدني بادر على قتل الشيخ
 محمد ود النو وذهب بجميع ما جاء به للملك من خدم وعبيد وخيول وذهب ورجع
 به للملك وأخبره الخبر فلما سمع منه الملك ذلك غضب غضباً شديداً وهم بقتل الشيخ
 مدني شنبول ثم إن أكابر رجال الدولة والأعيان دخلوا على الملك ليشفعوا للشيخ
 مدني من القتل وقالوا هذا الرجل من بيوت الملك وأن أبناءه لهم عند الملك جاهها
 وكانوا من أعظم شجعانه ولهم مزايا كثيرة وقد انحل غضب وقال للشيخ مدني قد
 عفوت عنك فن وقتها قد قام الشيخ مدني لوطنه المسلمية وصار جميع عمار أربجي
 تحته وكان خراب أربجي سنة ١٠٤٠ (هجريه) وتعمرت المسلمية وكان بلال ود بله
 من أهل ثورة الملك وكانت تصدر منه كلمات في حق الشيخ مدني ومنها كلمة قالها
 قال سأجيب مشيخة الشيخ مدني وأعطيها إلى أحد عبيدي ولما بلغ الشيخ مدني هذا
 الكلام بهذه الصفة اغتاظ على بلال ودبله وكان أحمد إبراهيم من قبيلة البساتنة وهو
 من التجار المشهورين بأربجي والمذكور كان سافر إلى أرض النخا (نخا - باليمن)
 وأحضر معه بضائع نفيسة تليق بالملك - سيوف ودروع عظيمة . ولما بلغ ذلك ملك

سنار قد أرسل إلى الشيخ مدني شنبول بان يشتري له منه سيوف ودروع بالثمن وقد أخذ الشيخ مدني السيوف والدروع وكان مقدراً قيمة الجميع ٢٥ أوقية ذهب وأن الملك تأخر في ردها إلى الشيخ مدني شنبول وطال الزمن بعد وصول الأشياء إلى الملك وصار التاجر يلح على الشيخ مدني شنبول بالمطالبة وأن الشيخ مدني عرف التاجر بأن الملك لم يرسل إليه الذهب ولما طالت المدة وكرر التاجر إلحاحه بالمطالبة على الشيخ مدني وأخيراً التجأ إلى بلال ودبلة مستنجداً به للخلاص من الشيخ مدني وتداخل بلال ودبلة بين الشيخ مدني والتاجر وعرفه أن أصل المال له لذلك صار بلال يطالب بالمال وأخيراً اشتكى لملك سنار وقال له ان الشيخ مدني ود شنبول قد أكل ذهبي ظلماً فلذلك ملك سنار طلب الشيخ مدني ولما حضر عنده أمره بدفع المبلغ إلى بلال ولما اتضح للشيخ مدني الأمر استأذن الملك في الرجوع إلى المسلمية وبعد مارجع للمسلمية استعد بألة الحرب إلى بلال ودبلة في رحلته وكانت بالقرب من المسلمية وقتله هو ومن معه من أولاده وعشيرته ثم ان الشيخ مدني عصا على ملك سنار وطلبه ملك سنار ليحضر عنده ولم يحضر عنده فقال له الوزراء ان هذا الرجل إلا نحتال على قبضه بدون حرب فقاموا من وقتهم وتوجهوا إلى المسلمية وقالوا له ان ملك سنار حلف يميناً لا يعافيك بشيء مطلقاً وحلف الوزراء أمام الشيخ مدني المسلمية على كتاب الله وقالوا له قد قتلت قبله الشيخ محمد النوبستار قريباً من كرسي الملك فلم يحصل لك شيئاً وان هذا هو وأهله لم يؤخذ له الملك فيهم بشيء فلما سمع منهم الشيخ مدني هذا الكلام توجه هو وأخواته إلى سنار فلما بلغ الملك قدومهم إلى سنار قال اعملوا حيلة عليهم واقبضوهم بدون شوشرة فبوقتها قد عين الملك جيشاً قبل وصولهم حلة طيبة قندلاوى فوقفوا على الشيخ مدني أربعة أنفار وألقوا عليه القبض ووضعوا فيه الحديد وكذلك أخيه الشيخ عدلان في محله قبض وكذلك بقية أخواته توجهوا إليهم أنفار وألقى فيهم الحديد ثم ان الشيخ مدني اجتهد مع الوزراء والرؤساء بالمبالصة (الرشوة) في فك أخيه الشيخ عدلان وقال ان أنفك الشيخ عدلان وبقي في العقب (الاهل) لم تخرب دار شنبول ما دام هو فيها وقال للوزراء قولوا له أن أخيك مدني توجه للشرق ولم تعرف له جهة ومن وقتها قام الشيخ عدلان وهرب منهم وخرج بالشرق وان الشيخ مدني شنبول هو وأخواته أدخلوهم على الملك ففي الحين أمر الملك بقتلهم وقتلوا بسيف الشيخ محمد ناصر ضحى وأما ما كان من أمر الشيخ عدلان قد طلبه الملك وأحضره لديه وعفا عنه وأعطاه المشيخة وصار شيخاً (واستمرت المشيخة في بيت شنبول إلى أن حل ركاب حكومة العصمية

(العثمانية) وعصت الجعليون وقتلوا ود الباشا (الامير اسماعيل كامل) وحرقه
بالنار وكان الحاج شنبول قد قدم من أرض الحجاز بصفة تاجر ولما وجد ود
الباشا والاكابر الذين مقتولين معه وكانت الحكومة قد جردت العساكر لمحاربة الملك
نمر لأن الملك نمر تجهز لحرب الحكومة وكان ما كان من أمره إلى أن قام من بلده
ولما طلبت الحكومة المشايخ المعينين وجاءت الكشاف وكان مركزهم أبو فزوع وكان
إذ ذاك الشيخ شنبول فاستمر شيخاً إلى ١٢٥٦ هـ وتعين بدله ولده عبد القادر شنبول
أربعة سنين وبعدها عزلته الحكومة وتعين مساعد عبد القادر عام ١٢٦٠ هـ ثم بعد
وفاة الشيخ مساعد ولد عبد القادر تعين الشيخ مدني ود عبد القادر وقد عزل وتعين
بعده شيخا الشيخ احمد أبو الروس أبوام كثير من قبيلة الجوادكيك وبعد وفاته تعين
الشيخ مدني شنبول ود مدني ود شنبول وقد عزل وتعين مأمور إدارة المسلية وتعين
بدله شيخا الشيخ بنحيت عبد الصادق الشيخ عدلان شنبول وتعين بعده الشيخ مدني
شنبول مأمور إدارة المسلية وعزل وتعين بعده الشيخ بادى ود بنحيت ود إدريس
وعزل من المشيخة ثانياً وتعين الشيخ مدني شنبول سنجق واستمر بيك باشا (بكباشي)
الريسة (الرؤساء) إلى أن قتل في أول ثورة المهديّة بشات هو وأخواته فهم عبد القادر
بيك باشا والعوض شنبول بيك باشا وكتور شنبول بيك باشا ومدني عبد القادر
شنبول وعبد الصادق احمد شنبول ثم تعين بعده الشيخ عبد القادر مساعد سبعة عشر
يوماً في المشيخة وحلت المهديّة. وقد تم نظام المشايخ المتقدم ذكرهم في سنة ١٢٩٩ هـ.



الملحق الرابع - (١) خطاب السلطان عدلان بن محمد
(٢) خطاب السلطان القور محمد الفضل

الملحق الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم وصليت على محمد خير
والله وواله وصحبه و (سلم)
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور اللهم اجعلنا من المعتصمين بسنة ...
ومن وإلى السلطنة السنارية انى قد أجزت وأمرت إلى من يتولى بأحكام مدينت
ضنقله بشرط أن يوفى كل عام من خزينة سلطان الدار الزرقاء فيدفع مرتباً كل
سنة بعد إمضاء ذو الحج لمسجد الشيخ أحمد شنبو خليفة الشيخ محمد أبو دليق مائة
وعشرون مكيال من معالي عيش الدينار وأربعون شاه ساوية وعشرة أبقار ساوية
وسبعين ثوب بنادى وكذا أجزت جميعاً من بالملك تحت ظل سيفي يؤدى وفاء
زكاته لمسجد الشيخ أحمد شنبو ومن بعده لمن يصحب المسجد المذكور لا يعافى منا
أبدأ وكذا ألزمنكم أيها القايمون الآن بالمانجلكيه قنديل بن ابراهيم وزنادى ابن
الجرى وعجيب ابن الذكروبادى بن اسماعيل ان تجددوا بناء مسجد الشيخ أحمد شنبو
وقال تعالى إنما يعمر مساجد الله الآية وقال تعالى ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو
خير له عند
وقال صلى الله عليه وسلم من أتى بشيء قليل لمسجد الله حلت له شفاعتي وكونوا من
الذين يستمعون القول وقد أبدت أمرى تحت يدى الشيخ المذكور فيؤدى من يتولى
ملك مدينت ضنقله فيعامل بما أمرت فى ذلك السند وهيئات يا من يتولى السلطنة
الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور انه
توصيت من السلطان جمره الاموى سنة ألف وأربع وثمانون .

الملك لله ولرسوله
ختم السلطان
عدلان ابن محمد

ملحق نمرة ٥

١ — بيان التقسيمات الزراعية — ب والمعاملات

١ — التقسيمات الزراعية:

(١) الأراضي النهرية:

جزائر — وتشمل الأراضي التي يفصلها الفيضان العالي عن الشاطئ .
رمال — شاطئ النهر الرمل .

براية — (Barraya) الأرض المنحدرة من الشاطئ حتى شاطئ النهر الرمل
وتعرف أيضاً بالسلوكه (Seluka) .

القيف — (Qeif) الجزء الأعلى من شاطئ النهر .

القرير — (Qerer) الجزء من الأرض من طرف القيف الأعلى وتمتد إلى حدود
الغابة . أو الأرض الزراعية السوداء المعروفة بالتربة القطنية وتشمل أرض القرير
الجرف المطري إذا كانت زراعية بالأمطار والجرف الحى إذا كانت الزراعة
بالرى الصناعي .

ميعه — (Ma'ya) أو فراش وهي الأراضي المنخفضة وتقع بالقرب من النهر
وتحيطها غالباً أشجار السنط .

٢ (الأراضي التي تعتمد في زراعتها على الأمطار :

تعرف بأرض « الضهارى » وهي تبدأ من نهاية أرض القرير النهرية وتشمل
الضهارى (مفرداً ضهره : ظهر) .

١ — العزازه (Azaza) وهي الأرض الصلبة والرملية وتصلح لزراعة الدخن
أو لإقامة مباني القرية (الحلة) .

٢ — البادوبه (Badoba) وهي الأرض المشققة وهي التربة القطنية وإذا كانت
تشرب المياه بسرعة تعرف بالفوده (Foudah) وإذا كانت المياه تبقى على سطحها
فتعرف بام جميده (Baom Gemeida) ومحصول هذه قليل رغم ان الزراعة تنمو
فيها بسرعة .

٣ - حريق - وهي الأرض التي ينبت فيها في فصل الأمطار (الخريف)
نوع من القش يزيد ارتفاعه عن القامة . وتشتعل فيه النار قبيل الزراعة ويكون
الرماد المتخلف عن الحريق مماداً كبير القيمة وتختص المناطق الآتية لهذا
النوع من الزراعة :-

دار الأحامدة : جنوبي كوستي

منطقة جبل مويار جبل أولي : غربي سنار

منطقة الدندر : وتشمل حوض الدندر والرهـد .

البطانة : القسم جنوب غرب وشمال شرق القصارف .

وفي المناطق التي ينمو فيها القش القصير فإنه يترك للنمل الأبيض المعروف
بالأرضة أو أم رصاص والمتخلف منها يترك على الأرض لتسميدها .

ويستخدم الشادوف أو النبروه (الاسم المحلي للشادوف) لرى الأراضى التي
على النيل . كما تقام الساقية على النهر لزراعة الأراض العالية على شاطئ النهر . وتحفر
الآبار التي تعرف محلياً باسم المتره (Matara) لاستخراج المياه الجوفية لرى
الأراضى البعيدة عن النهر .

هناك مصطلحات أخرى وهي :

البور - (الغفار - القفار) وهي الأرض التي لا تزرع .

حداب - وهي الأرض الصخرية على شاطئ النهر ولا تصلح للزراعة .

هدام - أرض الشاطئ التي تتآكل من المياه .

قرض - وهي الأرض الصخرية التي تغطيها طبقة طينية وتقوم عليها
بعض الشجيرات .

حرام - وهي الأرض التي تفصل بين زرعتين ويكون عرض هذه المنطقة
على مسافة « رمى القاس » .

نقاده - الأرض الزراعية قريباً من الحلة .

مغورة - (Maghura) التي تقع بين المساكن وتقوم على زراعتها النساء .

بلاد - أو بلدات الأرض التي تزرع أذرة .

ب (المصطلحات المحلية في المعاملات الزراعية - الجبايات أـخ :

العشور - وهي العشر الذي يدفع عيناً من محصول الأذرة .

قدح — يدفع بواقع أربعة أرباع من الأردب من زراعة السمسم (الأردب ٤٢٢ رطلاً والرابع يساوى واحد على عشرين).

دقافه — (Dagaga) (القاف صعيدية) يدفع صاحب القطية (محل السكن : البيت) عشرة قروش سنوياً لصاحب الأرض (صاحب الأصل). ويستولى صاحب الأرض على قطعتين أو ثلاثة من أثواب الدمور من زارع الجروف بصرف النظر عن مساحة الأرض المنزرعة.

وفي زراعة أرض السلوك (البراية) يستولى صاحب الأرض على ثلث أو نصف المحصول حسب الاتفاق وذلك في حالة قيام صاحب الأرض بتقديم التقاوى.

دقندى — (Dugundi) المبلغ الذى يحصله صاحب الأرض من المستأجر الجديد في حالة ما تذكرن قطعة الأرض قد أصلحها المستأجر السابق وتقدر القيمة بالاتفاق. ضحوه — (Dahwa) جرت العادة على أن يستخدم صاحب الأرض الرجال وهم غالباً من الرقيق في العمل نصف اليوم لاصلاح الأرض وتنظيفها للزراعة وهذه تحدث عند إنشاء قرية جديدة وفي الحالات التي يعجز فيها الرجال عن العمل عند صاحب الأرض بسبب أعمالهم الخاصة فان على كل شخص أن يدفع قرشاً أو قرشين بدلاً عن شغله شخصياً. وما يجدر ذكره أن هؤلاء الأشخاص المطلوب منهم العمل هم « الرقيق ».

خيرية — ريال صغير. ويؤخذ عن تأجير الأرض لمالك الأرض وهذه متعارف عليها بصفة خاصة في دار الحسانية والحسينات.

قيراط — ما يحصله رئيس القبيلة عيناً من الزراعة التي يقوم بها الأجانب في دار البقارة.

وهناك جبايات أخرى تحصل وتعرف بالقطرة والزكاة وهي كالرسم الآتى :-

١ — الفطرة :

تحصل بواقع ١/٥ أرطال عن الشخص - رقيق أو حر - طالما يعيش في كنف العائلة وتدفع هذه سنوياً في أول عيد رمضان الذى يعرف باسم شهر الفطرة فإذا كان لرجل زوجتين وخمسة أولاد وثلاثة من الرقيق يدفع رب العائلة ثلاثة وخمسين رطلاً وثلاث الرطل عن أهل بيته العشرة.

٢ — الزكاة :

(أ) زكاة النقود : تدفع بواقع خمسة في المائة من المال أو ثمن الذهب والفضة.

(ب) زكاة العيش (الحبوب)

تؤخذ عن الزراعات التي تلتج ١٦٠٠ رطلاً فأكثر . ولا يحصل شيئاً عن

الزراعات التي تنتج أقل من ١٦٠٠ رطلا .
(ج) زكاة المال عن الحيوان
وتقدر هذه وفق نوع الماشية كالآتي :-

الغنم والماعز :

رأس واحد عن كل أربعين أو زيادة إلى ١٢١ وعند ذلك يدفع صاحبها رأسين
وإذا زاد العدد عن ١٢١ فتؤخذ رأس عن كل مائة .

المواشي :

من ٣٠ إلى ٤٠ : يدفع عجل صغير
» ٤٠ » ٥٠ : يدفع عجل عمره من سنه إلى سنتين ويعرف بالتني
» ٥٠ » ٦٠ : يدفع عجل واحد عمره ثلاثة إلى أربعة سنين ويعرف بالربع
» ٦٠ » ٧٠ : يدفع اثنين من العجول الصغيرة
» ٧٠ » ٨٠ : يدفع عجل واحد صغير وواحد تني
» ٨٠ » ٩٠ : يدفع اثنين من العجل التني

وبعد ذلك يؤخذ عن كل ثلاثين رأس عجل صغير وعن كل أربعين عجل تني
أى أن تسعين رأساً تساوى ثلاثة وحدات كل منها ثلاثين يؤخذ عنها ثلاثة عجول
صغيرة - أيضاً مائة وعشرة من الماشية تساوى أربعين زائداً أربعين زائداً ثلاثين
تؤخذ عنها عجل صغير واثنين تني .

الجمال :

من ٥ إلى ٢٠ : شاة عن كل خمسة جمال
» ٢٥ » ٣٦ : جمال صغير أو ناقة صغيرة
من ٣٦ » ٤٦ : جمال لبن
» ٤٦ » ٥٦ : جمال عمره من سنتين إلى ثلاثة سنين
» ٥٦ » ٧٠ : جمال عمره من أربعة إلى خمسة سنوات
» ٧٠ » ٨٠ : جملين لبن
» ٨٠ » ٩٠ : جملين لبن وعدد اثنين من الغنم وهكذا كلما تم العدد ٣٥ جملاً
يدفع جمال لبن أى أن ١٢٠ جملاً تساوى ٣٥ + ٣٥ + ٣٥ + ١٥ يدفع عنها ثلاثة
جمال لبن وثلاثة أغنام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده
محمد الذي بعده



من حضرت من نبال الرجال ومجته من صولم الابطال
يوم الحرب والنزال والوقت بانس الديان اليك محمد بن
المرحوم الوزير الشيخ عدلان نصره الله من ابي حضرت
الفقيه احمد ولد الفقيه ابراهيم الفرضي وكافته الفقرا
الفرضيين يسلم عليكم جزيل التسلام فالذي نفوقكم
نحن زماننا هذا كله ما طلبنا القبايل قاعدين في البر
ومدارها تقوا في تسوا ونظرنا في عالمهم وقبايلهم
والوقت ~~هذه~~ فطقنا بفقينا في الدند وطا لبيح
قبايل الشرق والعربان وانتم اباكم مرتبنا وقران
واسباد وعوننا القائله وشركا نايه الخير والشر
بعد وصول جوابي جاكم انتم وعلمه فقراكم

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وحده
محمد الذي بعده
من حضرت من نبال الرجال ومجته من صولم الابطال
يوم الحرب والنزال والوقت بانس الديان اليك محمد بن
المرحوم الوزير الشيخ عدلان نصره الله من ابي حضرت
الفقيه احمد ولد الفقيه ابراهيم الفرضي وكافته الفقرا
الفرضيين يسلم عليكم جزيل التسلام فالذي نفوقكم
نحن زماننا هذا كله ما طلبنا القبايل قاعدين في البر
ومدارها تقوا في تسوا ونظرنا في عالمهم وقبايلهم
والوقت ~~هذه~~ فطقنا بفقينا في الدند وطا لبيح
قبايل الشرق والعربان وانتم اباكم مرتبنا وقران
واسباد وعوننا القائله وشركا نايه الخير والشر
بعد وصول جوابي جاكم انتم وعلمه فقراكم

الملحق السادس

صورة خطاب من الشيخ محمد ابن المرحوم الوزير الشيخ عدلان
إلى الفقيه احمد ابراهيم الفرضي

الحمد لله وحده

محمد لاني بعده

بسم الله الرحمن الرحيم

(ختم) (الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان)

١٢٣١ (٥)

× (١) من حضرت من تهابه الرجال وتخشى من صولته الأبطال .

(٢) يوم الحرب والنزال الواثق بالله الديان الشيخ محمد بن

(٣) المرحوم الوزير عدلان نصره الله أمين إلى حضرت

(٤) الفقيه ولد الفقيه ابراهيم الفرضي وكافة الفقرا (٥) الفرضيين يسلم عليكم

جزيل السلام فالذي نعرفكم به (٦) نحن زماننا هذا كله ما طلبنا القبائل قاعدين

في الجزيرة (٧) وعمارها تعبوا (٣) ونظرنا في حالهم رفقا بهم (٨) والوقت هذا

بقينا (٤) في الدندر طالبين (٩) قبائل الشرق والعريان وأنتم إياكم مرتبتنا وفقرانا (٥)

(١٠) وأسباب دعوتنا الصالحة وشركانا في الخير والشر (١١) بعد وصول جوابي

أنتم وجملة فقراكم (١٢) جدوا واجتهدوا واتعبوا بسؤال الله (٣) على نيته قضا

حاجتنا بهمة عالية (١٤) ونية صادقة لا يكون منكم غفلة ولا تهاون (١٥) ولا فترة (٦)

وإن سألتكم عن الترك سلطنة (١٦) مصر بلغنا خبر قدومهم في مائة وثمانين

(١٧) ألف وهذا شيا قاسى على كافة المسلمين (١٨) أتركوا جميع أموركم واصرفوا

همتكم بالسؤال (١٩) إن شاء الله ربنا يبطل سفرهم ويرجعون (٢٠) إلى محلهم كونهم

ما يعرفوا مرتبة ولا غيره (٢١) ولا عندهم اعتبار في خاص ولا عام لاني واثق بذلك

× النمر الموضوعية بين قوسين تشير الى ترتيب السطور في الخطاب المذكور الذي لا يحمل تاريخاً

(١) أنظر كتاب الطبقات ص ٢٢ ترجمة الشيخ ابراهيم بن عبودي الفرضي

(٢) ما طلبنا القبائل أى اننا لم نطلب القبائل الموجودة في الجزيرة .

(٣) تعبوا = أصابهم اليأس .

(٤) نزلنا في الدندر .

(٥) يقصد أنهم سئدنا ووسيلتنا إلى الله - فقرانا جمع فقير أى فقيه .

(٦) لا نفتروا وتكاسلوا

الملحق السابع

خطاب السلطان محمد بادی عجيب

(ختم السلطان)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير . هذا مسطر من السلطان محمد بادی عجيب الى بنو أمية الساكنين دار ضنقلة امراء القوم فقد نصركم الله بعون دائم . الى المانجلك الشيخ قنديل ولد بادی والشيخ بادی ولد قنديل والشيخ حماد ولد تيممه والشيخ الفيل ولد الحجاج انكم ارسلتو لنا ابن أخينا المانجلك اسماعيل ولد قنديل بمكاتبة منكم الجميع بان يرسلوا لكم اصول ابايكم الى مركز الصحابة عليهم رضوان الله

فان يا اهلونا تعرفونا في كتابتكم الاصول عز شان ولم لنا سوى شان عز غير ذلك من ماتوروا الاصال

أولا نخبركم أتم من بنو أمية عليّة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فبنوا أمية قبل النبوة سلاطينا وملوكا ولما ظهر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الله أبكارا من بنو أمية أبا بكر وعثمان ابنه وعمر وعثمان ومعاوية ومن محبة النبي ص. م لمعاوية يدعو اللهم زد كرمكم الذي كنتم به شانا ابايكم بقدر جاه النبي لم خفصت درجتنا ومستوين في زمن اء لان عشرة سلاطين على المنابر في دار الدنيا فانا العاشر وأيضاً اسماعيل ابن المانجلك الشيخ قنديل ابن بادی ابن اسماعيل ابن السلطان جرة ابن السلطان صابر الشاهر بعجيب ابن عامر ابن عبد العزيز ابن صابر ابن عميره ابن الهاجر ابن مرامه ابن مدين ابن صبيحة ابن دهاشر ابن حذيفة ابن مروان ابن عبد الحكيم ابن معاوية ابن اليزيد شره الله به يكيد ابن معاوية حبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأيضاً الشيخ بادی ولد قنديل ابن اسماعيل سلطان جرة وأيضاً الشيخ حماد ابن عيمة ابن عيسى ابن الكامل ابن عيسى

ابن جناح ابن هزيمة ابن الولي عياد ابن منابر ابن عبد الله الجهني جد الجهمينة وايضاً
 الشيخ الفيل ابن . . . ابن بطيحه ابن الفيل ابن غريمة ابن شاهر ابن كميدة ابن زايد
 وش ابن عما ابن صفروسة ابن دياب ابن هاجج ابن بصاير ابن كنيابة
 ابن صملة ابن قيا ابن حجاز ابن بهرة والهجرة مع بهرة من بنوا مخزوم والنسب
 عز والا سف جارج فقد ترى وقايح والالسنه صامته والعبد عزيز ترى
 مكارمه الحذر من مجارج الالسنه أيها الاهل بعد حضور ابن الاخي عنكم
 اسماعيل ابن قنديل فاحضروا عند الولي الصالح الفقيه محمد ابو دلق
 بعده فابرزوا جميع وأجمعوا رؤوس الديار بمناهات الخيول النحائس بعد الجمع
 يصير تلاوتها جهرا على الخلق وبعد التلاوة فقد صارت من شرف نسبنا من يدرك
 وكانت النسبة منى الى سيدى محمد ابو دلق امانة عنده لا يسلم لاحد
 اسم لشيء لازم يحضر بصورة من للنسبة الامية وتفضل بطرفه امة وايضا
 من أمراء القوم فقد وكلنا لكم المانجلك اسماعيل ابن أخينا قنديل وطالبين
 حضوره عندنا لاستواء المجلس بعد الاتمام لاجل حضور الرسايل
 منكم اليها الامراء بالاستماع للمانجلك بعدم الخلاف واوصينا المانجلك اسماعيل
 لحظيرت مسجد الفقيه محمد ابو دلق كل عن بيته عموميا لجميع ما يسهل قدر الطاقة
 وعن كل سنة تعطوا الزكاة له وعقدنا نيتنا عليه واتباع خلف ذريتنا لذرية خلف
 الولي الصالح محمد أبو دلق ابن الفقيه نفعنا الله ببركته في الدارين آمين .

(ختم السلطان)

المكاتبة من السلطان

محمد بادى عجيب

ملحق رقم ٨

أحمد ممتاز باشا

مدير عموم قبلى السودان

قد يتساءل المرء عن سبب اختيار هذه الشخصية من بين الشخصيات التي تولت حكمداية السودان في الفترة من ١٨٢٠م الى ١٨٨٥م وبينهم من اثبت جدارته وكفاءته وحسن ادارته . أما أحمد ممتاز باشا فقد اكتسفته ظروف غامضة حاولت أن تطمس معالم نشاطه وجهوده لرفاهية السودان وتقدمه الاقتصادي على أسس سليمة . وتبين لنا التقارير والمسكاتبات التي ننشرها في نهاية هذا الملحق مدى اهتمامه بالزراعة بخاصة القطن وعمله على رفع مستوى المعيشة وتحسين البلدان باعادة تخطيطها وتوفير مياه الشرب وادخال تعديلات على الضرائب بما يتمشى مع حالة الاهالى . كل ذلك قد خلق له أعداء وحاسدين وجدوا فيه منافسا قويا سوف يضعف من مركزهم وحظوتهم لدى الخديو المتعطش للبال وحتى لا تضيق عليهم فرص مطامعهم التي أغرقت البلاد في الديون التي ذهبت ضحيتها مصر والسودان فصر احتلها الاجنبي والسودان ترك في ايدي الاجانب من الموظفين الذين عمدوا الى هدم كل أثر للإصلاح الذي قامت به الادارة المصرية ، لكي تعود به الى حالة بدائية حتى يصبح أرضا بلا صاحب فتسهل سيطرة المستعمر بطريق أو آخر . ولذلك لجأ منافسوه الى دس الوشايات في صورة شكاوى أرسلت تباعا الى الخديو كما سنتعرض له فيما يلي .

* * *

عين ممتاز افندى محافظاً لمصوع بعد أن كان في ضبطية مصر واسندت اليه الرتبة الثانية (١) وقد تلقى علومه في المانيا وتخصص في الهندسة العسكرية وذلك بعد تخرجه من مدرسة المفروزة (٢) التي انشاها عباس الاول في مارس سنة ١٨٤٨ م .

(١) انظر مكتوبة رقم ١ صفحة ٦٦ دفتر ٥٣٧ (تركى) عابدين المعية وتاريخه ١٦ يونيه سنة ١٨٦٥م (١٤ محرم سنة ١٢٨٤ هـ) نقلا عن كتاب الحسك المصري في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٢٥١ .

(٢) انظر سرهنك في كتابه « حقائق الأخبار في دول البحار » ج ٢ ص ٢٧٤ .

وقد عين ياورا للسلطان عبد العزيز خلال زيارته لمصر في مارس سنة ١٨٦٣ م وشغل منصب محافظ البحر الأحمر وعمل على ادخال تحسينات في سواكن كما اقام خزاناً عند الشاطىء (٣) لحفظ مياه الامطار لتوفير مياه الشرب للميناء . كما وضع مشروعات لزراعة القطن في دلتا القاش وخور بركة عند طوكر وانشا قنوات للرى في دنقله مازالت آثارها باقية الى اليوم وطلب من الخديو انشاء خط حديدى يربط بين البحر الأحمر وبربر بدلا من شندى وقد كافاه الخديو برتبة الباشوية وبتعيينه محافظاً لشرق السودان وشمل اختصاصه موانىء سواكن وقطاع مصوع وساحل الصومال ومديرية الناكه وامتد نشاطه الى تعمير حوض خور القاش وحوض نهر العظيرة باستغلال الاراضى الصالحة لزراعة القطن التى جعل زراعتها اجبارية عندما تولى منصب مدير عموم قبلى السودان في ١٨٧١ م لموسم زراعى واحد وكان غرضه من ذلك التكيلف أن يتعرف على الطاقة الانتاجية للقدان الواحد بالنسبة للمزارعين وقد أقامت الحكومة محلجا للقطن في كسلا بلغت تكاليفه نحو الثلاثين الف جنيه وذلك استجابة لطلب أحمد ممتاز باشا . الذى يرجع اهتمامه بالتوسع الزراعى للغلال وزراعة القطن بالذات الى رغبته فى بناء مجتمع جديد يقوم على ممارسة الزراعة وبعض الصناعات فتستقر الحياه ويرتفع المستوى المعيشى وبذلك تزداد طاقتهم على دفع الاموال الاميرية فى يسر وسهولة واقترح ممتاز باشا فى تقريره أن تحصل الجبايات عينية من المحصول كما اقترح أن يحلج قطن الأهالى فى كسلا ويرسل لسواكن حيث يباع بالسعر الجارى فى تلك الميناء . وكان السعر اثنى عشر ريالاً ونصف الريال للقنطار ويحمل الجمل بالتين (وزن الباله قنطارين) وكان من رأيه أن ينقل القطن الذى يجمعه الحكومة على صالات للقاهرة فى أيام الفيضان حيث أن سعره فى القاهرة أعلى من سعر سواكن وهنالك عامل آخر لا يقل أهمية عن العامل السابق ذكره عن اهتمام ممتاز بالتوسع الزراعى وبخاصة القطن — الا وهو العجز فى انتاج القطن العالمى الذى تسبب عن الحروب الأمريكية وكان طبيعياً أن يحاول ممتاز باشا استغلال هذه الفرصة لتنمية الموارد المالية وقد بذل الخديو كل معونة لممتاز لتنفيذ مشروعاته لانه كان يأمل أن يدخل عليه القطن أموالاً تساعد فى مشكلاته المالية .

(٣) تقع الشاطىء بجوار سواكن مباشرة .

(٤) عبارته عن مجموعة من الأشجار تضم الى بعضها وتستخدم لحمل القطن أو غيره بأقل التكاليف وفى نفس الوقت فان الأشجار تباع بعد وصولها غايتها لاستعمالها فى المباني وغير ذلك .

وقد دخل ممتاز بسبب نشاطه في مشاكل دفعت إليها الغيرة والحسد في قلوب رجال اسماعيل المقربين وعلى رأسهم اسماعيل صديق المفتش . فمدير التاكة يعرقل جهود ممتاز ويعطل توزيع بذرة تقاوى القطن وأرسل هذا المدير شكوى للخديو . واشتبك مع جعفر باشا مظهر حاكم السودان حينذاك ورفع الأمر إلى الخديو الذى استدعى جعفر باشا مظهر بعد أن قام شاهين باشا كنج بالتفتيش على أعمال ممتاز في شرق السودان ورفع تقريراً للخديو مثنياً على جهوده وحسن إدارته وكان ذلك حوالى ١٨٧٠/١٨٧١ م .

* * *

عين ممتاز باشا مديراً لعموم قبلى السودان لما عهد فيه من كفاءة وجدارة وخبرة بشئون السودان الاقتصادية والإدارية . ودخلت في اختصاصه مديريات الخرطوم وسنار والنيل الأبيض وفازوغلى^(٥) . وفي المدة القصيرة التي قضاه في مركزه هذا وجه اهتمامه نحو فحص موارد الميزانية ومصرفاتها . وعمل على معادلتها أو على الأقل تخفيف ما تدفعه الخزانة العامة لتغطية عجز ميزانية مديريات السودان لذلك أوقف الاحسانات التي كانت تدفع للعلماء . كما أدخل تعديلات على الضرائب التي رفعها سلفه جعفر باشا مظهر بما يقرب من الخمسين في المائة لغير ماسبب أكثر من أنه أراد أن يعرف ما ستكون عليه حالة دافع الضرائب وعند ذلك ينظر في تعديلها . كما رفع ممتاز عن أهالى النيل الأبيض وغيرهم المبالغ الإضافية التي فرضها جعفر باشا لسداد قيمة نصف استحقاق ومرتبات سوارى وعسكر المعينين للمحافظة على الأمن . وقد جعل ممتاز جباية الضرائب تقوم على أساس مقدرة الفرد المالية . فكان على الأغنياء أن يدفعوا أموالاً أكثر مما كانوا يدفعونه في الماضى الذى كان فيه المواطن العادى يتحمل أكثر العبء . ومن هذا يتبين لنا مدى ما كانت عليه السياسة المالية من تخطيط بسبب الارتجال وفقدان الكفايات والخبراء . فأثارت هذه التعديلات التي أجراها ممتاز باشا الطبقة الغنية صاحبة النفوذ ومن هنا بدأت الدسائس تدبر للخلاص من ممتاز باشا وقد تزعم هذه الحركة معنى بك الشامى^(٦) وكيل مديرية الخرطوم صنيعة اسماعيل باشا صديق المفتش الذى كان عدواً لدوداً لممتاز باشا بسبب خشيته من ازدياد نفوذ ممتاز لنشاطه وقدرته على معالجة مشاكل السودان المالية والإدارية لذلك كان

(٥) أمضى ممتاز في منصبه كمدير عموم قبلى السودان حوالى عشرة أشهر .

(٦) أنظر سرهنك في كتابه حقائق الأخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٧٤

اسماعيل باشا صديق اليد الخفية التي تلعب لاعداد الشكاوى وإرسالها للخديو عن تصرفات ممتاز باشا التي صورت بأنها تزوير في السجلات وادعى البعض كما تناقلته الروايات « أنه تقبل الرشاوى » ولم يكن من العسير في زمن ساد فيه الانحلال أن يذهب ممتاز ضحية مافسيه من رجال السلطة في مصر الذين كان يهمهم اختفاء أمثال ممتاز وإقصائهم عن مراكزهم والقضاء عليهم لينخلو لهم الطريق للوصول إلى تحقيق مطامعهم الذاتية .

وكان من نتيجة هذه الشكاوى التي صاحبها الرسل يحملون الهدايا ومنهم معنى بك الشامي . أن تعطلت المشروعات التي بدأها ممتاز لمعارضة المديرين لتنفيذها لأسباب غير معروفة . كما ألقى القبض على ممتاز عند وصوله إلى القاهرة ووضع في السجن في القلعة بالقاهرة حيث أمضى حوالى الشهر حتى ظهرت براءته وأطلق سراحه . وقد كافأ الخديو باهدائه عزبتين مساحة كل منها ٢٥٠ فدان إحداها في دار البقر في المحلة الكبرى والثانية في كفر الدوار . وقد حزت في نفسه حالة القبض عليه وإيداعه السجن بسبب الوشايات وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة بعد جهود المضنية التي بذلها لرعاية السودان وتقديمه الاقتصادي . وعاد إلى الخرطوم بمفرده بعد أن ترك عائلته في القاهرة . ولا شك أن طول مدة السفر قد ضاعف من هواجسه حتى وصل إلى الخرطوم في حالة نفسية غير طبيعية وبينما كان متأهبا لاستقبال المهنيين في إحدى المناسبات المعتادة وجد أنه قد خرج مبكراً عن الموعد المحدد فاستلقى على أريكة ليستريح قليلا وطلب من خادمه الخاص أن ينبهه عند اقتراب الموعد ولما ذهب إليه وجد أنه قد فارق الحياة وله من العمر ما يزيد قليلا عن الخمسة والأربعين عاما . وهذا ما ذكره خادمه الخاص نقلا عن حفيده الأستاذ ابراهيم رياض الحامى . وقد أيد هذه الرواية أكثر من شخص من المعمرين . وطويت بوفاته صفحة شخصية قدمت للبلاد أجل الخدمات في الوقت الذي وصل فيه الانحلال إلى مرحلة خطيرة وأراد الخديو اسماعيل أن يرسل ابنه الوحيد محمود في بعثة إلى الخارج مع البرنس حسن غير أن والدته قد رفضت أن يفارقها وحيدها الذي استمر في صرف معاشه عن والده ممتاز باشا حتى وفاته في سبتمبر سنة ١٩٤٢ (ولد حوالى ١٨٦٧ م) وله من العمر خمسة وسبعين عاما ويرجع استمرار المعاش طوال هذه المدة لعاهة في إحدى العينين وقد أنجب ممتاز ابنتين تزوجت واحدة المرحوم محمد بك فهمى الغمراوى والثانية من المرحوم محمد بك توفيق وبعد وفاة ممتاز تزوجت أرملة من الاميرالاي

محمد بك رستم - وتزوجت ابنة خال أرملته من محمود باشا خليل والد السيد
محمد محمود خليل .

وهكذا يتبين لنا أثر الشائعات التي استطاعت أن تقلب الحقائق وتزورها وقد
جاء فيها أن ممتاز قد حبس في الخرطوم لأكثر من خمسة أعوام في انتظار هيئة
المحاكمة برئاسة خالد باشا .

وقالوا ان أملاكه قد صودرت . وأنه مات مسموماً . وكل هذا لانصيب له من
الصحة . فأبن ممتاز تقاضى معاشه حتى وفاته في سنة ١٩٤٢ والاطيان التي أعطاهها له
الخديو بقيت حتى زواج ابنتيه . وخالد باشا ذهب الى السودان في ١٨٧٤/١٨٧٥ م
وشغل منصب وكيل الحكمدار اسماعيل باشا أيوب . وقد اعفى خالد باشا من أعماله ونقل
الى مصر بسبب عدم رضا اسماعيل باشا أيوب عن أعماله . وجاء في خطاب آدم باشا
العريفي مأمور ادارة عموم قبلي السودان الذي استلم أعمال المديرية بعد وفاة ممتاز باشا
ما يفيد بأن وفاته قد حدثت في أواخر عام ١٨٧٢ م (١٦) .

(١٦) أنظر وثيقة ٣٤ حيث جاء فيها تحصيل الأموال والبقايا (يقصد
المتأخرات) من عهد حضوره لغاية قيامه وقد حاولنا أن نراجع هذه الكلمة الأخيرة فلم نعثر
على الأصل ويرجع ان قيامه ، قد كتبت بدلا من « وفاته » .

- ١ ٦ دفتر ١٩٣٤ أوامر عربي . صورة الامر رقم ٨ ص ١٤ بتاريخ ٢٣
صفر سنة ١٢٨٧ هـ . بشأن نزع محافظات سواكن ومصوع والتاكة وباقي
سواحل البحر الاحمر لحد بربره . وجعلها محافظة مستقلة تحت اسم محافظة
سواحل البحر الاحمر ، وتعيين احمد ممتاز باشا محافظا عليها .
- ٢ ١٧ دفتر ١٨٤٩ وارد معه صورة رقم ١ ص ٨ و ٩ بتاريخ ٩ جمادى الثاني
سنة ١٢٨٧ . من مديرية التاكة إلى المعية السنية بشأن الاهتمام بزراعة
القطن في أراضي المديرية .
- ٣ دفتر ١٨٤٧ معيه عربي ، صورة المكاتبه العربية رقم ٨ ص ٥٢ بتاريخ
٢٩ رجب سنة ١٢٨٧ . من محافظة سواحل البحر الاحمر إلى المعية السنية
عن زراعة القطن واعتراضات مدير التاكة .
- ٤ دفتر ١٨٤٧ معية عربي ، صورة المكاتبه العربية نمرة ٧ ص ٥٢ في ٢٩
رجب سنة ١٢٨٧ هـ من محافظة سواحل البحر الاحمر إلى المعية السنية عن
زراعة القطن .
- ٥ دفتر ٣٩١٠ معية صادر سواحل البحر الاحمر . صورة المكاتبه العربية نمرة
٨ ص ١٧٨ في ٢٩ رجب ١٢٨٧ . إلى المعية السنية عن زراعة القطن .
- ٦ ٢٦ دفتر ٣٩١٠ صادر سواحل البحر الاحمر . صورة المكاتبه العربية نمرة
٧ ص ١٦٩ في ١٦٩ في ٢٩ رجب ١٢٨٧ . من محافظة سواحل البحر
الاحمر إلى المعية السنية . تقرير عن امكانيات التوسع في زراعة القطن في
حوض القاش . وتنفيذ اعتراضات مدير التاكة .
- ٧ دفتر نمرة ١٩٣٥ (أوامر كرام) صورة أمر كريم صادر إلى محافظة
سواكن نمرة ٤٤ ص ٥٩ في ٢٣ شعبان سنة ١٢٨٧ هـ - شكر المحافظ لما
بذله من مسعى للتوسع في زراعة القطن لما يترتب عليه من التقدم والرفاهية
للسكان المحليين .
- ٨ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربي . صورة أمر رقم ٣ ص ٣٦ في ١٦ شوال سنة ١٢٨٧
إلى محافظة سواحل البحر الاحمر . بشأن الموافقة على رفع عبد الرازق بك
مدير التاكة ووكيله وتعيين الامير الای الماس بك مديراً والبكباشي

فرج افندى وكيله للتاكة وارسال ثلاثة آلاف أردب بذرة قطن لتوزيعها
على الأهالى .

٩ دفتر ١٨٤٩ واردة معية عربى ، صورة المكاتبه العربيه نمرة ٣ ص ٨ بتاريخ
٢٥ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . من مديرية التاكة الى المعية السنية - شكوى
مدير التاكة بسبب ما يلاقيه من محافظ سواحل البحر الاحمر .

١٠ ٣٣ دفتر ٣٩١٢ جزء رابع صادر ، سواحل البحر الاحمر ، صورة المكاتبه
العربيه رقم ١٦ ص ٤٨ بتاريخ ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٧ هـ من محافظة
سواحل البحر الاحمر الى المعية السنية - عن زيارة المحافظ لسواحل
البحر الاحمر .

١١ ٤ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى نمرة ٥ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨
أمر كريم الى محافظ سواحل البحر الاحمر . أمر كريم بشأن إقليم
« سمر » التابع الى مصوع .

١٢ ٥ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى رقم ١١ نمرة ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨
أمر كريم الى محافظة سواحل البحر - بشأن طابية حريققو .

١٣ ٦ دفتر ١٩٣٥ أمر عربى رقم ٦ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر
الى محافظة سواحل البحر الاحمر ، بشأن الموافقة على تشكيل مجلس
مخصص للنظر فى القضايا والدعاوى ، وان أعضاء من نظار الاقسام
بمديرية التاكة .

١٤ ٧ دفتر ١٩٣٥ ، أوامر عربى رقم ١٢ ص ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة
١٢٨٨ هـ ، من المعية الى محافظة سواحل البحر الاحمر . بشأن الموافقة على
تخفيض المربوط على أهالى دهلك الى النصف .

١٥ ١٢ دفتر ١٨٤٨ معية مكاتبه عربيه رقم ٩ ص ٢١ بتاريخ ١٨ ربيع أول
من محافظة مصوع للمعية السنية .

١٦ ١٥ دفتر ١٩٣٦ أوامر عربى جزء ثان رقم ٤٢ ص ٢١ بتاريخ ٢٤ ربيع
الثانى سنة ١٢٨٨ هـ الى محافظة مصوع . بشأن الموافقة على إنشاء سد على

خور بلك الجهة ، لحفظ المياه للزراعة ، وتعيين المهندس الفرنسى بولان لهذا العمل .

١٧ ١٦ دفتر ١٩٥٣ . أوامر صورة أمر كريم صادر رقم ١٤ ص ١٥١ بتاريخ ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٨ هـ إلى محافظة سواحل البحر الأحمر - بشأن تشكيل مجالس محلية فى التاكه ، وسواكن ، ومصوع ، للنظر فى شكاوى الأهالى المدنية والجنائية والتجارية والفصل فيها .

١٨ ٤٠ دفتر رقم ١ (بدون نمرة معية) ترجمة الوثيقة التركية نمرة ٢ ص ٤ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٨٨ هـ - إرادة سنية الى رئيس المجلس المخصوص - بشأن إلغاء حكمدارية السودان وتعيين ممتاز مديراً عاماً لمديريات الخرطوم وسنار وفازوغلى والبحر الأبيض . وتعيين علاء الدين بك مـ مدير التاكه ، على المناطق الشرقية من السودان والممتدة أراضيها الى حدود الحبشة وسواكن وجعلت هـ هذه المنطقة إدارة مستقلة ، وتعيين حسين خليفة مديراً على مديرتى دنقلة وبربر ، كما أوضحت الوثيقة توزيع القوات العسكرية فى مختلف المديريات .

١٩ دفتر ١٨٥٩ معية عربى . صورة المكاتبه رقم ١ مرور ص ٢٥ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٨٨ هـ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية . بشأن مقابلة ممتاز فى أسبوط للمهندس المكلف بكشف الطريق إلى شندى لإنشاء سكة حديد ويذكر بعض المقترحات .

٢٠ دفتر ١٨٥٩ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٣ ص ٢٥ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية . بشأن تعيين أورطة لاشغال قطع الأخشاب .

٢١ دفتر ١٨٥٢ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٥١ ص ٤٢ بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ من المعية ، بختم المهردار ، لارسال مائتى أردب تقاوى نيلة مع الآلات المهمات الأخرى .

٢٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٢٣ ص ٤٣ بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ من المعية الى نظارة المالية لارسال تقاوى قطن

- من صنف الاشمونى ، كذا عشرة ارادب من بذرة سيلان ،
- ٢٣ دفتر ١٨٥٩ معية عربى رقم ٩ ص ٤٢ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨
من مديرية عموم قبلى السودان ، الى المعية السنية ، بشأن زراعة القصب
واستخراج العسل الاسود للاستهلاك المحلى .
- ٢٤ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ١٠ ص ٤٣ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨
من مديرية عموم قبلى السودان ، الى المعية السنية ، بشأن الاهتمام بالتوسع
الزراعى ، القطن ، النخيل ، والفواكه والخضروات ، واقترح المدير تحويل
ماكينات بعض البواخر للنيلية لحلج وكبس القطن .
- ٢٥ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة المكاتبه رقم ١٨ ص ٥٠ بتاريخ ١٣ شوال
سنة ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية — يؤكد فيه
ضرورة الماكينات اللازمة لحلج القطن ، ويطلب ارسال تلامذة من مدرسة
الخرطوم ، أو من غيرهم ، الى القاهرة لتعليمهم بمدارس العمليات
الميكانيكية والزراعة ، وبعد تمام تعليمهم يرسلوا الى السودان ،
للعمل فى المناطق اللازمة .
- ٢٦ دفتر ١٨٥٩ معية عربى صورة المكاتبه العربية رقم ٢٤ ص ٥٣٧ بتاريخ
٢٩ شوال ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية ،
يقترح انشاء مديرية جديدة مركزها القضايف وتضم مناطق القضايف
وراشد ودوكة وكنجاره وما يجاورهم من الاهالى والبلدان التابعة لمديرية
سنار وفازوغلى — كما يطلب تشجيع زراعة القطن والنيلة .
- ٢٧ دفتر ١٨٥٩ معية عربى ، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٨ ص ٥٦ بتاريخ
٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية ،
يذكر فيه أن الاموال المتأخرة فى مديرتى سنار والخرطوم لغاية ١٢٨٨
تبلغ ١٤ بارة و ٢١١ قرش و ٩٦٧١٦ كيسه ، ويرجع أسباب التأخير
إلى اهمال التوسع الزراعى .
- ٢٨ دفتر ١٨٥٣ معية عربى رقم ٤ ص ٢٥ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ

من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلى السودان ، بشأن ارسال عمال لمراقبة زراعة النيل .

٢٩ دفتر ١٨٥٣ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٦ ص ٢٥ بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلى السودان ، بخصوص أطيان جفلك الدائرة السنية .

٣٠ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ١١٨ ص ١٤٩ بتاريخ ٧ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ هـ من المعية السنية إلى المالية ، وهو عبارة عن :

اخطار عن تعيين اسماعيل أيوب باشا مديراً إلى عموم قبلى السودان بدلا من ممتاز باشا .

٣١ دفتر ١ بدون نمرة أمر نمرة ٤٤ ص ٣٤ بتاريخ ٣ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ هـ من المعية إلى اسماعيل أيوب باشا ، تبليغه أمر تعيينه مديراً للسودان القبلى .

٣٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربى رقم ٥٧ ص ١٥١ بتاريخ ٣ جمادى آخر سنة ١٢٨٩ هـ من المعية السنية إلى المجلس الخصوص ، أخطاراً بتعيين اسماعيل أيوب باشا مديراً على عموم قبلى السودان ، بدلا من ممتاز باشا الذى صار انفصالة من هذه المأمورية .

٣٣ دفتر ١٨٦٤ معية رقم ٣٩ ص ٤ بتاريخ ٢١ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ من آدم باشا مأمور إدارة مديرية عموم قبلى السودان - يذكر فيه أن ممتاز باشا قد أدخل تعديلات فى التنظيمات والمقررات وأنه لم يتم بتحصيل الأموال من عهد حضوره لغاية قيامه (وفاته - التى حصلت بالخرطوم) .

٣٤ دفتر ١٨٦٤ رقم ٤٠ ص ١٤ بتاريخ ٣٤ جمادى آخر سنة ١٢٨٩ هـ من سعادة آدم باشا مدير عموم قبلى السودان (مأمور ادارة مديرية عموم قبلى السودان وقائم بأعمال المدير المتوفى) إلى المعية السنية يذكر فيه أن الأموال المتأخرة لغاية حضور ممتاز باشا كالاتى :

بارة	قرش	كيس	
١٧	١٢	١٨٠٥٤	متأخرات الاموال
١٩	٢٧٩	١٥٣٦٧	الاموال المربوطة غن سنة ١٢٨٨
٣٦	٢٩١	٣٣٤٢١	
٢٥	١٨٠	٣٩٨٨	الاموال التي تحصلت في فترة ادارة ممتاز باشا
١١	١١١	٢٩٤٣٣	

المبالغ التي أمر ممتاز باشا بخصمها

بارة	قرش	كيس	
٣٠	٨٣	١٠٧٤	نصف استحقاق الجنود التي كانت مفروضة على قبائل النيل الأبيض .
٢٥	٤١	٥٣٧	خصم من زمام القسم .
٠٠	٠٠	٢٠٠	الغرامة التي حكم بها على أهالي النيل الأبيض .
٢٠	١٨١	٤٥٩	خصم من زمام عربان رفاعه الهوى لعدم مقدرتهم على الدفع .

٣٥	٣٠٦	٢٢٧٠	جملة الخصومات
١٦	٣٠٤	٢٧١٦٢	المبالغ المتأخرة

ملحوظة : الوثيقة عن ٢٧ توضح أن الاموال المتأخرة عن مديرتي سنار والخرطوم لغاية سنة ١٢٨٨ هـ هي ١٤ بارة و ١١١ قرش و ٩٦٧١٦ كيس ، وبما لاشك فيه أن المسألة الضريبية في حاجة إلى دراسة تفصيلية للكشف عن أوجه الضعف ، فيها وان لا تترك إلى القول أن المسألة مجرد اهمال شخص معين ، فهي في الواقع أبعد عمقا عن مثل هذه الأقوال .

F. A. Brockhaus Esq.

34. De Vries Gardens

Jan. 27. 1890

My dear Friend

A number of Germans and
Christians write to me in the course of a week
but unfortunately they write to me in their own
language - I wish I - to my shame be it said -
do not know a word. When I am married
to a certain fair lady - I shall be better able
to appreciate their sentiments for she is almost
as great a linguist as I am, until then I
must content with dropping German expressions

order to stimulate a healthy rapé ^{there} ~~in~~ Africa.
Both nations should agree upon ~~the~~ ^{the} ~~process~~ ^{the} of attrition ~~each~~ ^{each} upon each
would produce what I as a lover ~~of~~ ^{of} ~~the~~ ^{the} ~~world~~ ^{world} ~~dearly~~ ^{dearly} love to see. England promises ~~the~~ ^{the} ~~care~~ ^{care} in the East for the Congo State ~~because~~ ^{because} she
has no share in it & cannot have ~~and~~ ^{and} ~~is~~ ^{is} driven out of East Africa she will not care for
it. and the Germans will then leave it to the
keen interest in it which their friends among people
the world otherwise have in the Kingdom of
a rich powerful & enterprising Power. Yours faithfully

الملحق التاسع — خطاب هنري ستانلي الى بروكهاوس

الملحق التاسع

خطاب هنرى ستانلى الى بروكلهوس

« ٣٤ حقائق دى فيبي »

صديق العزيز

يكتب إلى فى كل أسبوع عدد من الالمان والنساويين فى لغتهم ، التى لا أعرف منها مع الأسف كلمة واحدة ، وربما أكون فى موقف أحسن أقدر فيه ما تحمله إلى هذه الرسائل من عواطف ، وذلك عند ما يتم زواجى بسيدة معينة تعرف عدداً من اللغات منها الألمانية ، وحتى يحين ذلك الوقت فإنى قانع بإهمال هذا العدد من الرسائل ، ولا أعلم ما تحمله إليه من تمنيات أو لغعات .

(ويستطرد فى حديثه عن المشا كل الخاصة بأمين باشا مدير خط الاستواء ، وعن المنافسة بين البريطانيين والالمان فى شرق أفريقيا) .

ثم يقول فى الصفحة السادسة من خطابه ما يأتى : —

« إذا كان المستعمرون من الالمان يعتقدون انهم سوف يجدون مالا كثيراً عندما يطرودون الانجليز من شرق أفريقيا ، فانهم يقعون فى خطأ عظيم .

ان التنافس بين الانجليز والالمان يجعل قيمة لشرق أفريقيا ، وان خروج البريطانيين من هذه المنطقة فى صورة مزرية سوف يحدث انعكاساته على المصالح الألمانية فى القارة الأوروبية واذا حدث وخرج الالمان من شرق أفريقيا فى مثل هذه الظروف فإن المصالح البريطانية سوف تنعدم .

وانى أود أن تصل الدولتان إلى اتفاق مناسب تتوفر معه لكل من الدولتين الامكانيات لاستغلال المناطق التى تسيطر عليها كل منهما وتجنئ ثمار جهودها . وأرجوا أن تفكر قليلا فى هذا الموضوع فإنك سوف تجد نفسك قد وصلت إلى نفس النتيجة التى وصلت إليها .

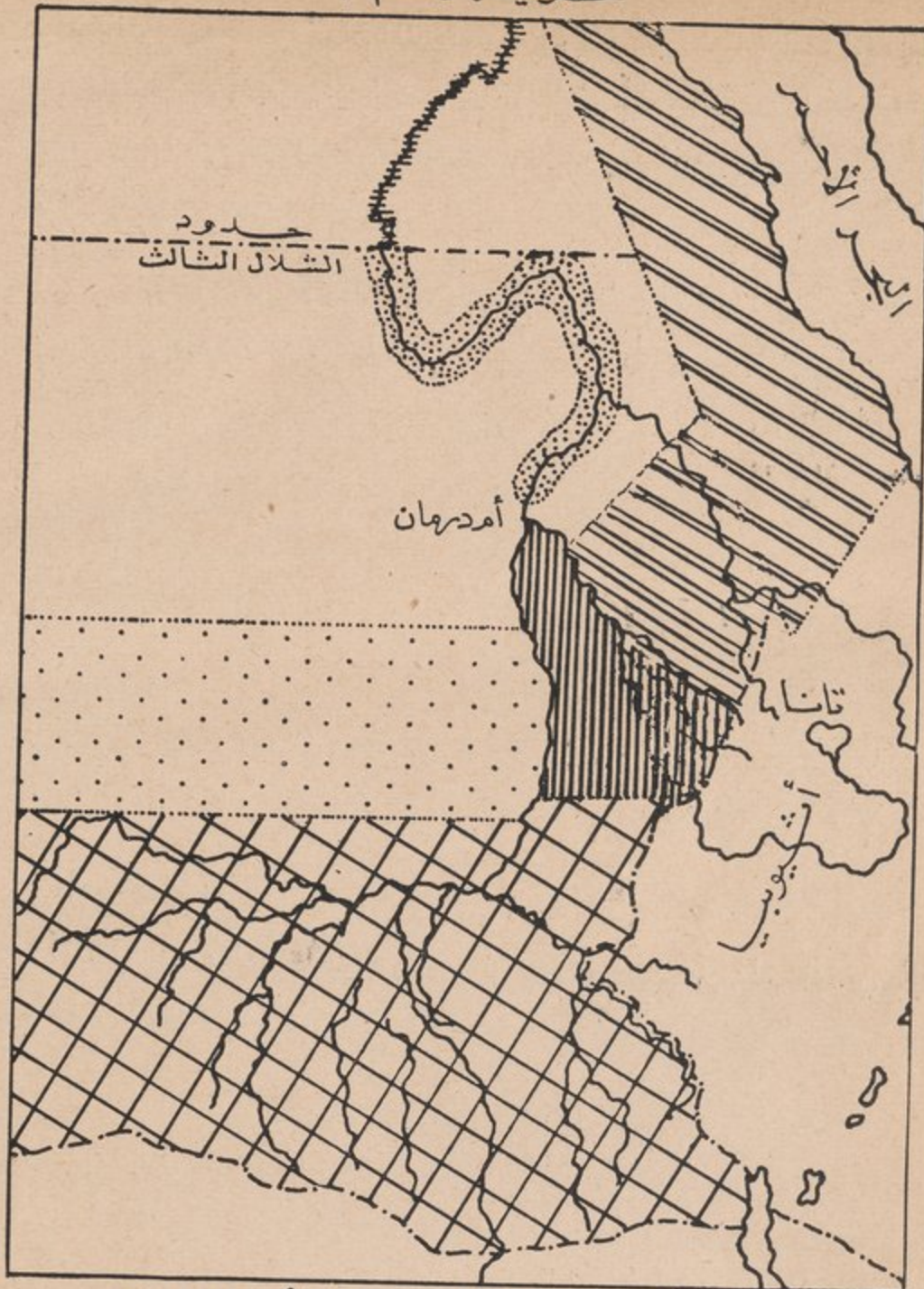
أن جميع القارة الافريقية لا تساوى شيئاً في نظر بريطانيا اذا قورن ذلك بما
سيكلفه النزاع مع ألمانيا ، وان القارة الأوروبية لا تساوى شيئاً بالنسبة إلى ألمانيا
اذا انقطعت العلاقات بين الدولتين فالخير كل الخير أن تتفق الدولتان على تخطيط
الحدود بينهما ، وليكن بينهما التنافس في البناء والتقدم الامر الذي أتمنى أن أراه
في أفريقيا التي هي موضع اهتمامي .

..... وان حماس الألمان سوف يموت إذا خرج الانجليز من شرق أفريقيا
لأنهم سوف يفقدون جارة غنية وقوية .
المخلص
هنرى م . ستانلى

ملحوظة — :

المرسل إليه هذا الخطاب هو ف . ا . بروكلهوس صحفى ألماني من عائلة
بروكلهوس الشهيرة .

خريطة رقم ٢



المناطق المختلفة كما يعرفها أهل البلاد

دارصباح
أرض الكنوز
السافل



عظمور
الصعيد
الجنوب
دارغرب



LIBRARY

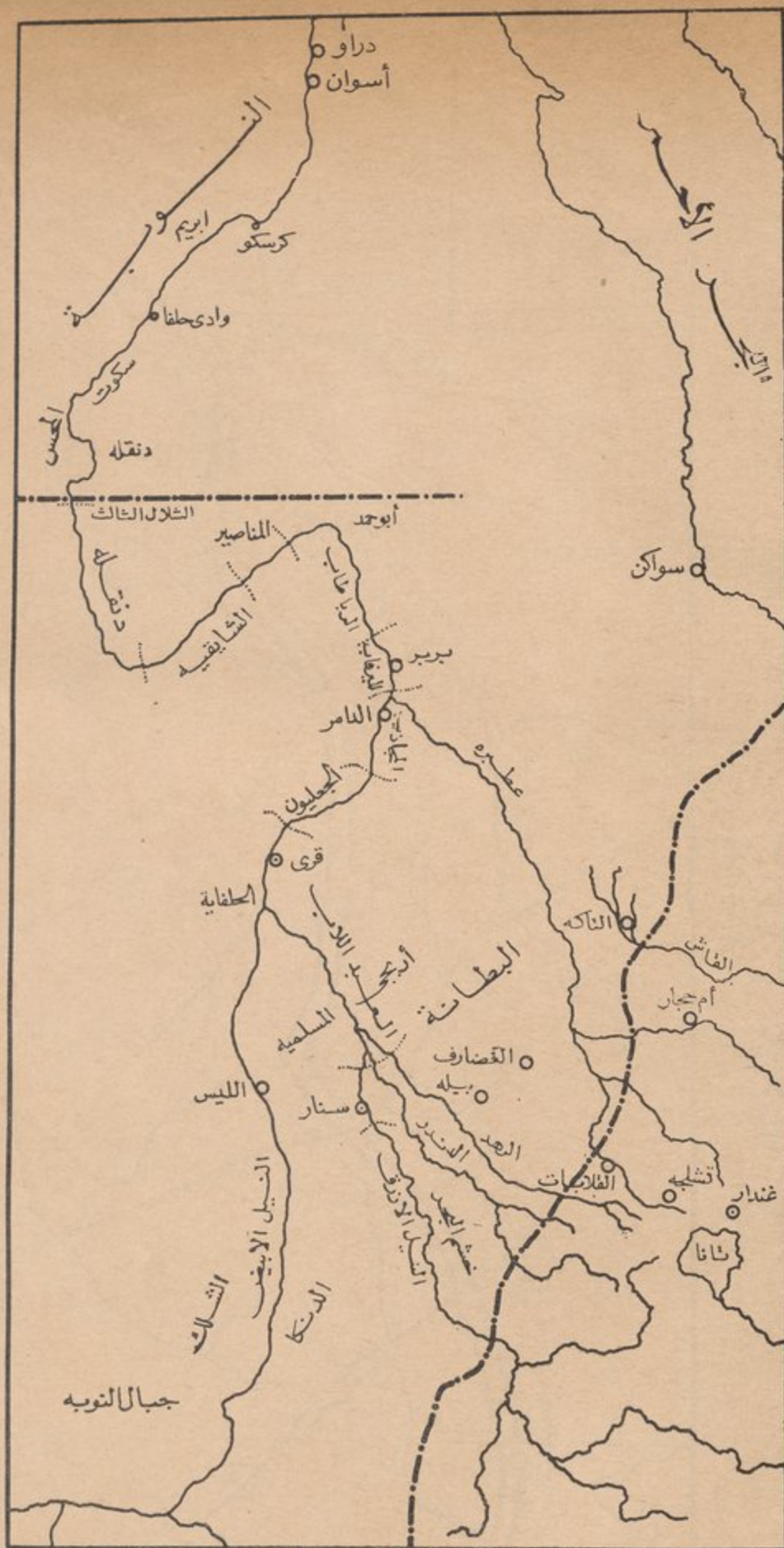
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

LIBRARY



خريطة رقم ٣
السلطنات الإسلامية في أتوبيا في القرن الثالث عشر الميلادي

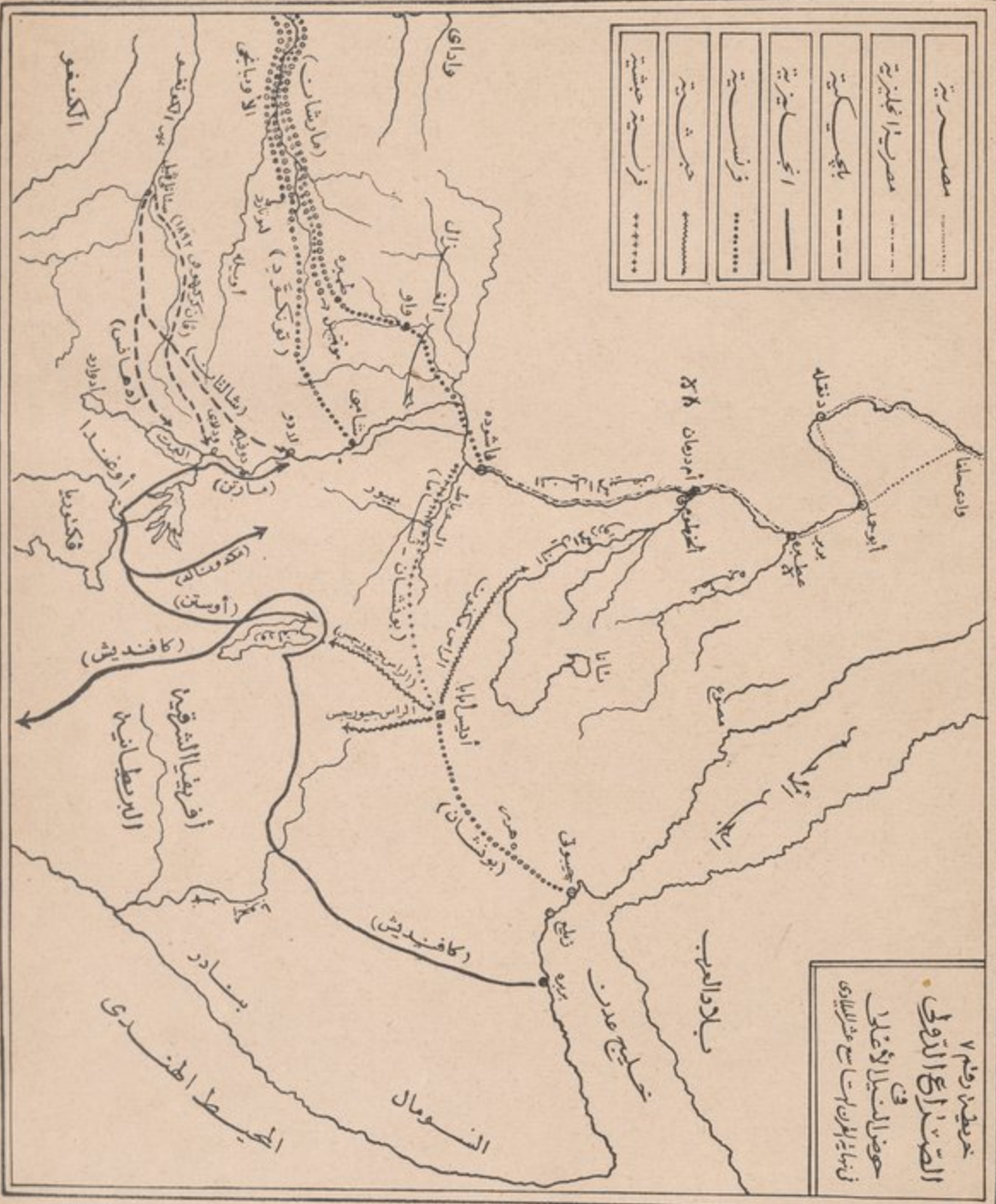




الديار القبلية التي تكون منها الحلف السناري

خريطة رقم ٧
 الشرق الأوسط الأولى
 في
 حوض النيل الأعلى
 في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي

مصرية	
مصرية انجليزية	
انجليزية	
فرنسية	
جيشية	
فرنسية جيشية	



Library
American University in Cairo
Cairo, Egypt

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

مصادر البحث

W. Lee. 1882

LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

مصادر البحث

١ - مخطوطات - لم تنشر بعد

دار الكتب المصرية القاهرة :

أ (تاريخ مدينة سنار لكاتب مجهول . تحت رقم ١٨ م - كاتب المخطوطة كما هو مذكور في المتن هو أحمد ابن الحاج أبو علي - المشهور بكاتب الشونة - وقد كان موظفاً في الديوان العام في الخرطوم .

ب) تاريخ ملوك الفونج والسودان وأقاليمه . تحت رقم ٢٥٤٧ مصورة عن النسخة المحفوظة في المكتبة الاهلية ببافيس .

- مخطوطة تاريخ قلاوون .

المكتبة الاهلية - فيينا - النمسا :

ج) تاريخ السلطنة السنارية - وهي القسم الاول من مخطوطة تاريخ مدينة سنار ، وقد نقلها أحد الفقهاء في الخرطوم كطلب المبشر اجناز كنوبلخر الذي أودعت باسمه في المكتبة الاهلية في فيينا . وتشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهايتها - وفيها بعض زيادات سقطت من النسخة الموجودة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

المتحف البريطاني - اندره :

د) تاريخ ملوك الفونج - وتنتهي بالفترة التي سبقت حكم دارية غوردون - وقد أودعها غوردون في هذه المكتبة .

هـ) نسخة أخرى من (ج) أرسلها غوردون للدائرة السنوية وهي باسم تاريخ مختص بأراضي النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفونج .

ونائس نقلها المؤلف من السودان :

انساب الركابية

انساب أولاد جابر

• مخطوطة الشيخ أبو دلق

- كتاب مفيد الايمان في بيان من سكن من قريش في أرض السودان .
 - تاريخ أربجي .
 - خطابات من سلاطين سنار .
 - خطاب الوزير الشيخ محمد ابن الوزير الشيخ عدلان .
-
- منشورة ضمن ملاحق الكتاب .

٢ — مخطوطات منشورة

تاريخ ملوك السودان - وقد نشره الدكتور مكي شييكة تحت رقم ١ تاريخ من مطبوعات كلية الخرطوم الجامعية .

٣ — مطبوعات عربية

- ابراهيم صديق — الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء القاهرة ١٩٣٠ م .
- ابراهيم فوزي — السودان بين يدى غوردون وكتشنر القاهرة سنة ١٣١٩ هـ جزءان .
- اسماعيل سرهنك باشا — حقائق الاخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٣١٢ هـ
- ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة . دار الكتب المصرية .
- ابن حوقل — كتاب صورة الارض . طبع لندن سنة ١٩٣٩ أنظر كرامر
- الشاطر بصيلي عبدالجليل — على اطلال مدينة سنار . القاهرة ١٩٣٥ .
- د د د د — تاريخ المواصلات في السودان وادى النيل . جزء اول القاهرة ١٩٥٠ .
- سليمان داود منديل — كتاب الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان - الخرطوم ١٩٣٠
- شهاب الدين ابن الشيخ احمد بن عبد القادر . المعروف بعرب فقيه أنظر باسيه Basset, R.
- شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . أنظر ميرن .
- ضيف الله — أنظر ابراهيم صديق وسليمان داود .

عبد الرحمن زكى يوميات عباس بك . المجلة التاريخية المصرية اكتوبر ١٩٥١
دكتور عبد العزيز عبد المجيد — التربية في السودان في القرن التاسع عشر .
جزءان - القاهرة .

عرب فقيه — أنظر شهاب الدين بن احمد بن عبد القادر .
عمر محمد على أتموبيا - القاهرة ١٩٥٤
العمري ابن فضل الله — كتاب مسالك الابصار في ممالك الأمصار - ترجمة
فرنسية طبع باريس ١٩٢٧ .

أنظر Gaudefrory Demmlynes

الطبرى — أنظر مقال استانلى لين بول
فيليب جلاد — قاموس الادارة والقضاء . الاسكندرية سنة ١٨٩١ م .
دكتور محمد فؤاد شكرى — الحكم المصرى في السودان القاهرة
المقرىزى — المواعظ والاعتبار نشره فيديت

المعهد الفرنسى للآثار الشرقية .

— الامام بأخبار من أرض الحبشة عن ملوك الاسلام
مطبوعة التأليف القاهرة سنة ١٨٩٥ م
— غرائب الزمان في فتح السودان .

مطبوعة الاسلام بالقاهرة سنة ١٨٩٦ م .

محمود طلعت — السودان المصرى والانجليز - طبع جريدة الاهرام
محمود الفباني مجموعة مقالات نشرت أصلا في جريدة الاهرام

فعوم شقير - تاريخ السودان القديم والحديث . القاهرة . مطبعة المعارف ١٩٠٤

اليقوبى - تاريخ نشره هوتسما طبع ليدن سنة ١٨٨٥ م

BOOKS OF REFERENCE

Abbreviated reference	A U T H O R A N D T I T L E
Etiofia I.	Teodosio Somigli De S. Detole, Fr., O.F.M., Biblioteca Bio-Bibliografia della Terra Santa del'Oriente Franciscana, Tome I, Quarachi presso Firenze, 1928.
Etiofia II.	Giovanni Maria Montano, Dr., O.F.M., Biblioteca Bio-Bibliografia Della Terre Santa Del'Oriente Franciscana, Tome II, Firenze, 1948.
Hill, I.	A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan up to 1937 Hill, R. L.,
Hill, II.	Hill, R.L., A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Oxford 1951
Ministere	Documents Diplomatiques Affaires d'Egypte, 1884-1893 (Ministere des Affaires Etranger) Paris 1893.
Parliamentary	Parliamentary papers relating to Egypt in Blue books since 1877 onwards.
Stewart	Stewart, C.E., Col., Report on the Egyptian Provinces of the Sudan, Blue Book, London 1883.

PUBLISHED SOURCES IN OTHER THAN ARABIC

Abbreviated
reference

A U T H O R A N D T I T L E

- أبو صالح Abu Salih, trans. by Evetts, Churches and Monasteries of Egypt, Oxford, 1895.
- ادلر Adler, Elkan, Jewish Travellers, Broadway, London, 1931.
- المكف Almkvists, Nubische Studien, Leipzig, 1911
- الفارز Alvarez, F., Ed. by Lord Stanley of Alderley, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia, Haklayt Society, London, 1881
- امير علي Ameer Ali, Spirit of Islam, London,
- اركل Arkell, A.J., An Outline History of the Sudan, Khartoum, 1945.
- (٢) اركل Arkell; A.J., A History of the Sudan up to 1821 A.D. London, 1955.
- اوليا See Evliya.
- بيكر Baker, Sir Samuel, The Nile Tributaries of Abyssinia London. 1867.
- (٢) بىكر Baker, Sir Samuel, Ismailia, London, 1874.
- باسيه Basset, R., Histoire de la conquête de l'Abyssinie, Chehab El Din Ahmed Ben Abd El Qader. Paris, 1897.
- بكارى Beccari, Rerum Aethiopicarum, Roma, 1904/17.
- بير Beer, G.L., Ed. Gray, B.H, African Questions at the Paris Peace Conference, New York, 1923.
- بىبر Biberfeld, E., Der Reiseb. des David Reubeni, Berlin, 1892.
- بلنت Blunt, W.S., Gordon at Khartoum, second edition, London, 1912.
- بصيلي Bosayley, C., The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile, Khartoum, 1945.
- برون Browne, W.G., Travels in Africa, Egypt and Syria, 1797-9, London, 1806.
- بروس Bruce, J., Travels to discover the sources of the Nile, Edinburgh, 1805.
- برون - روليت Brun-Rollet, N., Le Nil Blanc et le Soudan, Cairo, 1855.
- بكل Buckle, G.E., Letters of Queen Victoria, New York, 1926.

- بدج Budge, E.A.W., The Egyptian Sudan, London 1907
- بدج (۲) Budge, E.A.W., The Book of the Saints of the Ethiopian Church, London, 1928.
- بدج (۳) Budge, E.A.W., A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, London, 1928.
- بورخاردت Burchardt, J.L., Travels in Nubia, London, 1819
- بیرتون Burtun, R.F., First Footsteps in East Africa, London 1856.
- کابو Cailliaud, Fred., Voyage à Meroé au Fleuve Blanc, ou dela dela de Fazoqqi dans le midi da Royaume de Sennar, Paris, 1825.
- تشرشل Churchill, W., River War, London, 1949.
- کوبان Cobban, A., Ambassadors and Secret Missions, London, 1954.
- کونسلمان Conzelman, W.E., Chroniques de Galawdéus, Paris, 1895.
- کروفورد Crawford, O.G.S., The Fung Kingdom of Sennar, Glous., 1951.
- دیسى Dicey, E., England and Egypt, London, 1881.
- دیسى (۲) Dicey, E., The Story of the Khedivate, London, 1902.
- دوان Douin, G., Histoire du Soudan Egyptien, Cairo, 1944.
- دريو Driault, E., La Formation de l'Empire de Mohd Ali (1814-1823), Cairo, 1927.
- الـتن Elton, Lord, General Gordon, London, 1954.
- انجملش English, G.B., Narrative of the Expedition to Dongola and Sennaar under the Command of His Excellency Ismail Pasha, Boston, 1823.
- اوليا Evliya, Chelebi, Seyahatnemesi, Misr, Sudan Habesh, 1672-1680. Vol.X, Istanbul, 1938.
- ابن فضل Ibn Fadl Allah Al Omari, Masalik el Absar Fi Mamalik El Amsar, trans. by Gaudefroy Demombynes, Paris, 1927.
- فیـلد Field, Henry, The Anthropology of Iraq, Chicago, 1840.
- جودفرى See Ibn Fadl Allah el Omari.
- جسى Gessi, R., Seven Years in the Sudan, London, 1892.

- جیبون Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, London,...
- جلیخن Gleechen, Count, With the Mission to Menelik, London, 1898.
- جرايتز Graetz, H., Gesch. der Judan. Leipzig;
- جریفت Griffith, F. LL., Studies presented to London, 1932
- جوان Gwyn, S., and Tuckwell, G.M., The Life of the Right Honourable Sir Charles Dilke, London 1918.
- جراى See Beer.
- هیک Hake, H.E., The Journal of Major-General C. G. Gordon, C.B., at Khartoum London, 1885.
- هرتسلت Hertslet, Sir Edward, see Map of Africa Bytreat 3rd Edition, 1909.
- هنبری See Waddington.
- ابن حوقل See Kramers.
- هومل Hommel, F., Ethnologie, Geog. des alten Orients, Munchen, 1926.
- هوسکن Hoskins, G.A., Travels in Ethiopia above the second Cataract of the Nile, London, 1835.
- ابن جبیر Ibn Jubayr, Travels ed. Goeje, M.J.de, Gibb Memorial Volum V.
- ارون Erwin, Eyles, A series of Adventures in the course of a voyage up the Red Sea on the coasts of Arabia and of a Route through the Deserts of Thebais in the year M.DCC.LXXVII. London, 1780.
- جکسن Jackson, H.C., Tooth of Fire, London 1912.
- جزای Jackson, JAMES GREY, an account of the Empire of Morocco, donda, 1811.
- کامیرر Kammerer, A., Essai sur l'histoire Antique d'Abyssinie Paris. 1926.
- (۲) کامیرر Kammerer, A., Le Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, Cairo, 1929
- کرمب Krump, T., Hoher und Fruchtbner translated in the Fung Kingdom of Sennar, by Grawford.
- لاجرافنس Lagercrantz, Stüre, Contribution to the Ethnography of Africa, Upsala, 1950.
- لانقر Langer, W.L., European Alliances and Alignments, 2nd edition, New York, 1950.

- (٢) لانقر Langer, W.L., Diplomacy of Imperialism, 2nd Ed.
New York, 1950.
- لبسيوس Lepsius, R., Discoveries in Egypt, Ethiopia and the
Peninsula of Sinai in the years 1842-5, London, 1853
- لو Low, Sydney, Egypt in Transition, New York 1914.
- لوكاس Lucas, Sir Charles, The Story of the Empire Vol.II,
London. 1924.
- لودلفس Ludolphus, J., A New History of Ethiopia, London,
1684.
- مكميكل MacMichael, H.A., A History of the Arabs in the
Sudan, Cambridge, 1922.
- ماجنوس Magnus, Ph., Gladstone, a biography, London, 1954
- ميك Meek; C.K., Tribal Studies in Northern Nigeria,
London. 1931.
- (٢) ميك Meek, C.K. Sudanese Kingdom, London. ...
- ميرن Mehren, A.F., Manuel de la Cosmographie du Moyan
Age, traduit de l'Arabe de Shams Ed Din Abu Abou
Abdallah Mohd de Damas, 1874.
- مري Murray, G.W., A An English-Nubian Comparative
Dictionary Harvard African Studies Vol. IV. Oxford
University Press, 1923.
- (٢) مري Murray; G.W., Sons of Ishmael; London.
- مفضل Moufazzal Ibn Abil Fazail, Histoire des Sultans
Mamloukes, Texte Arabe publié et traduit en Fran-
çais par Blochet, E., Patr. Or. T. XII.
- نكلس Nicholls, W., The Shayikiya, Dublin, 1913.
- اوروالدز Ohrwalder, J., Ten Years Captivity in the Mahdi's
Camp, English edition by Wingate.
- العمرى See Ibn Fadl Allah and Gaudefroy-Demmombynes.
- بادمور Padmore, G., Africa Britain's Third Empire, London,
1949.
- بالمر Palmer, Sir Richmond, The Bornu Sahara and the
Sudan, London, 1936
- بول Paul, A., The Beja Tribes, London, 1954
- برهام Perham; Margery, Native Administration in Nigeria,
London.
- بشريك Petherick, John, Egypt, the Soudan and Central
Africa, London, 1861.

- بونسيه Poncet, Jaques, The Red Sea and adjacent countries at the close of the Seventeenth Century, Hakluyt Society London, 1949.
- رنل Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1884-91 London, 1923.
- ری Rey, C.F., In the Country of the Blue Nile, London 1927.
- (۲) ری Rey, C.E., The Romance of the Portuguese in Abyssinia London, 1929.
- روز Rose, J.H., Life of Napoleon, London 1913.
- روسینی Rossini, C.C., Storia d'Etiopia, Milan, 1928.
- روبل Rüppel, E., Reisin in Nubein, Kordofan und dem feträischen Arabien, 1829.
- روسل Russell, Henry, The Ruin of the Soudan, London, 1892.
- سولت Salt, H., H., A Voyage to Abyssinia, London 1814.
- سلیمان Seligman and Brenda, Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, 1932
- شبیکه Shebeika, M., The British Policy in the Sudan, 1882-1902, London, 1952.
- شکری Shukri, M.F., Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, Cairo, 1937.
- سلاطین Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan, English edition by Wingate, London, 1896.
- ستانلی Stanley, Lord, see Alvarez.
- ستراشی Strachey, Lord Lytton, Eminent Victorians, London 1949 (Penguin Series Book No. 649)
- تریو Tremaux, P., Rapport sur le voyage au Soudan oriental Paris, 1853.
- (۲) تریو Tremaux, P., Voyage en Ethiopia au Soudan Oriental Paris 1862.
- ترمینگهام Trimmingham, J.S., Islam in the Sudan, London, 1949.
- (۲) ترمینگهام Trimmingham, J.S., Islam in Ethiopia, London, 1952.

- فيلارد Villard, Moneret de, Storia della Nubie Cristiana,
Roma, 1938.
- وادنجتون Waddington and Hunbury, B., Journal of a visit
to some parts of Ethiopia, London 1822.
- وسترمان Westermann, D., The Shilluk People, Philadelphia,
1912.
- (٢) وسترمان Westermann, D., African Today and Tomorrow,
London.
- ونجت Wingate, R., Mahdism and the Egyptian Sudan,
London 1891.
- (٢) ونجت Wingate, R., Ten Years Captivity in the Mahdi's
Camp by Chrwalder, ed in English. London 1892.
- (٣) ونجت Wingate, R., Fire and Sword in the Sudan, 1879-
1895, ed in English. London 1896.
- ولف Woolf, L., Empire and Commerce in Africa,
London, 1922.
- ورثام Wortham ; H. E., Gordon an intimate Portrait,
London, 1933.
- وايش Wyche, Sir Peter, A Short relation of the river
Nile, London, 1669.

Encyclopædia of Islam, Vol.I; Fasc.I. Leiden 1954

Periodicals :

- عباس بك Abbas Bey, Diary of, found with a Dervish who was
killed in the battle of Omdurman in 1898.
S.N. & R. Vol. XXXII. p. 179-196. See Zaki
- اركل Arkell, A.J., King Badi wad No1, granting land,
S.N. & R. Vol. XV. p; 248-50.
- (٢) اركل Arkell, A.J., Fung Origins,
S.N. & R. Vol. XV. p 201--250
- (٣) اركل Arkell, A.J., More about Fung Origins,
S.N. & R. Vol. XXVII, p 87-97.
- (٤) اركل Arkell, A.J., Fung, correspondence,
S.N. & R. Vol. XXXIII, p 181-182.
- بلوس Bloss, J.F.E., The Story of Suakin,
S.N. & R. Vol. XIX; p 272-300 (286-287)

Periodicals (contd.)

- Cerulli, Enrico,
شیرولی
Document arabi per la storia dell'Etiopia,
R.Accademia Nazionale dei Lincei,
classe de Scienze morali, momorie,
Vol; II. serie,p 39—101.
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى
Note on the History of the Fung,
S.N. & R. Vol. XIII, 247—250
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى
Archaeology in the Souther Sudan,
S.N. & R., Vol. XIII,p 288—91.
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى
Fung Origins,
S.N. & R. Vol.XVII.p III—117.
- Crawford, O.G S ,
کروفورد
Tagia umm Qerein,
S.N. & R., Vol. XVI. pp333—334
- Crawford, O.G.S.,
کروفورد
Lul; « « « « 335—6
- Crowfoot, J.W.,
کروفوت
Some Red Sea Ports in the Anglo Egypt-
ian Sudan,
Geographical Journal, May 1911.
- Crowfoot, J.W.,
کروفوت
Christian Nubia,
Journal of Egyptian Archaeology, Vol.
XIII. p 141—50.
- Cumming, D.C.,
کمنج
The History of Kassala and the Province
of Taka,
S.N. & R., Vol.XX.,p 1—45 (4.9)
- Disney, A.W.M.,
دیزنی
The Coronation of the Fung King of
Fazoghli,
S.N. & R., Vol. XXVI.,p 37—42.
- Elles, R.J.,
الس
The Kingdom of Tegali,
S.N. & R. Vol XVIII, p 1—35
(10—12)
- Eyans-Pritchard, E.E.,
ایفاناس برتشارد
Ethnological Observations in Dar Fung.
S.N. & R. Vol., XV., 1—61 (57)
- Gray, Sir John,
جرای
East Africa and America,
Tanganyika Notes & Records, 1946
- Griffith, F.L.L.,
جریفث
Christian Documents from Nubia,
Proceedings of the British Academy,
Vol.XIV. pp 117 ff, 1928.
- Guidi,
جویدی
Giom. della Societa Asiatica Italiana
Tomes III

Periodicals (contd.)

- Hebbert, H.E.,
هبرت
El Rih, a Red Sea Island,
S.N. & R., Vol. XVIII, 308
- Henderson, K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XVIII, p 149—154.
- Henderson, K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XXXII, p 174—175
- Henderson; K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XXXIV, p 315—316.
- Hillelson, S.,
هالسون
David Reubini, an early visitor to Sennar,
S.N. & R., Vol. XVI, p 55—66
- Holt, P.M.
هولت
Mahdiya,
S.N. & R. Vol; XXXIII, p 182—186.
- Jackson, H.C.,
جکسن
The Nuer of the Upper Nile Province.
S.N. & R. Vol. VI., p 69—70
- Kirwan, L.P.,
کروان
Note on the Topography of the Christian
Kingdom, Journal of Egyptian
Archaeology, Vol; XXI, p 59-62.
- Lane-Poole, Stauley,
لین بول
The First Mohammedan Treaties with
Christians, Royal Inst. Academy Proceed-
ings Vol. XXIV Part 5 — 1904.
- Madigan, C.T.,
مادجان
A description of some towers in the Red
Sea North of Port Sudan,
S.N. & R., Vol , V. p 78—82.
- Mathew, J.G.,
مائیو
Land Customs and tenure in the Singa
District,
S.N. & R., Vol. IV p 1—19.
- Nadler, L.F.,
نادلر
Tales from the Fung Province,
S.N. & R. Vol. XIV, p 61—86.
- Nadler, L.F.,
نادلر
Fung Origins,
S. N. & R., Vol. XIV. p 61—66.
- Neubauer, A.,
نیوباوور
Anecdota Oxoniensia,
Semitic Series, Vol. I parts 4—6
1895

Periodicals (contd.)

- | | |
|---|---|
| Owen, T.R.H.,
اون | The Hadendowa,
S.N. & R. Vol. XX. pp 183-200 (185) |
| Paul, A.,
بول | Ancient Tombs in Kassala Province,
S.N. & R., Vol. XXXIII, p 54-59. |
| Penn, A.E.D.,
پن | Traditional Stories of the Abdullah Tribe,
S.N. & R., Vol. XVII, p 59-82. |
| Pumphrey, M.E.C.,
پمفری | Shilluk "Royal Language Convention"
S.N. & R. Vol. XX. p 319. |
| Pumphrey, M.E.C.,
پمفری | The Shilluk Tribe,
S.N. & R. Vol XXIV, pp 1-45(12) |
| Robertson, J. W.,
روبرٹسن | Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XVII, p 260-265. |
| Robinson, A.E.,
روبنسن | The Mamlukes in the Sudan,
S.N. & R. Vol. V. p 88-94. |
| Robinson, A.E.,
روبنسن | Abu El Kaylik, the King-maker of the
Fung of Sennar,
American Anthropologist, Vol. XXXI. |
| Robinson, A.E.,
روبنسن | The Conquest of the Sudan by the Wali
of Egypt,
Journal of African Society,
October and January 1926. |
| Robinson, A.E.,
روبنسن | The Fung Drum or Nehas,
S.N. & R., Vol. IV. p 211-212. |
| Robinson, A.E.,
روبنسن | Nimr the last king of Shendi,
S.N. & R., Vol VIII, p 105-118. |
| Rossini, C.C.,
روسینی | Documents per l'Archaeologie iritrei nella
bassa Valle de Barca,
R. R. A. L., Vol. XII serie V.
Rome, 1903 pp 139-150. |
| Sandars, G.E.R,
and Owen, T.R.H.
ساندرز | Note on Ancient village note in Khor Nubt
and Khor Omek with note by Shinnie, P.L.,
S.N. & R. Vol. XXXII, p 326-332 |

Periodicals (contd.)

- ستیوارت ورتلی
Stuart-Worthley, Montague, E.J. { My Reminiscences of Egypt
Major-General, The Hon. { and the Sudan, S.N. & R.
Vol. XXXIV pages 17-46
and 172-188.
- طوسون
Tousson, Prince Omar, La Fin des Mamloukes,
Bullet. Inst. d'Egypte, Vol.15, pp 193 ff.
- وطن
Watson, C.M., Maor, Trad Prospects with the Sudan,
Journal of Manchester Geographical Society, Vol. 3
7/12, 1887.
- وطن
Watson, C. M., Lt. Col., Suakin Berber Route to
the Sudan, Journal of Manchester Geographical
Society, Vol.I., 1894.
- ونجت
Wingate, F. R., Beseige and Fall of Khartoum,
S.N. & E. Vol. XIII.
- ویلد
Wylde, A. D., The Red Sea Trade, Journal of
Manchester Geographical Society, Vol. 3,1887.
- زکی
Zaki, Dr. Abdel Rahman, Diary of Abbas Bey in
Egyptian Society for Historical Studies (Arabic).

مجموع الدراسات التاريخية السودانية

للمؤلف

بالعربية

البحث الأول : على اطلال مدينة سناء . القاهرة ١٩٣٥

» الثاني : الدويلات الاسلامية في سودان وادى النيل . الخرطوم ١٩٤٦

» الثالث : تاريخ المواصلات في سودان وادى النيل . القاهرة ١٩٥٠

» الرابع : تاريخ المواصلات في سودان وادى النيل جزء ثان (للتطبع)

» الخامس : السلطان رابع . ترجمة عن الألمانية للكتاب اوبنهايم ترجمه الى الانجليزية (دكتور سلتزك) عربيه وعلق عليه . (للتطبع)

» السادس : رحلة اوليا شلبي في السودان والحديثه بالاشتراك مع الاستاذ محمود نفص

» السابع : معالم تاريخ سودان وادى النيل

» الثامن : جغرافية السودان مترجمة عن التركية بالاشتراك مع الاستاذ محمود نفص

Note No.

1. The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile
Khartoum, 1945.
2. The Flight of Sudanese Tribes to a Lebensraum in the
Niger Valley.
For Press
3. The Origin of the Sennar Sultanate. For Press
4. Geographical Dictionary of the Valley of the Blue Nile.
For Press

The Mahdi's movement was a natural outcome of the local institutions under the prevailing conditions with Europeans holding key posts in the Sudan Administration and consequent British Occupation in Egypt, the latter event had paved the road for further developments, and rapid changes in the nature of the rise.

This Mahdi's move is discussed in relation with foreign influencing elements, which had over-ridden the divine proclamation of the Mahdi. The foreign activities and their surroundings were responsible in one way or the other for the bloodshed and anarchy that prevailed in the country for about twenty years.

The survey presented in the third book, as outlined above, ends with the discussion of the broad lines of events up to the years of the nineteenth century with particular reference to the imperialistic struggle with its theatres in Ethiopia, East Africa, Uganda, Kenya and Congo State and French West Africa.

With the ending of the survey as such, it is not claimed that the very detailed account of events from within were fully treated but treatment is made on the turning key points in relation to agents from without.

It is hoped that the numberless problems, that are still awaiting study, would interest research workers to proceed with for the advancement of knowledge and to throw light on events which will, no doubt, be of great help in building up a sound and long term policy deeply rooted on facts, whatever these may be, for the promotion in gradual and steady stages and to fit in with the Sudan's share of responsibility in World affairs in general and African problems in particular.

C.B.A.

Cairo, December 1954.

in the maritime and colonial interests that decided this attitude, which had taken the human colour, secreting behind it economic aspects, with the power placed behind the interventionary zeal. The suppression of slavery, as a politically effective force, had undergone successive modifications during the late eighteenth and the whole nineteenth and early twentieth centuries. It was begun with human characteristics in the early eighteenth century, changing to a force of political pressure and ending with its final shape in the economic field. The fundamental basis of slave labour has never been changed, and it worked in parallel lines with the progress of industrialization. It is, therefore, rather difficult while approaching this question, to isolate it, as an historical event, from the successive modifications and from the contemporary events of each decade, which influenced the attitude and nature of the slavery question. An epitome is given, on attached Arabic table, illustrates the developments and the role it played in the international politics and imperialistic expansion.

We are mainly concerned in this study, which is confined to the Nile Valley regions, so our interest in discussing slavery comes within this field with due reference to forces from outside. A survey of Britain's use of this influential weapon, which ended with the Slave Convention of 1877, is given in the text. Contrary to the provisions of this Convention, which was intended to regulate the abolishment of this trade, within a specified period, Gordon and his assistants, who were of inconsistent European origins, have taken drastic measures in fighting this trade with the wide powers conferred upon them, which included Summary Trials with capital punishment and confiscation of property. This attitude had resulted the destruction of the substantial economics and social advantages offered by the new Egyptian administration, which was extended to the Sudan, during the period from 1821 to 1871. The European Lieutenants appointed by Gordon, as being of his own calibre and social standing, were his subordinates, and they followed the policy initiated by him for combating this trade, as it were in its disgraceful, inhumane and painful character, as experienced in the West; Gordon in one way or the other, was wrong in his hypothesis to fight domestic slavery to end the hunting of slaves, ignoring the place of domestic slaves in the social structure of the country; its abolishment needed time for assimilation and reorganisation of labour problems. This attitude had resulted dissatisfaction and serious relapse of the developments achieved; this state of affairs, for which the policy adapted by Gordon is responsible, had given way to the accumulated forces of the ages to revive with ultimate outcome of the emergence of a Saviour who was found in the Mahdi. It is necessary to mention that the policy for combating slavery, was originally framed by the British Government.

authority had ceased to function in its own means; this state was an opportune for the remnants of the Memlukes, who were in the country some years before the extension of Egyptian Administration, to take advantage of this dissatisfaction by agitating and stirring up the factions. This had resulted in the catastrophic end of Ismail, son of Mohd. Ali, and his party at Shendi. This catastrophe is treated in the light of local traditions, tribal rituals, prevailing conditions and other factors with the conclusion that the intrigue was coined by the Memlukes and that Mek Nimr was the scape-goat and victim. The case of Ismail's death at Shendi with his party, was interpreted in different ways to serve purposes other than the truth.

The Administrative system was, however, reframed as a result of experience gained in the first thirty years, when Mohammed Said visited the country and promulgated his four decrees which laid the sound foundation of the new administration with the local chiefs and inhabitants having the full opportunity both in sharing and in handling their affairs. Unfortunately, these decrees were too late to function as planned, owing to the appearance in an effective weight of the imperialistic beliefs and desires which brought the Nile Valley within its orbit. The Great Imperialistic Powers have exercised their respective ways and means for supremacy in the Nile Valley. These powers stood aloof and appeared behind the screen pulling the wires for the requisite chance fit for interference. Britain, one of the great powers struggling with its opponent France, used its pressure on Egypt and on the Porte, for the abolishment of slavery, which was brought before the European and American public opinion in the very inhumane state known to those people, whereas, the treatment of slaves in the orient was in a quite different way than that experienced in the west. The humane treatment in the Moslem country is given in the Islamic teachings. Britain had also used other means to achieve its plans for supremacy, such as the financial crisis of Egypt, to interfere in the affairs of the country landing its troops to crush the Nationalist movement under the pretext of safeguarding the Khedivial throne and many other reasons to meet the problems brought out to end the occupation of Egypt. The state of affairs in Egypt has reflected on the Sudan which had already been, more or less, in an administration of terror for the suppression of slavery instantly.

It is place and duty to take a pause to review the question of slavery and its developments in the international field as an imperialistic and economic weapon. Britain, after having been the leading power that profitted from this trade and had maintained slavery in the vast colonies over seas, had adapted a reverse policy towards slavery and its trade. An explanation of this change is found, among other reasons,

Republic» principles which did not allow for advancement and developments in other phases of activities. No wonder, then, that the Sultanate had caused the country to be torn by the ideological and social conflicts with the decaying chieftainships and restless populace. This state of affairs was a direct result of the reliance on trade and trade only, which was restricted mainly to transit transactions, hence the country failed to produce items for exchange on a reasonable scale. This system received a fatal blow with the appearance in the Red Sea of the Portuguese and Turkish struggle for mastery of this trade route, also with the establishment of trade stations of the African coast by the European powers, who used these centres for the expansion into the interior of the Black Continent; there were also further causes emerging from within with the failure in building up a central authority and modifications of the land tenure and the machinery of oriental feudalism.

In the early years of the nineteenth century, new trends and traits have endangered the country, consequent upon the flight of the remnants of the Memlukes from Egypt in face of the new regime which had brought the Memlukes to an end. The coming of the Memlukes into the Sudan was a serious threat to the interests and welfare of both countries. So a combined effort was made to throw them out of the country and the Egyptian Administration was extended to the Sudan to restore normal conditions, on a progressive scale.

In Book Three, a survey is made of the new Egyptian Administration in which an equilibrium was vested to the Local Chiefs; this administration was the first experiment of its kind embarked upon by Modern Egypt. Actually it was in no way an expansion of exploitation as given by a number of writers. It was an organization to promote local conditions by putting an end to the tribal wars and anarchy, and to prevent foreign influence from gaining foot hold therein. It is admitted that there were mistakes which were normally expected in such an experiment. The new administration, when compared with any other European organisation in Africa, demonstrates great differences, the simplest of which is the local inhabitants of the country of the Sudan were not rejected under colour bar institutions of the Europeans, furthermore they were allowed full participation in the affairs of the country. This was because Egypt had no beliefs and desires in the sister land. The Administrative mistakes were due to the fact that they did not take into consideration, in the first stage, of the institutions and the structure of society and its interrelations, which were inherited with the accumulated forces of all ages and the country was at the time torn by feudal wars. This ignorance had caused dissatisfaction to leap out in the regions where the tribal jealousies found that the chief's

customs which allowed sons of the sisters of the ruler to ascend the throne, and that tradition had allowed the sons of local wives and daughters of the new-comers to seize power hence the Arabs were able to effect gradual modifications in the social organisation with the time going on; taking into consideration the fact that the Arabs were full of zeal for the new faith of Islam and their penetration was continuous for some length of time when the country was in a state of deterioration with social strains in morals and aberration. It was, therefore, possible for the new-comers to take over the chieftainships and throw the ancient dynasties off; it must not be forgotten that the modification caused by the Arabs did not go deep into the social structures of the local societies, but coated the old traditions for a while. The provinces of Dongola or Makura had disappeared in the early years of the fourteenth century, and Alwa followed the same fate two centuries later.

Turning to the study, under review, it discusses in the first book the developments of events and their consequences as a result of culture contacts and reflections on the social structure with conflicts with old traditions and inherited rituals, which were able to revive and retain their vitality and influence conditions. This is very interesting point showing the part played by local wives and the calibre of the character of the new-comers. These points, with others, are of great value with the Sudan now emerging into a wider horizon in the international field. This emergence is throwing more responsibilities on the country, because of the serious position, it occupies in the world strategy.

It is attempted in this study, which is not pretended to be a complete one, to present the broad lines of the turning key points in the history before the rise of the Sennar Sultanate, with a survey of affairs in Ethiopia and Egypt, which have contributed to the transplantation and restoration of a central federated power with its seat at Sennar, on the Blue Nile. A discussion of the arguments relating to the vexed question of the origin of Sennar Dynasty, brings the first book to an end with the conclusion that this Dynasty was originally functioning, in one way or the other, in the region of the south-west corner of Eritrea, through which the thorough-fare linking the Red Sea ports and up country was operating.

The Second book deals with the Sennar Sultanate in its new capital, after flight from the region of Lamul; its relations with the confederated sheikhdoms on the Nile Basin are also dealt with together with the causes that contributed to the Sultanate's progress and decline. The seeds of the decline were sown with the rise of Dynasty because of its organisation and functions which were confined within the «Commercial

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

had set on march northwards and north-westwards; this point is left for systematic archeological work in that part of the country.

The relations between Egypt and the Sudan, as illustrated by Churchill, in his work «The River war», as resembling a palm-tree, at the top the green and fertile area of the Delta region, spreads the greenful leaves and foliage-the stem with the root of the tree begin to stretch deeply in the Sudan, need be implemented by the fact that although the circuit begins with the flowing of the Nile waters which carries life and fertility to both the Sudan and Egypt, as illustrated in the palm-tree, it does not cease its activity with the discharge of its blessings; but it changes to another energy of inspiring influence which runs back in the form of a multi-pronged torch, diffusing culture and civilisation into the upper regions of the Nile Basin. It, therefore, resembles a magnetic field flowing in one direction with its waters and coming up with the torch of culture. It is no wonder that one finds that events in one country-the Sudan or Egypt-reflects on the other, as proved by historical evidences of various decades.

It is out of the province of the study, now presented, to enter into details of the past historical events of remote ages; and it was found necessary to limit the research to begin with the destruction of the Meroitic kingdom in the middle of the fourth century of our era, when the central power had fallen in decay and the inhabitants set on flight, as a result of the invasion, which was engineered by foreign elements not originating from Aksum, of King «Aezana». The Country of Meroe was deserted and left for the adventurers and new-comers. In this central zone of the Sudan which formed the provinces directly ruled by Meroe, rival chieftainships arose and entered into conflicts with other tribes. The other provinces lying on the southern and northern borders of the Meroitic Kingdom proper i.e. Alwa and Dongola respectively, have, more or less, been attending to their daily life and the inhabitants, who were agriculturists, were not affected by the differences which stormed the chiefs.

The State of internal wars continued in the central zone for almost ten centuries during which decade, Egypt was under the mastery of foreign powers. At the end of this epoch, the Arabs, who conquered Egypt in the seventh century, began, on the rise of the Memluke to power in Egypt, to pour into the country in mass immigrations; because the Memlukes were rivals to the Arab elements. The infiltration was carried in a peaceful and steady manner without serious violence; and through intermarriage of the new-comers with the local inhabitants, the power was transfered to the sons of the Arabs by virtue of the local

INTRODUCTION

The Sudan of the Nile Valley, a vast tract of country of about one million square miles, extends from (approximately) latitude 3° to latitude 22° North i.e. between the Equator and the Tropic of Cancer, through which the river Nile stretches for about 1400 miles; the country, therefore, runs from a lacustrine area to semi-arid regions and this setting exhibits a wide variety in climate and vegetation. These geographical features of the different zones have moulded the variant sizes of economic and social institutions of the relative habitats. The story of tribal struggle and immigrations lies secreted behind this physical setting.

One finds the primitive life in the far south and gradual stages of settled conditions, north thereof, in the open country on the banks of the Nile and its tributaries; and nomadic in the regions lying on both sides of the river and in the highlands of the Red Sea littoral and in Darfur. In the highlands, there are massifs ranging from about 4000 feet to 10000 feet (above sea level).

Taking into consideration, the anomalous place of the Sudan on the Nile Basin, which forms the main artery linking the Mediterranean and the Red Sea with the heart of Africa, the country holds a strategical position, which has given access to impulses from the bordering regions of Africa horn, lake plateau, the Sahara and Egypt; and the country, with such a situation, had rendered a transformation theatre of the impetus of varied stages of civilisations and cultures, the remnants of which are traced in the transition and cradle zones of the Blue Nile Basin and on the banks of the river Nile north of Khartoum, and in refuge pockets and isolated areas which are lying at the remote and inaccessible parts amongst which are the salient lines of Dar Fung and in Tegali Hills, Dar Fertit and Mahas regions; these pockets are worthy of an exhaustive field team research.

The history of the country, particularly the northern part, is tied mainly with that of Egypt since very remote decades of history, and the history of each of the two countries forms an indispensable part of the other for various reasons which include the favourable climatic conditions prevailing in both countries, the waterways of the river Nile, their serious position in the strategy of trade between the main sea routes and the fact that the earlier inhabitants who spread over the banks of the river were, more or less, from one origin interrelated with their economical interest. One theory says that the Blue Nile Basin was the kernel/cradle zone from which or in which the inhabitants of the Valley

ACKNOWLEDGMENTS

In recognition of the many obligations which were extended to me in various ways and means, I have to place on record my indebtedness to Professor Mohammed Shafik Ghorbal, Dr Mohamed Awad Mohamed, Dr. Selim Hassan, Dr. Sulliman Huzzayin, Dr. Mohammed Mitwali, Fathers Simons and Bombachi, A. J. Arkell Esq., Dr Mohammed Mahmoud Es Sayad, Sayed Salih Khalil, R.L. Hill Esq., Dr. Georgi Sobhy, Sayeds Abdul Fattah Hassan, Abdul Fattah Ibrahim, Ahmed Abdul Salam Kafafi, Dr Mohamed Ahmed Anis, Dr Abdul Magid Abdeen, Abdul Aziz Ismail, Ahmed Eisa and Badr El Deeb for patronage, Dr. Mohammed Foad Shukri for suggestions and criticism which were of great value, Dr. Hassan Osman for encouragement and promoting the work, Sheikh Yousif Ibrahim Baqoy, Sayeds Mohammed Kamil, Dr. Fred. Slezak, Mohammed Abdul Rahim, Sayed Medani Yehya, Hag El Sheikh Omar Daf'allah, Ahmed Mohammed Salih Ez Zahid, Mohammed Ahmed El Gabri, Marion Laburda, Abdul Ghani Sa'oudi, Salah Esh Shamy, Omar Mohd. Ali, Ahmed Mohammed Salama, Abdul Rahman El Faysal Chater, Yousif El Amin Eheimer, late Engineer Taha Salih, late Prof. C. C. Rossini, late Mohammed Salah Ed Din El Baghir and all those who have contributed in one way or the other towards the production of the research.

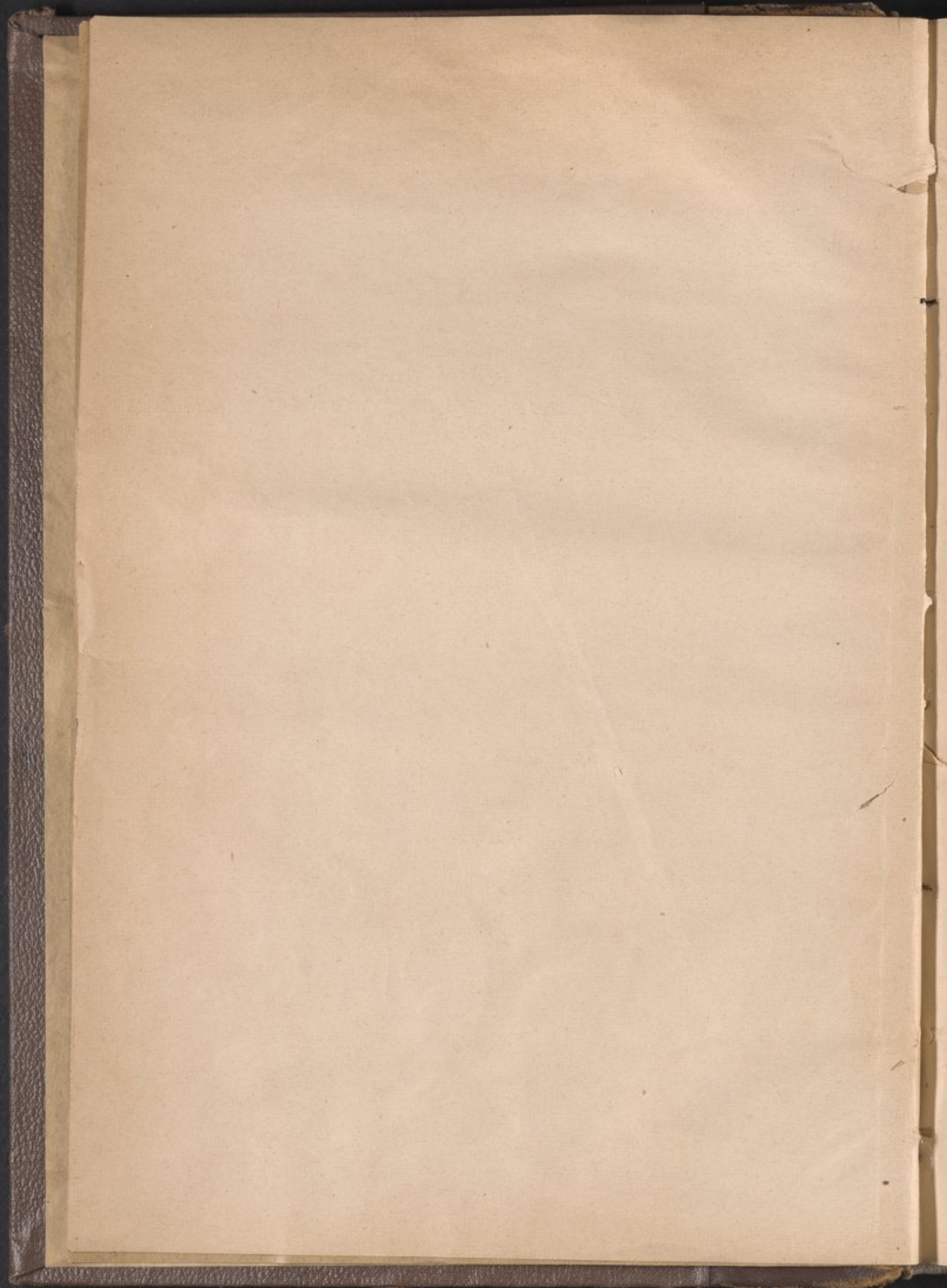
I also wish to thank Mr. Anis Abu Fadil, proprietor of Abu Fadil Press and his staff for their support in many ways.

It is admitted that there are mistakes in the print, for which my apology is submitted.

C.B.A.

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

LIBRARY OF THE AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO



SUDAN HISTORICAL STUDIES

AN OUTLINE HISTORY
OF
THE NILE VALLEY SUDAN

BY

Chater Bosayley A. Galil

LIBRARIAN, INSTITUTE OF SUDANESE STUDIES,
FACULTY OF ARTS, CAIRO UNIVERSITY
(Formerly of Sudan Civil Service, 1919/1951)

ABU FADIL PRESS
CAIRO 1955

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

i 14512439

B 1290692X

DT-10



1 0 0 0 0 0 0 7 0 0 3

JUN

1974

DT
108
A2
1955

NOV 1986

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

AUC - LIBRARY



DATE DUE

 A.U.C. 	

